التاريخ الإسلامي

دروس وعبر



آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

التاريخ الاسلامي

دروس وعبر

قراءة في تاريخ الحركة الاسلامية للفترة ما بين
عام (٦١ - ٢٥٠) من الهجرة النبوية

التاريخ الإسلامي
المرجع الديني آية الله العظمى السيّد محمّد تقي المدرسي
الناشر : دار المحبّين للطباعة والنشر
الطبعة (السابعة) الاولى للناشر : ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ـ ٥٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين وعلى أصحابه الصادقين وعلى من اتبعه باحسان الى يوم الدين.

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ هو مدرسه تتعلم فيها الأمم كيف تسلك طريقها المستقبلي بأفضل النتائج وأقل الخسران.

والأمة التي لا تقرأ تاريخها، ولا تأخذ الدروس والعبر منه، سواء السلبيه منها أوالايجابية، لا تستطيع أن تشق طريقها في الحياة بشكل سليم ودون عثرات قاتلة.

وتاريخ أمتنا، وبالذات في مجال العطاء الحركي، والجهاد من أجل التغيير نحو الأفضل تاريخ حافل بالتجارب، وغنيّ بالدروس والعبر، ونحن إذ نعيش اليوم - وفي كل موقع من ديارنا الاسلامية - تحديات حضارية صارخة، علينا أن نلقي نظرة إلى تاريخ أمتنا في مواجهة التحديات، وفي سعيها الدؤوب لبناء حياة إسلامية أفضل.

وهذا الكتاب القيّم الذي تقدمه "دار محبي الحسين (عليه السلام) " الذي هو عبارة عن محاضرات ألقاها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي حفظه الله على طلبة الحوزة العلمية في سنوات مضت، هذا الكتاب يلقي ضوءاً على تاريخ الحركة الاسلامية في الفترة ما بين (٦١ - ٢٥٠) للهجرة النبوية، ونحن إذ نقدمه للقارئ الكريم في طبعته السابعة وفي ارجاء العالم الإسلامي نرجو أن يكون نبراساً للسائرين على طريق التغيير، وأن يكون مشعلاً ينير درب الرساليين في خضم التحديات المصيرية الراهنة.

الناشر

شعبان ١٤٢٥ هـ

تشرين الاول ٢٠٠٤ م

مقدمة الطبعة الثانية

سنن الرب في الاخرين هي سننه في الاولين ؛ فالأرض هي الأرض ، والشمس والقمر والجبال .. هي ذاتها منذ نشأة آدم وحتى اليوم . ونحن البشر لم تتغير ، فهي هي غرائزنا وعقولنا ، وتطلعاتنا وحاجاتنا .. ربما اختلفت المناهج ، ولكن الأهداف لم تتغير . وهكذا كانت تجارب الامم السابقة هي ضياء دربنا السالك الى المستقبل .

ارأيت كيف تنفعك تجاربك من سنة لأخرى ، أليست تضيء دربك ، وتبصرك كيف تعمل في المستقبل ؟ فلو انك اعتمدت رجلا خائنا كاذباً في تجارتك او أي شأن من شؤونك ، فأوقعك في مهلكة ، أولست يزداد حذرك عن اعتماد أي شخص آخر حتى لا يهلكك مثله ؟

كذلك تجارب الاخرين ، تنفعنا في مستقبل حياتنا ؛ وامة تعي تجاربها هي امة حكيمة ، وأي انسان يستوعب دروس التاريخ يعرف كيف يتجاوز العقبات ، وكيف يسلك درب التسامي .

والكتاب الذي بين يديك يتحدث عن جانب هام من تاريخ امتنا ؛ جانب الصراع من أجل الحرية السياسية والدينية .

ان اكثر المؤرخين عبر تاريخنا لم يسجلوا ملاحم أبطال الحرية في تاريخنا ، خوفاً من الطغاة ، او خنوعاً للثقافة التبريرية التي سادت الطبقة المفكرة .

ومعرفة هذا الجانب من التاريخ تجعلنا أشد صلابة ، واقوم تفكيراً في صراعنا اليوم من أجل ذات الاهداف التي جاهد من أجلها آباؤنا الابطال .

ان اغلب الناس يعيشون الحالة السلبية من صراع العاملين والمجاهدين من اجل اهداف الامة ، بل وحتى يعيشون السلبية من قضاياهم الاستراتيجية .

ومن أسباب هذه السلبية جهلهم بتاريخهم وملاحم ابائهم ، وتشبعهم بالافكار التبريرية التي بثها الطغاة والجبناء من اتباعهم في روع الامة .

وهذا الكتاب مساهمة في سبيل تبصير الامة بتاريخها المشرق .

وكان الكتاب سلسلة أحاديث ألقيت بمناسبة شهر الله المبارك ، في احدى السنين الماضية ، ثم اعيدت صياغتها لتصلح للنشر ؛ ثم فيما بعد قام الاخ الاستاذ حيدر الرضوي بمطالعة جديدة للكتاب ، حيث قدمه للاخوة بصيغة أفضل ، غير ان اهتمامي بسائر الشؤون الفكرية منعني من مراجعة الكتاب . ولكن اعتقد ابداً ان الكتاب الكامل لن يطبع ، لانه اساساً لا كتاب بعد مصادر الوحي يمكن ان يصبح كاملا ؛ إنما على القارئ الكريم ان يستفيد من مواهبه في اتمام نواقص كل كتاب ، وان يقرء جيداً ويختار ما يريد مما يقرء ، ولا يكون همه أن يصدق بكل ما يقال او يكتب له ، وقد وصف الله عباده بالقول :

﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اؤلئك الذين هداهم الله ، واؤلئك هم اولوا الالباب ﴾

(صدق الله العلي العظيم)

محمد تقي المدرسي

٢٣ / محرم الحرام / ١٤١٨ هـ

الباب الأول

مدخل لدراسة التاريخ الرسالي

لماذا ندرس التاريخ ؟

ان فهم التاريخ ضرورة لفهم الشريعة ، لماذا ؟

اولاً : لاننا – نحن المسلمين – نرتبط بالتاريخ ونعتمد على الاحكام الشرعية التي نزلت ودونت قبل ألف وبضع مئات من السنين فلابد ان نبحث عن تلك الاحكام في بطون الكتب ، وعندما نفعل ذلك فاننا كثيراً ما نجد روايات مختلفة اختلافاً كبيراً في الاحكام ، ولذلك يتحتم ان نعرف بشكل دقيق الظروف التاريخية التي جاءت تلك الاحكام فيها .

ومن دون معرفة تلك الظروف المتغيرة ، لايمكننا ان نعرف كيف اختلفت الاحكام والتوجيهات التي صدرت عن ائمة اهل البيت بالرغم من انهم جميعهم كانوا على نهج واحد ، هو نهج جدهم محمد (صلى الله عليه وآله) .

ان النظرة السليمة للتاريخ تظهر لنا ان كل امام منهم كانت له طريقة خاصة في حياته ، فالامام الحسن (عليه السلام) كان مصالحاً، والامام الحسين كان ثائراً ، والامام زين العابدين اتخذ خط الدعاء ، والامام محمد الباقر (عليه السلام) صاحب علم وفقه ومعارف توحيدية ، وكذلك الامام الصادق (عليه السلام) ، والامام موسى بن جعفر (عليه السلام) صاحب ثورة ، وهكذا .. فهل هناك تناقض ؟

ان الدراســة الواعية للتاريخ ، وتتبع الحوادث التاريخية ودراسة ظروف حياة كل امام ، تظهر لنا ان ليس هناك من تناقض بين حياة واهداف امام وآخر ، وانما الاختلاف منشؤه اختلاف الظروف التاريخية التي كانوا فيها ، وهكذا تكون معرفة التاريخ ضرورية لمعرفة الاحكام الشرعية .

وهكذا فانني اعتقد بان الفقهاء وخصوصا المتأخرين منهم لو بحثوا تاريخ الائمة بحثاً دقيقاً ومن جميع النواحي السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ، وحتى من الناحية الديموغرافية ، لاستطاعوا معرفة اسباب بعض الاختلافات بين الاخبار ، ولاستطاعوا بالتالي ان يستفيدوا من سيرة الائمة (عليهم السلام) بشكل اكبر .

ان الطريقة التي ندرس بها علوم الاسلام ، وخصوصاً الفقه ، هي الطريقة التجزيئية التي تجزء العلم ، فنبحث التاريخ وحده ، والفقه وحده ، بينما الفقه والتاريخ كل لا يتجزأ .

وهذه الطريقة هي المسؤولة عن بقاء بعض النقاط غامضة في الفقه الاسلامي بل وفي السيرة . هذا اولاً .

التاريخ ينبوع الحضارة

ثانياً : ان من الضروري معرفة تجربة الحياة ولان عمر الانسان قصير عن معرفة كل ما في الحياة . فعمر الانسان قد يطول الى سبعين سنة ، واذا اراد ان يجرب كل شيء بنفسه ، فانه يحتاج الى القيام بملايين التجارب . فلولا ان الانسان يستفيد من التجارب السابقة ويستفيد من تاريخه لما كان قد وصل الى ما وصل اليه من التقدم العلمي ، فهو يبني حياته بما انتهى اليه الاولون ، وليس يبدؤها من الصفر .

مثلا من اهم مكاسب البشر عبر التاريخ هي لغته التي يتحدث بها ، فاللغة هي التي تحتوي الثقافة وتشكل الوعاء الذي يحملها ، والثقافة بدورها هي التي تحدد نوعية واتجاه الحضارة .. كما ان اللغة وتطورها هو بحد ذاته يبين نوعية تاريخ الامة ، فاللغة حضارة وتاريخ . فإذا كانت كلمة ماء مثلا تدل على هذا السائل ، وكلمة

رغيف تدل على هذا المأكول ، وكلمة فاكهة تدل على هذا النوع من الطعام ، فربما مرت عدة آلاف من السنين حتى استطاع الانسان ان يتوصل الى ذلك ، فلو ان كل انسان اراد ان يضع لنفسه علوماً وعادات وتقاليد ، لانعدم الفرق بينه وبين الاحياء الاخرى ، وهذه هي النقطة الثانية .

اذن علينا ان ندرس التاريخ حتى نستفيد من تجارب آبائنا في مختلف القضايا التي تواجهنا.

من اجل اللحاق بركب الحضارة

ثالثاً : اننا امة متخلفة وراء ركب الحضارة البشرية التي سبقتنا منذ قرون .

لماذا نحن هكذا ؟ ولماذا لا نكون نحن في بداية القافلة لا في نهايتها ؟ والى متى يجب ان نبقى هكذا ؟

هناك سبب رئيسي لتخلفنا وهو نظراتنا الى الحياة ، تلك النظرات السلبية والمتخلفة والجامدة ، وهذه الفكرة تدعونا الى سؤال آخر هو : كيف انحدرنا الى هذه الحالة ومن الذي املاها علينا ؟

والجواب .. اننا اكتسبنا هذه النظرات من خلال تراث ورثناه من الاجيال السابقة ، فكل جيل كان يورثنا فكرة وتقليداً وطريقة في الحياة.

فنحن لا نتصرف في حياتنا ولا نحدد مواقفنا فقط من وحي ارادتنا وتفكيرنا ، انما ايضاً من وحي عاداتنا وتقاليدنا.

فكيفية اكل الطعام مثلا باستخدام الانسان يده او باستخدام الملعقة والشوكة ، كل هذه العادات نتعلمها من آبائنا الذين يرتبطون بنا في سن الطفولة ، وكذلك كيفية النوم وشكل الملابس وكل هذه الامور وما اليها تبدو بسيطة نتعلمها من آبائنا .

امـا الامور المعقدة في كيفية التعامل الاجتماعي ، واين تبدأ حدود حريتنا واين تنتهي ، واين هي حقوق الناس وما هي بالضبط حقوقنا وسائر العلاقات الاجتماعية ، فتلك التي يجب ان نتعلمها من آبائنا وتاريخنا معاً .

اما اذا اراد الانسان ان ينسلخ من ماضيه فالانسلاخ ليس فقط صعباً، وانما هو مستحيل ، فالانبياء هم الوحيدون الذين يعطيهم الله وبطرق غيبية بعد ان يجربهم تجربة معينة ، قدرة على الانسلاخ والطهارة من مجتمعهم الفاسد لتكوين مجتمع جديد .

لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم عن الانبياء :

﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ (الجن/٢٧)

﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ (الاسراء/٧٤)

﴿ لَوْلاَ أَن رَءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (يوسف/٢٤)

فالقدرة على الطهارة عند الانبياء قد تكون قدرة غيبية ، لأن هناك حكمة معينة في سنن الله تقتضي ان يخلق الانبياء واقعاً جديداً .

اذن .. كيف يمكننا ان نتحضر ونلحق بركب الحضارة ؟

ان ذلك يمكن بتصفية الينبوع الذي يعطينا الافكار وهو التاريخ ، وكذلك بتغيير نظراتنا الى التاريخ لكي نستطيع بذلك ان نتخلص من التراث الثقيل الذي ورثناه من التاريخ .

وهناك امثلة مبسطة لطريقة تأثر الاجيال الحاضرة بالاجيال السابقة وخصوصاً جيلنا نحن بالنسبة للاجيال السابقة .

التاريخ بين السلطة والثورة

اننا نعرف انه كان في الامة الاسلامية خطان .. خط الرسالة أي خط الفئة الثورية الاصلاحية التي اعتمدت على السلاح حيناً وعلى العمل السري حيناً آخر في سبيل تغيير المجتمع..

اما الخط الثاني فهو خط الذين تماشوا مع الواقع الفاسد واستسلموا للقيادات المنحرفة على امتداد التاريخ . .

ولكل خط منهما منطق خاص به فالطبقة الحاكمة والذين يستسلمون لها والمنتفعون منها لهم منطق . بينما الطبقة المحكومة والثوار لهم منطقهم الخاص ايضاً ،

منطق الخط الرسالي هو منطق الثورة على الواقع الفاسد(١) بينما منطق الخط المضاد يدعو الى الاستسلام والقبول بالامر الواقع ، وهذا ممتد امتداد التاريخ.

ولكي يبرر اتباع الخط المضاد للرسالة تقاعسهم وانهزامهم من تغيير الواقع ، كان عليهم ان يلصقوا بالخط الاول ألوان التهم .

هذه التهم تتلخص في ان الرساليين سراقٌ وقتلة ومتمردون ويسبون الصحابة وانهم انحرفوا عن الدين وغير ذلك ، هذه المجموعة من التهم اختلقها الخط المضاد للرسالة والصقها بالخط الرسالي لسبب بسيط هو ان ذلك الخط كان حاكماً وكان للحكم والحاكم منطقه ، والخط الرسالي كان ثورة وكانت الثورة لها ضريبتها .

لقد انطلق اولئك الذين الصقوا بالثورة تلك التهم الرخيصة من واقع اجتماعي خاص بظروفهم . فمثلاً يزيد بن معاوية ولكي يثبت حكمه وسياسته اتهم الامام الحسين (عليه السلام) بالخروج والتمرد وشق عصا المسلمين وانه صاحب فتنة لذلك يجب ان يحارب .

اما اليوم فقد ذهب ذلك الواقع الذي تمخضت عنه تلك التهم الرخيصة ضد الامام الحسين (عليه السلام) فيزيد قد مات ، وآل مروان والذين جاؤوا من بعده

---

(١) يقول الدكتور فهمي جدعان - في كتابه اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث (ص ٢٤) - وهو يستعرض صورة عن خطين فكريين متقابلين ، خط متخلف يشيع التبرير والسلبية ، وخط متقدم يبث روح الامل والسعي .

" فالشعور الفاجع بالظلم والغبن الفاحشين هو لدى الشيعة اعظم منه بكثير مما هو عليه لدى اهل السنة ، فالشيعة مضطهدون والمتهم مشردون ووجودهم الاجتماعي - السياسي غير مشروع ، وقد اصابتهم كوارث ماحقة منذ خروج الخلافة من آل البيت ومقتل الامام علي (عليه السلام) وفاجعة كربلاء ، وعبر التاريخين الاموي والعباسي على حد سواء ، ومع ذلك فان الفجيعة لديهم لم تولد يأساً ، وانما ولدت أملا رأوه في حتمية مجيء (الامام المهدي) يعيد الحق الى نصابه ويملاء الارض عدلا بعد ان ملئت ظلماً وجورا أي يعيد الى آل البيت وشيعتهم الامامة والحكم في الاسلام ، ويخلص الارض والناس من مفاسد وطغيان الانظمة السياسية " .

قد ذهبوا ، وكذلك بنو العباس الذين وقفوا نفس الموقف المعارض للحركة الرسالية قد انتهوا .

ولكننا نتسائل .. لماذا بقيت التهم والافكار السلبية ضد الخط الرسالي ، حتى اننا نرى اقلاماً محسوبةً على التقدمية تكتب عن الثوار الاسلاميين ولا تتورع ان تلصق التهم غير الصحيحة بهم .

الكاتب حسن ابراهيم المؤرخ الاستاذ في عدة جامعات في بعض الدول الغربية وفي الولايات المتحدة الامريكية . هذا المؤلف في كتابه (تاريخ الاسلام السياسي) حينما يتحدث عن " المختار ابن ابي عبيدة الثقفي " فانه يلصق به نفس التهم التي الصقها به اعداؤه من الزبيريين والامويين ، في حين انه رجل مفكر ومتعلم ويعرف بان المختار كان ثائراً ضد الزبيريين وقتل بسيف مصعب وانه لا يمكن لاي مؤرخ زبيري ان يتكلم عن المختار إلاّ بالسوء باعتباره ثار ضدهم .

كما لا يمكن لمروانٍ بن الحكم او سليمان بن عبد الملك او الوليد من الخلفاء الامويين او اتباعهم اذا كتبوا او تحدثوا عن المختار إلاّ ان يتكلموا باطلاً باعتباره ثار ضدهم .

ولكن كيف يسمح هذا الكاتب لنفسه ان يسترسل مع التهم الرخيصة التي الصقها الزبيريون والامويون بالمختار ؟

لماذا ؟ وكيف حدث ذلك عند مؤرخينا ؟

لقد حدث ذلك في تاريخنا لثلاثة اسباب :

السبب الاول : غفلة اصحاب القضية الرساليين وقد تمثلت غفلتهم في غفلة الاقلام والكتب عن القيام بمقاومة مزيفي الحقائق التاريخية .

السبب الثاني : غفلة الكتاب ، وتكمن غفلتهم في عدم التحقق من التاريخ والبحث عن الحقائق التاريخية السليمة ، فالمؤرخون ليسوا جميعهم اغبياء وذوي مصالح وانما اكثرهم يغفلون .

السبب الثالث : وهو أهم وأخطر الاسباب الثلاثة ، وهو وجود الخلفية التي

كتبت التاريخ السيء واستمرارها مع الظروف ولكي نفهم هذه الحقيقة نطرح السؤال التالي :

لماذا اتهم يزيد بن معاوية الامام الحسين (عليه السلام) بانه متمرد ؟ ويأتي الجواب : لان الامام الحسين (عليه السلام) ثار ضده ، ويزيد دافع عن سلطته الغاصبة . أليس كذلك ؟

اذا كان الأمر هكذا فان رجلاً مثل يزيد بن معاوية اذا جاء الآن ووجد رجلاً آخر مثل الحسين بن علي (عليه السلام) يقاومه ، فلابد من ان يقول له مثل ما قاله يزيد في حق الامام الحسين (عليه السلام) .

فلو رأى حاكم ظالم ، ان رجلاً مجاهداً يحاول ان يبث الوعي في الناس ويرشدهم الى الطريق القويم المتمثل في عدم الرضوخ للظلم ومحاربة الطغاة ، فإن هذا الحاكم لايملك شيئاً ضد ذلك المجاهد إلاّ اتهامه بأرخص التهم التي تهيء الارضية لقتله وتصفيته .

والامرّ من ذلك اولئك الذين يكتبون التاريخ الرسالي ويقعون في نفس الاخطاء التي يقع فيها المؤرخ السلطوي : ان بعض المؤرخين الرساليين حينما يكتب عن المختار بن ابي عبيدة الثقفي ، فانه يكرر نفس الاقوال التي قالها عنه مصعب بن الزبير قاتل المختار ، ونفس التهم التي الصقتها أجهزة الاعلام الأموي بذلك الرجل النزيـه .

ومن عجيب امر الدنيا ان رجلاً مثل ابي الفرج الاصفهاني الذي لا ينتمي الى الخط الرسالي مؤلف كتاب مقاتل الطالبيين ، حينما يذكر قصة زيد بن علي[1] فانه ينقل رواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله) انه قال للامام الحسين (عليه السلام) :

" يـخـرج رجل من صلبك يقال له زيد يتخطى هو واصحابه يوم القيامة رقاب الناس غرّاً محجلين ، يدخلون الجنة بغير حساب " .

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٨٨ - ٨٩) .

وايضاً ينقل قوله (صلى الله عليه وآله) :

" يقتل رجل من اهل بيتي فيصلب ، لا ترى الجنة عين رأت عورته " .

وينقل ايضاً رواية عن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) عن أبيه عن الامام علي (عليه السلام) قال :

" يخرج بظهر الكوفة رجل يقال له زيد في ابهة الملك لا يسبقه الاولون ولا يدركه الآخرون إلاّ من عمل بمثل عمله ، يخرج يوم القيامة هو واصحابه معهم الطوامير حتى يتخطوا اعناق الخلائق تتلقاهم الملائكة فيقولون هؤلاء خلف الخلف ودعاة الحق ويستقبلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيقول : " يابني قد عملتم ما امرتم به ، فادخلوا الجنة بغير حساب " .

هذه الروايات ينقلها ابو الفرج الاصفهاني وبشكل مكرر في كتابه مقاتل الطالبيين ، بينما يتكلم رجل يدّعي انه رسالي عن زيد بن علي فيقول : نحن لا نعلم ان زيد بن علي كان على حق او على باطل وان ثورته كانت صحيحة ام لا .

لماذا التشكيك في ثورات زيد ويحيى والمختار ؟ لماذا يشكك هؤلاء في ثورات صحيحة في التاريخ ؟

ولماذا يعطون الحق ليزيد بن معاوية ومصعب بن الزبير وعبد الله بن الزبير ومن أشبه من المتسلطين على رقاب المسلمين في قتلهم لزيد ويحيى والمختار ؟

والسبب في ذلك يرجع الى ان ذلك الكاتب المدعي للرسالية حينما يكتب كتابه فانه يخضع لخلفية فكرية خاطئة ورثها دون تمحيص وتحقيق .

وتلك الخلفية التي فرضت على الكتاب السابقين الصاق التهم بالثائرين ، نجدها موجودة عندهم حتى الان .

لكي ندافع عن خط المظلومين

اذاً حينما نقوم بدراسة التاريخ فانما نقوم بالدفاع عن المظلومين في التاريخ كزيد ويحيى والمختار وسليمان بن صرد ، وحجر بن عدي ، هؤلاء الذين يتهمهم البعض دون تمحيص وتدقيق .

فإذا استطعنا ان نغير هذه النظرات الخاطئة عن اولئك الرساليين فاننا ننسف بتلك الخلفيات غير الصحيحة الموجودة في ذهنيات الناس ، وبالتالي نغير من اتجاه المجتمع ونجعله الى الامام ابداً .

بهذه النقاط الثلاث يمكننا ان نبرر دراستنا للتاريخ .

كيف يجب ان ندرس التاريخ ؟

هناك مؤرخون كثيرون يدرسون التاريخ للتاريخ ، ولا هدف لهم الا اضافة مجموعة معارف الى معلوماتهم ، وهذا الاتجاه هو السائد حالياً عند المؤرخين العلميين .

بينما هناك اتجاه آخر يقول : بأن التاريخ يدرس لهدف وذلك الهدف هو اعادة بناء حياة الانسان . ونحن انطلاقاً من مفاهيمنا الدينية والرسالية نؤيد القول الثاني، والسبب في ذلك ان مواقف الانسان تتعدد وفق رؤاه الى الحياة .

فمثلا الجيش الذي ينهزم ، ينقسم افراده الى قسمين تبعاً للصفات التي تشكل شخصية افراده . فقسم لا يزيده الانهزام الا تحدياً .. فهو يتحدى ويقاوم ، وقد تعني تلك الهزيمة بالنسبة الى هذا النوع من الجنود انتصاراً لانهم يمتلكون موقفاً تجاه الهزيمة وذلك الموقف هو التحدي .

والقسم الثاني ، تسبب له الهزيمة العسكرية انهياراً نفسياً - وهؤلاء هم عادة الاكثرية - فالهزيمة الخارجية تنعكس على انفسهم فينهزمون نفسياً وينهارون وربما الى الابد .

ان الشاب الذي يذهب الى امريكا او اوروبا قد يكون من النوع الضعيف الشخصية ، فحينما يرى مظاهر الحضارة في العالم الغربي فانه ينهزم نفسياً وهذه الهزيمة تنعكس على سائر نواحي حياته ، فإذا به يتبع في علاقاته الاجتماعية النمط

الاجنبي . بينما اذا كان هذا الشاب بالذات يمتلك نفسية شجاعة ومتحدية وكان موقفه امام ما يراه في الحياة هو التحدي والتجاوز والاستعلاء ، فانه عندما يذهب الى الخارج لا يرجع الا بعد ان يؤصل الافكار والقيم التي حملها الى هناك ويكرسها في نفسه ، فإذا كان لا يصلي ولا يصوم فانه وتحدياً للظروف يبدأ بأداء هذه الواجبات ، والسبب في ذلك هو ان موقفه السابق الذي حمله معه الى هناك كان يفرض عليه ان يتحدى .

في هذا المثال البسيط ، ترى كيف ان الانسان تتحدد مواقفه في الحياة بناء على رؤاه الفكرية وخلفياته الذهنية التي تكون شخصيته المتميزة .

الرؤية التاريخية تصنع شخصية الأمة

اذا كان هذا الامر صحيحاً فان موقف اية امة يرتبط برؤيتها للحياة وهذه الرؤية انما تستوحى من رؤيتها للتاريخ ، وانه لو غيرنا تاريخ امة لتغيرت آلياً حياتها لان رؤيتها الى التاريخ ستنعكس على موقفها في الحياة ، ومواقف الامة في الحياة حينما تكون ايجابية صحيحة فان حياتها تتحول كلها الى حياة ايجابية .

ومن هنا حين ندرس التاريخ يجب ان ندرسه بشكل يفيدنا للواقع الذي نعيشه ، فكل جيل يكتب تاريخه بيده ، لان لكل جيل طموحاته وتطلعاته ومشاكله، كما ان كل جيل يحمل شخصية معينة ، لذلك فان نظرته الى التاريخ لابد ان تصاغ بحيث تحقق تلك الطموحات وبالطبع سوف تختلف آنئذ عن نظرة سائر الاجيال سواء السابقة او اللاحقة ، بل ان كل جيل عليه ان يكتب تاريخاً خاصاً به ولا يعتمد على التاريخ الذي كتب بأقلام الجيل الماضي .

هذه الحقيقة تنعكس على موقفنا من التاريخ الذي سيكون موقفاً ايجابياً عندما نهضم التاريخ ونستفيد منه ونحوله الى وقود لتحركنا في الحياة .

والسؤال : كيف يتم ذلك ؟

دراسة التاريخ ككائن حي

يتم ذلك عبر النظر الى التاريخ وكأنه شيء ينبض بالحركة . فحينما ندرس

شخصية الامام علي (عليه السلام) مثلاً علينا ان لا ندرسه انساناً ذا بعد واحد ، انما الواجب هو ان ندرس شخصية متكاملة .

وحينما يدرس الواحد منا حياة الامام علي (عليه السلام) باعتباره رجلا حياً بمبادئه ومواقفه ، فان نظرته ستختلف عن نظرة ذلك الانسان الذي يدرس حياته باعتباره شخصاً عاش قبل (١٤٠٠) سنة ضمن حلقة من حلقات التاريخ المنصرم .

وكذلك دراستنا لسيرة الامام الحسين (عليه السلام) ومقتله في كربلاء ، نعرف ان الامام الحسين (عليه السلام) استشهد بعد ان اصابه سهم في قلبه وجبهته ووقع من على ظهر الفرس مغشياً عليه .. الخ . ولكننا لا نفهم عمق هذه الاحداث والوقائع ، لاننا ندرسها في حياة إنسان ميت وليس في حياة بشر حي ، ولا نستعرض في مخيلتنا ان هذا الانسان الذي هو من لحم ودم ، كيف يتألم حينما يقع سهم في جبهته ، وكيف يتعذب حينما يذبح ابنه امامه وفي حجره ، وكيف يتألم حينما يعلم بأن عائلته سوف تسبى من ورائه ، وحينما نتصوره واقعياً كبشر يتألم وله وضع معين فان نظرتنا ستختلف بالنسبة لهذا الرجل العظيم ، وبالتالي ستختلف استفادتنا منه .

ان الكثير من الباحثين يقومون بدراسة ثورة الامام الحسين (عليه السلام) في كربلاء من بُعدٍ واحد ، وهو ان الامام الحسين خرج من المدينة قاصداً مكة وبقي فيها سبعة اشهر ، ثم جاء الى كربلاء وقتل فيها .

ونحن نتسائل : هل يتحدد كل ما في التاريخ بهذه الكلمات فقط ؟

بالطبع لا .. فالامام الحسين (عليه السلام) حينما خرج من المدينة المنورة كان له موقف من النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي ومن التيارات والحركات والجبهات المتعددة التي كانت في المدينة .

وبمعرفة كيف كوّن (عليه السلام) وبأي مقياس علاقته الايجابية او السلبية مع تلك الجبهات تتحدد نظرتنا الى خروج الامام . وكذلك نعرف الحكمة من وجوده في مكة المكرمة ، ونزوحه الى كربلاء ، حينما هبط ارض العراق .. وكيف كان

وضعها الاقتصادي والاجتماعي وكيف تحول اهل الكوفة بين عشية وضحاها من مؤيدين لمسلم بن عقيل الى مخالفين له وما هي العناصر البشرية التي كانت موجودة في الكوفة وكيف كانت نفسياتهم وجنسياتهم وانظمتهم الاقتصادية والاجتماعية وما هي سلوكياتهم ومدى عمق الشعور الديني فيهم ، بل الاكثر من ذلك كيف كانت الوسائل المادية التقنية من المواصلات والامور العسكرية في البلاد الاسلامية ؟

وهذه الامور كلها يجب ان نعرفها حتى تتحدد نظرتنا الواقعية بالنسبة الى الامام الحسين (عليه السلام) وشهادته المشهورة .

اننا حينما نقرأ بأن الحركة الرسالية استوعبت الموالي وهم الفرس والاقباط والروم .. وهم مجموعة من العناصر البشرية المتواجدة في الكوفة التي كانت في ذلك اليوم عاصمة الدولة الاسلامية غير الرسمية ، وان هذه المجاميع هي التي احتضنت الرسالة . نتساءل من هم الموالي ، وكيف كانوا يعيشون ، ما هي القوانين والانظمة التي حكمت حياتهم ، والتي كونت العلاقة بينهم وبين العرب ؟

هذه الاسئلة يجب ان تطرح وعندما نطرحها ، علينا ان نطرحها بصورة حية لمعرفة الظروف التي واكبت ثورة الامام الحسين (عليه السلام) ومعرفة الحركات والانظمة والمجتمعات والتكتلات التي كانت في الساحة السياسية .

اذن .. حينما نريد ان ندرس التاريخ .. سواء بالنسبة الى حركة من الحركات ، كحركة الرساليين في التاريخ او سيرة قادة ومرشدين كالائمة المعصومين (عليهم السلام) او سائر الناس ، فلابد ان ندرسها باعتبارها حياة متحركة امامنا ، فما هي الحياة الحافلة وماذا تقتضي وكيف تكون ؟ كل هذا يجب ان نعكسه على التاريخ وبالتالي ندرسه من خلال نظراتنا الى الواقع الحاضر ومعرفتنا به ، وبهذه الطريقة نستطيع ان نعرف التاريخ .

التاريخ يعلمنا السنن الالهية

واذا عرفنا التاريخ فان باستطاعتنا معرفة القوانين التي تسيّر الحياة البشرية.وكمثال

على ذلك: اننا اذا درسنا حركة التوابين وحركة المختار نرى بالرغم من ان الفاصل الزمني بين الحركتين لا يتجاوز السنتين ، فاننا نرى ان هناك فرقاً كبيراً بينهما .

فحركة التوابين كانت حركة مأساوية انتهت بالفشل الكامل . بينما حركة المختار كانت ناجحة نسبياً ولها امتدادات كبيرة في سائر الدول الاسلامية . وهنا يأتي السؤال : لماذا فشل سليمان بن صرد قائد حركة التوابين ونجح المختار بن ابي عبيدة الثقفي الى حد ما في حركته ؟

وعلى افتراض اننا قد عرفنا الجواب فان باستطاعتنا معرفة اننا اذا اردنا ان نقوم بحركة فيجب ان نقوم مثل قيام المختار وليس مثل سليمان على اقل التقادير ، وبالتالي نستطيع ان نستفيد من التاريخ استفادة كبيرة وهي ان نعرف منعطفات التاريخ واسبابها والعوامل المؤثرة في تغيير مسيرته .

الثورة بين العلويين والعباسيين

لقد قدّم العلويون التضحيات ، وكان في طليعتهم الامام الحسين (عليه السلام) وتبعه زيد بن علي ، ويحيى بن زيد ، واولاد الامام الحسن (عليه السلام) كصاحب فخ وباخمرا ومن اشبه ، وكذلك من ثار طلباً للرضا من اهل البيت كسليمان بن صرد والمختار . هؤلاء الذين اعطوا التضحيات الكبيرة ، ولكن لماذا اذاً انتصر العباسيون ؟

لقد كانت التضحيات من العلويين والمغانم والمكاسب للعباسيين وهذا سؤال كبير، لانه من الممكن ان تتكرر هذه الواقعة مرات اخرى في غير مكان ، حيث يقدّم الرساليون التضحيات ، بينما يجني الثمرة الانتهازيون والوصوليون وثوار الفنادق .

كما ان زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) هو الذي زرع ، والمنصور والسفاح وهارون الرشيد هم الذين حصدوا . لماذا ؟

اذا عرفنا الجواب هناك نستطيع ان نعرف الجواب هنا .. ولا نعرفه فقط ، وانما لا نسمح لانفسنا بان تتكرر تلك التجربة .

المنعطف التاريخي

كانت للعلويين حركة سرية في ايام الامويين ، وكانت منتشـرة في كافة البـلاد

الاسلامية ، وكان لها دعاة يجمعهم جهاز يشرف عليهم ، ودعاة تلك الحركة هم القيادات وعلى رأس هؤلاء الدعاة يكون امام يمارس عمله بصورة سرية والامام هو الذي يعرف اسرار الحركة بكاملها ويعرف دعاتها واين هم وارتباطهم ، باعتبار انهم قد جربوا السرية في ايام الامويين وعرفوا انها هي الصورة الوحيدة للنجاح التي بدونها لا يمكنهم تحقيق اهدافهم لذلك عملوا بالسرية المطلقة .

اصيب قائد الحركة وهو العلوي ابو هاشم[1] بمرض في الطريق الى المدينة المنورة خلال توقفه في قرية الحميمة [2].. بعد ان ذهب الى الشام ليقوم بالدعاية والعمل التنظيمي وليلبي دعوة الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك . وقد اشرف ابو هاشم على الموت فخشي ان تفشل بعد مماته الدعوة لان اسرار الحركة كلها عنده ، فالدعاة لا يرتبطون ببعض مباشرة بسبب منهج العمل السري ، وكذلك لانهم منتشرون ما بين خراسان والكوفة والمدينة ومصر والشام ، ونتيجة لعدم الارتباط فيما بينهم فإنهم بعد موت الامام سوف يخطؤون الطريق في عملهم ومن الممكن ان تموت الحركة ، لذلك اخذ ابو هاشم في التفتيش عن رجل يسلّم بيده الامانة .. والتي تشمل اسماء الدعاة وكلمات السر التي فيما بينهم وبعد ان فتش في تلك القرية ، لم يجد علوياً يسلمه اسرار الدعوة ، ولكنه وجد احد العباسيين وهو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، فاختاره وسلمه تلك الاسرار، وبيّن له ان الحكم هو من حق العلويين وينبغي ان يبقى بايديهم ولكن لما لم يكن هناك احد غيره ،

---

(١) ابو هاشم هو عبد الله بن محمد بن الحنفية توفي سنة ٩٩ من سم سقيه بعد عودته من الشام وضع عليه سليمان بن عبد الملك من سقاه ، فلما احس ابو هاشم بذلك عاد الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وهو بالحميمة فعرفه حاله ، واعلمه ان الخلافة صائرة الى ولده ، واعلمه كيف يصنع ثم مات عنده (ج ٥ ص ١٧ ابن الاثير)

وكان سبب دعوة ابي هاشم للحضور الى الشام من قبل الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك انه كان يخشى من ابي هاشم ان يدعو الى نفسه ، فدس اليه السم .

(٢) وهي قرية صغيرة في ارض الشراة بين الشام والحجاز .

لذلك فهو مضطر لاعطائه اسرار الحركة والدعوة ، فاعطاه الاسرار وحمّله رسائل الى الدعاة وبعد ان توفي ابو هاشم اصبح ذلك العباسي هو الامام من بعده .

فبينما كانت الحركة العلوية على مشارف النجاح والانتصار ، جاء العباسيون وقطفوا الثمار واستولوا على الحكم ، وكل ذلك كان نتيجة منعطف بسيط في التاريخ مكّن العباسيين من ان يسرقوا الحكم من العلويين في حين ان الاثنين تعبا مع بعض ، بل العلويين هم الذين كانت عليهم المسؤوليات الاكثر .

لنكن على حذر من المنعطفات التاريخية

ان معرفتنا بهذه القضية الواقعية التاريخية البسيطة ، تعطينا سلوكاً جيداً لمستقبل حياتنا ولمستقبل الرسالة ، اذ ان الحركات الاسلامية لو كانت تعرف هذه المنعطفات والمنحنيات في التاريخ ولو درستها بدقة ، لاستطاعت ان تنجح والكل يعرف ان واقع الحركات الرسالية منذ حوالي خمسين سنة والى الان شهد قصصاً كثيرة وشبيهة بقصة الداعية العلوي السابق الذكر .

في العراق وعلى اكتاف المسلمين قام الاستقلال ولكن الذي استطاع ان يحكم العراق بعد الاستقلال هو الملك فيصل ابن الشريف حسين والسبب في ذلك انهم كان ينقصهم الوعي التاريخي ، فلم يكونوا يعرفون ان تنازلهم عن حقهم هنا ماذا يعني في المستقبل .

انه يعني المجازر والتشريد والتهجير الجماعي والاستغلال والاستعباد لفترة طويلة من الزمن ، انهم لم يكونوا يحسون مثل هذه الحقيقة وذلك لغياب الوعي التاريخي .

من هنا فان طريقة دراستنا للتاريخ هي ان ندرسه وكانه احداث حية تجري امامنا وندرسه بمنظار الحاضر ، فاذا عرفنا سنن التاريخ وقوانينه فان من السهل تطبيقها على واقعنا المعاش ، عندها سيصبح لنا وعي تاريخي ننتصر به ونتفوق به في الحياة .

منطلق الحركة الرسالية

تمثلت بداية تحول الرساليين الى حركة سياسية جماهيرية معارضة للنظام السياسي بعد مقتل الامام الحسين (عليه السلام) في العام (٦١) من الهجرة النبوية . فقبلئذ كانت الحركة موجودة ، وكان لها مظهر سياسي يتمثل في حكومة الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) ، ولكنه كان على نطاق محدود نسبياً موزعاً في انحاء البلاد الاسلامية .

ولكن بعد مقتل الامام الحسين (عليه السلام) ، تحول الرساليون الى حركة جماهيرية معارضة شملت جميع المسلمين وبلا استثناء ، حيث ان المسلمين عرفوا حقيقة الاسلام ومغزى التفكير الرسالي الذي نادى من اول يوم بان يكون الحكم حكماً مستقيماً وصالحاً ، وعرف العالم الاسلامي آنئذ كله بأنه كان من الخطأ الفضيع سكوت الامة على انحراف القيادة لان ذلك السكوت ادى بالتالي الى فاجعة كبيرة كفاجعة كربلاء . من هنا فنحن نؤرخ للحركة الرسالية منذ عام ٦١ هـ .

نشوء الحركة الرسالية

ما الذي حدث بالضبط بعد مقتل الامام الحسين (عليه السلام) ؟ للاجابة على هذا السؤال لابد من تمهيدين :

الاول : معرفة النظام الاموي بالمقاييس العصرية ، وبالألفاظ والكلمات المستخدمة الان في القواميس العلمية والادبية.

الثاني : معرفة طبيعة الحركات الرسالية ، وما هي المجموعات البشرية التي اشتركت في تلك الحركات .

طبيعة النظام الاموي

امتاز النظام الاموي بالطبيعة القبلية الجاهلية المولعة بالدم والغارقة الى اذنيها في الجريمة ، وكان " السيف دثارهم والخوف شعارهم " كما جاء في كلام للامام علي (عليه السلام) .

وقبل دخوله في الاسلام - بشكل ظاهري - كان الحزب الاموي قائداً للتجمع القبلي الذي حارب الرسالة الاسلامية منذ بدايتها ، والسبب في ذلك ان بني عبد الدار هم الذين كانوا يقودون القرشيين في كل الحروب ، باعتبارهم يشكّلون وزارة الدفاع في ايام حكومة قريش التي كانت هي سيدة العرب في زمن الجاهلية الاولى . والذي كان يمثل بني عبد الدار هم الامويون وفي طليعتهم ابو سفيان .

وكما هو معروف فان هذا الحزب كان قد قاوم الرسالة الاسلامية . ولكن وبعد انتصار الرسالة الاسلامية عليه ، قام بتغيير طريقته واسلوبه . ففي البداية كانت طريقته علنية ومن موقع القوة ولكنه وبعد انتصار الرسالة الاسلامية تحول الى العمل السري ومن موقع الضعف والنفاق .

تنامي الحزب الاموي

وقد انتشر الحزب الاموي بطريقة مدروسة واخذ يكوّن له امتدادات ونفوذا داخل الحكم الاسلامي ، واول من اعتمد على الحزب الاموي في تكوين حكومة ائتلافية - حسب التعبير الحديث - هو الخليفة الثاني الذي جعل من بعضهم قادة لبعض الحروب ، واعتمد على البعض الاخر بشكل كبير. يذكر ان الحزب الاموي كان قد تسرب الى الحكم في عهد الخليفة الاول بصورة نسبية [1].

---

(١) كان يزيد بن ابي سفيان قائداً لاحد الجيوش الاربعة التي انفذها الخليفة الاول لفتح الشام

واغتيل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ولعل الحقائق تثبت ان الامويين كان لهم اليد الطولى في اغتياله، حيث ان المستفيد الوحيد من ذلك كان الامويون انفسهم.

فقد قاموا بتنصيب الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي اطلق لهم العنان في اللعب بمقدرات الامة الاسلامية المتنامية ، حيث عيّن منهم الولاة والقضاة وقادة الحرب وخُزان بيت المال .

ولما نما الامويون ووصلوا الى درجة كبيرة من القوة والنفوذ ، قرروا التخلص من عثمان نفسه ، والتمركز وبشكل اساسي في بلاد الشام المنطقة العربية الحديثة الانعتاق من ايدي الرومان .

وكانت منطقة الشام متميزة بان افرادها هم الذين قاموا بقيادة العرب الاخرين الى حد ما ، نيابة عن الحكم الروماني .

لذلك قام الحزب الاموي باختيار هذه المنطقة - بعد تخطيط مسبق - موقعاً لقيادته ، فهي ستكون مسندة من الخلف من قبل الامبراطورية الرومانية ، وبالاضافة الى ان عرب الشام قادرون على القيادة باعتبارهم متمرسين في الحكم والحضارة من القدم [1].

كيف اصبح معاوية حاكم الشام ؟

وبحكم التآلف بين الحزب الاموي والجناح الحاكم الذي كان يعتبر الجناح المعتدل في الحكم الاسلامي ، فقد مارس هذا ضغوطاً كبيرة على الخليفة الثاني حتى يصبح معاوية حاكماً على الشام ونجح في ضغوطه .

ولم يكن معاوية بن ابي سفيان وحده ، فقد كان معه مجموعة من آل سفيان والمغيرة ومروان ، يشكّلون معاً تجمعاً كاملاً . وباعتبار ان معاوية هو ابن ابي

---

(١) كانت قضاعة بن مالك بن حمير اول من نزل الشام ، وانضافوا الى ملوك الروم ، فملكوهم بعد ان دخلوا في النصرانية على من حوى الشام من العرب ، ثم وردت سليح الشام فغلبت على تنوخ ، وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام ، وغلبت غسان على من بالشام من العرب ، فملكها الروم على العرب . (المسعودي ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣)

سفيان الذي كان قائداً لبني امية في ايام الجاهلية ، لذا فقد تم اعتباره والياً على الشام ، علماً بان اخاه يزيد بن ابي سفيان كان احد القادة العرب لجبهة الشام .

بناء الجيش الاموي

واول ما قام به معاوية بن ابي سفيان هو جمع الاموال من عرب الشام بطريقة مشروعة او غير مشروعة واضافتها الى الاموال الموجودة والمجتمعة سابقاً عند الامويين نتيجة خبرتهم في التجارة وما تجمّع عندهم ايام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ثم اخذ يشتري بها ضمائر فلول الجيش الاموي الذي هزمه الاسلام .

وبالتعبير الحديث ، قام بتوظيف المرتزقة والمحاربين القدامى لتكوين جيش ضخم يتركب من العرب الذين كانوا يحاربون الاسلام في بداية امره ، ومن الذين اصبحت الحرب مهنتهم وحرفتهم ،وكذلك من الموتورين الحاقدين على الاسلام، وقام ايضاً بشراء المرتزقة الاجانب .

مستشار رومي مديراً للمخابرات

وجعل معاوية مولاه سرجون الذي كان من قواد الجيوش الرومانية ، مديراً للاستخبارات العسكرية ، واعطاه صلاحيات كبيرة ، وجعله مستشاراً له ، واعتمد عليه كثيراً لخبرته بالشؤون العسكرية والامنية . وسرجون هو الذي اشار على يزيد ان لا يقصي ابن زياد الذي كان منافساً له عندما استخلف بعد ابيه معاوية ، وهو الذي عمل على اقناع القادة العسكريين او غير العسكريين الذين كانوا يبتعدون عن يزيد ، لكي يرجعوا الى الخدمة العسكرية .

وهكذا كوّن الحزب الاموي من حوله مجموعة من المرتزقة حتى اصبحوا جيشاً منظماً وقوياً ، يتألف من المحاربين القدماء واصحاب الضمائر الميتة الذين يفتشون عن الاموال .

فهذا حسان بن مالك الذي كان رئيس قحطان وسيدها بالشام ، لما بايع مروان بن الحكم ، اشترط على مروان ما كان له من الشروط على معاوية ، وابنه يزيد ، وابنه معاوية بن يزيد .. منها ان يفرض لهم لألفين رجل الفين الفين ، وان مات قام

ابنه او ابن عمه مكانه ، وعلى ان يكون لهم الامر والنهي وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة . فرضي مروان بذلك ، فانقاد إليه. وقال له مالك بن هبيرة اليشكري : انه ليست لك في اعناقنا بيعة ، وليس نقاتل الا عن عرض دنيا فان تكن لنا ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الاخرى فوالله ما قريش عندنا الا سواء ، فاجابه مروان الى ما سأل[1] .

ضحالة الوعي السياسي في الشام

وهكذا تأسس في الشام حكم عسكري يعتمد على اقوى العناصر العسكرية في الجزيرة العربية وخلفه امبراطورية تدعمه وقام على قاعدة من اهل الشام الذين سئل احد زعمائهم واهل الرأي والعقل منهم : من ابو تراب هذا الذي يلعنه الامام (أي امام الجمعة) على المنبر ؟ قال : اراه لصاً من لصوص الفتن ، وكما حكى الجاحظ اذ يقول : سمعت رجلا من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول : اذا أتيتُه من يكلمني منه ؟ وانه اخبره صديق له انه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد (صلى الله عليه وآله): ما تقول في محمد هذا ؟ اربنا هو ؟ [2]. أولم يصلّ فيهم معاوية صلاة الجمعة يوم الاربعاء في مسيره الى صفين[3].

فهذا التخلف في اهل الشام كان قاعدة لحكم آل امية ، حتى ان الخلفاء الامويين اذا جاء احد معارضيهم الى الشام ، لم يسمحوا له بالمكوث في الشام لئلا يقلب عليهم الامر . ومرة عند ذهاب الامام الباقر الى هشام بن عبد الملك في الشام وبعد ان رأى هشام ان الناس ماجوا وخاضوا الى دار الامام ، طلب منه ان ينصرف الى المدينة من ساعته ولا يجلس في الشام ابداً مع ان هشاما هذا كان عاشر الخلفاء الامويين ، الا ان اهل الشام حتى ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون حقيقة الامويين نتيجة التعتيم الذي انتهجه بنو امية والذي اسندوه بالسيف لكل

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢ .

(٣) الغدير ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ .

من يكتشـف الحقيقة ويحاول ابلاغها للناس .

وكان لتخلف وجهل اهل الشام اسباب منها صعوبة المواصلات وتضليل الامويين وغيرها من الاسباب التي لسنا بصددها الآن .

وبعد ان قويت شوكة الحكم الذي أسّسه معاوية ، اخذ يتحيّن الفرص للانقضاض على الدولة الاسلامية منذ ايام الخليفة الثاني وخلال فترة حكم الخليفة الثالث واستطاع القضاء على الحكم الاسلامي الصحيح والشرعي في ايام الامام الحسن (عليه السلام) .

جيش الشام قاعدة النظام الاموي

والذي يقرأ التاريخ سوف يلاحظ ان الجيش الذي بناه معاوية ظل العمود الفقري للحكم الاموي خلال فترة النظام بكاملها وهي زهاء ٨٣ سنة ، فالحكم الاموي كان معتمداً على نظام عسكري قوي قيادته في سوريا . واصبح هذا الجيش القوة الضاربة لاخماد الثورات الاسلامية في العراق وسائر البلاد الاسلامية .

وعلى سبيل المثال فان الحكم الاموي في مصر او العراق عندما كان يندثر نتيجة قيام ثورة فان الجيش الاموي كان يأتي من الشام ويخمدها ويعيد الحكم الاموي من جديد .

الحركة الرسالية بعد كربلاء

الثاني : أما التمهيد الآخر فهو الحديث عن وضع الحركة الرسالية في التاريخ بعد مقتل الامام الحسين (عليه السلام) .

هناك اسئلة تطرح نفسها في سياق البحث :

١ / ما هي العناصر البشرية التي كانت في تلك الحركات ؟

٢ / ما هي طبيعة الوضع الاقتصادي والجغرافي الذي كانت تعيشه هذه العناصر؟

٣ / كيف فشلت بعض الحركات وكيف نجحت اخرى ؟

الوضع الاجتماعي في الكوفة

كانت الكوفة العاصمة الاسلامية غير الرسمية وكانت هذه المدينة تشرف على

البلدان التي تمتد من حدودها الى الهند بخطين :

الاول : خط الكوفة .. مدائن .. ري .. خراسان .. بلاد ما وراء النهر .. والتي هي بالاسماء الحديثة (الكوفة .. بغداد .. طهران .. خراسان مقاطعات افغانستان وآسيا الوسطى) .

الثاني : خط الكوفة .. واسط .. بصرة .. هجر .. عمان .. سرنديب .. الهند والتي هي بالاسماء الحديثة (الكوفة .. الكوت او الديوانية .. البصرة.. الخليج .. عمان .. سيريلانكا .. مقاطعات من الهند (الساحل الهندي) .

ولاهمية الموقع الجغرافي للكوفة قام الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) باتخاذها عاصمة للدولة الاسلامية بدلا من المدينة المنورة .

والكوفة واصلها كوفان ، وهي حامية الجيش ، كانت قد خطت وانشأت على يد سعد بن أبي وقاص في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، في الجانب الغربي من الفرات على بضع اميال الى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة ، في السهل المحصور ما بين الفرات شرقاً والبادية المطلة على مشارف الشام وعمّان غرباً .

وكان السبب في تمصيرها ان تكون قاعدة عسكرية للقسم الاوسط من العراق ، ودار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن .

وما ان حطت القبائل رحالها في المصر الجديد وبدأ العمران ، حتى توافد عليها الناس من كل صوب ، ثم نمت الكوفة بعد ذلك وتحضرت وازدهر فيها العمران حتى صارت قبلة انظار العرب وزعمائهم .

توسعت الكوفة بشكل كبير لازدياد سكانها ، ففي العصر الاموي بلغت مساحة الكوفة كما قدر الشعبي : ستة عشر ميلاً وثلثي الميل وكان بها خمسون الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، واربعة وعشرون الف دار لسائر العرب ، وستة الاف دار للمسلمين[١].

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية / ص ٢٧٥ .

وعندما فتح العرب بلاد خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وبلاد الخليج والسند والهند، قام قسم من اهل هذه البلدان بالتوافد على العاصمة الكوفة، فأصبحت هناك مجموعات مراقبة متنوعة .

" كانت الكوفة اولاً منزل العرب وحدهم ، وكان غالبيتهم عناصر متحضرة من اليمن وحضرموت مثل قبيلة " كندة " و " بجيلة " . ثم نزل الكوفة بعد تمصيرها وبنائها عدد من الموالي ، من الفرس ، واخلاط من ابناء المدن المجاورة كالسريان والنبط والنصارى واليهود [1].

النظام الاموي عنصرية ام اسلام

الكثير من المؤرخين حينما يكتبون عن الحكم الاموي فانهم يقولون (الحكم العربي) لان الامويين اعتمدوا على العصبية العربية وكانوا يعتمدون على الجيش العربي الموجود في سوريا ، كما ذكرنا آنفاً .

ويومها ابعد الموالي عن الحكم ، ورغم انهم كانوا مسلمين الا انهم ظلوا محرومين من حقوقهم في الدولة الاسلامية ، فكانوا مواطنين من الدرجة الثانية ، وقد بقي الموالي اجانب في الوطن الاسلامي في عصر الامويين .

لذلك ثار الموالي على القوانين المجحفة بحقهم ، فهم قد امتزجوا مع العرب واصبحوا يتكلمون العربية واصبحوا جزءاً لا يتجزء من المجتمع الاسلامي ، وهنا كان يمكن ان تقوم حركتان :

الاولى : حركة ارتداد ، وذلك بان يعود الفرس الى دياناتهم السابقة ويكونّوا لهم كتلة يحاربون بها الدولة الاموية .

الثانية : قيام حركة دفاع عن حقوق الموالي تحت راية الاسلام .

القاعدة الاجتماعية للحركات الرسالية

ولــو قــام الفرس وسائر الموالي بالرجــوع الى دياناتهم السابقة فحتى لو كانــوا

---

(١) المصدر / ص ٢٧٦ .

يقمعون في البداية ، فانهم بالتالي كانوا سينجحون ويؤدي نجاحهم الى زوال الحكم العربي للامويين والحكم الاسلامي ولا يبقى من الاسلام أي اثر .

ولكن الذي حدث هو قيام الامام الحسين (عليه السلام) بحركته التي اختط بها لهم طريق المحافظة على دين الاسلام ، والدفاع عن حقوق المظلومين ، وبعد حركته قامت بتغذية الحركة الرسالية مجموعتان هما : مجموعة الفقهاء ، والزاهدين والمتدينين واصحاب المساجد ، هؤلاء الذين دفعتهم الغيرة على الاسلام حينما سمعوا ورأوا بأم اعينهم الامام الحسين (عليه السلام) وهو يقتل بينما هم لم يحركوا ساكناً .

حركة الفقهاء والعباد

فقد جمع سليمان بن صرد انصاره وقال لهم :

" اننا كنا نمد اعناقنا الى قدوم آل نبينا ونمنيهم بالنصر ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا وادهنّا وتربصنا وانتظرنا ما يكون حتى قُتِلَ فينا ولد نبينا وبضعة من لحمه ودمه الا انهضوا فقد سخط ربكم "(١) .

ولهول المأساة وخطورة الوضع فان خطاب سليمان اثر فيهم ، كيف لا .. وقد اثرت المأساة في مسببيها حيث يروى ان عمر بن سعد الذي لا يوجد اسوأ منه ، انّبه ضميره فحينما دخل المسجد في نفس اليوم الذي جيء فيه برأس الامام الحسين قال لابن زياد :

امــلاء ركابــي فضــة او ذهبــا فقـد قتلــت السيــد المهذبــا
قتلــت خيــر النــاس امــاً وابــا

وانهــا لكلمة عجيبة ان يقولها رجــل فاتح في زعمه . واذا كان ضمير عمر بــن سعد قد انّبه ، فكيف بذلك الرجل المؤمن النقي الصادق الذي امره الامام الحسين (عليه السلام) بالقتال الى جانبه فلم يستجب في الوقت المناسب ؟

---

(١) الطبري ٧ / ٤٩ .

وتحت راية يا لثارات الحسين ، قام سليمان بن صرد مع من اجتمع حوله وكان بينهم اكثر من الفين من أخلص الموالين للامام الحسين الذين كان ابن زياد قد سجنهم في الكوفة بعد قدومه اليها . قاموا بحركة استشهادية ضد يزيد وجلاوزته ولم يكن مقصودهم الوصول الى الحكم ، وانما كانوا يطلبون القصاص من ابن زياد الذي قاد الجيوش لقتل الحسين (عليه السلام) .

وبشكل درامي انتهت حركتهم سنة ٦٥ هـ بعدما حاربوا ابن زياد قريباً من الرقة في الشام ، حرباً رسالية صمدوا فيها صمود الابطال وقتلوا من الجيش الاموي مقتلاً عظيماً وقد انتهت المعركة باستشهاد سليمان والغالبية من جيشه الأبطال ، بينما رجع النفر القليل منهم الى الكوفة ليبثوا عن تلك المعركة فكرة الحركة الصحيحة ، وعلى طول التاريخ كانت هنالك حركة مثل حركة سليمان بن صرد تظهر بين وقت وآخر . وظلت عناصر تتكون من الفقهاء والزهاد واصحاب المساجد يقومون بالثورة ضد الظالمين .

حركة السياسيين والعسكريين

وهناك مجموعة ثانية تختلف عناصرها عن الاولى وتتكون من :

١ / العسكريين الذين شاركوا في الحروب الاسلامية وكان اهتمامهم اهتماماً سياسياً واعتقدوا بان اهل البيت احق بالخلافة .

٢ / الموالي غير العرب الذين رأوا في التشيع الاطار المناسب للعدالة الاجتماعية التي ينشدونها .

٣ / السياسيين المحنكين والمفكرين الذين هم في داخل الحكم والسياسة ، فهم اما امراء او وزراء ، واما ولاة ، وهؤلاء ايضا اعتقدوا بان الخلافة يجب ان ترجع الى الائمة من آل الرسول لذلك قاموا بحركتهم .

وهذه المجموعة قامت بحركات كان لها وزن سياسي ، بينما الحركات السابقة كانت دينية عاطفية ، فقد كان الهدف من الحركات السابقة هو اشباع الامة بالروح الثورية وكانت اشبه شيء باختطاف طائرة او احتجاز رهائن عند الحركات

الفدائية اليوم .

فلو ان فدائيين اقدموا على اختطاف طائرة ، فنجحوا ، او فشلوا فهؤلاء من الناحية العسكرية والسياسية لن يربحوا شيئاً وانما سيربحون اعلامياً ، بإلهاب روح شعبهم وتعريفهم بالاهداف التي قاموا بالعملية من أجلها .

اهداف الحركات السياسية

اما الحركات السياسية فأهدافها تختلف عن الحركات الدينية ، فقد كانت تهدف الوصول الى الحكم ، وهم في ذلك كانوا يخططون وهذا ما قام به المختار بن ابي عبيدة الثقفي .

والمختار الذي كان من القادة العسكريين الذين فتحوا العراق وكان والده احد اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) واحد قادة حروبه ، لم يكن راوندي المذهب[١] وإنما تربى في بيت والده الصحابي الجليل ابي عبيدة بن مسعود الثقفي الذي كان من الموالين للامام علي (عليه السلام) وكان يراه احق بالخلافة ، وكان المختار رجلا رسالياً بعيدة عنه التهم التي تقول " بانه كان كيسانيا " أي يعتقد بامامة محمد بن الحنفية ابن الامام علي التي كانت امه من قبيلة بني حنيفه .

فإذا كان المختار من جماعة الامام علي (عليه السلام) ، وان الامام حسب اعتقادنا كان يوصي دائماً بإمامة الحسن والحسين (عليهما السلام) ثم ابنه زين العابدين ، فلا يمكن ان يكون المختار (كيسانياً) ابداً .

ثم ان قائد جيش المختار كان ابراهيم ابن القائد العسكري المعروف مالك الاشتر ، حيث ورث ابراهيم القيادة من ابيه حسب المفاهيم السائدة في ذلك اليوم .

---

(١) الراوندية هم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب ، وقد اعتقدوا ان احق الناس بالامامة بعدرسول الله (صلى الله عليه وآله) هو عمه العباس ، وان الناس ظلموه، واجازوا بيعة الامام علي ابن ابي طالب (عليه السلام) لاجازته له وذلك بقوله : يا إبن اخي ، هلم الى ان ابايعك فلا يختلف عليك اثنان (مروج الذهب ج ٣ / ص ٢٣٦)

وقد حكم المختار فترة من الوقت ، وكان حكمه بصدق عودة الحكم الرسالي بعد غياب طويل منذ حكم الامام علي (عليه السلام) ولقد قتل في حركته اغلب من اشترك في قتل الامام الحسين (عليه السلام) من ابن زياد الى عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وبعض اشراف الكوفة وغيرهم .

وقد قُتلَ في حركته خلق كثير ، وهذا يشبه الثورات الاجتماعية الجذرية ، فحركته كانت ضخمة والذين ايدوا هذه الحركة كانوا من الموالي والرساليين .

ولمعرفة كيف بدأت حركة المختار ؟ وكيف انتهت ؟ ولماذا نجح اولا وفشل بعد ذلك ؟ فاننا سنعالج ذلك في البحوث القادمة ان شاء الله .

الباب الثاني

مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي

حياة الامام علي بن الحسين عليه السلام

ينبغي ان ندرس حياة الامام علي بن الحسين (عليه السلام) بعمق لكي نغيّر تلك الصورة المضلّلة التي رسمت له ، الى صورة مشرقة تنير لنا الطريق . فقد كان تأثيره العظيم والهائل على واقع المسلمين خفياً ودوره في قيادتهم من اخفى ادوار الائمة (عليهم السلام) تقريباً .

فالكثير من الناس لا يعرف الدور الحقيقي الذي مارسه الامام علي بن الحسين (عليه السلام) في التأثير في واقع المسلمين . لذلك فانهم اما ان يحصروا الامام زين العابدين ببعض الصفات البارزة فيه والواضحة في الصحيفة السجادية وما اشبه ، او انهم يجهلونه كلياً .

اهداف الحركة الرسالية

ولكي نعرف دور الامام زين العابدين معرفة واضحة ، لابد ان نعرف معنى الرسالة والرساليين ، فالحركة الرسالية لم تكن حركة سياسية تستهدف فقط القضاء على الحكم الاموي فالعباسي بالرغم من انها طبعت بالطابع السياسي في كثير من الحقب ، حيث كانت السياسة الوجه البارز لها . وانما الحركة الرسالية حركة حضارية شاملة ، تصبوا الى ذات الهدف الذي جاءت من اجله الرسالات الالهية التي هبطت على الانبياء وعلى النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ، وهو بناء

الانسان بناءً متكاملاً خلقياً واجتماعياً ودينياً ، فالهدف من رسالات الانبياء ليس هو العمل السياسي فقط ، ذلك لان العمل السياسي بدوره مرتبط تمام الارتباط بسائر جوانب حياة الانسان .

السلطة السياسية بنت الحالة الاجتماعية

فمن الناحية العلمية لا يمكن ان يكون الحاكم الا ممثلا طبيعياً او شرعياً للمجموعة التي يحكمها . فالممثل الطبيعي هو الذي يمثل امة سلباً او ايجاباً . بينما الممثل الشرعي هو الذي يمثل الامة ايجاباً فقط .

لقد كان الامام علي (عليه السلام) ممثلا ايجابيا وشرعياً لعهده الذي استخلف فيه ، كما كان يزيد بن معاوية ممثلا طبيعياً لعهده ، بمعنى ان يزيد بن معاوية واعماله الوحشية البربرية التي اقترفها ، انما كانت من مسؤولية الامة الاسلامية جميعاً ، ولم تكن الامة حينها راضية رضى قولياً كتابيا بما فعله يزيد بن معاوية والنظام الاموي من قبله ، ولكن وبسبب ازمة الاخلاق التي اصابت الامة بالتقاعس عن الحق والتواني والتواكل ، ساهمت الامة فيما اقترفه يزيد من اعمال شنيعة .

ولو كانت الامة الاسلامية تتمتع بالروح الايمانية الواعية وبالاهتمام بالدين اهتماماً صحيحاً ، والتضحية من اجله ، اذن لما كانت تقع جريمة واحدة من جرائم يزيد ، بل وان يزيد بن معاوية الذي هو بدوره جريمة على الامة الاسلامية لم يكن ليأتي كحاكم متسلط اصلاً .

اذن يزيد بن معاوية كان يمثل الامة الاسلامية وواقعها في الحقبة التي حكمها ، (فكما تكونون يولى عليكم) وهذا الامر صحيح من الناحية التاريخية ومن ناحية علم السياسة والاجتماع ، لذلك فان تغيير السياسة لا يمكن ان يكون بتغيير الحاكم فقط . بل وان تغيير الحاكم لن يحدث الا اذا تغيرت طائفة من الامة ، طائفة متفوقة كماً وكيفاً .

ان هتلر كان يمكن تغييره وتبديله ، وتنصيب رجل آخر مكانه ، إذا غيّرت الامة الالمانية من نفسها ودخلت المعركة ضد هتلر وغيرته .

اذن التغيير يجب ان يحدث اولا في الامة ثم في الحاكم ، وهذا يبين لنا مدى الارتباط بين الامة وبين الحكام والانظمة ، وهذا بدوره يهدينا الى مدى الارتباط بين السياسة والدين ، وبين السياسة والاقتصاد ، وبالتالي يجعل من الانسان وحدة متكاملة ، ومن المجتمع وحدة متكاملة تتأثر وتتفاعل فيه عدة عوامل اجتماعية ، واقتصادية ،ودينية ، وخلقية وسياسية .

والائمة المعصومون (عليهم السلام) كانت لهم رسالة كبيرة ، جزء منها تغيير انظمة الحكم ، ولكن الاجزاء الاخرى لا تقل اهمية في بناء الامة الاسلامية وحضارتها ، وكان من جملة رسالتهم زرع حب الحرية في نفوس جماهير الامة .

من اهداف الرسالة زرع حب الحرية

الانسان بفطرته يحب الحرية ، ولكن عوامل الاستغلال والاستعباد وأغلال النفس تتجمع على قلبه فتحجب حب الحرية فيه . وقد يتحول الانسان الذي يحب الحرية الى انسان يحب العبودية .

لقد انقذ (ابراهام لنكولن) العبيد في الولايات المتحدة الامريكية إبّان الحرب المعروفة بين الشمال والجنوب ، والغى قانون الرق من الدستور ، واخرج العبيد الذين كانوا يعملون عند اسيادهم البيض في مصانعهم واراضيهم وتجارتهم ، الى الحياة الحرة المستقلة ، وانتهت بذلك سلطة السادة على العبيد .

ولكن الكثير من هؤلاء كانوا قد تعودوا على الذل والعبودية ، فذهب الكثيرون منهم الى اسيادهم ليبقوا تحت سلطتهم رغم الذل الذي كانوا يلاقونه .

ان سبب ذلك يكمن في ان نفوسهم قد استُعبِدت ، ولو كان الائمة المعصومون (عليهم السلام) والنبي (صلى الله عليه وآله) من قبلهم وكذلك انبياء الله قبله، لو كانوا يتركون الناس ، اذن لكان الناس يُستعبدون من قبل الطواغيت ، ولما

كانت هناك ثورات ولا حركات ولا تغيير ، وبالتالي لم يحدث تقدم ولم تَقُم اية حضارة ، انما انبياء الله هم الذين حرروا الانسان منذ اول حقب التاريخ ، وبثوا في روحه حب الحرية والتضحية من اجلها ، فربوا رجالا صالحين كأصحاب الحسين (عليه السلام) الذين حاربوا معه في كربلاء وابلوا كل ذلك البلاء ، ولو كان اولئك الرجال كسائر من في الكوفة ، لكانوا يحاربون الى جانب يزيد ، انما الائمة هم الذين ربوهم على حب الحرية والجهاد في سبيل الله والايمان بالاخرة والتضحية من اجلها .

بناء الانسان هدف الانبياء وبرنامج الائمة

لقد بُعث الانبياء من اجل بناء الانسان ، وجاهدوا من اجل بناء بشر مثاليين ، وهؤلاء هم الذين قاموا بالثورات وضحوا من اجل التغيير ، وهذا هو العمل الاساسي الذي قام به الامام علي بن الحسين (عليه السلام) .

لقد بثّ (عليه السلام) في الامة الاسلامية ، روح الدين التي تحتوي - فيما تحتوي - على رفض الطواغيت والتمهيد لإقامة حكم الله ، والعمل من اجل انقاذ الانسان من براثن الظلم والعبودية .

ولو ان الائمة كانوا يتركون الناس ، او كانوا يشتغلون بالسياسة فقط من دون خلفيات واطر وانظمة لهذه السياسة ، لكانت حركاتهم تشبه بعض الحركات السياسية التي تقوم بها فئات من الناس في أي مكان من العالم من اجل اهداف صغيرة ومحدودة ، ما ان يصلوا اليها حتى يعودوا ويحكموا الناس بالظلم والعدوان .

الفرق الاساسي بين حركة العباسيين وحركة العلويين

من هنا نعرف الفرق بين حركة العباسيين وحركة العلويين ، فالعلويون كانوا يريدون تطبيق الاسلام ، والاسلام يعني رسالة متكاملة فيها النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وكانوا يريدون حكماً عادلاً حراً ، حكماً جامعاً لكل شرائط الحق والكمال .

بينما العباسيون كانوا يريدون اسقاط النظام الاموي والسيطرة على مقاليد الحكم، لذلك عندما جاء العباسيون الى الحكم فعلوا ما فعله الأمويون من الجرائم ، فعندما بدأت الثورة العباسية في خراسان قام ابو مسلم الخراساني بقتل مئات الالوف صبراً كما جاء في بعض التواريخ [1]وابو مسلم الخراساني بدوره قُتل على يد العباسيين غدراً ، كما قتلوا من قتله ابا سلمة الخلال وهو وجه العباسيين في الكوفة ، وقاموا بقتل مجموعة من العلويين والموالي الذين على اكتافهم قامت الدولة العباسية . وكان حكم العباسيين حكما وراثياً ديكتاتورياً بما في الكلمة من معنى ، والذي ابقى على هذا الفرق بينه وبين الحركة الرسالية وغيرها من الحركات هو الدور الرسالي الذي اضطلع به الامام زين العابدين (عليه السلام) الذي كان يشتري العبيد ويقوم بتربيتهم ثم يعتقهم ويتركهم في المجتمع ، ليطالبوا بالعمل والحرية ويضحوا من اجل ذلك ، لقد كان يربي ويغذي جيل الثورة الرسالية ليس الثورة السياسية فقط ، وانما الثورة على جميع المستويات وجميع الاصعدة .

الحركة الرسالية ضمان بقاء الاسلام

ولو لم يكن الائمة المعصومون (عليهم السلام) موجودين ، وخصوصاً الامام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) لتعرض الاسلام للخطر ، اذ ان الامة الاسلامية في عهده تحولت الى مجموعات من الحركات السياسية ، كل واحدة منها تطلب الحكم لنفسها ، وتسعى في هذا السبيل ، ومن اجل ذلك تقترف كل الجرائم من اجل الوصول الى الحكم .

فنجد ان عبد الله بن الزبير يأتي وينكل ويقتل ويهدم ما يشاء من اجل الحكم ، ونجد كيف قتل السفاح والمنصور الدوانيقي الامويين بصورة وحشية ، فقد كانوا

---

(١) يقول ابن الاثير في تاريخه "الكامل في التاريخ" ج ٣ ، ص ٥٣٢ ما يلي " وكان ابو مسلم قد قتل في دولته ستمائة الف صبراً " .

يقتلون الامويين ويفرشون البساط عليهم وهم لا يزال بهم نفس من الحياة ، فيجلسون ويأكلون عليهم كما كان يفعل الحجاج بانصار العباسيين والعلويين .

انظروا الى أي درجة وصل الحقد؟ لقد كادت الامة الاسلامية ان تتحول الى امة حاقدة ، ليس فقط حقداً سياسياً ، وانما هذا الحقد كان ينعكس على سائر النواحي الاخلاقية أيضاً، وقد كانت نتيجة هذه الاعمال قيام ديكتاتورية قوية إنتهت إلى القضاء على الدولة الاسلامية بشكل كامل.

ان الدولة ينبغي ان تقوم بنشر الفكر الصحيح والخلفية الصحيحة ، لذلك كانت اولى الدول والبلاد التي سقطت بايدي المسيحيين هي الاندلس ، لانها لم تقم على اساس الافكار الرسالية المتينة التي تشكل الخلفية الحقيقية للحضارة الاسلامية ، وكان من الواجب تكوين هذا الفكر بكل ابعاده ، والائمة عملوا بهذا السبيل ، ولولاهم لكانت الامة تنتهي الى الدمار والاندثار .

وهذا هو جواب السؤال الذي يقول : لماذا اشتغل الامام علي بن الحسين زين العابدين في قضايا غير سياسية ؟ ويكفينا ان ندرس دور الصحيفة السجادية وكيف شكّلت حينها خلفية العمل الاسلامي لنعرف عظمة دور هذا الامام .

الصحيفة السجادية زبور الحركة الرسالية

ان ادعية الصحيفة السجادية هي خلفيات الفكر الثوري فقد كانت الامة الاسلامية بحاجة الى خلفية ثورية متكاملة ، وليس الى الكلام والشعر الذي يبث حقداً ، او يثير العواطف المرتجلة والآنية . لقد كانت الامة بحاجة الى نظرية متكاملة للثورة ، والامام زين العابدين (عليه السلام) بيّن هذه النظرية ليس في الصحيفة السجادية التي كانت خلاصة تربية الامام (عليه السلام) فحسب ، وانما كان الامام ذاته زبوراً ناطقاً . فقد قام في حياته بتربية الآلاف وقدمهم للمجتمع .

وهناك سؤال يطرحه البعض وهو : لماذا لم يبذل الامام كل جهوده في السياسة؟

والجواب هو ان الحركة الرسالية هرم يقف على رأسه الامام ، وتتكون اركان هذا الهرم من المجموعات التي تقوم بالانشطة المختلفة التي تلبي كافة احتياجات

المجتمع ، فالفقه ، والعلوم ، والسياسة .. كل ذلك كانت الامة بحاجة اليه وكان الامام زين العابدين (عليه السلام) يعدّ لكل ركن المجموعة المناسبة القادرة على القيام بالدور الموكول اليها ، وهذا منتهى القدرة في القائد ، وهو ان يكون قادراً على تربية رجل للحركات السرية ، وآخر للحركات العلنيــة ، وآخــر فــي الزهد والتقوى وهكذا .

مدرسة الائمة تخرج قادة الامة

ان الامام الذي يربي امثال سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن علي الباقر الذي بقر العلم بقراً، هذا الإمام ينبغي ان يكون قدوة لنا ، وان نتخذه الوسيلة الصحيحة والممثل الحقيقي لشريعة الله . ويربي ابنه زيد الذي فجّر سلسلة من الثورات الاسلامية في التاريخ وعبر قرون كانت الثورات الاسلامية نتيجة لحركة زيد .

والزيديـون هم الذين كانوا مظلة الحماية للثورة ، كما في قول الامام الصــادق (عليه السلام) : " لازال شيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد ، ولوددت ان الخارجي من آل محمد خرج وعليّ نفقته " [1] .

ان الامام زين العابدين (عليه السلام) الذي ربى نموذجين من البشر: نموذج العلماء ونموذج الثوار هذا الرجل يجب ان يعطى حق التقدير والاقتداء ، ويعرف بانه امام حقاً وان الاسلام يوصي باتباعه .

ولكننا نرى ان النظرية الرسالية هذه تتعرض لهجوم عنيف ليس في شخص الائمة (عليهم السلام) فقط ، وانما في ممارساتهم وافكارهم وخلفياتهم الثورية ، وهذا الهجوم ليس وليد العصور المتأخرة ، وانما بدأ منذ فجر الاسلام الاول .

والسؤال : لماذا الهجوم على الفكر الرسالي ؟

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ١١٢ .

والجواب : لان هذا الفكر خطر على الطغاة والانتهازيين والوصوليين . لذلك يجب على الذين يدافعون عن هذا الفكر بشكله الصحيح ان يعرفوا بانهم يواجهون تحدياً عظيماً ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نرى احمد الشلبي يقول في كتابه " تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية" ان معاوية حينما خلّف يزيداً ، كان يقوم بعمل حكيم وذلك لاسباب عديدة منها ان الذين كانوا يعارضون حكم يزيد لم يكونوا بأحسن منه ، فعبد الله بن عمر كان زاهداً عابداً وان هذه هي صفته الوحيدة ، والحسين بن علي لم تكن له أي صفة ، الا انه ابن بنت رسول الله وفقط .

وحينما يأتي الى الحسن بن علي (عليه السلام) يقول الكاتب لقد اخطأ الامام علي حينما ترك الحكم لابنه الحسن ، لانه لم يكن في هذا الشاب المزواج المطلاق الذي لا تهمه الا المرأة ، لم تكن له مزية لان يحكم البلاد ، ثم يضيف قائلاً :

ان يزيد كان اجدر انسان بالخلافة ، وكان من الصحيح ان يستخلفه .

ويأتي كاتب آخر وهو حسن ابراهيم ويملأ كتابه زيفاً وتشويهاً . ان هذا الكاتب حينما يأتي الى أي امام من ائمة اهل البيت (عليهم السلام) فانه لا يمر عليه الا ويقدح فيه ، فيقول مثلا " على اني ارى ان يزيد كان من حسنه ان امر بهدم الكعبة ، وقتل اهل المدينة ، لانهم تمردوا عليه " وكذلك يقول : "ان الحسين أخطأ عندما جاء بنسائه واطفاله للحرب مع يزيد " ويسهب قائلا على اني ارى كما رأيت في كربلاء ، بالذات في ليلة عاشوراء ان هؤلاء يعتقدون (ويقصد الرساليين) بانهم ابناء التوابين ، ولأن التوابين من آبائهم كانوا قد طلبوا الامام الحسين وقتلوه ، لذلك فقد سرى الذنب في اولادهم ، وان هؤلاء يريدون ان يخرجوا هذا الذنب من صدورهم ولذلك فانهم يلطمون عليها " ، هذا المؤرخ دكتور ومع ذلك يقول في كتابه مثل هذا دون أي تمحيص ودراسة لظروف ثورة كربلاء والاهداف التي نشدها الامام الحسين (عليه السلام) من قيامه ضد الامويين .

لذلك عندما نبقى على رساليتنا وندافع عنها فاننا لا ندافع عن فكرة ميتة ، وعن تاريخ ورجال ذهبوا ، ولكن نريد ان ندافع عن تلك النظرية الثورية الخلاقة المعطاءة التي خلفت وراءها الامة الاسلامية وحضارتها .

ولو ان هذه النظرية صيغت واعيدت وطبقت وجسدت حرفيا وبالشكل السليم من قبل فئة رسالية حيوية ، لاستطاعت ان تخلق حضارة جديدة . اما انحرافات يزيد وابيه معاويه وهارون الرشيد والمأمون العباسي لا يمكنها ان تكوّن حضارة .

الوضع العام للدولة الاسلامية في عصر الامام السجاد عليه السلام

كما قلنا ان حياة البشر كل لا يتجزأ ، فالسياسة ترتبط بالاجتماع ، والاجتماع يرتبط بالاقتصاد ، والاقتصاد يرتبط بالاخلاق ، والاخلاق ترتبط بالثقافة والفكر ، كما ان الثقافة والفكر بدورهما يرتبطان بسائر جوانب حياة الانسان ، لذلك فإن دور الامام علي بن الحسين (عليه السلام) لم يقتصر على جانب دون آخر . وفي هذا الموضوع نود ان نتحدث عن صور من حياة الامام زين العابدين (عليه السلام) .

في ايام الامام السجاد كان الوضع العام للدولة الاسلامية يعاني من ازمة حضارية حادة على مختلف الصعد ، السياسية والفكرية والاجتماعية والخلقية وكانت هذه الازمة تهدد الامة الاسلامية ليس فقط بتغيير مسيرتها ، وانما ايضا بزوالها .

وكان على الامام زين العابدين (عليه السلام) ان يعالج هذه الازمة ، ليس وحده بالطبع ، وانما باعتباره قائداً للطليعة الرسالية من امثال سليمان بن صرد الخزاعي ، والمختار بن عبيد الله الثقفي ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، والزهري وغيرهم .

" ومن رجاله من الصحابة جابر بن عبد الله الانصاري ، وعامر بن واثلة الكناني، وسعيد بن المسيّب بن حزن وكان رباه أمير المؤمنين . قال زين العابدين (عليه

السلام) : سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدم من الآثار ، أي في زمانه ، وسعيد بن جبهان الكناني مولى ام هاني ، ومن التابعين : ابو محمد سعيد بن جبير مولى بني اسد نزيل مكة ، وكان يسمى جهيد العلماء ويقرء القرآن في ركعتين ، قيل : وما على الأرض أحد إلاّ وهو محتاج إلى علمه ومحمد بن جبير بن مطعم ، وأبو خالد الكابلي ، والقاسم بن عوف ، وإسماعيل بن عبد الله بن جعفر ، وإبراهيم والحسن ابنا محمد ابن الحنفيّة ، وحبيب بن أبي ثابت وأبو يحيى الأسدي ، وأبو حازم الأعرج ، وسلمة بن دينار المدنيّ الأقرن القاص ومن أصحابه : أبو حمزة الثمالي بقي إلى أيّام موسى الكاظم (عليه السلام) ، وفرات بن أحنف بقي إلى أيام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) ، وجابر بن محمد بن أبي بكر ، وأيوب بن الحسن، وعلي بن رافع ، وأبو محمد القرشي السدّي الكوفي ، والضحّاك بن مزاحم الخراساني أصله من الكوفة ، وطاووس بن كيسان أبو عبد الرّحمان ، وحميد بن موسى الكوفي ، وأبان ابن تغلب بن رياح ، وأبو الفضل سدير بن حكيم بن صهيب الصيّرفي ، وقيس بن رمّانة ، وعبد الله البرقي ، والفرزدق الشاعر ، ومن مواليه شعيب [١] .

اولاً : الازمة السياسية

كانت الازمة السياسية من ابرز الازمات التي عصفت بالامة الاسلامية التي كانت تضطرب وتموج بفعل الحركات المعارضة لسلطة بني أمية فهناك حركة في العراق ، وحركة في الحجاز ، وحركة في مصر ، وحركة في المغرب ، وحركات في غير مكان من البلاد الاسلامية .

فالسياسة لم تكن مستقرة حينها ابدا ، وابسط دليل على ذلك هو انه وخلال نصف قرن - كما يبين التاريخ - تسارع هلاك الحكام . فمعدل عمر الحاكم كان ثلاث سنوات .

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٤٦ ، ص ١٣٣

فيزيد بن معاوية بقي في السلطة فترة ٣ سنوات ومعاوية بن يزيد ولي الأمر اربعين ليلة ، ومروان بقي ٤ سنوات ، وابنه عبد الملك بقي ٥ سنوات، هؤلاء الحكام الذين كانوا رأس النظام الأموي ، اما الولاة فكانوا ايضاً يبدّلون بطريقة عجيبة نظراً لحدة الأزمة السياسية .

وهذه الأزمة اولدت ازمات اخرى ، اهمها الازمة الخلقية التي عصفت بالأمة الاسلامية .

ثانياً : الازمة الخلقية

وتعني ان تلك القيم التي جاء بها الاسلام والرسالة الاسلامية للانسان ، كادت تزول ولم يبق منها إلاّ شيء بسيط . فمن ابرز تلك القيم كانت قيمة المساواة . مثل المساواة في الشؤون التالية :

١ – المساواة بين العرب والموالي .

٢ – المساواة بين الطبقات .

٣ – المساواة بين الحاكم والمحكوم .

وهذه قيمة اساسية في الاسلام ، ولكنها لم تجد لها واقعاً داخل الأمة الاسلامية آنذاك .

لقد رأى الموالي من المسلمين أو غير المسلمين الذين قبلوا بالحكم الاسلامي ، ان حياتهم تحولت الى جحيم في العهد الاموي كما كانت قبل الاسلام . بينما كان المسلمون قد بشروهم بانهم سوف يتمتعون بحياة سعيدة يسودها العدل والمساواة .

ان الوعد الذي قطعه المسلمون على انفسهم حين تم لهم فتح البلدان : " اننا جئنا لنخرجكم من عبادة العباد الى عبادة الله "

هذا الوعد لم يلمسه الموالي والطبقات الكادحة من العمال والفلاحين والمهنيين وصغار التجار في البلاد المفتوحة بل وجدوا انفسهم قد تحوّلوا عبيداً لسادة آخرين . وربما ظلوا عبيدا لنفس سادتهم الاولين ، لان الامويين كانوا يتفقون مع العلوج

الذين هم الدهاقين ، بأن لهم الحق في استغلال واستعباد مواطنيهم لقاء الخراج الذي يدفعونه للدولة ، وقد قام هؤلاء بالسيطرة على الموالي وعلى تلك الطبقات المحرومة وقد أخذوا الضرائب من الناس بشكل عشوائي ، ومارسوا بحقهم الظلم والتقتيل باسم الدين وكان اعتمادهم في ذلك على الفاتحين العرب الذين آمن الناس بانهم جاؤوا اليهم بدين جديد ، في حين انهم لم يجدوا تطبيقاً عملياً لمبادئ هذا الدين عليهم . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى سببت الأزمة الخلقية الى افتقاد الأمن الشخصي في عهد بني أمية ابتداء من عهد معاوية فما بعد .

وأبسط دليل على ذلك ما يذكره المؤرخون حول زياد بن ابيه حينما ولي البصرة من قبل معاوية . فعندما جاء الى البصرة رأى ان تلك المدينة تحكمها شريعة الغاب والرجل لا يأمن على نفسه ، حينما يخرج من بيته ليلا . والمرأة سواء كان ليلا أم نهارا لم تكن تأمن على نفسها . والمختطفون والمغتصبون للنساء كانوا يأتون للمرأة ويقولون لها اصرخي ثلاثاً ، ثم انظري اذا جاء اليك من يساعدك سوف نطلق سراحك ، وإلا فان لنا الحق في ان نأخذك معنا . وبالفعل فان المرأة في حينها تصرخ ثلاث مرات ، ولكن لم يكن هناك من يجرأ على التقدم ليخلصها من أيدي اللصوص ، إلا المرأة ذات الوضع الاجتماعي المعين التي لها عشيرة او قبيلة ، فكانت تتخلص من أيدي هؤلاء المجرمين . اما ذلك الاحساس بالمسؤولية الاجتماعية التي يزرعها ويولدها الاسلام في الانسان والذي يقول : " من اصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم " . ذلك الحس كان مفقوداً تقريباً في المجتمع .

جاء زياد بن ابيه الى البصرة والوضع بهذه الحالة ، فالناس يقتل بعضهم بعضاً ، والانسان لا يأمن على بيته وزوجته وأمواله من اللصوص .

فقام زياد بن ابيه يومها بفرض منع التجول ، وربما لاول مرة في التاريخ الاسلامي . وحكم بأن الرجل الذي يخرج من منزله ليلاً يقطع رأسه ، والحرس الذين يأتون برأس شخص قد خرج ليلا يكافؤون بخمسين درهماً . ولما كان أهل

البصرة حينها يعيشون الفقر ، وكانت هناك طبقات ذات مستوى معيشي ضعيف ، لذلك فإن هذه الطبقات انضوت تحت لواء زياد بن أبيه وقامت بقتل كل من تراه خارجاً من بيته ليلاً ، بل ان قسماً من الناس كانوا يذبحونهم في بيوتهم ثم يأتون برؤوسهم الى دار الإمارة .

يقول ابن الاثير : " فإذا فرغ (زياد من صلاة العشاء) امهل بقدر ما يرى ان إنساناً يبلغ اقصى البصرة ، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج ، فيخرج فلا يرى إنساناً إلا قتله . فأخذ ذات ليلة اعرابياً فأتى به زياداً فقال : هل سمعت النداء ؟ فقال : لا والله ! قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع واقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير . فقال : أظنك صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة . ثم أمر به فضُربت عنقه " (١) .

" وقد استخلف زياد سمرة بن جندب على البصرة فاكثر القتل فيها ، فقال ابن سيرين : قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف فقال له زياد : اتخاف ان تكون قتلت بريئاً ؟ فقال لو قتلتُ معهم مثلهم ما خشيت . وقال ابو السوّار العدوّي : قتل سمرة من قومي في غداة واحدة سبعة واربعين كلهم قد جمع القرآن " (٢) .

ولكن نحن نسأل : هل كانت سياسة القوة هذه تستطيع ان تكون البديلة عن الضمير ؟ بالطبع ، لا .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الأزمة الخلقية ، وهو ان الصدق والامانة ، والتعامل الصحيح مع الناس ، بل الاجتناب عن المحرمات والخمر والميسر والفحشاء والمنكر ، كل ذلك اصبح شبه مفقود في المجتمع . فقد تحولت المحرمات الى مباحات .

فالنـــاس على دين ملوكهم ، وإذا كان يزيد مولعا بالقرود والفهود والكـــلاب ،

---

(١) الكامل في التاريخ ،ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

(٢) المصدر ، ص ٤٨٢.

والخمر والفحشاء ، فانه بالطبع سوف يعكس وضعه وشذوذه على كافة القطاعات ، خصوصاً وان الأمة كانت لاتعيش الاستقرار في كافة الحقول .

يقول المسعودي في مروج الذهب ج ٣ ، ص ٦٧ :

" وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب ، وقرود وفهود ، ومنادمة على الشرب ..

وغلب على اصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكأ .. " .

ثالثاً : الازمة الفكرية

هذه الأزمة كانت بارزة في عهد امامة زين العابدين . فقد كانت الأمة لاتعرف طريقها ، بينما احتكت بالأمم الأخرى نتيجة توسع الفتوحات الأسلامية في كافة الأطراف والجبهات . وقد دخلت مع المسلمين جماعات غريبة لهم ثقافاتهم واوضاعهم الفكرية ، وكانت الأمة بحاجة الى بوتقة تصهر هذه الأفكار ومن ثم تميّز الخبيث منها من الطيّب ، بينما كانت الأمة مشغولة بالقضايا السياسية الحادة . فلو جاء أحد الفلاسفة الذين أسلموا في الفتوحات الاسلامية وسأل أبناء الأمة الاسلامية عن اسئلة بعد ان اخبرهم أنه يؤمن بالنظرية الافلاطونية :

ماهو رأيكم أيها المسلمون في الجبر والاختيار ؟ وما هو رأيكم في القدر ؟ وما هو رأيكم في الجوهر والاعراض ؟ لكان جوابهم : لانعرف .

حينما لايمتلك ابناء الامة الاسلامية نظرية متكاملة عن مجالات الدين السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، فسوف تتكرس نظريات وافكار هذا الفيلسوف في واقع الأمة .

وبالفعل فقد انتشرت الزندقة والافكار المنحرفة ونشأت تيارات فكرية متضاربة من زنادقة وملحدين وقدرية ومفوضة. حتى ان البعض اتبعوا نظرية المجوس وادخلوا في الدين الافكار المانوية والثنائية (الاهريمن ، والموزدا) وبان هناك الهاً للخير والهاً

للشر ، وانهما في حالة صراع دائم . والبعض اخذوا نظرية البراهمية . وآخرون اخذوا افكارا من اليونان ومن الافلاطونية وكيفوا الاسلام على تلك الافكار . وإذا بالاسلام تحول الى عشرين اسلاما . والافكار الاسلامية تناقضت بشكل حاد والامة الاسلامية لاتعرف ماذا عليها ان تعمل وما هي واجباتها .

رابعاً : الازمة الاجتماعية

الازمة الاجتماعية هي حصيلة جميع الازمات ، وقد نتجت بالذات بسبب توسع البلاد الاسلامية بالفتوحات إذ مع توسع البلاد انتشرت العائلات وتفرقت في البلاد المختلفة . وقد كان الرجل العربي من قبل يعيش في قرية او في واحة ، ولكنه ضمن مجموعته المحدودة، يذهبون وينتقلون مع بعضهم البعض فضلا عن الاتحاد بينهم في كافة الأمور ، وذلك الاجتماع كان من اسباب القوة عند العرب . ولكن بعدما كثرت الفتوحات الاسلامية ، رأينا ان الابن في العراق بينما الاب في اسبانيا يفتحها. وفي ذلك العهد لم تكن هناك وسائل الاتصال والمراسلة المنتظمة كالبريد والهاتف وكذلك لم تكن هناك وسائل المواصلات السريعة .

وهكذا فان تفكك الأُسر وهي الكيانات الاجتماعية الحصينة وتكون تجمعات سكانية خليطة ، قد سبب للمسلمين ذلك الفساد والانحلال الذي عانوا منه .

اضافة الى ذلك نشأت أزمة اقتصادية حادة نتيجة جور الولات في جمع الخراج ، فخربت البلاد وقلّت العمارة .

كل هذه الازمات كان على الامام زين العابدين المسؤول الأول في الأمة الاسلامية ان يعالجها .

الامام السجاد يزرع روح الايمان في الامة

ان ضعف الايمان بالله سبحانه وتعالى ، هو العامل الاساس وراء كل الازمات التي اصيبت بها الامة الاسلامية .

وحيـاة السجاد (عليه السلام) كلها جهاد متواصل من أجل زرع بذور الايمان

في قلوب المسلمين ، وسقيها ومداراتها ببرامجه الروحية وسيرته التي عُرف بها زيناً للعابدين .

لقد سجّل التاريخ صفحات نيرة من سيرة هذا الامام العظيم ، في علمه ، وعمله ، وعبادته وتبتله لرب العالمين . وهنا نورد غيثاً من فيض السجاد (عليه السلام) .

" عن عبد الله بن مبارك قال : حججت بعض السنين الى مكة ، فبينما انا سائر في عرض الحاج واذا صبي سباعي او ثماني، وهو يسير في ناحية من الحاج بلا زاد ولا راحلة . فتقدمت اليه وسلمت عليه وقلت له : مع من قطعت البر ؟ قال مع الباري ، فكبر في عيني ، فقلت يا ولدي : اين زادك وراحلتك ؟ فقال : زادي تقواي وراحلتي رجلاي ، وقصدي مولاي ، فعظم في نفسي ، فقلت : يا ولدي ممن تكون ؟ فقال : مطّلبي ، فقلت : أبِنْ لي ؟ فقال : هاشمي ، فقلت أبِنْ لي ، فقال : علوي فاطمي ، فقلت : يا سيدي هل قلت شيئا من الشعر ؟ فقال : نعم ، فقلت : انشد شيئا من شعرك . فانشد :

لنحن على الحوض روّاده — نذود ونسقي روّاده
ومن سرّنا نال منا السرور — ومن ساءنا ساء ميلاده
ومن كان غاصبا حقنا — فيوم القيامة ميعاده

ثم غاب عن عيني الى ان اتيت مكة فقضيت حجّتي ورجعت ، فأتيت الى الابطح ، فاذا بحلقة مستديرة ، فاطلعت لأنظر من بها فاذا هو صاحبي ، فسألت عنه فقيل : هذا زين العابدين (عليه السلام) [(١)].

وعن الامام الباقر (عليه السلام) قال : " كان أبي (عليه السلام) في موضع سجوده آثار ناتئة ، وكان يقطعها في السنة مرتين في كل مرة خمس ثفنات سمّي ذو الثفنات لذلك " [(٢)] .

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٤٦ ، ص ٩١ .

(٢) علل الشرائع ، ص ٨٨ .

عن ابراهيم بن علي بن أبيه قال : حجّ علي بن الحسين (عليه السلام) ماشياً ، فسار عشرين يوماً من المدينة الى مكة [١] .

ان الامام زين العابدين كان بعبادته يعطي اكبر دفع للامة نحو استرجاع الروح التي اخذت تبهت في ذاتها ، بفعل سياسة الترغيب والترهيب التي اراد بنو امية ان يربّوا الناس عليها ، والتي انتجت جيشاً من المرتزقة والعملاء ، وقلبت المقاييس الاخلاقية في المجتمع وشوهت حقائق الدين .

فالامام كان يعطي للناس الانموذج والقدوة .

عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : كان علي بن الحسين (عليه السلام) يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، كما كان يفعل أمير المؤمنين (عليه السلام) . كانت له خمسمائة نخلة ، فكان يصلّي عند كل نخلة ركعتين ، وكان اذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر ، وكان قيامه في صلاته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل . كانت اعضاؤه ترتعد من خشية الله عز وجل ، وكان يصلي صلاة مودّع يرى انه لايصلي بعدها ابداً ، ولقد صلى ذات يوم فسقط الرداء عن احد منكبيه فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته ، فسأله بعض اصحابه عن ذلك ، فقال : ويحك اتدري بين يدي من كنت ؟ " [٢]

يقول عبد الله بن علي بن الحسين (عليه السلام) :

" كان أبي يصلي بالليل حتى يزحف الى فراشه " [٣] .

أي كان يعسر عليه القيام لشدة الاعياء من العبادة .

ويقـول زيد بن علي (ابن الامام) : " كان الامام (عليه السلام) حينما ينتهـي من صلواته لاتحمله ركبتاه الى فراشه ، انما كان يحبو الى الفراش حبوا كالطفـل " .

---

(١) الارشاد ، ص ٢٧٣ .

(٢) الخصال ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(٣) بحار الأنوار ، ج ٤٦ ، ص ٩٩ .

الامام زين العابدين حينما يقف امام ربه تراه يناجي ربه ويبكي . كما قال الامام الباقر (عليه السلام) بأنه سأل مرة والده : يا ابتاه : لماذا هذه الصلاة ؟

فاجابه قائلا : اصلي لربي لعل ربي يحبني .

وفعلا احبه ربه فقد كان في مكة المكرمة بعد ما قلّ الغيث واشتد بالناس العطش. وقف يدعو الله سبحانه وتعالى ان يمطر على أهل مكة . ثم سجد وقال: "سيدي بحبك لي الا سقيتهم الغيث ان كنت تحب علي بن الحسين فامطر عليهم "، فما استتم الكلام حتى أتاهم الغيث كأفواه القرب .[1]

لقد بيّن للناس واعطاهم الطاقة الروحية ، تلك الطاقة التي تحولت الى طاقة خلقية ومفهوم خلقي صحيح ، وبالتالي تحولت الى خيرات داخل الامة الاسلامية . والامة الاسلامية كانت بحاجة الى هذه الروح . فصلاة الامام زين العابدين وتلاوته وقراءته للقرآن كان ضرورياً للامة ، التي كانت تستوعب ذلك لمكانته بين ابناءها .

انظروا الى التاريخ لتجدوا الامام زين العابدين (عليه السلام) يأتي الى البيت الحرام ، والناس في ذلك الزحام والتدافع والانشغال ولكنهم ينقشعون ليفسحوا له الطريق فيستلم الحجر بسهولة .

كيف كان ذلك ؟

ان الناس استوعبوا حياة الامام زين العابدين (عليه السلام) وعرفوه ودخلت في قلوبهم ونفوسهم محبته .

لقد ساهم الامام زين العابدين في علاج الازمة الفكرية بتوجيهاته وافكاره الرسالية . فنرى مثلاً رسالة الحقوق التي بيّن فيها الحقوق التي اوجبها الاسلام على الانسان المسلم ، وقسّم تلك الحقوق الى خمسين قسماً . وربما تكون بعض بنود هذه الرسالة بديهية بالنسبة لنا ، لاننا في واقعنا نعيش بعض القيم المتوارثة في

---

(١) الاحتجاج ، ص ١٧٢ .

المحبة والتوادد وصلة الرحم . ولكن في زمن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) كانت رسالة الحقوق تعني تحدياً للازمة الاجتماعية التي كانت تعيشها الامة الاسلامية [1] .

واما الازمة السياسية ، فالامام زين العابدين عايش وغذّى تلك الحركات الموجودة ، وكانت في طليعتها حركة سليمان بن صرد الخزاعي وحركة المختار الثقفي . وهذا ما سنبيّنه في المواضيع القادمة .

---

(١) رسالة الحقوق - تحف العقول عن آل الرسول ، ص ١٨٣ .

ثورة التوابين والنهاية الدامية

في سنة خمس وستين للهجرة اجتمع عدد من الشيعة في الكوفة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي ، وكانوا قد ندموا على عدم نصرتهم الامام الحسين (عليه السلام) بعد ان كانوا قد كاتبوه بالقدوم اليهم . وتعاقدوا يومها على الثأر من قتلة الامام الحسين (عليه السلام) وحددوا لذلك ساعة الصفر ، وعينوا سليمان بن صرد الخزاعي قائداً لهم .

وفي الوقت المحدد اطلق شعاره (يا لثارات الحسين) وكان اول من اطلق هذا الشعار ، بعد ان كاتب اهل المدائن والبصرة ، ووعدوه بالنصرة ، واجتمع حوله ما بين اربعة الاف الى خمسة الاف مقاتل في منطقة النخيلة ، وهي مفترق الطرق بين الشام والكوفة والمدينة ، وهي منطقة استراتيجية كانت الجيوش تعسكر فيها .

ثم قام سليمان في اصحابه فقال : " ايها الناس من كان خرج يريد بخروجه وجه الله والاخرة فذلك منا ونحن منه ، فرحمة الله عليه حيّاً وميتاً . ومن كان إنّما يريد الدنيا فوالله ما نأتي فيئاً نأخذه وغنيمة نغتنمها ما خلا رضوان الله ، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع ، وما هو الا سيوفنا على عواتقنا ، وزاد قدر البُلغة . فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحبنا " فنـــادى اصحابه من كل جانب : إنّا لا نطلب الدنيـا وليـس لها خرجنا إنما خرجنـا نطلـب التـوبة والطـلـب بـدم ابـن بنت

رسول الله نبينا (صلى الله عليه وآله) .

فلما عزم سليمان على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل : إني قد رأيت رأياً إن يكن صواباً فالله الموفق ، وان يكن ليس صواباً فمن قبلي ، إنا خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتلته كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد ورؤوس الارباع والقبائل ، فأين نذهب ها هنا وندع الاوتار ؟ فقال اصحابه كلهم : هذا هو الرأي.

فقال سليمان : لكن انا لا ارى ذلك ، إن الذي قتله وعبأ الجنود إليه وقال لا امان له عندي دون ان يستسلم فأمضي فيه حكمي ، هذا الفاسق ابن الفاسق عبيد الله بن زياد ، فسيروا اليه على بركة الله فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده اهون علينا منه ، ورجونا ان يدين لكم اهل مصركم في عافية فينظرون الى كل من شرك في دم الحسين فيقتلونه ولا يغشوا ، وان تستشهدوا فإنما قاتلتم المُحلّين ، وما عند الله خيـــر للأبرار ، إني لا احب ان تجعلوا جدكم بغير المحلين ، ولو قاتلتم اهل مصركم ما عدم رجل ان يرى رجلاً قد قتل اخاه واباه وحميمه ورجلاً يريد قتله ، فاستخيروا الله وسيروا [1] .

عند قبر الحسين (عليه السلام)

ثم ساروا فانتهوا الى قبر الحسين ، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة ، فمارئي اكثر باكياً من ذلك اليوم ، فترحموا عليه وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال معه واقاموا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرعون ويترحمون عليه وعلى اصحابه ، وكان من قولهم عند ضريحه : اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد ، المهدي ابن المهدي، الصديق لبن الصديق ، اللهم انا نشهدك انا على دينهم وسبيلهم واعداء

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢٥٢/٨ ان سليمان بن صرد خطب اصحابه فقال : إن ابن زياد هو الذي جهز الجيش اليه (الى الحسين بن علي) وفعل به ما فعل ، فإذا فرغنا منه عدنا الى اعدائه بالكوفة (امثال عمر بن سعد وغيره) ولو قاتلتموهم اولا ، وهم اهل مصركم ما عدم الرجل منكم ان يرى رجلا قد قتل اباه قد قتل اخاه او حميمه ، فيقع التخاذل ، فإذا فرغتم من هذا الفاسق ابن زياد حصل لكم المراد .. فنادى فيهم : سيروا على اسم الله تعالى .

قاتليهم وأولياء محبيهم ، اللهم انا خذلنا ابن بنت نبينا فاغفر لنا ما مضى منا وتب علينا وارحم حسيناً واصحابه الشهداء الصديقين ، وإنا نشهدك انا على دينهم وعلى ما قُتلوا عليه ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

ثم ساروا بعد ان كان الرجل يعود الى ضريحه كالمودع له ، فازدحم الناس عليه اكثر من ازدحامهم على الحجر الاسود ، ثم اخذوا على الانبار .

ثم صاروا حتى انتهوا الى قرقيسيا على تعبية[1] وبها زفر بن الحارث الكلابي قد تحصن بها منهم ولم يخرج اليهم ، فأرسل اليه المسيّب بن نجبة يطلب إليه ان يُخرج إليه سوقاً ، فأتى المسيب إلى باب قرقيسيا فعرفهم نفسه وطلب الاذن على زفر ، فأتى هذيل بن زفر اباه فقال : هذا رجل حسن الهيئة اسمه المسيب بن نجبة يستأذن عليك ، فقال ابوه : اما تدري يابني من هذا ؟ هذا فارس مضر الحمراء كلها ، اذا عُدّ من اشرافها عشرة كان احدهم هو ، وهو بعد رجل ناسك له دين، إئذن له ، فأذن له ، فلما دخل عليه اجلسه الى جانبه وسأله ، فعرّفه المسيب حاله وما عزموا عليه ، فقال زفر : انا لم نغلق ابواب المدينة الا لنعلم ايانا تريدون ام غيرنا ، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم ، وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة .

ثم امر اليه فأخرج لهم سوقاً ، وامر للمسيب بألف درهم وفرس ، فرد المال واخذ الفرس وقال : لعلي احتاج اليه ان عرج فرسي ، وبعث زفر اليهم بخبز كثير وعلف ودقيق حتى استغنى الناس عن السوق ، الا ان كان الرجل يشتري سوطاً او ثوباً .

ثم ارتحلوا من الغد ، وخرج اليهم زفر يشيعهم وقال لسليمان : انه قد سار خمسة امراء من الرقة هم الحصين بن نمير وشُرحبيل بن ذي الكلاع وأدهم بن محرز وجبلة بن عبد الله الخثعمي وعبيد الله بن زياد في عدد كثير مثل الشوك والشجر ، فان

---

(١) وكانت طريقهم من منزل قبر الحسين (عليه السلام) القيارة ثم الى هيت ثم من هيت الى عانات وما يليها حتى قرقيسيا على شاطئ الفرات .

شئتم دخلتم مدينتنا وكانت ايدينا واحدة ، فإذا جاءنا هذا العدو قاتلناهم جمياً .

فقال سليمان : قد طلب اهل مصرنا ذلك منا فأبينا عليهم .

قال زفر : فبادروهم الى عين الوردة وهي رأس عين فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في ايديكم وما بيننا وبينكم فانتم آمنون منه ، فاطووا المنازل ، فوالله ما رأيت جماعة قط اكرم منكم ، فإني أرجو ان تسبقوهم، وان قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم فإنهم اكثر منكم ، ولا آمن ان يحيطوا بكم ، فلا تقفوا لهم فيصرعوكم ، ولا تصفوا لهم ، فإني لا ارى معكم رجّالة ومعهم الرجالة والفرسان بعضهم يحمي بعضاً ، ولكن القوهم في الكتائب والمقانب ثم بثوها فيما بين ميمنتهم وميسرتهم واجعلوا مع كل كتيبة اخرى الى جانبها ، فإن حُمِلَ على احدى الكتيبتين رحلت الاخرى فنفّست عنها ، ومتى شاءت كتيبة ارتفعت ، ومتى شاءت كتيبة انحطت ، ولو كنتم صفاً واحداً فزحفت اليكم الرجالة فدفعتم عن الصف انتقض فكانت الهزيمة ، ثم ودعهم ودعا لهم ودعوا له واثنوا عليه .

ثم ساروا مجدّين فانتهوا الى عين الوردة فنزلوا غربيّها واقاموا خمساً فاستراحوا واراحوا .

واقبل اهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلة، فقام سليمان في اصحابه وذكر الاخرة ورغّب فيها ثم قال : " اما بعد فقد اتاكم عدوكم الذي دأبتم إليه في السير آناء الليل والنهار ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم القتال واصبروا ان الله مع الصابرين ، ولا يولينهم امرؤ دبره الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة ، ولا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا اسيراً من اهل دعوتكم الا ان يقاتلكم بعد ان تأسروه ، فإن هذه كانت سيرة علي في اهل هذه الدعوة " .

ثم قال : " إن انا قُتلت فأمير الناس مسيب بن نجبة ، فإن قُتل فالامير عبد الله بن سعد بن نُفيل ، فإن قُتِل فالامير عبد الله بن وال ، فإن قُتِل فالامير رفاعة بن

شداد ، رحم الله امرأ صدق ما عاهد الله عليه " .

ثم بعث المسيب في اربعمائة فارس ثم قال : سر حتى تلقى اول عساكرهم فشنّ عليهم الغارة ، فإن رأيت ما تحبه والا رجعت ، وإياك ان تترك واحداً من اصحابك او يستقبل آخر ذلك ، حتى لا تجد منه بدّاً ، فسار يومه وليلته ثم نزل السحر ، فلما اصبحوا ارسل اصحابه في الجهات ليأتوه بمن يلقون ، فأتوه بأعرابي ، فسأله عن ادنى العساكر منه ، فقال : ادنى عسكر من عساكرهم منك عسكر شرحبيل بن ذي الكلاع ، وهو منك على رأس ميل ، وقد اختلف هو والحصين ، ادعى الحصين انه على الجماعة وابى شرحبيل ذلك ، وهما ينتظران امر ابن زياد .

فسار المسيب ومن معه مسرعين فاشرفوا عليهم وهم غارّون ، فحملوا في جانب عسكرهم ، فانهزم العسكر واصاب المسيب منهم رجالا ، فاكثروا فيهم الجراح واخذوا الدواب ، وخلّى الشاميون عسكرهم وانهزموا ، فغنم منه اصحاب المسيب ما ارادوا ثم انصرفوا الى سليمان موفورين .

ولما بلغ الخبر ابن زياد ، بعث الحصين بن النمير في اثني عشر الفاً وتبعه ابن ذي كلاع في ثمانية الاف ، ثم تبعه ادهم الباهلي في عشرة الاف فاقتتلوا يوم الجمعة قتالا شديداً الى ارتفاع الضحى ، ثم ان اهل الشام كثروهم وتعطفوا عليهم من كل جانب ، ورأى سليمان ما لقي اصحابه ، فنزل ونادى : عباد الله من اراد البكور الى ربه والتوبة من ذنبه فإلي ، ثم كسر جفنة سيفه ونزل معه ناس كثير وكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه ، فقاتلوهم ، فقتل من اهل الشام مقتلة عظيمة وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح ، فلما رأى الحصين صبرهم وبأسهم بعث الرجالة ترميهم بالنبل واكتنفتهم الخيل والرجال ، فَقُتِل سليمان ، رحمه الله، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ثم وثب ثم وقع .

ولما استشهد سليمان تعاقب اصحابه على حمل الراية ، كلّما استشهد حاملها حملها الاخر ، الى ان حملها رفاعة بن شداد البجلي ، فقال : ارجعوا بنا لعل الله يجمعنا ليوم شرهم ، فقال له عبد الله بن عوف بن الاحمر : هلكنا والله لئن

انصرفت ليركبن اكتافنا فلا نبلغ فرسخاً حتى نهلك عن آخرنا ، وان نجا منا ناج اخذته العرب يتقربون به اليهم فقتل صبراً ، هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على خيلنا ، فإذا غسق الليل ركبنا خيولنا اول الليل وسرنا حتى نصبح ونسير على مهل ويحمل الرجل صاحبه وجريحه ونعرف الوجه الذي نأخذه ، فقال رفاعة ، نعمَ ما رأيت ! واخذ الراية وقاتلهم قتالا شديداً ، ورام اهل الشام إهلاكهم قبل الليل فلم يصلوا الى ذلك لشدة قتالهم ، فلما امسوا رجع من بقي منهم الى الكوفة (١).

اسباب فشل ثورة التوابين سياسياً

والسؤال هنا : لماذا فشلت ثورة التوابين في تحقيق اهدافها السياسية التي تمثلت في القضاء على قتلة الامام الحسين (عليه السلام) ؟

قبل كل شيء يجب ان نعرف نوعية هذه الثورة ، فقد ذكرنا فيما سبق بأن هناك في التاريخ الرسالي نوعين من الثورات :

ثورة العسكريين والسياسيين مثل ثورة المختار الثقفي . ونوع ثان هو حركات الفقهاء والزهاد والقراء ، وفي طليعة هذا النوع حركة سليمان بن صرد الخزاعي ، ثم حركة زيد بن علي .

وفائدة هذه الحركات كحركة القادة الدينيين من العلماء والفقهاء والمراجع اليوم، هي بعث روح التضحية وروح الجهاد في الامة . بالطبع لم يكن اكثر المسلمين يتصورون آنئذ بان سليمان بن صرد يستطيع بمجموعته وبتركيبة افراده ان ينجح في حركته ويستلم الحكم خصوصاً انه كان قد تجاوز الثامنةوالثمانين من عمره ، وقد كان هدف هؤلاء جميعاً يتلخص في كلمة هي ان يبيّنوا للامة الاسلامية وجماهيرها على طول الشارع الاسلامي ، ابتداء من ارمينيا وانتهاء بافريقيا ، ان هناك ازمة خطيرة يجب الالتفات إليها .

---

(١) الكافي في التاريخ ، ج ٢ ، بأختصار من ص ٦٣٥ – ٦٤٢ .

لقد كانت حركة التوابين من اجل هز ضمائر المسلمين التي خيم عليها الجمود، ومن ثم تحريكهم للثورة على الحكومة الاموية الطاغوتية المفسدة. فحركتهم كانت تصبو لتحقيق اهداف اعلامية ودينية قبل ان يكون لها اهداف سياسية وقد حققوا هذا الهدف، ومع ذلك لا بأس ان نحاول اكتشاف السبب في فشل ثورة سليمان بن صرد من الناحية السياسية .

أما اسباب عدم انتصار التوابين فهي :

اولاً : اعتماد سليمان بن صرد على الكوفة التي كانت تتكون من مجموعة قبائل محاربة انتقلت من موطنها الجزيرة العربية وكان لكل قبيلة حياً صغيراً مسوراً .

ان الجندي المحترف للقتال ، قلّما يكون واعياً من الناحية السياسية ، لذا فإنه يكون دائما تابعاً لميول زعيم قبيلته التي كانت تتبدل تبعاً للمصالح والعطايا .

فالجنود لا يعرفون غير شهر السلاح والقتال ، وهم بطبيعة وضعهم لابد ان يتلوّنوا ، لذلك نرى ان اهل الكوفة كانوا يختلفون بين وقت وآخر ، فيوما مع مسلم بن عقيل ، وحين يأتي ابن زياد ويطمعهم بالمال والعطاء ، يتركون مسلما ويلتفون حول ابن زياد، وغدا عندما يأتي المختار ويدفع اكثر فانهم سيكونون معه وينصرونه، وعندما يذهب المختار ويأتي مصعب فإنهم سيكونون معه ، ثم يذهب ويأتي عبد الملك بن مروان فسيكونون معه وهكذا ...

يقول ابن اثير : " فأصبح من الغد (سليمان) وقد اتاه نحو مما في عسكره ، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر الفاً ممن بايعه فقال : سبحان الله ! ما وافانا من ستة عشر الفاً الا اربعة الاف " [1] .

والسبب في ذلك انهم جيوش محترفة ، تقف مع الواقف . وحتى في التاريخ الحديث عندما يحدث انقلاب عسكري في العراق مثلاً (العراق كان يحدث فيه انقلابات عسكرية بصفة مستمرة) . نرى ان الجيش الذي كان يحارب من اجل

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ / ص ٦٣٢ .

نوري السعيد فانه اخذ يحارب من أجل عبد الكريم قاسم ، والذي حارب دفاعاً عن عبد الكريم قاسم نراه يدافع عن احمد حسن البكر ثم عن عبد السلام وعبد الرحمن ، ثم مرة اخرى عن احمد حسن البكر ، واخيراً يدافع عن صدام حسين وهكذا ...

والسبب في ذلك ان هذا الجيش عليه اتباع قيادته واتباع الوضع العام في الدولة، فالأقوى في الدولة هو الذي يستطيع ان يأخذ بزمام هذا الجيش .

فالسبب الاول للتحولات في الكوفة هي انها كانت " حامية للجيش " والجيش الاسلامي حينها لم تكن قد ترسخت في ذهنه الافكار السياسية الاسلامية ، لذلك كان يتبع من يرى انه يسيطر على الوضع .

من جهة اخرى كان إهتمام الجيش الاسلامي ينصب على فتح البلاد الخارجية وليس تصحيح الامور في الداخل ، لذلك لا يهمه من يحكم ، وانما المهم عنده ان يعطيه الحاكم المجال لفتح البلدان البعيدة .

لقد كانت الحاميات العسكرية في الكوفة تسرع لتصل الى حدود خراسان ، وما وراء النهر لكي تحارب وتغتنم وتأتي بالغنائم .

وهذا السبب هو الذي دعى الامام زين العابدين ان لا يستجيب لكلام الكوفيين عندما خطب فيهم بعد استشهاد والده ووبخهم على ما عملوه مع ابيه الامام الحسين (عليه السلام) فقالوا : نحن كلنا يا ابن رسول الله سامعون مطيعون ، حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك ، فمرنا يرحمك الله ، فانا حرب لحربك وسلم لسلمك ، لنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا .

فقال الامام (عليه السلام) : " هيهات ايها الغدرة المكرة ، حيل بينكم وبين شهوات انفسكم ، اتريدون ان تأتوا إليّ كما أتيتم الى آبائي من قبل ؟ كلا ورب الراقصات (الاشجار) فان الجرح لما يندمل ..."

بالطبع فان اهل الكوفة لم يثبتوا على هذا الكلام وانما اصبحوا مع الحجاج بن يوسف الثقفي ضد اهل البيت وانصارهم .

ان سليمان لو كان يسيطر على الكوفة سيطرة كاملة ، فان فرص النجاح بالنسبة اليه كانت كثيرة ، لكنه فكر في رأس عبيد الله بن زياد وجعله الهدف الأول لثورته .

ان الرأس ليس مشكلة ، فعبيد الله بن زياد يمكن قتله معنوياً او جسدياً ، ولكن الاهم هو ضرب القاعدة التي ارتكز عليها عبيد الله بن زياد وان تطهر الكوفة من عمر بن سعد وشبث بن ربعي الذين كانا قائدين عسكريين ، وحرملة بن كاهل الاسدي ومجموعة من الذين قتلوا الامام الحسين (عليه السلام) والذين كانوا في الكوفة ، والوحيد منهم الذي كان في الشام آنئذ هو الحصين بن نمير السكوني حسب ما يذكر المؤرخون .

ثانياً : عدم الاهتمام الجدي بالمضامين الاجتماعية للثورة فلم يقم سليمان (رضوان الله عليه) بالعمل من اجل المضامين الاجتماعية للدين ، فقد قام سليمان بعملية استشهادية . " انما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) " . دون التركيز على الاسباب التي أدت الى قتل الامام الحسين .

الامام الحسين قُتِل لانحراف موجود في الامة الاسلامية ، وهذا الانحراف كان ينعكس على الوضع الاجتماعي والخلقي والسياسي للامة .

فكان من الافضل لسليمان ان يثور من اجل تلك المبادئ والاهداف التي ثار من اجلها الامام الحسين (عليه السلام) .

ولو كان يفعل ذلك لكانت النتيجة ان الموالي في الكوفة والعبيد كانوا يشتركون معه في الثورة ، وهم الذين شملهم ظلم الأمويين اكثر من غيرهم .

فالامام الحسين (عليه السلام) خرج من اجل الله ومن اجل تطبيق كتاب الله ، ومعنى ذلك اقامة دساتيره وانظمته ، تلك الانظمة التي تحقق العدالة الاجتماعية والسلام والامن والخلق الفاضل وغيرها من القيم السامية .

ان الناس في الكوفة كانوا يرون بان سليمان بن صرد يعمل من اجل العدالة الاجتماعية والمساواة والامن ، ولو نشر هذه المضامين بصورة اوسع واشمل وبالذات

في اوساط الموالي ، الذين يشكلون الاكثرية المسحوقة والمحرومة والمستضعفة في الكوفة ، لكان يجد فيهم الصلابة والشجاعة والكثافة . ان ابا مسلم الخراساني عندما عقد لواء للموالي ، انضوى تحت هذا اللواء ، خلال اشهر مائة الف سيف[1] من الموالي الايرانيين والافغانيين وغيرهم . وان المأمون العباسي تغلّب على أخيه محمد الامين عن طريق الموالي .

من هنا ينبغي تحويل شعارات الحركات الدينية الى مضامين اجتماعية ، فيجب ان يعرف كل انسان في الشارع ان خبزه وامنه وبيته ورفاهه ومستقبل اولاده ، كل هذه ترتبط بالدين ، وان الدين ليس مجموعة افكار تدور في فراغ ، انما هي حقائق عملية تستطيع ان تغير حياة الانسان .

هذان السببان هما اللذان كانا وراء فشل الرجل العظيم سليمان بن صرد ، ويمكن اخذ اسباب فرعية اخرى في عين الاعتبار كالعجلة في توقيت المواجهة العسكرية وعدم اتخاذ السرية في العمل بالصورة المطلوبة وعدم وجود رؤية بعيدة الافق وغيرها من الاسباب .

وقد لخصنا الاسباب الثلاثة في الفكرة الاولى ، وهي ان هذه الحركات لم تكن تريد السيطرة على الحكم بقدر ما كانت تهدف بث الروح الدينية في الامة ، وهذا الهدف هو بذاته هدف عظيم ، الا ان الانسان لا يمكن ان يتقاعس عن حقه لمجرد انه يعمل أي عمل لله سبحانه وتعالى ، بمعنى ان سليمان كان بامكانه ان يجمع بين الامرين لو كان ممكناً ، اما اذا كان مستحيلا فعذره مقبول ، ونحن في كلتا الحالتين نقدر له هذا العمل العظيم .

فلو ان سليمان كان ساكتاً لما وقعت ثورة المختار ، ولو لم تقع ثورة المختار لما وقعت ثورة زيد بن علي ومن بعده ابنه يحيى وتبعه قيام ابو مسلم الخراساني ، وبعد ذلك سقوط الدولة الاموية .

---

(١) الاخبار الطوال ، ص ٢٦ .

لقد قام سليمان ضد الظلم والانحراف كما قام من قبل حجر بن عدي في زمن معاوية بن ابي سفيان حينما رأى زياد بن ابيه وهو على منبر الكوفة يتكلم باقبح ما ينطق به ضد الاسلام ، وضد الامام علي (عليه السلام) ، فقام إليه ولعنه ولعن معاوية ولعن آل حرب جميعاً .

بالطبع كان حجر يعرف بان زيادا رجل سفاك لا يتورع عن قتله . وبالفعل قُتل حجر ولم يتراجع خطوة في الدفاع عن الامام علي (عليه السلام) ، فهل ذهب دمه سدى ؟ كلا ..

فدماء حجر هي التي جرت وتجري في عروق الرساليين .. الى الآن ، وهي تنبض بالحيوية والنشاط والدفاع والنهوض من اجل رسالة الله سبحانه وتعالى .

ثورة المختار بين الانتصار والهزيمة

هناك ثورات كثيرة في التاريخ وحركات رسالية وغير رسالية انتهت لاسباب قد تكون بسيطة ، ومن ابرزها طيبة النفس الى درجة السذاجة ، ذلك لان هذه الثورات كانت تتصور بان سلاح الحق والعدل والاحسان هو السلاح القادر على تذليل جميع الصعوبات في الطريق ، وغاب عنها ان هناك صعوبات لا تذلل إلاّ عن طريق استخدام القوة والحزم .

وكانت ثورة المختار من ضمن تلك الثورات التي ذهبت ضحية النفس الساذجة، بيد ان هناك اسباباً اخرى هامة كانت وراء فشل المختار بن ابي عبيدة الثقفي ، وقبل ان نستعرض بعض هذه الاسباب لابد ان نذكّر بهذه الحقيقة : ان دراسة التاريخ انما تتم من اجل الحاضر وليس من اجل التاريخ وحده ، ولذلك فالسؤال بكلمة (لماذا ؟) يجب ان تتكرر كلما وقفنا عند ظاهرة تاريخية .

لماذا فشلت ثورة التوابين وثورة المختار ، وثورة زيد بن علي ؟

إن اكتشاف الأسباب والعوامل هو الذي يهمنا، لأن معرفة السبب هي التي تعطينا القدرة على عدم تكرار ذلك السبب الذي ادى الى انهيار تلك الثورات .

فلماذا فشلت ثورة المختار اخيراً بعد حكم دام شهوراً ، وبعد ان امتد نفوذ المختار الى حدود ارمينية؟

الخلافات الداخلية بين الرساليين

لا ريب ان الخلافات الداخلية قديماً وحديثاً هي السبب الاساسي لسقوط دول وحركات، وكان الخلاف بين الرساليين في عهد المختار السبب الاساسي الذي ادى الى سقوط دولته ، ذلك لان جميع الرساليين كانوا يشتركون في هدف واحد ومحدد وهو اسقاط الدولة الاموية والاخذ بثأر الامام الحسين (عليه السلام) ، هذا الهدف هو الذي جمعهم وكما قلنا فيما سبق انهم بعد مأساة كربلاء اصبحوا اكثر الحركات جماهيرية في الشارع الاسلامي .

فمن الموالي الى العرب ، ومن النساء والاطفال الى الرجال والشباب ، ومن المتدينين الى المتحمسين جميعاً اشتركوا في التحزب للامام الحسين (عليه السلام) الشهيد والثأر له ولكن هذا المفهوم كان مفهوماً غامضا بالنسبة الى اكثرية الناس ، أي انهم كانوا من اصحاب الامام الحسين (عليه السلام) ويعتقدون ان مقتله كان سبباً كافيا للتمرد على حكم بني امية هذا المفهوم كان واضحاً عند الجميع . ولكن هناك مفاهيم عديدة كانت تحتاج الى توضيح ، ومن جملة تلك المفاهيم السؤال عن انه : اذا ما ثرنا على الحكم الدموي فمن الذي يتصدى للقيادة ؟ وكيف تكون اساليب الحكم ؟ بل كانوا يختلفون في .. من هو الامام الحسين (عليه السلام) ؟ وهل هو مجرد ابن بنت رسول الله ؟ هل هو مجرد شهيد في سبيل الحق ؟ أم هو امام معصوم واجب الطاعة ؟ وما هو شكل الحكم والنظام الاسلامي ؟

هذه القضايا كلها كانت غامضة عند الاغلبية الساحقة من المسلمين ، وربما غموض هذه الحقائق هو الذي سبب في ان يأتي رجل مثل عبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير ، اللذين كانا من اشنأ الناس واعداهم لآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فيحكمان رقاب المسلمين باسم الامام الحسين (عليه السلام) ، ويسرقا ثورته المقدسة .

فعبد الله بن الزبير الذي صدّقه بعض المسلمين واتبعوه ، وصل الى الحكم عبر

مبادىء الامام الحسين وهو الذي قضى على حكم المختار .

" كان جملة من ادركه الاحصاء ممن قتله مصعب (ابن الزبير) مع المختار سبعة آلاف رجل ، كل هؤلاء طالبون بدم الحسين ، وقتلة اعدائه ، فقتلهم مصعب ، وسماهم الخشبية ، وتتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها ، واتى بحرم المختار فدعاهن الى البراءة منه ؛ ففعلن الا حرمتين له احداهما بنت سمرة بن جندب الفزاري ، والثانية ابنة النعمان بن بشير الانصاري ، وقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله ؟ كان صائم نهاره قائم ليله ، قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) واهله وشيعته ، فأمكنه الله منهم حتى شفي النفوس . فكتب مصعب الى اخيه عبد الله بخبرهما وما قالتاه ، فكتب إليه : إن هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه والا فاقتلهما ، فعرضهما مصعب على السيف ، فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرأت منه ، وقالت : لو دعوتني الى الكفر مع السيف لكفرت : أشهد ان المختار كافر ، وأبت ابنة النعمان بن بشير ، وقالت : شهادة ارزقها فأتركها ؟ كلاّ إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون ، آتي مع ابن هند فأتبعه وأترك ابن ابي طالب ؟ أللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته ، ثم قدمها فقتلت صبراً ، ففي ذلك يقول الشاعر :

إن من أعجب الأعاجيب عندي ... قتل بيضاء حرة عُطبول
قتلوها ظلماً على غير جرم ... إن لله درها من قتيل
كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول[1]

ان غموض الرؤية عند ابناء الامة الذين نقموا على سلطة بني امية الجائرة بعد قتلها الامام الحسين (عليه السلام) ، وعدم معرفتهم تحت أي راية يجب ان ينضووا في معارضتهم لبني امية ، هو الذي مكّن ابن الزبير من ان يوسع سيطرته على مناطق

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

كثيرة بما فيها الكوفة ، حيث قضي على ثورة المختار الفتية ، تلك التجربة الرسالية التي كان يراد لها ان تعيد المبادئ التي استشهد الامام الحسين (عليه السلام) من اجلها وعلى رأس تلك المبادئ ارجاع الخلافة الى اصحابها الشرعيين ، بعد ان حوّلها بنو امية الى ملك عضوض .

غموض الرؤية هذا لم يكن فقط عند عامة الناس ، وانما عند الكثير من الهاشميين ايضاً . لقد تنازع محمد بن الحنفية مع الامام السجاد ، وكذلك تنازع معه بعض اولاد الامام الحسن واولاد العباس ، وكان نزاعهم ليس على امور الدنيا كما نازعه عليها عمه عمر بن الامام علي ابن ابي طالب[1] وانما على قيادة الحركة الرسالية ومع انهم جميعاً كانوا يعتقدون ان الامام السجاد هو اورعهم وافقههم واقدرهم على حمل لواء المواجهة ضد الامويين باعتباره البقية الباقية من مجزرة كربلاء ، وانه ابن الامام الشهيد ، الا انهم لم يوافقوه على طريقته في علاج الانحراف في الامة ، حيث رأى الامام السجاد (عليه السلام) ان سيطرة بني امية على السلطة انما جاء نتيجة ضعف الروح الدينية عند المسلمين وسيطرة روح المصلحة عليهم فسعى من خلال سيرته وادعيته وتربيته للرساليين الى تركيز المبادئ الاسلامية في النفوس ، وهذا كان يتطلب وقتاً طويلا بينما كان البعض يريد ان يتم التغيير بشكل سريع دون اعارة أي اهمية لهذا العامل المهم في نجاح أي ثورة وضمان عدم انحرافها .

---

(١) جاء في موسوعة بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ١٢١ انه لما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة رد الى علي بن الحسين (عليه السلام) صدقات رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصدقات أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) وكانتا مضمومتين ، فخرج عمر بن علي إلى عبد الملك يتظلم اليه من ابن اخيه ، فقال عبد الملك : اقول كما قال ابن أبي الحقيق :

إنا إذا مالت دواعي الهوى — وانصت السامع للقائل
واصطرع الناس بألبابهم — نقضي بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا — نلط دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه احلامنا — فنخمل الدهر مع الخامل

العلاقة بين الائمة والثورات

بعد الحديث عن السبب الاساسي لفشل ثورة المختار وهو الخلافات الداخلية التي شهدتها الامة بسبب قلة الوعي ، يأتي السؤال الاهم عن نوعية العلاقة بين الامام زين العابدين والمختار ، وهذا يجرنا للسؤال عن نوعية العلاقة التي كانت تربط الشهيد زيد بالامام الباقر ، والعلاقة بين يحيى بن زيد والامام الصادق والعلاقة بين محمد النفس الزكية واخيه ابراهيم بالامام الصادق هذه الاسئلة تطرح دائماً ، لان الائمة (عليهم السلام) من بعد الامام الحسين بما فيهم الامام السجاد بالرغم من انهم عاشوا حقبة طويلة عانت الامة الاسلامية خلالها من الاضطرابات والثورات والفوضى وعدم الاستقرار وتبدل الحكومات ، في تلك الفترة لم يحرك الائمة ساكناً في ظاهر الساحة السياسية .

فالامام زين العابدين عاش ٣٢ سنة بعد أبيه مشغولاً بالعبادة والزهادة والدعاء والبكاء على ابيه ، كذلك الامام الباقر الذي عاش فترة امامته مشغولا بالتبليغ والدعوة ، وكذلك الامام الصادق . اما الامام موسى بن جعفر فقد عاش فترة امامته في السجن .

لماذا لم يقم الأئمة بالسيف بعد الامام الحسين ؟

هـذا السؤال يلح على الفكر الرسالي وبصورة مستمرة ، فطائفة قالوا : ان الائمة لم يقوموا بالسيف انتظاراً للامام الحجة ، وكذلك يجب ان لا يقوم احد بالسيف (القوة) الى حين ظهور الامام الحجة .

ونحن نسأل هؤلاء : لماذا قام الامام الحسين اذا بالثورة ؟ كان من الافضل للامام الحسين ان يختار العافية والصحة والسلامة ويجلس في بيته في المدينة المنورة انتظاراً للامام الحجة .

ولاننا نعرف وحدة الاستراتيجية العامة عند الائمة وانه لا تناقض بين مواقفهم ، فلا يمكن استثناء عصر الامام الحسين من الفكرة القائلة ان الامام الحجة يظهر في آخر الزمان وهو الذي يثأر للمؤمنين والانبياء واولاد الانبياء ، ولا داعي للثورة قبل

ذلك ، فامّا ان نخطئ الأئمة الآخرين او نخطئ الامام الحسين (عليه السلام) وكلا الامرين خاطئان .

الجواب هنا دقيق ومهم وربما تقوم على اساس هذا الجواب معرفتنا بالائمة المعصومين (عليهم السلام) ، ونحن نرى بان اكثر الرساليين يعيشون نوعاً من التناقض ، فقسم منهم يقدمون ويقدّرون الامام الحسين ، ويعتقدون بان موقفه كان صحيحاً ، ولكنهم يشكون من طرف خفي ، في مواقف الأئمة الآخرين والعياذ بالله ، وهم لا يجاهرون بالقول خوفاً من الردة ولكنهم يرتابون .

وقسم آخر على العكس من ذلك ، فهم يعتقدون بان موقف الأئمة (عليهم السلام) كان صحيحاً ولكنهم يشكون في موقف الامام الحسين (عليه السلام) وبعضهم يبرر موقف الامام ويقول : ان الامام لم يخرج للثورة وانما قتلوه صبراً ، كأي انسان عابد كان يصلي في بيته فجاءوا وقتلوه فهو لم يخطط للعمل والثورة ضد يزيد .

ان عدم معرفة الدور الاساسي للأئمة المعصومين هو الذي يجعل البعض ينتقص من قدر الأئمة (عليهم السلام) فعلى سبيل المثال يقول البعض : ماذا فعل الامام الرضا للإسلام ؟ ولماذا نقدره ؟ وكذلك يقول البعض : هب ان الامام الرضا نقدره لاسباب معينة ولكن لماذا نقدّر الامام الجواد ؟ وكيف كان اماماً لنا ؟ وكذلك بالنسبة للامام علي الهادي والامام الحسن العسكري (عليهم السلام) وربما يتساءل البعض عن كل ذلك لانهم لا يعرفون الحقيقة التي نريد ان نوضحها والتي تبدو لنا من خلال دراسة التاريخ .

الائمة في رأس الهرم القيادي

ان الائمة (عليهم السلام) بعد تجربة كربلاء عملوا بطريقة معينة تقضي بان يقودوا المجموعة المؤمنة والمخلصة من الرساليين الخلص وكانوا هم على رأس الهرم يقودون الصفوة من الفقهاء والزهاد والعبّاد والمتكلمين والفلاسفة واصحاب العلوم المختلفة ، واصحاب الفتوحات وقادة الجيش والسياسيين ومن اشبه ، ويأخذون

بجميع الخيوط الاساسية في ايديهم بقوة وبحزم ، والأئمة المعصومون لم يكن هدفهم الوصول الى الحكم فقط وانما كان اكبر من ذلك وهو بناء الامة الاسلامية واعدادها للبقاء وللتوسع والامتداد .

بالطبع كان من ضمن اهدافهم الوصول الى الحكم او ان يكون الحكم في ايد امينة وكان من ضمن اهدافهم ان تكون الامة الاسلامية واعية ومتحركة وناهضة ، وكذلك ان تكون لها انظمة صحيحة مستوحاة من الرسالة الاسلامية ، وان يكون ابناؤها متوجهين الى الله وفيهم الزهاد والعباد الصالحون حتى تنمو هذه الامة وتتقدم على جميع الامم الاخرى في العلم والصناعة ، فقاموا بتحريك الامة الاسلامية باتجاه هذه الاهداف . اذن .. فالسياسة كانت من ضمن الاهداف و لم تكن السياسة قد استقطبت اهداف الائمة جميعاً .

لذلك فالأئمة (عليهم السلام) كانوا يقودون الثورة التحريرية التصحيحية ضد نظام بني امية وضد نظام بني العباس ، ولكنهم لم يورطوا انفسهم بشكل مباشر في هذه الثورة دائماً لماذا ؟

لانهم كانوا يقودون ثورات من انواع اخرى ايضا فكانوا يقودون الثورة الثقافية الفكرية والثورة الاجتماعية والثورة العلمية الا انهم في الوقت ذاته كانوا يقودون الثورة السياسية ، والان ربما نستطيع استيضاح هذه الفكرة من عدة امثلة .

المختار يدعو الى الرضا من آل محمد (ص)

لقد عاصر الامام زين العابدين ثورة المختار ، ويرى مجموعة كبيرة من المؤرخين ومنهم ابو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب " مقاتل الطالبيين " والدكتور علي سامي النشار صاحب كتاب " نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام " وكثير غيرهم ، ان المختار كان رجلا رساليا ثورياً مخلصا يدعو الى الرضا من آل محمد وهو الامام زين العابدين .

وفي التاريخ ادلة كثيرة على ارتباط المختار بالامام السجاد (عليه السلام) الى درجة انه كان يعرف تفاصيل حياة الامام . فقد جاء في رواية ان زين العابدين كان

يدعو في كل يوم ان يريه الله قاتل أبيه مقتولاً ، فلمّا قتل المختار قتلة الحسين (صلوات الله وسلامه عليه) بعث برأس عبيد الله بن زياد ورأس عمر بن سعد مع رسول من قبله الى زين العابدين ، وقال لرسوله : " إنه يصلي من الليل ، وإذا أصبح وصلى صلاة الغداة هجع ، ثم يقوم فيستاك ويؤتى بغدائه ، فإذا أتيت بابه فاسأل عنه فإذا قيل لك ، إن المائدة وضعت بين يديه فاستأذن عليه وضع الرأسين على مائدته ، وقل له : المختار يقرأ عليك السلام ويقول لك : يا ابن رسول الله قد بلغك الله ثأرك ، ففعل الرسول ذلك ، فلما رأى زين العابدين (عليه السلام) الرأسين على مائدته ، خر ساجداً وقال : الحمد لله الذي اجاب دعوتي وبلغني ثاري من قتلة ابي، ودعا للمختار وجزاه خيراً " (١) .

وفي كتاب الدلائل للحميري ، عن المنهال بن عمر قال : حججت فدخلت على علي بن الحسين ، فقال لي يا منهال ما فعل حرملة بن كاهل الاسدي ؟ قلت : تركته حياً بالكوفة ، قال : فرفع يديه ثم قال : اللهم أذقه حر الحديد ، اللهم أذقه حر النار ، قال : فانصرفت إلى الكوفة وقد خرج بها المختار بن أبي عبيدة وكان لي صديقاً ، فركبت لأسلم عليه ، فوجدته قد دعا بدابته ، فركب وركبت معه حتى اتى الكناسة فوقف وقوف منتظر لشيء وقد كان وجّه في طلب حرملة بن كاهل فأحضر فقال : الحمد لله الذي مكنني منك ، ثم دعا بالجزّار فقال : اقطعوا يديه فقُطعتا ، ثم قال : اقطعوا رجليه ، فقُطعتا ، ثم قال : النار النار فأتي بطن قصب ثـم جُعِل فيها، ثم ألهبت فيه النار حتى احترق ، فقلت : سبحان الله سبحان الله، فالتفت إليّ المختار ، فقال : ممّ سبحت ؟ فقلت له : دخلت على علي بن الحسين فسألني عن حرملة فأخبرت أني تركته بالكوفة حياً ، فرفع يديه وقال : اللهم أذقه حر الحديد ، اللهم أذقه حر النار ، فقال المختار : الله الله أسمعت علي بن الحسين (عليه السلام) يقول هذا ؟ فقلت : الله الله لقد سمعته يقول هذا ، فنزل

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ٥٣ .

المختار وصلى ركعتين ثم اطال ثم سجد وأطال ، ثم سجد واطال ، ثم رفع رأسه وذهب ومضيت معه حتى انتهى الى باب داري فقلت له : إن رأيت ان تكرمني بأن تنزل وتتغدى عندي ، فقال : يا منهال تخبرني ان علي بن الحسين دعا الله بثلاث دعوات فأجابه الله فيها على يدي ثم تسألني الأكل عندك ، هذا يوم صوم شكراً لله على ما وفقني له [1] .

اذن .. اذا كان المختار رجلا رساليا ويدعو الى الرضا من آل محمد ، فلماذا لا نرى الامام زين العابدين يأتي الى الكوفة ويؤم الناس جماعة ويقود حرب المختار الذي أمضى شهورا في الحكم ، بل يكتفي الامام باستلام رأس عبيد الله بن زياد وان يسجد لله شاكراً لان الله انتقم لابيه المظلوم ، ومن جهة اخرى الامام الباقر (عليه السلام) يقول :

" لا تسبوا المختار فانه قد قتل قتلتنا وطلب بثأرنا وزوج اراملنا ، وقسم فينا المال على العسرة " [2].

فالمختار كان اذا من الذين امرهم الامام زين العابدين وربما قال له ادع الى محمد بن الحنفية لاسباب معينة ، وربما قال لمحمد بن الحنفية ان عليه وفي تلك الفترة بالذات قيادة الثورة الاسلامية وفي الوقت ذاته كان الامام زين العابدين يقود الواناً اخرى من الحركات ، فاول من سن سنة الزهد هو الامام زين العابدين ، وهو قائد جميع الفقهاء في عصره ، وكل المذاهب قدست الامام زين العابدين وبقيت في البلاد الاسلامية اثار عظيمة من زهده وعلمه وارتباطه بالله سبحانه وتعالى وتوجيهه الى الحق .

---

(١) المصدر ويقول السيد حسن الامين مؤلف دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ج ١٢ ص ١٧٠ نقلا عن كتاب (عراق وايران سياحة نامه) :

ان المختار لما استتب له الأمر ارسل محمد بن ابراهيم الاشتر الى كربلاء ليشرف على إشاده البناء الذي امر ببنائه على قبر الحسين ويتخذ حوله مسجداً لايواء الوافدين للزيارة ، وان ذلك البناء قد تم اواخر عام ٦٥ هـ.

(٢) بحار الأنوار ، ج ٤٥ ، ص ٢٤٢ .

انظروا الى التاريخ لتروا سعيد بن المسيب، وسعيد بن الجبير وجبير بن مطعم وابو خالد الكابلي، ويحيى بن ام الطويل، والزهري وهؤلاء هم من قادة الامة الاسلامية، الذين خطوا للامة الاسلامية مسيرتها، والسنة والشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة كلهم يعتقدون بهؤلاء، وقد كانوا جميعاً من تلامذة الامام زين العابدين.

كان الامام يربي رجلا سياسيا كالمختار الثقفي ، ورجالا عسكريين كابراهيم بن مالك الاشتر ، وعبد الله الحر ، ورجالا اداريين ويبعثهم للقيام بمهمة الثورة .

الامام زين العابدين والثورة الثقافية :

في الوقت نفسه يختار الامام السجاد مسيب وسعيداً والزهري لمهمات اخرى ، ويقوم في ذات الوقت بنشر الاسلام والتوعية الاسلامية بين العبيد الذين جلبتهم فتوحات بني امية غير العقلانية ، وكانون يشكلون خطراً على الدولة الاسلامية وعلى الاسلام ، الامام كان يبث في هؤلاء روح الدين ويربي فيهم مبلغين حقيقيين ويقوم بثورة من نوع آخر .

كذلك الامام الصادق كان من الذين ايدوا ثورة عمه " زيد بن علي " ونحن لا نستطيع ولا أي مؤرخ ان يهظم ان أخ الامام او ابن عم الامام او غيرهم من اتباع الائمة المخلصين كانوا يخرجون على سلطة الامام ويقومون بالثورات لمجرد نزوات شخصية ، انما كانت هناك خطط معينة ، فالائمة (عليهم السلام) كانوا يقومون بعدة اعمال في الوقت ذاته ، والثورة السياسية والحركة التحريرية كانت من ضمن اعمالهم وعلاقة الامام زين العابدين مع المختار كانت ضمن هذه العلاقة ، فالامام لم يشترك علانية في الثورة ولم يكن من الصحيح ان يشترك فيها، فالثورة كانت تواجه احتمالات الفشل ومن ثم فان الامام وحركته وجميع الرساليين في العالم كانوا سينتهون بفشل الثورة العسكرية ولم يكن هذا العمل سليماً ، فالامام كان في موقع يغذي سائر الثورات ويشرف عليها بصورة عامه وغير علنية ، ولكن هنا يجب ان نعرف بطولة المختار وتفانيه في سبيل الحق، في قبوله عدم التأييد الظاهري للامام زين العابدين وقبوله للقيام بالثورة دون ان يفشي

بالسر الذي بينه وبين الامام .

وهناك مزيد من التفاصيل من هذا الارتباط الذي بين الائمة (عليهم السلام) وبين سائر الثورات، وخلاصة القول: أنه كلما قامت في الامة الاسلامية حركة خيّرة سواء كانت ثورة عسكرية او ثقافية او دينية او حركة (فتوحات وامتداد اقليمي) او ما اشبه، فانها كانت بخطط وقيادة الائمة المعصومين (عليهم السلام) .

وسنثبت في الفصول القادمة هذه الحقيقة التاريخية حتى نعرف ان الائمة المعصومين (عليهم السلام) كانوا ائمة حق قد عملوا وفجروا الثورات ، ولم يكونوا مجرد أئمة بالوصية ليس لهم عمل وأثر في العالم ، وبهذا يرتفع التناقض المزعوم المشار إليه في صدر البحث .

الحركات السياسية في زمن الدولة الاموية

عهد عبد الملك بن مروان

قيل عن عبد الملك بن مروان بانه كان شجاعاً فاضلا ومهذبا ، وقد قال فيه المؤرخون المتزلفون بانه كان ممن حوى علماً كثيراً وحكمة بالغة .

هـذا الرجل صعد المنبر في اول خطاب رسم به سياسة بلاده وقال : " ايها الناس : اني والله ما انا بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن ولا بالخليفة المأفون فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا ثم نزل " [1].

ويقصد بالخليفة المستضعف عثمان بن عفان والخليفة المداهن معاوية بن ابي سفيان ، والخليفة المأفون - ضعيف الرأي - يزيد بن معاوية .

هذا هو عبد الملك بن مروان أحسن الخلفاء الامويين حسب قول المقريزي ، ولنرى ماذا فعل عبد الملك بن مروان في حياته !

ان اول ما عمله عبد الملك بن مروان هو قيامه بتنصيب وال من قبله لم تلد الامهات عبر التاريخ اسوأ منه وهو الحجاج بن يوسف الثقفي ، مثال الجريمة والفساد والغلظة والعنف والوحشية .

---

(١) كتاب العقد ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

فولاه مكة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة ، ثم ولاه الكوفة والبصرة وبلاد الشرق ، بل وخراسان وغيرها ، وترك له المجال مفتوحاً بأن يعيث فساداً في الدولة الاسلامية شرقاً وغرباً .

" لقد أحصي من قتله (الحجاج) صبرا سوى من قتل في عساكره وحروبه ، فوجد مائة وعشرين الفا ، ومات الحجاج وفي حبسه خمسون الف رجل ، وثلاثون الف امرأة ، منهن ستة عشر الفاً مجردة ، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء ، وكان له غير ذلك من العذاب " (1).

هذا الرجل نصبه الملك العادل والخليفة الحكيم والعالم عبد الملك بن مروان ، كما يقول المؤرخون المتزلفون وبهذا المقياس يمكن التعرف على سائر ملوك بني امية ، ومنهم على سبيل المثال ، الوليد بن عبد الملك الذي جمع الكثير من الخصيان في قصره ، حيث يقول المؤرخون انها الخطة الرذيلة التي كانت في بيت الوليد بن عبد الملك والتي انتشرت عند الكثير من قيادات الجيش .

وهذا ان دلّ على شيء فانما يدل على ان الوليد كان مصاباً بالشذوذ الجنسي، وان هذا الشذوذ انتشر الى سائر اصحابه وقواده . اما يزيد ابن الوليد فامره اشهر من ان يذكر ، فقد مات في شبابه لان عشيقته حبّابة الذي كان شغوفاً بحبها توفيت ، فاقام اياما لا يدفنها حزنا عليها حتى جيفت فقيل له : ان الناس يتحدثون بجزعك ، وان الخلافة تجلّ عن ذلك ، فقام بدفنها واقام على قبرها وبعدها بايام قلائل مات ، ولقد كان يبكي على " حبابة " بكاء مريرا ، يقول المؤرخون :

" كان يزيد ذات يوم في مجلس ، وقد غنّته حبابة وسلاّمة ، فطرب طرباً شديدا ثم قال : اريد ان اطير فقالت له حبابة : يا مولاي فإلى من تدع الامة وتدعنا .(2)

---

(1) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٦٦ .

(2) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .

وقرأ الوليد ذات يوم قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ (ابراهيم/١٥-١٦) فدعا بالمصحف الشريف فنصبه غرضاً للنشاب ، واقبل يرميه وهو يقول :

تهـددني بجبـــار عنيـــد فهـا انـا ذاك جبـار عنيـد
اذا ما جئت ربك يـوم حشـر فقل يا رب مزقني الـوليـد (١).

ان هؤلاء جميعاً سواءً يزيد بن الوليد ، او الوليد بن عبد الملك او عبد الملك بن مروان او سليمان بن عبد الملك كانوا يعيشون حياة بذخ وترف وفساد خلقي ، لذلك كانت اعمارهم قصيرة فقد كان بعضهم يثور على الاخر ، وربما قتله شر قتلة .

والتاريخ يذكر ذلك كثيرا ، فكثير من الملوك الامويين قُتلوا على فراشهم ، وبعضهم قتلتهم امهاتهم والبعض الاخر قتلتهم زوجاتهم واخوانهم ، فالاخ يقتل اخاه ، كما حدث بالنسبة الى سليمان بن عبد الملك حيث قتل اخاه الوليد ، وقد تتكهن ان فئات المعارضة كانت تجد طريقها الى البلاط الملكي وتغتال بعضهم . وبالرغم من ان هذا شيء ممكن فان المؤرخين لم يذكروه .

الوضع السياسي في عهد عبد الملك

اتسعت الخلافات الداخلية في زمن عبد الملك بن مروان بشكل اصبحت معها الدولة الاسلامية اشلاء شتى . يقول المسعودي في مروج الذهب :

سـار عبد الملك بن مروان في جيوش اهل الشام فنزل بطنان ينتظر ما يكون من

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٠٧ ويقول السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٩٧ " ان الوليد كان فاسقاً خميّراً لواطاً راود اخاه سليمان عن نفسه ونكح زوجات ابيه "

* ذكر المسعودي في مروج الذهب ج ٣ ص ١١٧ ان الحجاج ركب يوماً يريد الجمعة فسمع ضجة ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء ، فالتفت الى ناحيتهم وقال : (اخسأوا فيها ولا تكلموا) فقيل انه لم يركب بعد تلك الركبة .

امر ابن زياد (الذي بعثه لحرب جيش المختار الثقفي الذي كان بقيادة ابراهيم بن مالك الاشتر) . فاتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش في الليل ، كما جاءه خبر مقتل بن دلجة مع جيشه في نفس الليلة وكان على رأس الجيش في المدينة لحرب ابن الزبير ، ثم جاءه خبر ناتل بن قيس من فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مصعب بن الزبير من المدينة الى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لامري بن فلنط ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وان عبيدها وارباشها - حسب تعبيرهم - (أي المحرومين) قد خرجوا على اهلها ونزلوا الجبل ، ثم اتاه ان من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وان خيل الاعراب اغارت على حمص وبعلبك والبقاع ، وغير ذلك مما نعي اليه من الفظائع في تلك الليلة " [1].

في ليلة واحدة سمع كل ذلك لذا باستطاعتك ان تعرف كيف كان الحكم الاسلامي آنذاك وهذه تدل على مدى اضطراب الوضع في الامة الاسلامية وبالتالي على اهتزاز الحكم بينما يزعم بعض المؤرخين ان الخليفة الاموي حينها كان اقوى الخلفاء ، كيف ذلك وهو الذي اراد ان يبايع ابن الزبير لمّا رأى تزعزع حكم الامويين ، الا ان الاشدق اشار اليه بدعوة الناس بمبايعته [2].

الحركات السياسية في عهد عبد الملك بن مروان

في هذه الاوضاع كانت هناك حركات عديدة ناشئة ، بالاضافة الى الحركة الرسالية التي تحدثنا عنها ، فلابد ان نلقي بعض الضوء على الحركات التي كانت تعايش وتعاصر الحركة الرسالية في تلك الحقبة لان معرفة هذه الحركات تعطينا فهماً اعمق للحركة الرسالية ، ومن جملة تلك الحركات :

اولا / حركة الخوارج

الخوارج هي الفئة التي خرجت على حكم الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

(٢) المصدر ، ص ٨٦ .

في حرب صفين ، وهم حسب التعبير الحديث الجبهة الراديكالية المتطرفة .

حيث اعتقدت جماعة من جيش الامام علي بانه كان من الخطأ قبول الامام علي (عليه السلام) بالتحكيم ، بالرغم من انهم هم انفسهم الذين اصروا على الامام بذلك حين رفع اهل الشام المصاحف وخاصمهم الامام وقال لهم : " ويحكم ! انهم ما رفعوها لانكم تعلمونها ولا يعلمون بها وما رفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة ، ويحكم ! انما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب ، فقد عصوا الله فيما امرهم به ونبذوا كتابه ، فامضوا على حقكم وقصدكم ، وجلّوا في قتال عدوكم ، فان معاوية وابن العاص وابن ابي معيط وحبيب بن سلمة وابن النابغة وعددا غير هؤلاء ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، وانا اعرف بهم منكم صحبتهم اطفالا ورجالا ، فهم شر اطفال ورجال ويحكم انها كلمة حق يراد بها باطل ، اعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فلقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق الا ان يقطع دابر الذين ظلموا " [1].

فلم يقبلوا منه وهددوه بالحرب إن لم يرجع مالك الاشتر قائد جيشه من ساحة الحرب .

وبعد ان قبل الامام علي (عليه السلام) بالتحكيم مرغماً ، خرجوا عليه وهم ينادون من كل ناحية " لا حكم الا لله لا لك يا علي ولا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله ".

فقال : انشدكم الله الست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيي ؟! ولما ابيتم الا ذلك اشترطنا على الحكمين ان يحكما بما في القرآن ، فان حكما بحكم القرآن فليس لنا ان نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وان ابيا فنحن من حكمهما براء " .

قالوا : فخبرنا ، اتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟

---

(١) المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ ، وشرح النهج لابن ابي الحديد ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

فقال : " انّا لم نحكّم الرجال وانما حكّمنا القرآن ، وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم به الرجال " .

قالوا : فخبرنا عن الاجل لم جعلته فيما بينك وبينهم .

قال : ليعلم الجاهل ويثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الامة .

وقد كان ذلك في قرية بظاهر الكوفة تسمى حروراء ، ثم ارسل لهم الامام عبد الله بن العباس وناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته ، ورجعوا عن رأيهم بينما امتنع آخرون ، وخرجوا بعد مدة عليه في النهروان واعتدوا على الصحابي الجليل عبد الله ابن خباب بن الارت لانه اثنى على علي (عليه السلام) " فقتلوه وقتلوا ام ولده وشقوا عما في بطنها من حمل فأخبر علي بما صنعوا فقال الله اكبر " [١].

" ثم حمل عليهم وكانوا اربعة آلاف فقتلهم اجمع ولم يبق منهم سوى ثمانية او تسعة فانهزم اثنان منهم الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة وواحد الى تل مورون باليمن ، وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع منهم " [٢].

وقد قال فيهم ايضاً بعد حرب النهروان عند مروره بهم وهم صرعى :

" لقد صرعكم من غرّكم "

قيل من غرهم ؟ قال : " الشيطان وانفس السوء "

وكان من جملة الخوارج المقتولين في النهروان ذو الثدية الذي قال عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد ان حكم بمروقهم من الدين : " وآيتهم رجل اسود في احدى يديه مثل ثدي المرأة او مثل البضعة تدر دراً " [٣] .

---

(١) تاريخ الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٦٧ .

[٣] صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٣٩٣ وذكر نحو ذلك ابن ابي الحديد في شرح النهج ج ١ ، ص ٢٠٢ ، وجاء في مسند احمد بن حنبل عن مسروق " قال قلت لعائشة : سألتك بصاحب

تطورت هذه الفئة الى حزب حيوي ونشط . جمع الكثير من المعارضين لحكومة الامام علي (عليه السلام) وقد اصبح هذا الحزب المعارضة الساخنة ضد الدولة الاموية ، والاقوى بعد الحركة الرسالية بالاضافة الى انهم كانوا غلاضاً ، لا يبالون بهدر الدماء .

واستطاع هذا الحزب ان يستولي على الكوفة لفترة كما واستطاع ان يستولي على البصرة في فترة اخرى وعلى خراسان والمدائن والبحرين واليمن وعمان في فترات متباعدة [(١)].

كما انه استولى على سرنديب (سيريلانكا) لفترة وكوّن فيها حكومة ، اضافة الى انهم كانوا يدعمون المعارضة في شمال افريقيا ويمدونهم بالمؤن والمساعدات .

ثانيا / حركة الزبيريين

هناك حقيقة لابد ان اشير اليها قبل بيان حركة الزبيريين ، وهي ان الخلافة الاسلامية منذ ان خرجت عن مسارها الشرعي الصحيح ، قامت السياسة على اساس الفساد والمصالح والاهواء في الامة الاسلامية ، وأصبحت القيم التي من اجلها بعث النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في خبركان ، وصارت القوة والرشوة والمكر هو الميزان لترشيح أي خليفة ، وهناك تجلى دور الائمة الاثنى عشر (عليهم السلام) في اعادة القيم الاسلامية المحمدية ومن ثم اعادة الخلافة لمجراها الشرعي والالهي ، وعلى ضوء هذه البصيرة تُفهم الوقائع التاريخية وسير التحولات في التاريخ الاسلامي .

هذا القبر ما الذي سمعت منه (صلى الله عليه وآله) في الخوارج ؟ فقالت : نعم سمعته يقول انهم شرّ الخلق يقتلهم خير الخلق والخليقة واقربهم عند الله وسيلة " .

وروى الخطيب البغدادي ايضاً في تاريخ بغداد ج ١ ، ص ١٦٠ عن عائشة قالت : سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول : تمرق فرقة يحلقون رؤوسهم يحفون شواربهم يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يقتلهم احبهم إليّ واحبهم الى الله تعالى .

(١) تاريخ الامم والملوك – الطبري ، ج ٦ ، ص ١٧٤ .

عبد الله بن الزبير بن العوام كان والده من الذين قاوموا الكفار في صدر الاسلام، وكـان ممن يميل الى الامام علي (عليه السلام) حتى روي عن علي (عليه السلام): "ما زال الزبير منّا حتى شب ابنه عبد الله"

وكان لعبد الله اليد الطولى في تسيير حركة والده وطلحة وعائشة في وقعة الجمل .

هذا الرجل كان يطمع الى تقلد منصب الخلافة ، ولعل الذي رباه على ذلك وغذى طموحه ، هي عائشة بنت ابي بكر ، فهي التي رشحته للخلافة منذ البداية، وكان هو على درجة من المكر والدهاء ، فلما رأى بأن الاوضاع تتخلخل في الدولة الاسلامية ، ادعى الخلافة واخذ مكة وسيطر على المدينة واخذ مجموعة من العلويين وسجنهم وضرب حصارا على الباقي في شعب ابي طالب ، وبعث بأخيه مصعب بن الزبير الى فلسطين ثم الى العراق حيث سيطر عليها الى حد ما ، فالدولة الاسلامية كانت تميل اليه حقدا على بني امية الذين وصل طغيانهم آنئذ اوجه ، وكذلك اخذ مصر ، والبلدان التي ما وراء مصر كلها ، لذا فانه احاط بالعاصمة الاموية كاحاطة السوار بالمعصم .

كيف ولماذا سقط ابن الزبير ؟

الا ان حاميات الجيش الاموي (المرتزقة) الذين كانوا موجودين في سوريا والتي تحدثنا عنها سابقاً (حينما بيّنا تركيبة الجيش الاموي وطبيعة اهل الشام) ، هؤلاء ظلوا على ولائهم لبني امية واستطاعوا بعد فترة من التغلب على ابن الزبير ، اما السبب الرئيسي لسقوط ابن الزبير بعد ان استمر تسع سنوات (٦٣ - ٧٢) ، هو استبداده ودكتاتوريته بين جماعته . كما انه كان مضطرب الرأي فلم يملك سياسة معينة ، وكان سيء التدبير في اموره ، شديد البخل ، صلف المعاملة الى غير ذلك من الصفات الرذيلة ، وكان ادعاؤه للخلافة قد جعله في مواجهة الحركة الرسالية والتيارات الاخرى .

والحمد لله الذي كفى المؤمنين شره فقد كان بلاء الامويين على الامة الاســـلامية

وحده نقمة كبيرة فما بالك ببلاء آخر .

ثالثا / حركة الفقهاء

وقد تحدثنا من قبل عن حركة الفقهاء في الكوفة، وكان هناك في البلاد الاسلامية مجموعات اخرى منهم ، اندفعوا لمقاومة الاوضاع الفاسدة ، وربما كان هذا الاندفاع عفوياً وغير مدروس فهو رد فعل على اوضاع آنية ، وسرعان ما تتبدل الاوضاع فيعودون الى سابق امرهم ، ومن جملة هذه الحركات :

حركة اهل المدينة

" لما شمل الناس جور يزيد وعماله وعمّهم ظلمه ، وما ظهر من فسقه ومن قتله ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانصاره ، وشربه الخمور وسيره سيرة فرعون ، بل كان فرعون اعدل منه في رعيته ، وانصف منه لخاصته وعامته ، اخرج اهل المدينة عامله عليهم ، وهو عثمان بن محمد بن ابي سفيان ، مع مروان بن الحكم ، وسائر بني امية ، بعد بيعتهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة [1].

اسباب فشل حركة اهل المدينة

لعل اهم سبب في فشل حركة اهل المدينة ، ان المدينة المنورة لم تكن موقعاً استراتيجيا محصناً يصعب دخوله . اضافة الى خيانة بني مروان لاهل المدينة حيث ساعدوا جيش الشام بعد ان كانوا قد عاهدوا اهل المدينة ان يقفوا على الحياد .

وهذا ما حدث فعلا عندما قام مسلم بن عقبة (او مسرف بن عقبة حسب ما سمّاه اهل زمانه) بتطويق المدينة والسيطرة عليها واباحتها ونهبها وقتل خلق كثير من اهلها ، وكان فيمن قُتِل خيرة اهل المدينة وهم صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله) .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٠ " قال المدائني : واباح مسلم

---

(١) الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٨٨ .

بن عقبة المدينة ثلاثة ايام يقتلون من وجدوا من الناس ، ويأخذون الاموال ، فأرسلت سعدى بنت عوف المرية الى مسلم تقول له : انا بنت عمرك فمر اصحابك ان لا يتعرضوا لإبلنا ، فقال لاصحابه : لا تبدؤوا إلا بأخذ ابلها اولاً . وجاءته امرأة فقالت : انا مولاتك وابني في الأسارى ، فقال عجلوه لها ، فضربوا عنقه ، ووقعوا على النساء حتى قيل انه حبلت ألف امرأة في تلك الايام من غير زوج ، وقال : سألت الزهري ، كم كان القتلى يوم الحرّة ؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والانصار ، ووجوه الموالي ومن لا اعرف من حرٍ وعبد، وغيرهم عشرة آلاف " .

ويقول ابن قتيبة : " قُتِل في المدينة من النساء والصبيان عدد كثير وكان الجندي يأخذ برجل الرضيع فيجذبه من امه ويضرب به الحائط فينتشر دماغه على الارض وامه تنظر اليه " (١).

وبعد ان اباح مسلم بن عقبة مدينة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لجيشه ثلاثة ايام ، حيث لم يدع بين جنوده وما يشاؤون من حاجز ، فقتلوا من ارادوا ، واعتدوا على حرمات المسلمين ، ونهبوا اموالهم ، بعد ذلك امر الناس بالبيعة ليزيد!

يقول المسعودي في مروج الذهب : " وبايع الناس على انهم عبيد ليزيد ، ومن ابى ذلك امره مسرف على السيف " (٢).

وقد روي عن ابي ايوب قال : سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يقول : ان يزيد بن معاوية (او مسلم بن عقبة حسب رأي صاحب البحار) دخل المدينة وهو يريد الحج ، فبعث الى رجل من قريش فأتاه ، فقال له يزيد : اتقرّ لي انك عبد لي، إن شئت بعتك ، وان شئت استرققتك ؟ فقال له الرجل : والله يا يزيد ما انت باكرم مني في قريش حسباً ، ولا كان أبوك أفضل من أبي في الجاهلية والاسلام ،

---

(١) الامامة والسياسة ، ص ٢٠ .

(٢) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

وما انت بأفضل منّي في الدين ، ولا خير مني ، فكيف اقّرلك بما سألت ! فقال له يزيد : ان لم تقر لي والله قتلتك فقال له الرجل : ليس قتلك اياي باعظم من قتلك الحسين بن علي وهو ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأمر به فقتل " (١).

الامام زين العابدين وحركة اهل المدينة

اما الامام زين العابدين " فإن مسلم لم يلزمه البيعة ليزيد على ما شرط على اهل المدينة " (٢).

ونظر الناس الى علي بن الحسين وقد لاذ بقبر الرسول وهو يدعو ، فأتي به الى مسرف وهو مغتاظ عليه ، فتبرأ منه ومن آبائه ، فلما رآه وقد اشرف عليه ارتعد ، وقام له ، واقعده الى جانبه ، وقال له : سلني حوائجك ، فلم يسأله (عليه السلام) في احد ممّن قدّم الى السيف إلاّ شفعه فيه ، ثم انصرف عنه .

فقيل لمسلم : رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه ، فلما أتي به اليك رفعت منزلته ؟ فقال : ما كان ذلك لرأي مني ، لقد ملئ قلبي منه رعباً (٣).

موقف الامام زين العابدين من حركة المختار

روي عن الثمالي قال : كنت ازور الامام علي بن الحسين في كل سنة مرة في وقت الحج فاتيته سنة من ذاك ، فقال لي الامام : قيل لي على الباب رجل يطلبك فخرجت فاذا انا برجل معه جارية ملفوف كمها على يده ، مخمرة بخمار، فقلت ما حاجتك ؟ فقال : اردت علي بن الحسين (عليه السلام) قلت : انا علي بن الحسين ! فقال : انا رسول المختار ابن ابي عبيدة الثقفي انه يقرؤك السلام ويقول : وقعت هذه الجارية في ناحيتنا فاشتريتها بستمائة دينار ، وهذه ستمائة دينار فأستعن بها على دهرك ، وادفع كتاباً فادخلت الرجل والجارية ، وكتبت لـه

(١) الكافي ، ج ٨ ، ص ٢٣٤ .

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٢ ، ص ٥٩٩ .

(٣) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

جواب كتابه وتثبّت الرجل (١).

تكليف محمد بن الحنفية بقيادة الحركة الرسالية

فماذا تعني المكاتبة بين الطرفين؟

انما تعني رضا الامام بما قام به المختار ، ولقد قام محمد بن الحنفية بقيادة حركة المختار نيابة عن الامام - كما قلنا سابقاً - قال جعفر بن نما : فقد رويت عن والدي رحمة الله عليه ان محمد بن الحنفية لما جاءت اليه جماعة من كبار الشيعة من الكوفة من رؤساء القبائل ، وكانوا قد جاؤوا اليه ليسألوه في امر وشأن المختار الذي بدأ يدعو للثأر من الامويين والى الرضا من آل محمد في الكوفة .

وقد قالوا : ان المختار يريد الخروج بنا للاخذ بالثأر وقد بايعناه ، ولا نعلم أرسله الينا محمد بن الحنفية ام لا ؟ فجاؤوا الى محمد بن الحنفية ، فبدأ عبد الرحمن بن شريح بحمد الله والثناء عليه ، وقال : امّا بعد فانكم اهل البيت خصّكم الله بالفضيلة وشرّفكم بالنبوة ، وعظّم حقكم على هذه الامة ، وقد اصبتم بـ (الحسين عليه السلام) مصيبة عمّت المسلمين ، وقد قدم المختار يزعم انه جاء من قبلكم وقد دعانا الى كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء اهل البيت ، فبايعناه على ذلك فان امرتنا باتباعه اتبعناه ، وان نهيتنا اجتنبناه - هنا يقول جعفر بن نما عن والده - ان محمد بن الحنفية قال لهم : قوموا بنا الى امامي وامامكم علي بن الحسين (عليه السلام) ، فلما دخل ودخلوا عليه اخبر محمد خبرهم الذي جاؤوا لاجله ، فقال الامام علي بن الحسين (عليه السلام) : يا عم لو ان عبداً زنجياً تعصب لنا اهل البيت ، لوجب على الناس مؤازرته ، وقد وليّتك هذا الامر ، فاصنع ما شئت ، فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون : اذن لنا زين العابدين (عليه السلام) ومحمد بن الحنفية .

وكـــان المختار قد علم بخروجهم الى محمد بن الحنفية وقد كان يريد النهوض

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ١٨٣ .

بجماعة الشيعة قبل قدومهم ، فلما تهيّأ ذلك له ، وكان يقول : ان نفيراً منكم تحيروا وارتابوا ، فان هم اصابوا اقبلوا وانابوا ، وان هم كبوا وهابوا واعترضوا وانجابوا فقد خسروا وخابوا ، فدخل القادمون من عند محمد بن الحنفية فقال : ما وراؤكم فقد فتنتم وارتبتم ؟ فقالوا : قد امرنا بنصرتك ، فقال : يا معشر الشيعة ان نفرا احبوا ان يعلموا مصداق ما جئت به فخرجوا الى امام الهدى والنجيب المرتضى وابن المصطفى المجتبى - يعني الامام زين العابدين (عليه السلام) - فعرّفهم اني ظهيره ورسوله ، وامركم باتباعي وطاعتي ، وقال كلاماً يرغبهم الى الطاعة والاستنفار معه وان يعلم الحاضر الغائب " [1].

هذه لمحة عن الحركات التي زامنت الحركة الرسالية في زمن الامام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) .

ماذا قدمت الحركات للأمة الاسلامية

يبقى سؤال أخير : ما هي الفائدة التي قدمتها هذه الحركات للامة الاسلامية ؟

بغض النظر عن كونها او عدم كونها في الخط الرسالي الصحيح ، هذه الالوف من ابناء الحركات المختلفة التي ذهبت ضحية ، ما الذي حققت للامة ؟

الجواب على هذا السؤال :

ان بني امية كانوا يريدون ان يحوّلوا ابناء الامة الاسلامية الى مجموعة من العبيد يعملون كما يحلوا لبني امية ، الم يقل مروان بن الحكم حين خرج من عند عثمان ليرد الجموع الثائرة التي جاءت مطالبة عثمان بالعدالة ويعزل ولاته الظلمة :

" ماذا تريدون من ملك اعطانا الله اياه ؟ اتريدون ان تخلعوا ثوباً البسنا الله " ؟

هكذا كان تفكيرهم ولو ان هذا التفكير كان سائدا على الامة وهي راضخة له ، لزالت الامة الاسلامية من الوجود ، ولم يبق لجوهر الاسلام من ذكر .

اليس يزيد بن معاوية هو الذي تمثل بابيات ابن الزبعري ، حينما وضع رأس

---

(١) نفس المصدر ، ج ٤٥ ، ص ٣٦٣ .

الامام الحسين (عليه السلام) بين يديه :

ليت اشياخي ببدر شهدوا … جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا القرم من ساداتهم … وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وزاد فيهما البيتين التاليين كما يقول الشعبي :

لعبت هاشم بالملك فلا … خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندق ان لم انتقم … من بني احمد ما كان فعل [1].

أوليس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان يقول :

تلعّب بالخلافة هاشمي … بلا وحي أتاه ولا كتاب

فقل لله يمنعني طعامي … وقل لله يمنعني شرابي

علماً بانه قتل بعدها بأيام .

اوليس مروان هو الذي لم يفتأ يؤذي الرسول ويسخر منه بعد اسلامه ، او ليس هو - قبحه الله - اطلع على الرسول في احدى حجراته فخرج الرسول مغضباً ، ولما عرفه قال : " من عذيري من هذا الوزغ ! "

ثم اخرجه من المدينة وقال : " لايساكنني فيها ابداً "

فالى اين وصل الحال بالامة الاسلامية يا ترى حتى يصبح امراؤها اصحاب خمر وقرود ، واصحاب عشق والحاد .

اوليس معاوية بن ابي سفيان قد نقض جميع عهوده التي اعطاها الامام الحسن (عليه السلام) وقال : " كل شيء اعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لأفي به" وفي خطابه في النخيلة قال مخاطباً اهل العراق : " ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا انكم لتفعلون ذلك ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وانتم له كارهون " [2].

ثم يكتب الى عماله على البلدان " ألاّ تجيزوا لأحد من شيعة علي واهل بيته

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .

(٢) الارشاد للمفيد ، ص ١٩١ .

شهادة " وكتب ايضاً : " انظروا الى من أقيمت عليه البينة انه يحب علياً واهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه . وفي كتب اخرى كتب : " ومن اتهمتموه بموالاة القوم فنكّلوا به واهدموا داره " (١).

وقد شرّع سبّ علي (عليه السلام) على المنابر وامر ولاته بذلك : " حتى يشّب عليه الصغير ويشيب عليه الكبير " .

وكان اشد الناس بلاءً حينئذ اهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة فاستعمل عليهم زياد بن سمية . وضمّ إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، واخافهم وشردهم ، وقطع الايدي والارجل وسمّل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل فلم يبق منهم بها معروف .

وقد استخلف زياد على البصرة سمرة بن جندب فحذى حذوه في سفك الدماء.

يقول المسعودي في تاريخه ج ٢ ص ٤٨٢ : " وقد استخلف زياد ، سمرة بن جندب على البصرة فاكثر القتل فيها ، فقال ابن سيرين قتل سمرة في غيبة ابن زياد هذا ثمانية آلاف فقال له زياد : ألا تخاف ان تكون قتلت بريئاً ؟ فقال : لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت " .

وسمرة هذا هو الذي بذل له معاوية مائة الف درهم حتى يروي ان هذه الاية نزلت في الامام علي وهي : " ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، واذا سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل " وان الاية الثانية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ نزلت في ابن ملجم ، فلم يقبل سمرة بذلك ، فبذل له معاوية مائتين الف درهم فلم يقبل فبذل له اربعمائة الف درهم فقبل سمرة وروى الايتين ، ولما قال له معاوية : قد اغليت علينا قال : انني ابيعك ديني .

---

(١) شرح النهج / ج ٣ / ص ١٥ - ١٦ .

وقد كان سمرة على شرطة عبيد الله بن زياد يحرّض الناس على الخروج لقتال الحسين (عليه السلام) [1].

واقولها لله وللانسانية جميعاً ، لولا ارادة الله باختيار الائمة الهداة لمسخ المسلمون اجمع ، وهل هناك أحد غير الائمة (عليهم السلام) بث في الامة روحها وربى فقهاءها ، وانشأ الحركات وواجه احدوثات الفلسفات الاجنبية وابطل زندقة المفسدين وجعل راية التوحيد خفاقة اذ بث روح الجهاد في الامة في مواجهة انحراف بني امية وبني العباس .

ونعيد كرة القول : ان تلك الحركات وغيرها هي التي حافظت على مقدار من الحرية ومقدار من الحضارة ، ولو كانت الحركات أكثر لكانت الحضارة اكثر والحرية اكثر ، لكن ذلك المقدار من الحرية الذي كان هو نتيجة لتضحية اولئك الرساليين ، حافظ نوعاً ما على وجود الامة واستمراريتها ، والا فان سفك الدماء والقتل والنهب وانتهاك الاعراض ، لم يكن يترك بيتاً من بيوت المسلمين إلاّ ووصل إليه .

او لم يأمر يزيد مسلم بن عقبة باباحة المدينة ثلاثة ايام وان يقتل كل من لا يبايع ولا يقر بانه عبد ؟ او لم تهدم الكعبة في تلك السنة ايضا ؟

والان ومستقبلا فان أي أمة تسكت وتترك حبال السياسة على غاربها ، هذه الامة ليس فقط تذل ولكن مصيرها بلا شك هو الزوال والفساد ، ولعل الهنود الحمر في امريكا هو مثال بسيط على ذلك ، وهناك وقائع تاريخية كثيرة تؤكد هذه الحقيقة .

والى هنا تنتهي فترة حياة الامام زين العابدين (عليه السلام) .

---

(١) شرح النهج / ج ١ / ص ٣٦٩ - ٣٦٣ .

الحركة الزيدية

توفي الامام زين العابدين (عليه السلام) في المدينة المنورة وشاع النبأ ، وشمل العالم الاسلامي سحابة حزن عميق ، واصبح الامام الباقر (عليه السلام) اماماً شرعيا للأمة الاسلامية من بعد والده ، وفي عهده وقعت احداث ثورة زيد بن علي بن الحسين التي احدثت في الحركة الرسالية تياراً جديداً هو تيار الزيدية .

فالزيدية حركة تشبه في رفضها للانظمة وعدم مهادنتها لها ، اكثر الحركات الاسلامية ولكنها كانت اكثر تنظيما ووعيا من باقي الحركات ، لذلك فان الحركات الاخرى انتهت قبل ان تنتهي الحركة الزيدية بوقت غير قليل .

وحركة الزيدية حكمت بلادا كثيرة في العالم ، وآخر تلك البلاد اليمن ، وآخر من حكم بلاد اليمن من الزيدية - او بالاحرى باسم الزيدية - هو الامام سيف الاسلام البدر الذي تنحى عن السلطة بعد انقلاب عسكري قاده ضده عبد الله السلال[1].

ماذا فعل زيد بن علي ؟ وكيف تحولت حركته الى تيار اجتماعي ؟

يجب ان نتساءل عن ذلك ليس باعتبارنا مؤرخين فقط ولكن باعتبارنا نؤمن

---

(١) توفي الامام سيف الدين بدر عام ١٩٩٦م في محل اقامته في لندن (الناشر) .

بالخط الرسالي ، لذا علينا ان نعرف ما هي العلاقة بين حركة زيد بن علي والتيار الرسالي الاصيل في التاريخ ؟ وهل الرساليون كانوا يدعمون حركة زيد ام لا ؟

زيد يخطط لحركته الرسالية

يبدو ان زيدا وحسب تعبير المؤرخين " الامام زيد " بقي يخطط طويلا لحركته، وهذا ما اظنه شخصياً ، بيد ان مجموعة من المؤرخين يزعمون بان زيداً قام بحركته عفويا وبدوافع شخصية وآنية ، لكن هذا ما اخطئه ، اما السبب في ذلك فهو عند الاحاطة بهذه النظرية نجد ان زيد بن علي كان يتصل بكافة الاحزاب السياسية التي كانت موجودة داخل الامة الاسلامية حينها ، فقد اتصل بالخوارج والمعتزلة والمرجئة ، وهذه الاتصالات ليس كما يزعم بعض المؤرخين بأنه كان يأخذ من المرجئة او من المعتزلة او حتى من الخوارج افكارهم ، وأن اتصاله بهؤلاء كان اتصال الاخذ وليس اتصال المعطي ، واتصال المستوحي والتلميذ .

ولكن هل يمكن هذا وابوه الامام علي بن الحسين (عليه السلام) وبيتهم بيت الثورة ؟ وقد كانت القيادة الروحية للامة الاسلامية في كافة العصور لأهل البيت (عليهم السلام) .

جاء رجل الى امام المذهب (ابو حنيفة) وقال :

" نذرت نذرا ان ادفع مقدارا من المال للامام العادل فلمن تنصحني ان ادفعه ؟

فقال : اذا اردت ان تعرف الامام العادل وتعطيه المال فادفعه الى الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) .

هكذا كانت قلوب الامة مع اهل البيت وهم القادة الحقيقيون لها فكيف يمكن لزيد بن علي ان ياخذ الفكر والايديولوجية من هذا وذاك .

من هنا اعتقد ان اتصال زيد بالاحزاب والجبهات كان اتصال تخطيط تم بخطة مسبقة الا ان بعض الاحداث قد تستعجل الانسان في القيام بخطته قبل ان تكتمل شروطها .

الظروف تستعجل زيداً

وانما الحادثة التي سنذكرها استعجلت حركة زيد .

لقد ولّى الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك على المدينة المنورة رجلاً متعصبا وعنيفاً ، اتخذ طريق العنف ضد اهل البيت ومنهم زيد بن علي ، ففكر زيد بان افضل طريقة لحل المشكلة هو الذهاب الى الشام واتمام الحجة على هشام .

وعندما وصل زيد الى الشام ، لم يأذن هشام له بالدخول عليه وهو يريد بذلك إذلاله وثنيه عما جاء من اجله ، فيرجع من حيث اتى .

إلاّ ان الهدف الذي ذهب زيد من اجله الى الشام جعله يصبر وينتظر ويكرر محاولة لقاء هشام المرة تلو الاخرى حتى بلغت محاولاته اربعين محاولة .

وفي هذا كثير من الاهانة بالنسبة الى رجل بمستوى زيد بن علي ، وهو آنئذ يعتبر شيخ العلويين وعمره (٤٢ عاماً) قضاها في الزهد والعبادة ، وكان حينما يقرأ القرآن يبكي واذا قرئ القرآن امامه يبكي ، وكان معطاءً ، فقد اعطى امواله في سبيل الله مرات عديدة .

وكان يسمى بحليف القرآن وحليف المسجد وذي الثفنات كما كان يسمى ابوه من قبله ، وكان فقيها لم ير افقه منه ، وقد ألّف كتباً ، فهناك كتب تنسب الى زيد يعتمد عليها الزيدية الى الآن ، فالرجل لم يكن شخصا عاديا والاهانة التي وجهت اليه كانت كبيرة .

هذا الرجل يمنع ولمدة اربعين يوماً من الدخول على هشام ، ولكنه بإصراره دخل على هشام وكان هشام يحمل حقداً شخصيّاً تجاه الامام علي بن الحسين (عليه السلام) وتجاه اولاده .

وقصة هشام معروفة حينما كان ولياً للعهد عندما جاء الى مكة المكرمة ورأى ازدحام الناس حول البيت فلم يقدر على استلام الحجر بينما فتح الطريق للامام زين العابدين (عليه السلام) وجاء الفرزدق وانشد ابياته على هذه القصة التي ذهبت

مثلا وثورة ضد الطاغوت [1] فهو يحمل حقداً شخصياً تجاه هذه الاسرة ، لذلك لم يفسح المجال لزيد ، فجاء زيد ورأى كل المقاعد مملوءة فجلس حيث ينتهي به المجلس ولكن زيداً ذلك الرجل الشجاع الذي اكتسب الشجاعة من اجداده ومن ممارساته في الحياة ، وجه خطابه الى هشام وقال : " اتق الله يا أمير المؤمنين "

قال هشام : " ومثلك يا زيد يأمر مثلي بالتقوى " !

قال زيد : " ليس احد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله "

في تقوى الله ليس هناك صغير وكبير ، فالكل يجب ان يتقي الله ، فكانت هذه كلمة حق عند سلطان جائر .

---

(١) جاء في بحار الانوار ج ٤٦ ص ١٢٥ ان هشام بن عبد الملك حج فلم يقدر على الاستلام من الزحام ، فنصب له منبر فجلس عليه وأطاف به أهل الشام فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين (عليه السلام) وعليه إزار ورداء ، من أحسن الناس وجهاً واطيبهم رائحة ، بين عينيه سجادة كانها ركبة عنز ، فجعل يطوف فإذا بلغ الى موضع الحجر تنحى الناس حتى يستلمه هيبة له ، فقال شامي : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا أعرفه ، لئلا يرغب فيه أهل الشام ، فقال الفرزدق وكان حاضراً : لكني أنا اعرفه ، فقال الشامي : من هو يا أبا فراس ؟ فأنشأ قصيدته التي مطلعها :

يا سائلي أين حل الجود والكرم ؟	عندي بيان إذا طلابه قدموا
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم

فغضب هشام ومنع جائزته وقال : ألا قلت فينا مثلها ؟ قال : هات جداً كجده وأبا كأبيه وأما كأمه حتى اقول فيكم مثلها ، فحبسوه بعُسفان بين مكة والمدينة فبلغ ذلك علي بن الحسين (عليه السلام) فبعث إليه باثني عشر ألف درهم وقال : اعذرنا يا أبا فراس ، فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به ، فردّها وقال : يا ابن رسول الله ما قلت الذي قلت إلا غضباً لله ولرسوله ، وما كنت لأرزأ عليه شيئاً فردها اليه وقال : بحقي عليك لّما قبلتها فقد رأى الله مكانك وعلم نيتك ، فقبلها .

عندها غيّر هشام دفة الحديث لانه رأى ان زيدا اصابه في المقتل وقال :

" انت الذي تنازعك نفسك الخلافة وانت ابن امة " .

فقال له زيد : " ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت ام اسماعيل امة لامّ اسحاق - (صلى الله عليهما) فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبياً ، وجعله للعرب ابا ، فاخرج من صلبه خير البشر محمداً (صلى الله عليه وآله) فتقول لي هذا ، وانا ابن فاطمة وابن علي " .

فانتفخت اوداج هشام غضباً حيث رأى سيفاً مسلولاً من سيوف بني هاشم ، فدعى قهرمانه وقال : لا يبيتن هذا في عسكري ، واضمر له السوء [1] .

وخرج زيد من عند هشام وهو يقول : " ما كره قوم قط حرّ السيوف الا ذلوا " [2] .

و لم يقتصر هشام على اذلال زيد بهذه العملية ، وانما ادّعى ان احد ولاته المعزولين وهو خالد بن عبد الله القري له في ذمة زيد ومحمد بن علي مال ولان خالدا كان مسجوناً فكان على زيد ان يذهب اليه في الكوفة ويمثل امام القضاء هناك . قال هشام : " انا باعثون بكم اليه يجمع بينكم وبينه " أي انه يريد ابعاث زيد ومحمد بن عمر بن علي الى الوالي المعزول الذي يطالبهم بالمال حسب زعم هشام .

وقد كان السبب في عزل هذا الوالي ، هو ان الخلفاء الامويين كانت لهم عادة خاصة ، فكل خليفة يعزل الولاة السابقين وينصب ولاة من اصحابه وازلامه ، وربما ينكّل بالولاة السابقين ، كما نكّل سليمان بن عبد الملك باولاد الحجاج واقاربه باعتباره كان واليا من قبل اخيه .

فالوالي السابق اُخذ وغلّ في السجن وعذبوه وطلبوا منه ان يدّعي على زيد بن علي مالا ، وان يقول ان له امانة عند زيد بن علي وخانها فيه حتى تلوث بهذه

---

(١) " لما دخل زيد على هشام قال له ما فعل اخوك البقرة ؟ فغضب زيد حتى كاد يخرج من اهابه ثم قال لهشام ، سماه رسول الله باقراً وتسميه انت البقرة ، لشد ما اختلفتما ، لتخالفنّه في الاخرة كما خالفته في الدنيا ، فقال هشام خذوا بيد هذا الاحمق المائق " .

المصدر: عيون الاخبار ج ١ ، ص ٢١٢ وشرح النهج مجلد ١ ، ص ٣١٥ .

(٢) خطط المقريزي ج ٤ ، ص ٣٠٩ .

الطريقة سمعة زيد .

وتحت التعذيب وافق هذا الوالي على ذلك ، وادّعى عند جماعة قائلاً : اني اطلب زيد مالا . ولكن زيداً قال : انه لا يطلبني مالاً ، واذا كنت مديناً له فليأت ويثبت ذلك عليّ .

فقالوا له بان الوالي مسجون لذلك لا يستطيع المجيء ، وهكذا اجبروا زيدا على الرواح الى الكوفة عند الوالي الجديد يوسف بن عمر ، فجيء بالوالي القديم المعزول وسأله الوالي الجديد : هذا زيد بن علي ومحمد بن عمر بن علي اللذان ادعيت قبلهما ما ادعيت .

فأجاب : مالي قبلهما قليل ولا كثير .

فانقلبت الآية على بني امية ، لذلك امر يوسف بن عمر ، زيد بن علي بالخروج من الكوفة ، فقال له زيد : انني قطعت الطريق في اكثر من ١٠ ايام الى الكوفة ، فكيف تريدني ان ارجع ؟

فأُجبر على الخروج ومشت معه سرية من الحرس حتى يأخذوه الى خارج الكوفة .

خطبة لزيد يبين فيها اهداف ثورته

قال زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) :

أذكّركم ايها السامعون لدعوته المتفهمون مقالتنا ، بالله العظيم الذي لم يذكر المذكرون بمثله ، إذا ذكرتموه وجلت قلوبكم ، واقشعرت لذلك جلودكم ، ألستم تعلمون أنّا ولد نبيكم المظلومون المقهورون فلا سهم وُفّينا ، ولا تراث أعطينا ، وما زالت بيوتنا تهدم ، وحرمنا تنتهك ، وقائلنا يعرف ، يولد مولودنا في الخوف ، وينشؤ ناشئنا بالقهر ، ويموت ميتنا بالذل .

ويحكم إن الله قد فرض عليكم جهاد أهل البغي والعدوان من امتكم على بغيهم، وفرض نصرة أوليائه الداعين إلى الله وإلى كتابه ، قال : " ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز " ويحكم إنّا قوم غضبنا لله ربنا ، ونقمنا الجور المعمول به في اهل

ملتنا ، ووضعنا مَن توارث الامامة والخلافة ويحكم بالهواء ونقض العهد وصلى الصلاة لغير وقتها ، وأخذ الزكاة من غير وجهها ، ودفعها الى غير اهلها ، ونسك المناسك بغير هديها ، وأزال الافياء والاخماس والغنائم ، ومنعها الفقراء والمساكين وابن السبيل ، وعطّل الحدود وأخذ بها الجزيل ، وحكم بالرشا والشفاعات والمنازل وقرّب الفاسقين ، ومثّل بالصالحين واستعمل الخيانة ، وخوّن اهل الامانة وسلّط المجوس ، وجهّز الجيوش ، وخلّد في المحابس ، وجلد المبين !! وقتل الوالد ، وأمر بالمنكر ، ونهى عن المعروف ، بغير مأخوذ عن كتاب الله ، ولا سنة نبيه ، ثم يزعم زاعمكم أن الله استخلفه ، يحكم بخلافه ، ويصد عن سبيله ، وينتهك محارمه، ويقتل من دعا الى امره ، فمن أشرُّ عند الله منزلة ممن افترى على الله كذباً ، اوصدَّ عن سبيله ، او بغاه عوجاً ، ومن أعظم عند الله أجراً ممن أطاعه ، وآذن بأمره ، وجاهد في سبيله وسارع في الجهاد ، ومن أحقر عند الله منزلة ممن يزعم ان بغير ذلك يمنُّ عليه ثم يترك ذلك استخفافاً بحقه وتهاوناً في امر الله ، وإيثاراً للدنيا ، ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين [1].

زيد يتخذ من الكوفة منطلقا لثورته

ولكن زيدا وبذكاء وحكمة لما رجع الجيش وبعد مضي يوم رجع الى الكوفة مرة ثانية خفية واتصل بجماعته ، وارسل بعض افراده الى المدائن والبصرة ، وخراسان واهل المدينة وكتب رسالة الى الامام الصادق (عليه السلام) ايضا .

وكما ذكرنا سابقا بأن زيدا كان مخططا لثورته وباتصالاته مع جماعات شتى مـن ارجاء البلاد الاسلامية من سائر الحركات الاسلامية ويدلّ عليه قول هشـام : " انت الذي تنازعك نفسك الخلافة " ، حيث يثبت بأن زيـداً كان يخطط لثورتـه .

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ٢٠٦ .

ثم ان هذه المسرحية التي لعبها النظام مع زيد كانت تدل على انه كان يخطط لعمله منذ عهد بعيد .

انطلاق الثورة

بعد ان جعل زيد ساعة الصفر للثورة ليلة اول صفر ١٢٢ هـ ، وكانت خطته ان يتحرك الثوار في موعد واحد في كل من البصرة والمدائن والكوفة وأن تزحف الجيوش على الكوفة وتأخذها ، ثم تزحف على الشام ، لكن يبدو ان اهل الكوفة كانوا ضعاف النفوس ، وسوف نبيّن في المواضيع القادمة اسباب فشل الثورات الرسالية والتي من ضمنها الضعف النفسي والتذبذب الذي ادى بهم الى ان يفشوا السر ، لقــد كانوا عندما يرون بني امية يقولون : سوف ننتصر عليكم ونأخذ الحكم منكم، بينما العيون كانت تراقبهم .

الوالي يعلن الاستنفار

ولقد سعى احدهم بذلك فكتب رسالة الى الوالي على الكوفة قائلاً : أين أنت ؟ ان زيداً قد غرس ذنبه في الكوفة ، ويدعو الناس الى مبايعته وانت نائم ، حاول ان تحيط به .

فاعلن الوالي الاستنفار العام في جيشه وارسل الى جيش الشام للاستعداد ، وجمع الناس في المسجد واغلق الابواب عليهم ، حتى لا تستطيع جماعة زيد القيام بالثورة.

لقد اعلن الوالي بان الصلاة جامعة ، ويعني ذلك ان على الناس ان تتجمع في المسجد وكل من يتخلف يعتبر مجرما ، فتجمع الناس في المسجد دون ان يعرفوا الهدف ، وعرف زيد بان هناك مؤامرة تحاك ضده مما إضطره ان يخرج قبل ساعة الصفر باسبوع فخرج في ٢٣ محرم .

ولّما خرج في ٢٣ محرم كان انصاره في المدائن والبصرة والحيرة وغيرها ينتظرون ساعة الصفر ، فإذا بهم يسمعون بان زيدا قد خرج واستشهد .

خــرج زيد بن علي في الكوفة وقاتل في منطقة واسعــة ، كان في جانب منهــا

جيش الشام والقبائل التي تؤيد الشام ، وفي الجانب الآخر كانت القبائل التي تؤيد الخط الرسالي ، وكانت هناك منطقة قاحلة تسمى " كنانة " واخذ يحاربهم وقد فوجيء بان الذين وعدوه بالنصرة كانوا اكثر من الف انسان ، بينما الذين يقاتلون معه لا يتجاوزون الخمسمائة .

المهم ان الوالي ، اغلق ابواب المسجد على الناس ووضع سرية حول المسجد فهزمها زيد ووصلت طليعة جيشه الى المسجد فرأته مغلقاً ، فصعدوا على جدار المسجد وصاحوا باعلى اصواتهم : " اين انتم يا شيعة زيد ، فان هذا ليس عذرا ، كسروا الابواب واخرجوا " ولكنهم لم يحركوا ساكنا .

وحميت المعركة بين جيش زيد والجيش الاموي ودخلت حاميات جيش الشام في المعركة وبالتالي دارت الدائرة على زيد .

وربما كانت المعركة تطول اكثر لولا ان الوالي فكر في طريقة معينة ، لقد فكر ان زيدا وجماعته شجعان بالرغم من انهم فرقة قليلة ، واذا حاربوا بالسيوف فانهم سيبيدون جيش الشام في الكوفة ، فأمر جماعته ان يحاربوهم بالنبال ، والسبب ان صاحب النبل بعيد ، ويستطيع ان يضرب بشكل اكبر وبخسارة اقل ، فبالتالي الكثرة تتغلب على الشجاعة ، كما جاء في المثل .

وقد نجحت هذه الطريقة ، واذا بالنبال تأتي من جميع الاطراف من على السطوح والمنازل والنخيل على زيد وانصاره ، وقد اصابت نبلة جبهة زيد فوقع واستشهد ، ولما اصيب زيد انهزمت جماعته وأخذوا زيداً وحاروا في أي مكان يدفنونه ، فاجمعوا على دفنه تحت النهر وبعدها يجروا عليه الماء ، وبهذه الطريقة لا يمكن اكتشافه .

ودفنوه في ذلك المكان الذي يعتبر حالياً قبر زيد (على مسافة بضعة كيلو مترات من مدينة الكوفة) ، الا انه ليس لزيد قبر في الحقيقة ، لانه كما نعلم اخرج وصلب لمدة اربع سنوات ثم انزل واحرق ودق جسمه بالهاون ثم ذري في الريـــاح .

وهكذا اصيبت حركة زيد بضربة قاصمة كل ذلك لانه سبق الموعد الذي اتفق عليه مع انصاره .

روي عن حمزة ابن حمران أنه قال : دخلت الى الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) فقال لي : يا حمزة من أين أقبلت قلت : من الكوفة، قال حمزة: فبكى (عليه السلام) حتى بلت دموعه لحيته فقلت له ياابن رسول الله مالك أكثرت البكاء ؟ فقال : ذكرت عمي زيداً (عليه السلام) وما صنع به فبكيت ، فقلت له : وما الذي ذكرت منه ؟ فقال : ذكرت مقتله وقد أصاب جبينه سهم فجاءه ابنه يحيى فانكب عليه ، وقال له : ابشر يا أبتاه فانك ترد على رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم) قال : اجل يا بني، ثم دعا بحدّاد فنزع السهم من جبينه ، فكانت نفسه معه ، فجيء به إلى ساقية تجري عند بستان زائدة ، فحفر له فيها ودفن وأجري عليه الماء ، وكان معهم غلام سندي لبعضهم، فذهب الى يوسف بن عمر من الغد فأخبره بدفنهم إياه فأخرجه يوسف بن عمر فصلبه في الكناسة أربع سنين ثم امر به فأحرق بالنار وذري في الرياح ، فلعن الله قاتله وخاذله ، والى الله جل اسمه أشكو ما نزل بنا أهل بيت نبيه بعد موته وبه نستعين على عدونا وهو خير مستعان [1].

[1] أمالي الصدوق ، ص ٣٩٢ ، وبحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ١٧٣ .

الثورة الرسالية بين زيد وائمة اهل البيت عليهم السلام

في الفصل الماضي كنا مع زيد بن علي حينما خرج من الشام الى العراق ، فجمع الانصار وحارب الاعداء واصيب بسهم واستشهد .

وفي هذا الفصل نحاول البحث عن علاقة زيد بالأئمة المعصومين (عليهم السلام) ونبين جانباً من حياة الامام الباقر (عليه السلام) الذي عاصر مرحلة الاعداد لثورة زيد والذي نرجوه لكل رسالي هو ان يعرف حياة الامام الباقر (عليه السلام) باعتباره قدوة يتبع ، فلا يمكن ان يتبع الانسان أحداً إلاّ بعد ان يعرف الخطوط العريضة لسيرته .

ماذا عمل الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في حياته ؟

للاجابة على هذا السؤال لابد ان نبين ان كل اصلاح وتغيير في المجتمع بحاجة الى ثلاثة اركان وهي :

١ / الخلفية الروحية (بعث الروح) .

٢ / الخلفية الثقافية (اثارة العقل) .

٣ / التفجير الثوري (تعبئة الطاقات) .

وهذه الاركان تأتي قبل الانتصار ، وهناك اركان تاتي بعده من جملتها وضع البرامج الواضحة للاصلاح والتغيير .

حين تقوم باي عمل فلابد من الاحساس بالحاجة اليه ، فلو لم تكن الحاجة النفسية موجودة لما قام الانسان بأي عمل في الحياة .

مثلا لو لم تكن حاجة الى المسكن لما بنيت هذه البيوت ، ولو لم تكن هناك حاجة الى النقل والانتقال لما كانت هذه السيارات والشوارع المعبدة .

ان الحاجة تدفعك الى القيام بعمل ما ، واذا لم يكن لدى امة من الامم احساس نفسي بضرورة الاصلاح والنهوض ، فانه من غير الممكن لا بل من المستحيل دفع هذه الامة نحو الاصلاح ، والعمل او التضحية في سبيله ، وخصوصاً وان الاصلاح بحاجة الى تضحيات كبيرة والى نكران الذات ، مما لا يقدم عليه الفرد الذي لا يشعر بالحاجة الى الاصلاح ولا يتطلع نحو تحقيقه .

ويبقى سؤال : كيف يمكن ايجاد روح التطلع نحو الاصلاح والنهوض في امة من الامم ؟

يمكن ذلك بايجاد روح الثورة في هذه الامة ، ونعني بذلك معرفة اهمية الاصلاح وضرورته وبعث الأمل في النفوس بامكانية النهوض وذلك عبر اعطاء التطلع والهمة العالية لتحقيقه ، وهذا يسمى بعث الروح في الامة .

قد ترى ان شعباً من الشعوب يبقى ٤٠٠ عام يرزح تحت نير الاستعمار ، فيُقتَل وتُنهَب امواله وثرواته ويُستعبد ويظل هذا الشعب مستسلماً لمستعبديه وغاصبيه .

وبعدئذ يأتي من يبعث فيه الروح ، وقد لا يقول لهم شيئاً الاّ كلمة واحدة : " ايها الشعب انتفض ، تحرك ، ثر ، انهض ".

فإذا بهذا الشعب يثور ويتحول الى مرجل ، واذا بالاستعمار يلملم امتعته ويرحل، كما حدث بالنسبة للشعب الهندي والشعب الصيني ، وكما حدث تاريخياً للشعب العربي حينما جاء نبينا (صلى الله عليه وآله) وبعث فيه روحاً دفعته الى القيام والنهوض ، فإذا باؤلئك الحفاة الجفاة الذين كان يأكل بعضهم بعضاً ، اصبحوا سادة العالم . واذا بشاب تربى بتربيتهم (طارق بن زياد) يقدم على بلد من اجمل

بلاد العالم واقواها وهي الاندلس القديمة ويفتحها ، وكان الجيش الاسلامي حينها لا يمتلك الاّ الاسلحة الخفيفة حسب مفاهيمنا الحاضرة .

والسبب في انتصار هذا الجيش كان امتلاؤه بالروح المتصلة بالسماء، ان تلك الروح دفعته للفتوحات الهائلة .

فاية ثورة اصلاحية بحاجة الى هذه الروح وبعد ذلك تحتاج الى ثقافة ثورية متكاملة تدعم تلك الثورة .

فلو لم تكن لدى الشعب ثقافة ثورية متكاملة ، وكانت مكانها ثقافة الاستعباد والاستغلال لكانت الروح وحدها لا تغني شيئاً .

فلو اعتقد شعب بكامله ، كالشعب الهندي مثلاً ان الرجل الابيض خير من الرجل الاسمر ، اترى ان صيحات غاندي كانت تستطيع ان تحرك هذا الشعب ؟ كلا .. لان مثل هذا الاعتقاد لا يدعه يتحرك .

فإذا اردنا الاصلاح والتغيير فاننا بحاجة الى ثقافة ثورية متكاملة تدعم عقيدة الاصلاح . ثم تحتاج العملية الى تعبئة الطاقات وتفجير الثورة .

بعد هذه المقدمة نلاحظ ان دور الامام زين العابدين (عليه السلام) في الحركة الرسالية كان بعث الروح الاصلاحية الثورية في المسلمين .

وكان دور الامام الباقر (عليه السلام) هو اعطاء فكرة متكاملة عن الاصلاح الاجتماعي للأمة الاسلامية .

فالإمام زين العابدين قام ببعث روح الجهاد ، بينما نجد الامام الباقر (عليه السلام) يطرح الخلفية الفكرية والثقافية لتأجيج هذه الروح .

فماذا عمل الامام الباقر (عليه السلام) خلال العشرين عاما من عمره ، بعد ان استلم مقاليد الامامة من والده الامام علي بن الحسين (عليه السلام) .

لقد سمي الامام بالباقر لانه بقر العلم ، وقد سمع منه محمد بن مسلم ثلاثين ألف حديث وقيل تسعين ألف حديث [1] .

---

[1] بحار الانوار ، ج ٢ ، باب كتمان العلم .

ونحن نتسائل : هل كانت احاديث الامام الباقر حول مسائل الطهارة والنجاسة فقط ؟

بالطبع ليس من المناسب لبيت النبوة ومهبط الوحي ان يشغل نفسه بقضية جزئية كقضية الطهارة والنجاسة فقط ، وانما مثل هذه المسائل كانت لا تشكل الاّ جزءاً بسيطاً من المنظومة الفكرية التي اضطلعوا برسم معالمها وفقاً لنور الرسالة المحمدية .

وباجماع المؤرخين فان الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) هو الذي طرح نظرية الامامة الاسلامية بشكل متكامل . بمعنى انه بين للامة الاسلامية كيف يجب ان تكون القيادة الاسلامية ؟ ومن هو الامام ؟ ولماذا الحاجة الى الامام ؟ وما هي وظيفة ومسؤولية الامام ؟

الامام الباقر علمه لسعادة الانسانية

ان العلم الذي بقره الامام بقرا ، هو ذلك العلم الذي يحتاج اليه الانسان وهو الذي من اجله بعث الله الانبياء وارسل الرسل .

ان العلم المطلوب هو العلم الذي يبين كيف يمكن للانسان ان يصلح نفسه ومجتمعه ، لذلك لم يأت الانبياء بعلم فلق الذرة وصنع الصاروخ ، وكيفية بعث مركبة فضائية الى المريخ ، بل شغلوا انفسهم باصلاح الناس واثارة المحرومين ضد الظالمين، واعطائهم طرق وكيفيات العمل والتحرك في مواجهة المفسدين والمستكبرين في الارض .

انما فعلوا ذلك لان هذا هو اهم حاجة للانسان والا فماذا يجدي الانسان ان يصنع مركبة فضائية ويذهب الى اعالي السماء ثم يصب من هناك القنابل الذرية والهيدروجينية على اهل الارض لتدميرهم .

الامام الباقر يواجه الافكار التبريرية

فالأئمة المعصومون (عليهم السلام) والامام الباقر بالذات بيّن معالم الفكر الرسالي المسؤول للمجتمع ، والسبب في ذلك ان هناك افكاراً تبريرية انتشرت في

عصر الامام الباقر (عليه السلام) كأفكار المرجئة وهم الجماعة الذين قالوا بان الافضل لنا ان لا ندين الرجال ، بمعنى ان لا نحدد موقفنا من الرجال السابقين ، ونرجيء ذلك الى يوم القيامة ، والله سبحانه وتعالى هو المسؤول فقط . فمعاوية والامام علي (عليه السلام) مثلاً تحاربا وذهبا الى ربهم ، وهو الذي يحاكمهم ، فليس من وظيفتنا ان ندين احدهما ونحدد الموقف من هؤلاء ونقف الى جانب احد الطرفين ، وقالوا استنادا للآية الكريمة : ﴿ وءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة/١٠٦)

ان الناس بعضهم كافر فأمره ظاهر ولكن الذي يظلم ويقتل الناس ، هذا الرجل ليس لنا سبيل لاصلاحه ، فلماذا نحن نتخذ موقفا مضاداً منه ؟

لقد كانت حركة المرجئة حركة تبريرية ، وهناك ايضاً كانت حركة القدرية التي بثها الحسن البصري والتي تقول بان أي حاكم انما يجيء الى الحكم بامر من الله أي بالجبر ونحن لا نستطيع ان نخالف اوامر الله .

ولم يقتصر الامر على الجانب السياسي انما شمل كل الاصعدة وخصوصاً ان عهد الامام الباقر (عليه السلام) قد شهد افكارا متناقضة لان الامة وصلت الى مستوى من الفوضى السياسية في جميع النواحي ، لذلك احتاجت الى نظريات ، فاخذ كل انسان يطرح نظريته .

ومن هنا تعددت النظريات الفقهية ، فالمذاهب الاربعة التي نشأت تقريبا في زمان الامام الباقر (عليه السلام) وكانت من بين عشرات المذاهب الاخرى ، كانت قد انتشرت آنذاك ، واصبحت الامة تعيش بلبلة فكرية عجيبة انشغلت بعدها باشياء تافهة واصبح اليأس يدب في نفوس ابنائها ، وفي ذات الوقت كانت الامة بحاجة الى رجل فقيه اخذ علمه من اصفى المنابع وكان ذلك هو الامام الباقر (عليه السلام) .

فقد كان الامام الباقر (عليه السلام) ليس اماما للشيعة فقط ، فقد اتخذته السنة اماما ، وتأثرت به كافة المذاهب السنية ، ربما اكثر مما تأثر الشيعة به . فهو الذي

اعطى كافة الفئات. الاسلامية الاخرى الفكر الرسالي المرتبط بكليات الرسالة وقضاياها الاساسية

لقد اعطى الامام (عليه السلام) الخلفية الثقافية الفكرية للحركة الثورية الرسالية في الامة ، ولكن الامر كان بحاجة الى تركيز اكثر فجاء زيد بن علي ليقوم به وكما قلنا فان زيد بن علي اتصل بكافة الحركات الاسلامية ، كالمرجئه والخوارج والمعتزلة والشيعة واتفق معهم على قلب نظام الحكم مما جعل الفكر الرسالي قائدا لتيار المعارضة .

الفكر الرسالي هو الفهم الصحيح للاسلام

وهنا يطرح سؤال هام هو : من يقول ان زيداً كان مدفوعاً من قبل الامام الصادق (عليه السلام) في القيام بثورته ؟

امام هذا السؤال ، ينقسم المؤرخون الى قسمين ، يرى بعضهم ان زيداً لم يكن له أي تنسيق مع الامام الصادق (عليه السلام) ، بل انه خالف نهيه اياه عن الخروج حينما قال له : يا عم ان رضيت ان تكون المقتول المصلوب بالكناسة فشأنك .

اما البعض الآخر فيرى ان قيام زيد انما كان وفق خطة مدروسة رسمت معالمها وفق توجيهات وتطلعات أئمة اهل البيت (عليهم السلام) وبالذات الامام الصادق .

وهذا ما نراه استناداً للكم الهائل من الروايات التي تتحدث عن شخصية الشهيد زيد (رض) والاهداف التي كان ينشدها من وراء قيامه وثورته ، والتي يقف على رأسها الدعوة الى الرضا من آل محمد، والذي يعني المطالبة بارجاع الخلافة الى اصحابها الشرعيين ، الائمة الاثنى عشر من اهل بيت النبوة (عليهم الصلاة والسلام) .

ولو قُدّر لزيد النجاح بخطته، لكان وفى لتلك الاهداف ، كما يقول الامام الصادق (عليه السلام) : "رحم الله عمي زيداً . لو ظفر لوفى ، انّما دعا الى

الرضا من آل محمد وأنا الرضا "[1].

وزيد انما هو خريج تلك المدرسة التي تربى فيها القادة الرساليون على امتداد الخط منذ زمن الرسول الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله) ومن بعده في زمن امير المؤمنين علي (عليه السلام) ، امثال عمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد وحجر وعشرات غيرهم من القادة الرساليين ، الذين ظلوا مشاعل نور في بحار الظلمات التي اراد بنو امية ان يغرقوا المسلمين فيها .

وهنا نورد بعض الروايات التي تبيّن بشكل لا يقبل الشك ان الشهيد زيد ، انما كان مدفوعاً من قبل الامام الصادق (عليه السلام) .

روي عن محمد بن مسلم قال : دخلت على زيد بن علي (عليه السلام) فقلت: إن قوما يزعمون أنك صاحب هذا الأمر قال : لا ولكني من العترة قلت : فمن يلي هذا الأمر بعدكم ؟ قال : سبعة من الخلفاء والمهدي منهم . قال ابن مسلم : ثم دخلت على الباقر (عليه السلام) فأخبرته بذلك ، فقال : صدق أخي زيد صدق أخي زيد ، سيلي هذا الأمر بعدي سبعة من الأوصياء ، والمهدي منهم ثم بكى (عليه السلام) وقال : كأني به وقد صُلب في الكناسة يا ابن مسلم ، حدثني أبي عن أبيه الحسين قال : وضع رسول الله (صلى الله عليه وآله) يده على كتفي ، وقال : يا حسين يخرج من صلبك رجل يقال له زيد يقتل مظلوماً إذا كان يوم القيامة حشر وأصحابه إلى الجنة [2] .

وروي عن عمرو بن خالد قال : قال زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه وحجة زماننا ابن أخي جعفر بن محمد لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه[3] .

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ٢٠٠ .

(٢) المصدر.

(٣) امالي الصدوق ، ص ٥٤٢ .

وروي عن عبد الله بن العلا قال : قلت لزيد بن علي انت صاحب الأمر ؟ قال : لا ولكني من العترة قلت : فإلى من تأمرنا ؟ قال : عليك بصاحب الشعر وأشار الى الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) [1].

الامام الرضا (عليه السلام) يثني على زيد بن علي

وقد كان زيد رجلاً مؤمناً ويسمى بحليف القرآن ، وكان وهو شاب اذا ذكر اسم الله امامه بكى واغمي عليه وهذا ما جاء في الرواية التالية عن ابن ابي عبدون عن ابيه قال : لمّا حمل زيد بن موسى بن جعفر الى المأمون وكان قد خرج بالبصرة واحرق دور ولد العباس ، وهب المأمون جرمه لاخيه علي ابن موسى الرضا (عليه السلام) وقال له : يا أبا الحسن لئن خرج أخوك وفعل ما فعل ، لقد خرج قبله زيد بن علي فقتل ، ولولا مكانك منّي لقتلته ، فليس ما أتاه بصغير ، فقال الرضا (عليه السلام) : يا أمير المؤمنين لا تقس أخي زيداً إلى زيد بن علي (عليه السلام) فانه كان من علماء آل محمد . غضب لله عز وجل فجاهد أعداءه حتى قُتل في سبيله ، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر (عليه السلام) أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول : رحم الله عمي زيداً إنه دعا إلى الرضا من آل محمد ، ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، وقد استشارني في خروجه ، فقلت له : يا عم إن رضيت أن تكون المقتول المصلوب بالكناسة فشأنك .

فلما ولى قال جعفر بن محمد : ويل لمن سمع واعيته فلم يجبه ، فقال المأمون: يا أبا الحسن أليس قد جاء فيمن إدّعى الإمامة بغير حقها ما جاء ؟! فقال الرضا (عليه السلام) : ان زيد ابن علي (عليه السلام) لم يَدَّعِ ما ليس له بحق ، وانه كان اتقى لله من ذاك ، إنه قال ادعوكم الى الرضا من آل محمد ، وانما جاء ما جاء فيمن يدعي أن الله نص عليه ، ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم ، وكان زيد والله ممن خوطب بهذه الآية :

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ٢٠١ .

﴿ وجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [1] .

الامام الصادق (عليه السلام) ينعي عمه زيداً (عليه السلام)

عن عبد الله بن سيابه قال : خرجنا ونحن سبعة نفر فأتينا المدينة ، فدخلنا على ابي عبد الله (عليه السلام) فقال : اعندكم خبر عمي زيد (عليه السلام) ؟ فقلنا : قد خرج او هو خارج ، قال : فان اتاكم خبر فأخبروني . فمكثنا اياماً فأتى رسول بسّام الصيرفي بكتاب جاء فيه :

" اما بعد فان زيداً قد خرج يوم الاربعاء غرّة صفر ، فمكث الاربعاء والخميس ، وقُتل يوم الجمعة ، وقتل معه فلان وفلان ، فدخلنا على الامام الصادق (عليه السلام) ودفعنا اليه الكتاب ، فقرأه وبكى ثم قال :

" انا لله وانا اليه راجعون ، عند الله احتسب عمي انه كان نعم العم ، ان عمي كان لدنيانا وآخرتنا مضى والله عمي شهيداً كشهداء استشهدوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي والحسن والحسين صلوات الله عليهم " [2].

كبار الفقهاء يؤيدون حركة زيد (عليه السلام)

والدليل الثاني ان كبار الفقهاء انضموا تحت لواء زيد ، وابو حنيفة رئيس المذهب الحنفي كان من الذين ايّدوا زيد بن علي في حركته ، ونقل عن جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) انه قال :

" ان ابا حنيفة قد تحققت مودّته لنا في نصرته زيد بن علي " [3].

لقد كان الفقهاء في عهد زيد يؤيدونه ويتبعونه ، وعلى رأسهم الفقهاء الرساليون، وهذا دليل على ان زيداً كان مؤيداً من الامامين الباقر والصادق (عليهما السلام) فليس من الممكن للفقهاء الرساليين اتباع زيد رغماً عن الائمة الطاهرين .

---

(١) عيون اخبار الرضا ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر ، ص ٢٥٢ .

(٣) مقاتل الطالبيين ، ص ١٤٢ .

الامام الصادق يتمنى لو كان مع زيد (عليه السلام)

وقد روي عن الفضيل قال : انتهيت الى زيد بن علي (عليه السلام) صبيحة خرج بالكوفة فسمعته يقول : من يعينني منكم على قتال أنباط أهل الشام فوالذي بعث محمداً بالحق بشيراً ، لا يعينني منكم على قتالهم أحد إلا أخذت بيده يوم القيامة فأدخلته الجنة باذن الله ، قال : فلما قُتل اكتريت راحلة وتوجهت نحو المدينة، فدخلت على الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) فقلت في نفسي : لا أخبرته بقتل زيد بن علي فيجزع عليه ، فلما دخلت قال لي : يا فضيل ما فعل عمي زيد ؟ قال : فخنقتني العبرة ، فقال لي : قتلوه ؟ قلت : إي والله قتلوه ، قال: فصلبوه؟ قلت : إي والله صلبوه ، فأقبل يبكي ودموعه تنحدر على ديباجتي خده كأنها الجمان ، ثم قال : يا فضيل شهدت مع عمي قتال أهل الشام ؟ قلت : نعم ، قال : فكم قتلت منهم ؟ قلت : ستة، قال : فلعلك شاك في دمائهم ؟ قال ، فقلت : لو كنت شاكاً ما قتلتهم ، قال : فسمعته وهو يقول : أشركني الله في تلك الدماء مضى والله زيد عمي وأصحابه شهداء ، مثل ما مضى عليه علي بن أبي طالب وأصحابه [1].

من هنا نثبت بما لا يدع للشك مجالا بان الامام الصادق (عليه السلام) هو الـذي أمر زيدا بالقيام بحركته وثورته ، وربما اخطأ زيد في بعض التفاصيل ، فهـو لـم يكن معصوماً عن الخطأ ، انما فعله كان بتخطيط وأمر من الامام الصـادق (عليه السلام) .

روي عن يحيى بن زيد قال : سألت أبي (عليه السلام) عن الأئمة ، فقال : الأئمة اثنا عشر : أربعة من الماضين ، وثمانية من الباقين ، قلت : فسمّهم يا أبه ، قال : أما الماضين ، فعلي بن أبي طالب والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومن الباقيـن أخي الباقر ، وبعده جعفر الصادق ابنه ، وبعده موسى ابنه ، وبعده علي

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ١٧١ ، وأمالي الصدوق ، ص ٣٤٩ .

ابنه ، وبعده محمد ابنه ، وبعده علي ابنه وبعده الحسن ابنه ، وبعده المهدي ابنه فقلت له ، يا أبه ألست منهم ؟ قال : لا ولكني من العترة ، قلت : فمن أين عرفت أساميهم ؟ قال : عهد معهود عهده إلينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

يقول العلامة المجلسي في موسوعته بحار الانوار الجزء ٤٦ صفحة ٢٠٠ وهو يعلق على هذا الحديث :

فان قال قائل : فزيد بن علي (عليه السلام) إذا سمع هذه الاحاديث من الثقات المعصومين آمن بها واعتقدها فَلِمَ خرج بالسيف وادّعى الامامة لنفسه واظهر الخلاف على جعفر بن محمد ؟ وهو بالمحل الشريف الجليل ، معروف بالستر والصلاح مشهود عند الخاص والعام بالعلم والزهد وهذا مالا يفعله إلاّ معاند جاحد وحاشا زيداً ان يكون بهذا المحل ؟

فأقول في ذلك وبالله التوفيق : إن زيد بن علي (عليه السلام) خرج على سبيل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا على سبيل المخالفة لابن أخيه جعفر بن محمد (عليه السلام) وإنما وقع الخلاف من جهة الناس ، وذلك أن زيد بن علي (عليه السلام) لما خرج و لم يخرج جعفر بن محمد (عليه السلام) توهم قوم من الشيعة أن امتناع جعفر كان للمخالفة وإنما كان لضرب من التدبير ، فلما رأى الذين صاروا للزيدية سلفا ذلك ، قالوا : ليس الامام من جلس في بيته ، واغلق بابه ، وأرخى ستره ، وإنما الإمام من خرج بسيفه ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فهذان سبب وقوع الخلاف بين الشيعة وأما جعفر وزيد (عليهم السلام) فما كان بينهما خلاف ، والدليل على صحة قولنا قول زيد ابن علي (عليه السلام) من أراد الجهاد فالي ، ومن اراد العلم فالى ابن أخي جعفر . ولو ادعى الامامة لنفسه ، لم ينف كمال العلم عن نفسه ، إذ الامام أعلم من الرعية . ومن مشهور قول جعفر بن محمد (عليه السلام) ، رحم الله عمي زيداً لو ظفر لوفى إنما دعا الى الرضا من آل محمد وأنا الرضى .

وتصديق ذلك ما حدثنا به علي بن الحسن ، عن عامر بن عيسى بن عامر

السيرافي بمكة في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، قال : حدثني أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، عن محمد بن مظهر، عن أبيه ، عن عمير بن المتوكل بن هارون البجلي ، عن أبيه المتوكل بن هارون قال : لقيت يحيى بن زيد بعد قتل أبيه وهو متوجه إلى خراسان ، فما رأيت مثله رجلا في عقله وفضله فسألته عن أبيه ، فقال : إنه قُتل وصُلب بالكناسة ، ثم بكى وبكيت حتى غشي عليه، فلما سكن قلت له : ياابن رسول الله وما الذي أخرجه إلى قتال هذا الطاغي وقد علم من أهل الكوفة ما علم ؟ فقال : نعم لقد سألته عن ذلك ، فقال : سمعت أبي (عليه السلام) يحدث عن أبيه الحسين بن علي (عليه السلام) قال : وضع رسول الله (صلى الله عليه وآله) يده على صلبي فقال : يا حسين يخرج من صلبك رجل يقال له زيد يقتل شهيداً ، فإذا كان يوم القيامة يتخطى هو واصحابه رقاب الناس ، ويدخل الجنة ، فأحببت أن أكون كما وصفني رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، ثم قال : رحم الله أبي زيداً ، كان والله أحد المتعبدين ، قائم ليله صائم نهاره ، يجاهد في سبيل الله عز وجل حق جهاده .

فقلت : يا ابن رسول الله هكذا يكون الامام بهذه الصفة ؟ فقال : يا عبد الله إن أبي لم يكن بامام ولكن من سادات الكرام ، وزهادهم ، وكان من المجاهدين في سبيل الله، قلت : يا ابن رسول الله أما إن أباك قد ادعى الإمامة ، وخرج مجاهداً في سبيل الله ، وقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيمن ادعى الإمامة كاذباً فقال : مه يا عبد الله إن أبي (عليه السلام) كان أعقل من أن يدعي ما ليس له بحق ، وانما قال : أدعوكم إلى الرضا من آل محمد ، عنى بذلك عمي جعفراً قلت : فهو اليوم صاحب الأمر ؟ قال : نعم هو أفقه بني هاشم .

ثم قال : يا عبد الله إني أخبرك عن أبي (عليه السلام) وزهده وعبادته ، إنه كان (عليه السلام) يصلي في نهاره ما شاء الله ، فإذا جن الليل عليه نام نومة خفيفة ثم يقوم فيصلي في جوف الليل ما شاء الله ، ثم يقوم قائماً على قدميه يدعو الله تبارك

وتعالى ويتضرع له ويبكي بدموع جارية ، حتى يطلع الفجر ، فاذا طلع الفجر سجد سجدة ثم يقوم يصلي الغداة إذا وضح الفجر ، فإذا فرغ من صلاته قعد في التعقيب إلى أن يتعالى النهار ، ثم يقوم في حاجته ساعة ، فإذا قرب الزوال قعد في مصلاه فسبح الله ويمجده إلى وقت الصلاة ، فإذا حان وقت الصلاة قام فصلى الأولى وجلس هنيئة وصلى العصر وقعد في تعقيبه ساعة ، ثم سجد سجدة، فإذا غابت الشمس صلى العشاء والعتمة قلت : كان يصوم دهره ؟ قال : لا ولكنه كان يصوم في السنة ثلاثة اشهر ويصوم في الشهر ثلاثة أيام ، قلت : وكان يفتي الناس في معالم دينهم ؟ قال : ما أذكر ذلك عنه ، ثم أخرج إلي صحيفة كاملة أدعية علي بن الحسين (عليه السلام) .

امتداد الحركة الزيدية في التاريخ

بعد ان قُتل زيد بن علي وصلب جثمانه المبارك في كناسة الكوفة ، اتخذ كل واحد من ابنائه (يحيى ، وحسين ذو الدمعة ، وعيسى) طريقاً معيناً لمحاربة بني أمية .

حركة يحيى بن زيد

ويهمنا هنا ان نتابع ما فعله يحيى ، فقد ذهب الى المدائن واتصل بكبار الرساليين في هذه المنطقة ، ثم ذهب بعدئذ الى خراسان واتصل هناك بالرساليين ايضاً ، وبقي حوالي اربع سنوات يبث دعوته للقيام ، ثم حارب بمجموعة من شيعته قبل الموعد المقرر للقيام والي بنـي أمية فهزم جيش الوالي الاموي اول مـرة ، وفي المرة الثانية انهزم جيش يحيى وجاءه سهم اصاب منه مقتلا فاخذه الوالي وصلبه على باب مدينة جوزجان في ايران ، ثم بعث رأسه الى الخليفة في الشـام .

وحينما استلمه الخليفة الاموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، كتب كتاباً الى واليه وقال : " انظر الى عجل اهل الكوفة فاحرقه وانسفه وذره في اليم ذرّاً " .

إنّ القصة تتلخص بهذه العبارة ، ولكن وراء هذه القصة خلفيات عديدة ، وأسئلة هامـة .

هل في الحركة الرسالية تناقض ؟

قد قتل زيد ، وظل جسده مصلوباً في الكوفة مدة من الزمن ، ثم قام ابنه يحيى بالثورة للطلب بثأر أبيه ، وقتل وصلب ، وطافوا برأسه في الارجاء ، كل ذلك حدث بينما كان الامام الصادق (عليه السلام) يقوم بنشر الفكر الرسالي على اوسع نطاق ، وكان يشتغل في المدينة المنورة بتدريس الفقه والتفسير والفلسفة والمعارف الاسلامية الاخرى .

ان هذه الظاهرة غريبة حقاً ، فزيد هو عم الامام الصادق ويحيى هو ابن عمه ، ومع ذلك لم يحرك ساكنا ، فما هو تفسير ما حدث ؟

البعض من الناس يتصور بان هذا تناقض ، فاما ان يكون زيد ويحيى مخطئين ، واما ان يكون الامام جعفر الصادق (عليه السلام) هو المخطيء . وإذا ثبت ان يحيى كان من اتباع الائمة باعتبار ان أباه كان كذلك . وعرفنا بان الامام الصادق هو امام ومعصوم ، فكيف يمكننا حل هذا اللغز وهذا التناقض؟

العمل العسكري درع الحركة الرسالية

الجواب على ذلك بسيط وهو ان وجود جسد زيد مصلوبا في كناسة الكوفة وقيام ابنه يحيى بالدعوة كان ذلك ضرورياً لاستمرار الامام الصادق (عليه السلام) في نشر الفقه الاسلامي ، كما ان قيام الامام الصادق (عليه السلام) بنشر العلوم الاسلامية كان ضرورياً لاستمرار دعوة زيد ، فكانا كجناحي طائر لا يطير الا بهما ويسقط اذا كان احدهما مفقودا، هذه الحقيقة هي التي عبّر عنها الامام الصادق (عليه السلام) في كلمة موجزة لشيعته الذين كانوا يجدون هذا التناقض ويتساءلون عنه قال عنها : " ولا أزال وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد ، ولوددت ان الخارجي من آل محمد خرج ، وعليّ نفقة عياله " [1].

وكـان يقصد بذلك انه لو لم تكن حركة زيد ولو لم تستمر هذه الحركة لكـان

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ١٧٢ .

الأئمة (عليهم السلام) بحاجة الى ايجاد هذه الحركة ، لانهم كانوا يحتاجون الى وقاية وظلال يعملون تحتها .

لقد شكلت الحركة الزيدية جسد ثورة محمد ذي النفس الزكية وأخيه ابراهيم ، وقواعد ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الامام الحسن (عليه السلام) في الديلم، وكل هذه الحركات شكلت درع الحماية للحركة الرسالية ، وقد يكون هذا الامر غامضاً بالنسبة الى البعض ولكن يتوضح ذلك بما يلي :

ان أي دولة في العالم هي بحاجة الى جناحين : جناح عسكري ، وجناح مدني، الجناح العسكري هو الوقاية للجناح المدني ، فلو لم تكن هناك قوة عسكرية ، لما كان بامكان رجل بسيط في المحكمة ان يحكم في احوال الناس ، وان يصدر الاوامر اليهم .

إنّ وجود القوة العسكرية هو الذي يفرض هيبة الحكومة على الشعب ، وتلك الهيبة هي التي تمنح الفرصة لكل المدنيين للعمل ابتداء من جابي الضرائب وانتهاء باكبر رأس في البلد ، هؤلاء كلهم يحتاجون الى القوة العسكرية حتى تظل وقاية بالنسبة لهم .

وحركة الزيدية كانت هكذا ، حيث شكلت الدرع الواقي للحركة الرسالية التي كانت تهتم بنشر المعارف الاسلامية و بلورة الفقه و الثقافة، و نشر الدعوة في كل الأرجاء. ولكن كيف؟ .

هشام هو الذي قام باذلال زيد فتحداه بثورته ، كما رأينا سابقاً ، وهذا الخليفة الاموي هو الذي اراد ان يهين الامام الباقر عندما طلب احضاره من المدينة الى الشام .

ذكر السيد بن طاووس رحمه الله في كتاب أمان الأخطار ناقلا عن كتاب دلائل الامامة تصنيف محمد بن جرير الطبري الامامي ، من أخبار معجزات مولانا محمد بن علي الباقر (عليه السلام) .

ذكره باسناده عن الصادق (عليه السلام) قـال : حج هشام بن عبد الملك بـن

مروان سنة من السنين ، وكان قد حج في تلك السنة محمد بن علي الباقر وابنه جعفر بن محمد (عليهما السلام) ، فقال جعفر بن محمد (عليه السلام) : الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً وأكرمنا به فنحن صفوة الله على خلقه وخيرته من عباده وخلفاؤه ، فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا وخالفنا .

ثم قال : فأخبر مسلمة أخاه بما سمع فلم يعرض لنا حتى انصرف الى دمشق وانصرفنا الى المدينة فأنفذ بريداً الى عامل المدينة باشخاص أبي وإشخاصي معه فأشخصنا ، فلما وردنا مدينة دمشق حجبنا ثلاثاً ، ثم أذن لنا في اليوم الرابع فدخلنا، وإذا قد قعد على سرير الملك ، وجنده وخاصته وقوف على أرجلهم سماطان متسلحان ، وقد نصب البرجاس حذاه وأشياخ قومه يرمون ، فلما دخلنا وأبي أمامي وأنا خلفه ، فنادى أبي وقال : يا محمد ارم مع أشياخ قومك الغرض ، فقال له : إني قد كبرت عن الرمي فهل رأيت ان تعفيني ، فقال : وحق من أعزّنا بدينه ونبيه محمد (صلى الله عليه وآله) لأعفيك . ثم أومأ الى شيخ من بني أمية ان اعطه قوسك فتناول ابي عند ذلك قوس الشيخ ثم تناول منه سهماً ، فوضعه في كبد القوس ، ثم انتزع ورمى وسط الغرض فنصبه فيه ، ثم رمى فيه الثانية فشق فواق سهمه الى نصله ثم تابع الرمي حتى شق تسعة أسهم بعضها في جوف بعض، وهشام يضطرب في مجلسه فلم يتمالك الا ان قال : أجدت يا أبا جعفر وانت أرمى العرب والعجم ، هلا زعمت أنك كبرت عن الرمي ، ثم أدركته ندامة على ما قال.

وكان هشام لم يكن كنى أحداً قبل أبي ولا بعده في خلافته ، فهمّ به واطرق الى الارض إطراقة يتروى فيها وأنا وأبي واقف حذاه مواجهين له ، فلما طال وقوفنا غضب أبي فهمّ به ، وكان أبي (عليه السلام) إذا غضب نظر الى السماء نظر غضبان يرى الناظر الغضب في وجهه ، فلما نظر هشام الى ذلك من أبي ، قال له: إليّ يا محمد ! فصعد أبي الى السرير ، وانا اتبعه ، فلما دنا من هشام ، قام اليه واعتنقه وأقعده عن يمينه ، ثم اعتنقني واقعدني عن يمين ابي .

فقال له : ما رأيت مثل هذا الرمي قط مذ عقلت ، وما ظننت أن في الارض أحداً يرمي مثل هذا الرمي ، أيرمي جعفر مثل رميك ؟

فقال : إنّا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين انزلهما الله على نبيه (صلى الله عليه وآله) في قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣) ، والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الأمور التي يقصر غيرنا عنها .

قال : فلما سمع ذلك من أبي انقلبت عينه اليمنى فاحولت واحمر وجهه ، وكان ذلك علامة غضبه إذا غضب ، ثم اطرق هنيئة ثم رفع رأسه ، فقال :

ان علياً كان يدّعي علم الغيب والله لم يطلع على غيبه أحداً ، فمن أين ادعى ذلك ؟ فقال أبي : إن الله جل ذكره أنزل على نبيه (صلى الله عليه وآله) كتاباً يبين فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل/٨٩) ، وفي قوله : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (يس/١٢) ، وفي قوله : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الانعام/٣٨) وأوحى الله إلى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان لا يبقي في غيبه وسره ومكنون علمه شيئاً إلا يناجي به علياً ، فأمره أن يؤلف القرآن من بعده ويتولى غسله وتكفينه وتحنيطه من دون قومه ، وقال لأصحابه : انه مني وأنا منه ، له مالي وعليه ماعليّ ، وهو قاضي ديني ومنجز وعدي ثم قال لأصحابه : علي بن أبي طالب يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، ولم يكن عند أحد تأويل القرآن بكماله وتمامه إلا عند علي (عليه السلام) ، ولذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأصحابه : أقضاكم علي أي هو قاضيكم وقال عمر بن الخطاب : لولا علي لهلك عمر ، يشهد له عمر ويجحده غيره .

فأطرق هشام طويلاً ثم رفع رأسه فقال : سل حاجتك ، فقال : خلّفت عيالي وأهلـي مستوحشين لخروجـي فقال : قد آنس الله وحشتهم برجوعك إليهم ولا

تقم ، سر من يومك .

وأمرنا أن ننصرف الى المدينة من ساعتنا ولا نجلس ، فركبنا دوابنا منصرفين وقد سبقنا بريد من عند هشام الى عامل مدين على طريقنا الى المدينة أن ابني أبي تراب الساحرين : محمد بن علي وجعفر بن محمد الكذابين - بل هو الكذاب لعنه الله - فيما يظهران من الاسلام وردا عليّ ولما صرفتهما الى المدينة مالا الى القسيسين والرهبان من كفار النصارى وظهرا لهما دينهما ومرقا من الاسلام إلى الكفر دين النصارى وتقربا اليهم بالنصرانية ، فكرهت أن أنكّل بهما لقرابتهما ، فإذا قرأت كتابي فنادي في الناس : برئت الذمة ممن يشاريهما أو يبايعهما ، أو يصافحهما أو يسلم عليهما ، فإنهما قد ارتدا عن الاسلام ، ورأى امير المؤمنين ان يقتلهما ودوابهما وغلمانهما ومن معهما شر قتلة [1] .

ويعني ذلك ان الامام قام ببيان فضيلة جده علي بن ابي طالب (عليه السلام) واحقيته بالخلافة .

وكانت هذه المناقشة بالغة الاهمية اذ انها لم تكن كالمناقشات التي نراها تجري اليوم بين الافراد حول مسألة القيادة فيذهب بعد ذلك كل واحد لسبيله وكأن شيئاً لم يكن .

فقد كانت مناقشة الامام مع هشام تعني ان الأخير كان على باطل وعليه ان يتنازل عن منصبه ، بمعنى ان أسلوب الحكم في الدولة الاسلامية يجب ان يتبدل.

وأين جرت تلك المناقشة الحادة ؟

في قلب العاصمة وفي بيت الملك داخل البلاط الاموي ، وقد كان الحضور هم قادة الجيش ورؤساء العشائر والولاة والقضاة والفقهاء .

لكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو : لماذا لم يأمر هشام جلاديه بقتل الامام الباقر (عليه السلام) ؟

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ٣٠٧ - ٣١٢ .

ولماذا لم يقتل الخلفاء الامويون من بعده الامام الصادق (عليه السلام) بصراحة ؟

ان السبب يكمن في ان الحكومات تفكر دائماً في انها لو قتلت هذا القائد المعتدل، فان المسلمين سيغضبون عندئذ ويصبحون مع الحركة المتطرفة (مع الزيدية مثلا) . واذا صاروا مع الزيدية فان الحكومات ستجد نفسها هي التي دفعت بالمجتمع والامة باتجاه الحركة الزيدية وبالتالي ساهمت وعجلت بانتهائها.

وهكذا نجد انه لو كانت هناك حركة مسلحة في منطقة من المناطق فان الحكومات تحاول ان تغذي المعتدلين باعطائهم المناصب وتتقرب لهم وتستميلهم .
واذا كان لدى المعتدلين خطط بعيدة المدى كالحركة الرسالية التي تسعى لكسب المواقع ، فان الدولة ساقطة لا محالة اذ انها تقع آنئذ بين سندان الحركات المعتدلة ومطرقة الحركات الثورية فهي لا تستطيع ان تضغط ولا ان تتساهل ، فلابد لها ان تسكت .

والرساليون على مر التاريخ عملوا بهذا الاسلوب ، فكان هناك جناح متطرف وهو الجناح الزيدي على طول الخط ويتكون من زيد وابنه يحيى ، وابنه علي ، ومحمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن ، ويحيى بن الحسين بن زيد ، وعلى هذا المعدل على طول التاريخ الرسالي ، إمّا اولاد زيد واخوانه ، وإما اولاد الحسن ابن الامام الحسن لان الحركة الزيدية انتشرت بين اولاد زيد وبين ابناء الامام الحسن (عليه السلام) .

ففي بعض الفترات كان اولاد الامام الحسن (عليه السلام) هم الذين يقودون الحركة ، بينما في بعض الفترات الاخرى كان اولاد زيد هم الذين يقودونها .
ومنذ ثورة زيد في بداية القرن الثاني الهجري والى القرن العاشر والحادي عشر الهجري ، كانت للحركة الزيدية فصائل منظمة مسلحة ، وهؤلاء كانوا يشكلون حماية للحركة الرسالية .

الحركة الزيدية بعد استشهاد يحيى بن زيد (عليه السلام)

وقبل ان نبين الحركة الزيدية بعد يحيى لابد ان نبين ما أدت اليه الحركة الزيدية

بعد مقتله من الانتشار ، فيحيى قُتل في خراسان بلد الموالي ، والموالي هم اولئك الذين كان زيد ومن بعده يحيى ، يريد انقاذهم من ظلم بني أمية .

ماذا يقول زيد في بيعته ؟ وماذا كان يقول يحيى في بيعته ؟

كان يقول كل منهما : " اعاهدك وابايعك على ان ننصر المظلوم ونعين المحروم وننقذ المستضعف ونطبق كتاب الله وسنة نبيه ".

فالحركة كانت من ضمير المظلومين والمحرومين والمستضعفين ، فالمحروم الذي رأى ان إمامه قُتِل وصُلب فانه بالطبع سيثور ، وفعلا لم يولد في مقاطعة خراسان وافغانستان وآذر بايجان وارمينيا وبادكوبا ، وبخارى وسمرقند مولود ذكر في تلك السنة التي قُتِل فيها يحيى الا سمي يحيى او زيداً .

فيحيى وزيد قتلا ولكن مائة الف شخص امثال زيد ويحيى خرجوا الى الحياة ، وهذه هي طبيعة الحركة الرسالية التي كانت للحق وخالصة لوجه الله ، حيث يُقتَل فيها القائد ، ولكن ينمو من جديد بمائة ضعف ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ (البقرة/٢٦١)

ان السلسلة التي قيد بها يحيى اشتريت بمبالغ طائلة وتحولت الى خواتيم وافصاص لكل الثائرين في خراسان كل ذلك من اجل التبرك . وبعد اربع سنوات من مقتل يحيى ظهر ابو مسلم الخراساني في خراسان مطالباً بدم يحيى . وجمع جيشاً من الموالي باسمه ، وقتل كل من اشترك في الجيش الذي هزم جيش يحيى، آلاف الافراد قتلوا بتهمة انتمائهم الى الحركة المضادة ليحيى ودفن يحيى وكان مدفنه اول مزار علني اتخذته الحركة الرسالية [1] .

وبدأ ابو مسلم الخراساني يقتل الناس ويجمع الانصار باسم يحيى وانتصر على بني أمية وازيلت دولتهم من الوجود ، فتلك الدولة التي كانت رمزاً للفساد والجريمة والكفر والشرك انتهت بمقتل يحيى .

---

(١) هناك قولان في مكان دفنه الاول في قرية ارعونة ، والثاني في قرية جوزجان ، وكلاهما في خراسان .

عن محمد الحلبي قال : قال ابو عبد الله (عليه السلام) :

" ان آل ابي سفيان قتلوا الامام الحسين ابن علي (صلوات الله عليه) فنزع الله ملكهم ، وقتل هشام زيد بن علي فنزع الله ملكه وقتل الوليد يحيى بن زيد رحمة الله عليه فنزع الله ملكه " [1].

وعن داود البرقي قال : سأل أبا عبد الله (عليه السلام) رجل وانا حاضر عن قول الله : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَآ أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ (المائدة/٥٢) ، فقال : اذن في هلاك بني أمية بعد احراق زيد ، سبعة ايام " [2].

وسقوط بني امية كان انتصاراً للفضيلة والعدالة ، وآخر مسمار دقّ في نعش بني أمية دقّ بيد يحيى بن زيد .

الناس كلهم يموتون ويذهبون ، ولكن يحيى قتل بشرف، وبمقتله استطاع ان يعمل عملا جباراً . فسلام الله عليه يوم جاهد ويوم قُتل شهيداً ، ويوم يبعث حياً .

---

(١) ثواب الاعمال وعقابها .

(٢) تفسير العياشي ، ج ١ ، ص ٢٩ .

ابناء زيد يتابعون مسيرته

فيما سبق تحدثنا عن النهاية المفجعة التي انتهت اليها حياة يحيى بن زيد ، ولكن هذه النهاية المفجعة تحولت الى حسنة هي نهاية الحكم الاموي .

بقي ان نعرف انه كانت هناك حركات متلاحقة للزيدية سواء التي قادها ابناؤه الذين من صلبه ، او الذين تسلموا القيادة منه وسنشير هنا الى واقعتين تاريخيتين لاثنين من ابناء زيد اللذين هما من صلبه .

اما الذين تسلموا القيادة من زيد ولم يكونوا من صلبه كثورة محمد وابراهيم فسوف نشير اليهم في المواضع القادمة .

هناك ابن لزيد يسمى ذو الدمعة [1] وقد اتخذ بعد مقتل ابيه حياة تشبه الى حد بعيدة حياة الامام زين العابدين بعد مقتل والده الامام الحسين ، فكما ان الامام زين العابدين كوّن بتلك الحياة المأساوية وبالبكاء والدعاء الخلفية الرسالية في المجتمع الاسلامي ، وربّى رجلا مثل زيد بن علي ، ثار وثارت من بعده اجيال . كذلك

---

(١) .. شهد الحسين بن زيد حرب محمد النفس الزكية ، وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن ، ثم توارى ، وكان مقيما في منزل جعفر بن محمد (عليه السلام) ، وكان جعفر (عليه السلام) قد تكفل بتربيته فنشأ في حجره منذ ان قتل أبوه ، واخذ عنه علماً كثيراً ، وكان الحسين بن زيد يلقّب بذي الدمعة لكثرة بكائه - بحار الانوار ، ج ٤٧ ، ص ٣٠٦ .

الحسين بن زيد المعروف بذي الدمعة ، فقد ربّى بدمعته وبكائه وبانه كان حليفاً للقرآن، ربّى من بعده اجيالاً من الثائرين منهم يحيى حفيده [1]، الذي كان من الرجال الذين ثاروا ثورة بطولية .

يحيى يقود ثورتين

ثار يحيى اول مرة في ايام المتوكل العباسي في خراسان حيث جمع الانصار وقاتل الجيش العباسي الاّ ان انصاره انهزموا امام كثافة الجيش العباسي ، فأسر وأُخذ الى والي خراسان ومن ثم الى بغداد ومن ثم الى العاصمة سامراء عند المتوكل العباسي. وبعد وساطات عند المتوكل العباسي افرج عنه واخذ منه الضمانات الكافية بان لا يثور ضده مرة اخرى وفعلا لم يقم يحيى في ايام المتوكل العباسي بأية حركة ثورية تستهدف تقويض بني العباس .

قبر الامام الحسين مركز لتجمع الثوار

وبعد ان قُتِل المتوكل ، جاء يحيى الى الكوفة وبدأ يتصل بزوار قبر الامام الحسين (عليه السلام) الذي كان له في ايام العباسيين جميعاً زوارا ثوريين ، وهؤلاء الزوار كانوا يأتون للزيارة لا لمجرد اداء طقوس انما كانوا يزورون كربلاء للقيام بالاتصال ببعضهم البعض ولتجديد الولاء للامام الحسين ولنهجه في رفض الظلم والانحناء .

فالزيارة لقبر الامام الحسين (عليه السلام) كانت تقوم بدور اساسي في معارضة الدولة العباسية ، لذلك كان العباسيون يحاربون قبر الامام الحسين (عليه السلام) ، لان القبر كان قد تحول الى مركز تجمع لحركة المعارضة .

اتصل يحيى بزوار قبر الامام الحسين (عليه السلام) واستجاب جماعة كثيرة منهم لـه ، ورجع الى الكوفـة وهناك نادى بالشعارات المعروفة التي كانت ترددهـــا

---

(١) .. هو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وقيل انه ولد الحسين بن زيد بن علي ، أي يحيى بن الحسين بن زيد بن علي ، والشاهد هنا ، قصته سواء كان ابن الحسين ذي الدمعة أو حفيده .

الزيدية " يا لثارات الحسين ، يا منصور امت " .

يحيى يستلم السلطة في الكوفة

سيطر يحيى بن الحسين ذو الدمعة على الكوفة ، واول ما قام به ، أخذ الاموال التي كانت في بيت المال ووزعها على الفقراء والمساكين ، وبهذه الطريقة استطاع ان يجتذب اكبر قطاع ممكن من الشعب .

ثم عدل بين الناس وتحمل ثقل الرسالة واجتمع حوله اناس كثيرون . وكان يحيى رجلا متديناً عابداً زاهداً، بالاضافة الى ذلك فانه كان رجلا شجاعاً، ومن شجاعته انه عندما حارب في اول معركة ضد والي الكوفة الذي كان يمتلك جيشاً وشرطة ، قال لانصاره قفوا ههنا فاني اكفيكم الجيش كله ، واخذ بيده السيف ونزل الى ساحة المعركة وحده وهزم الجيش العباسي المتألف من الفرق التي كانت موجودة في الكوفة كلها بقيادة واليها وقتل الوالي العباسي عبد الله بن محمود وانتهى كل شيء ورجع الى جيشه من الانصار .

قوات العباسيين تهزم يحيى

وبقي في الحكم لعدة سنوات، جرت خلالها معارك كثيرة بينه وبين الحاكم العباسي المستعين بالله ، وهو الثاني عشر من الخلفاء العباسيين ، كان له الغلبة في بعضها ، بينما كان بعضها الآخر متكافئاً. الا ان تزايد الهجمات التي كان العباسيون يشنونها عليه ، اضعفه وقاد جيشه الى الهزيمة في معركة استشهد فيها مع عدد كبير من انصاره ولم يعرف رأسه من بين الرؤوس لكثرة الجراح التي كانت به.

وبعد استشهاده أسر أهله وانصاره وأخذوا الى بغداد مشياً على الاقدام ، وكان اذا عجز أي اسير عن المشي قُتل صبراً ، ولما وصل الاسرى الى بغداد خرج أهلها في تظاهرة غاضبة استنكاراً لهذه العملية ولقتل يحيى بالذات ، الذي وضع رأسه على صليب ، وجاؤوا الى عامل العباسيين عليها وهو محمد بن عبد الله بن طاهر مستنكرين ما جرى [1] .

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٦٣٩ .

وعندها امر محمد بن عبد الله بن طاهر بان يفرج عن الاسرى ، وبالتالي اصبحت العملية كلها اثارة جديدة ضد الحكم العباسي وانتهت بثورات اخرى سنتكلم عنها .

هذه واقعة من الوقائع الكثيرة التي وقعت في التاريخ وقد قادها يحيى حفيد الحسين ابن زيد المشهور بذي الدمعة .

حياة عيسى بن زيد

وهناك ابن اخر لزيد له قصة مؤثرة جداً وهو عيسى بن زيد، وهذه القصة ان كانت تدل على شيء فانها تدل على الجو المكهرب الذي كان يعيشه الرساليون آنئذ وانهم كيف كانوا يواجهون كل تلك الضغوط بشجاعة وبسالة نادرة .

لقد خرج عيسى مع محمد وابراهيم الذين ثارا ضد الحكم العباسي ايام المنصور ، وعندما انهزم جيش ابراهيم في البصرة ، اختفى عيسى في الكوفة . وقبل كل شيء لابد ان نعرف ان اختيار عيسى لمنطقة الكوفة ، كان اختياراً موفقاً وعلى طول الخط ، لانها كانت المنطقة المعارضة للحكم الاموي والعباسي ، والمنطقة الموالية لاهل البيت (عليه السلام) ، لذا فانه توارى وعاش بسرية بالغة حتى ان يحيى ابن اخيه الحسين سأل والده ذا الدمعة وقال :

يا أبه .. اني اشتهي ان أرى عمي عيسى بن زيد ، فانه يقبح بمثلي أن لا يلقى مثله من اشياخه .

فسكت ابوه مدة ثم قال له : " وان هذا امر يثقل عليه واخشى ان ينتقل من منزله كراهية للقائك اياه ، فتزعجه .

فألح يحيى اكثر على والده ، فقال له ابوه : اذا صرت اليها فاسأل عن دور بني حي ، فاذا دللت عليها فاقصدها في السكة الفلانية ، وسترى في وسط السكة داراً لها باب صفته كذا وكذا فاعرفها واجلس بعيداً منها في اول السكة ، فانه سيقبل عليك عند المغرب ، كهل طويل مسنون الوجه ، قد اثر السجود في جبهته ، عليه جبة صوف ، يستقي الماء على جمل وقد انصرف يسوق الجمل ، لا يضع قدماً ولا

يرفعها إلاّ ذكر الله عز وجل ، ودموعه تنحدر ، فقم وسلم عليه وعانقه ، فانه سيذعر منك كما ينذعر الوحش ، فعرّفه نفسك وانتسب له ، فانه يسكن اليك ويحدثك طويلا ، ويسألك عنا جميعاً ويخبرك بشأنه ولا يضجر بجلوسك معه ، ولا تطل عليه وودعه ، فانه سوف يستعفيك من العودة اليه ، فافعل ما يامرك به من ذلك ، فانك ان عدت اليه توارى عنك ، واستوحش منك وانتقل من موضعه ، وعليه في ذلك مشقة .

فأجابه يحيى : أفعل كما امرتني وأضاف : وردت الكوفة حتى اذا رأيته (عيسى)، كما وصف لي ابي ، لا يرفع قدماً ولا يضعها إلاّ حرّك شفتيه بذكر الله، ودموعه ترقرق في عينيه وتذرف أحيانا ، فقمت وعانقته ، فذعر مني كما يذعر الوحش من الانس ، فقلت : يا عم انا يحيى بن الحسين بن زيد ، انا ابن اخيك فضمني إليه وبكى حتى قلت قد جاءت نفسه ، ثم اناخ جمله ، وجلس معي ، فجعل يسألني عن أهله رجلاً رجلاً ، وامرأة امرأة ، وصبية صبية ، وانا أشرح له اخبارهم وهو يبكي ، ثم قال : يا بني ، انا استقي على هذا الجمل الماء ، فأصرف ما اكتسب (أي من اجرة الجمل) الى صاحبه واتقوت باقيه ، وربما عاقني عائق عن استقاء الماء فاخرج الى البرية - يعني بظهر الكوفة - فالتقط ما يرمي الناس من البقول فاتقوته وقد خطبت الى هذا الرجل ابنته ، وهو لا يعلم من انا الى وقتي هذا ، فولدت بنتاً ، فنشأت وبلغت ، وهي ايضا لا تعرفني ، ولا تدري من انا فقالت لي امها : زوج ابنتك بابن فلان السقاء - الرجل من جيراننا يسقي الماء - فانه ايسر منا وقد خطبها ، وألحت عليّ ، فلم اقدر على اخبارها بأن ذلك غير جائز ، فيشيع خبري ، فجعلت تلحّ عليّ فلم أزل استكفي الله امرها حتى ماتت بعد أيام ، فما أجدني آسى على شيء من الدنيا على انها ماتت و لم تعلم بموضعها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

ثم أقسم على يحيى ان ينصرف ولا يعود اليه ثم ودعه ، واضاف يحيى قائلاً : " فلما كان بعد ذلك صرت الى الموضع الذي انتظرته فيه لأراه فلم أره ، وكان

ذلك آخر عهدي به »[1].

قد يعتقد البعض بأن عيسى كان مجرد سقاء ، ولكن الحقيقة ان عمله في السقاية كان مجرد غطاء امني في ظل الحكم الارهابي آنذاك ، ففي خلال فترة بقاءه في الكوفة كان يجتمع بالرساليين ويربيهم في تلك الظروف العصيبة .

عن خصيب الوابشي ، وكان من أصحاب زيد بن علي وكان خصيصاً بعيسى بن زيد ، قال : كان عيسى بن زيد على ميمنة محمد بن عبد الله ابن الحسن يوم قُتِل ، ثم صار الى إبراهيم فكان معه على ميمنته حتى قُتِل ، ثم استتر بالكوفة في دار علي بن صالح بن حي ، فكنّا نصير إليه في حال خوف ، وربما صادفناه في الصحراء يستقي الماء على جمل لرجل من أهل الكوفة ، فيجلس معنا ويحدثنا ، وكان يقول لنا : والله لوددت انّي آمن عليكم هؤلاء فأطيل مجالستكم فأتزود من محادثتكم والنظر اليكم ، فوالله إني لأتشوقكم واتذكركم في خلوتي وعلى فراشي عند مضجعي ، فانصرفوا لا يشهر موضعكم وامركم فيلحقكم معرة وضرر[2].

فكان يجتمع معهم في تلك الظروف الصعبة ويوجههم وهم بدورهم يوجهون اناساً آخرين في المجتمع الكوفي . وهكذا حملوا هذا المشعل ، مشعل الرسالة يداً بيد ولم يدعوه يسقط اذ انه لو سقط المشعل لاظلم العالم كله ولما بقيت انواره هداية تضيء ، ولما كان هناك رجل مثلي ومثلك يمتلك مثل هذه القيم ، ورغم اننا لا نجسد تلك القيم بشكل كامل لكن هذا المقدار من القيم التي نمتلكها نحن مدينون به لاولئك الرجال الابطال الذين عاشوا جنوداً مجهولين لمبادئهم .

وروي عن علي بن جعفر الاحمر قال : حدثني ابي ، قال : كنت اجتمع أنا وعيسى بن زيد والحسن ، وعلي ابنا صالح بن حي وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق ، وجناب ابن قسطاس ، في جماعة من الزيدية في دار بالكوفة ، فسعى

---

(١) المصدر ، ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر ، ص ٢٧٣ .

ساع الى المهدي بأمرنا ودله على الدار ، فكتب إلى عامله بالكوفة بوضع الأرصاد علينا ، فاذا بلغه اجتماعنا كبسنا واخذنا ووجه بنا اليه ، فاجتمعنا ليلة في تلك الدار ، فبلغه خبرنا فهجم علينا ، ونذر القوم به وكانوا في علو الدار ، فتفرقوا ونجوا جميعاً غيري ، فأخذني وحملني الى المهدي فأدخلت اليه، فلما رآني شتمني بالزنا وقال لي : يابن الفاعلة انت الذي تجتمع مع عيسى بن زيد وتحثه على الخروج عليّ وتدعو إليه الناس ، فقلت له : يا هذا ، اما تستحي من الله ، ولا تتقي الله ولا تخافه ؟ تشتم المحصنات وتقذفهن بالفاحشة، وقد كان ينبغي لك ويلزمك في دينك وما وليه ، ان لو سمعت سفيها يقول مثل قولك أن تقيم عليه الحد ..

فأعاد شتمي ثم وثب إليّ فجملني تحته وضربني بيديه وخبطني برجليه وشتمني.

فقلت له : إنك لشجاع شديد أيد ، حين قويت على شيخ مثلي تضربه ، لا يقدر على المنع من نفسه ولا الانتصار لها . فأمر بحبسي والتضييق عليّ فقيدت بقيد ثقيل وحبست سنين ، فلما بلغه وفاة عيسى بن زيد بعث إلي فلدعاني فقال لي : من أي الناس أنت ؟ قلت من المسلمين ، قال : أعرابي انت ؟ قلت : لا ، قال فمن أي الناس أنت ؟ قلت : كان أبي عبداً لبعض أهل الكوفة واعتقه فهو أبي .

فقال لي : إن عيسى بن زيد قد مات فقلت : أعظم بها مصيبة ، رحمه الله فلقد كان عابداً ورعاً مجتهداً في طاعة الله غير خائف لومة لائم ، قال : أفما علمت بوفاته ؟ قلت : بلى ، قال : فلم لم تبشرني بوفاته ؟

فقلت : لم أحب ان ابشرك بأمر لو عاش رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعرفه لساءه.

فأطرق طويلا ثم قال : ما أرى في جسمك فضلا للعقوبة ، واخاف ان استعمل شيئاً منها فيك فتموت وقد كفيت عدوي ، فانصرف في غير حفظ الله ، والله لئن بلغني أنك عدت لمثل فعلك لأضربن عنقك .

قال : فانصرفت إلى الكوفة فقال المهدي للربيــع : اما ترى قلة خوفه وشدة قلبه

هكذا يكون والله اهل البصائر [1].

وفاة عيسى بن زيد

ظل المهدي العباسي يسعى في طلب عيسى بن زيد سعياً حثيثاً فلم يقدر على الامساك به ، وقد بذل في سبيل ذلك الامان لعيسى ووعده ان اتاه ان يعطيه الاموال الكثيرة ، ولكن عيسى كان يدرك هدف الخليفة العباسي من امانه ذاك الذي ما جاء الا لخوفه من عيسى وما كان يعده في سبيل الثورة على العباسيين .

روي عن سعيد بن عمر ابن جنادة البجلي قال : حج عيسى بن زيد والحسن بن صالح فسمعنا منادياً ينادي ليبلغ الشاهد الغائب أن عيسى بن زيد آمن في ظهوره وتواريه ، فرأى عيسى بن زيد الحسن بن صالح قد ظهر فيه سرور بذلك فقال : كأنك قد سررت بما سمعت ، فقال : نعم ، فقال له عيسى : والله لإخافتي إياهم ساعة احب إلي من كذا وكذا [2].

وروي عن علي بن جعفر عن ابيه قال : اجتمعت أنا ، وإسرائيل بن يونس ، والحسن ، وعلي ابنا صالح بن حي ، في عدة من أصحابنا ، مع عيسى بن زيد ، فقال له الحسن بن صالح بن حي : متى تدافعنا بالخروج وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل ؟ فقال له عيسى : ويحك ، اتكثر عليّ العدد وانا بهم عارف اما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائة رجل اعلم انهم يريدون الله عز وجل ، يبذلون انفسهم له ، ويصدقون لقاء عدوه في طاعته ، لخرجت قبل الصباح حتى ابلى عند الله عذراً في اعداء الله واجري أمر المسلمين على سنته وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) ولكن لا اعرف موضع ثقة يفي ببيعته لله عز وجل ، ويثبت عند اللقاء [3] .

لقد اشتمل ديوانه على عشرة آلاف رجل ، وهذا يدلل على انه كان يقود حركة واسعة ضد العباسيين ، وقد شعر العباسيون بهذا الخطر الكبير الذي يتهدد

---

(١) المصدر ، ص ٢٧٦ .

(٢) المصدر ، ص ٢٧٢ .

(٣) المصدر ، ص ٢٧٧ .

سلطتهم ، فسعوا بكل الطرق للقضاء عليها ، عن طريق القضاء على عيسى .

قال علي بن محمد بن سليمان النوفلي : حدثني أبي عن أبيه وعمه ، قال : إن عيسى بن زيد انصرف من وقعة باخمرى بعد مقتل إبراهيم فتوارى في دور بن صالح بن حي ، وطلبه المنصور طلباً ليس بالحثيث ، وطلبه المهدي وجد في طلبه حيناً فلم يقدر عليه ، فنادى بامانه ليبلغه ذلك فيظهر ، فبلغه فلم يظهر ، وبلغه خبر دعاة له ثلاثه وهم : ابن علاق الصيرفي ، وحاضر مولى لهم ، وصباح الزعفراني ، فظفر بحاضر فحبسه ، وقرره ورفق به واشتد عليه ليعرفه موضع عيسى فلم يفعل ، فقتلـه [1].

---

(١) المصدر ، ص ٢٧٨ .

أورد ابو الفرج الاصفهاني في كتابه مقاتل الطالبيين ص ٢٨٢ طريقه شهادة حاضر صاحب عيسى بن زيد ، قال : قال محمد بن ابي العتاهية : قال : حدثني أبي : لما امتنعت من قول الشعر وتركته ، أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم ، فأخرجت من بين يديه الى الحبس ، فلما ادخله دهشت وذهل عقلي ورأيت منظراً هالني ، فرميت بطرفي اطلب موضعاً آوي إليه او رجلا آنس بمجالسته ، فاذا أنا بكهل حسن السمت ، نظيف الثوب ، يبين عليه سيماء الخير فقصدته فجلست اليه من غير ان اسلم عليه او اسأله عن شيء من أمره، لما انا فيه من الجزع والحيرة ، فمكثت كذلك مليا وانا مطرق مفكر في حالي ، فأنشد هذا الرجل هذين البيتين ، فقال :

تعودت مس الضر حتـى الفتـه واسلمني حسن العزاء الى الصبر
وصيرني يأسي من النـاس واثقـاً بحسن صنيع الله من حيث لا ادري

فاستحسنت البيتين وتبركت بهما وثاب إليّ عقلي ، فأقبلت على الرجل فقلت له : تفضل اعزك الله باعادة هذين البيتين .

فقال لي : ويحك يا إسماعيل ، ولم يكنني ، ما اسوء ادبك ، واقل عقلك ومروءتك ، دخلت إلي ولم تسلم عليّ بتسليم المسلم على المسلم ، ولا توجعت لي توجع المبتلى للمبتلى ، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم حتى اذا سمعت منّي بيتين من الشعر الذي لم يجعل الله فيك خيراً ولا ادباً ولا جعل لك معاشاً غيره . لم تتذكر ما سلفت منك فتتلافاه ، ولا اعتذرت مما قدمه وفرطت فيه من الحق حتى استشهدتني مبتدياً كأن بيننا أنساً قديماً ، ومعرفة شافية ، وصحبة تبسط المنقبض !

فقلت له : اعذرني متفضلا ، فان دون ما انا فيه يدهش .

قال : وفي أي شيء انت ، إنما تركت قول الشعر الذي كان جاهك عندهم وسبيلك اليهم ، فحبسوك حتى تقوله ، وانت لابد من ان تقوله ، فتطلق ، وأنا يدعى بي الساعة فأطلب باحضار عيسى بن زيد بن رسول الله

توفي عيسى ودفن كسقاء في الكوفة ، وقيل انه دفن بين الحلة والكوفة ، حيث هناك قبر ينسب إليه . وبعد دفن عيسى اجتمع صباح الزعفراني بالرساليين الذين كانوا معه، والذين كانوا يشكلون حسب التعبير الحديث (خليّة رسالية) ، ولم يكن عيسى وحده مختفيا ويقوم بالعمل في تلك الدرجة الشديدة من الخفاء والكتمان ، وانما الذين يتصلون به كانوا كذلك ، فالواحد منهم اصبح تجاراً والآخر فلاحاً ، وهؤلاء كانوا في السابق من كبار الوجهاء والشخصيات ولكنهم تنازلوا عنها ، ففي سبيل الله يهون كل شيء .

وكان رأي الزعفراني في ان يذهب الى المهدي العباسي ويخبره بموت عيسى قال صباح للحسن بن صالح : أما ترى هذا العذاب والجهد الذي نحن فيه بغير معنى ، قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله وإنما نطلب خوفاً منه فاذا علم

(صلى الله عليه وآله) فأن دللت عليه فقتل ، لقيت الله بدمه ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) خصمي فيه ، وإلا قتلت ، فأنا اولى بالحيرة منك ، وأنت ترى احتسابي وصبري .

فقلت : يكفيك الله واطرقت خجلا منه ، فقال لي : لا اجمع عليك التوبيخ والمنع ، اسمع البيتين واحفظهما، فأعادهما عليّ مراراً حتى حفظتهما ، ثم دعي به وبي ، فلما قمنا قلت من أنت اعزك الله ؟ قال: أنا حاضر صاحب عيسى بن زيد . فأدخلنا على المهدي ، فلما وقف بين يديه قال له : اين عيسى بن زيد ؟ قال : ما يدريني اين عيسى ، طلبته واخفته فهرب منك في البلاد ، واخذتني فحبستني ، فمن اين اقف على موضع هارب منك وانا محبوس ؟

فقال له : فاين كان متوارياً ؟ ومتى آخر عهدك به ؟ وعند من لقيته ؟

فقال : ما لقيته منذ توارى ، ولا اعرف له خبراً .

قال : والله لتدلّني عليه ، او لاضربن عنقك الساعة .

قال : اصنع ما بدا لك ، أنا ادلك على ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتقتله ، فالقى الله ورسوله وهما يطالباني بدمه ، والله لو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت عنه .

قال : اضربوا عنقه فقدم فضرب عنقه .

ثم دعاني فقال : اتقول الشعر او الحقك به ، فقلت : بل اقول الشعر ، فقال : اطلقوه .

انه قد مات أمنوه وكفوا عنا ، فدعني آتي هذا الرجل - يعني المهدي - فأخبره بوفاته حتى نتخلص من طلبه لنا ، وخوفنا منه .

ولكن الحسن بن صالح قال : " لا والله لا تبشر عدو الله بموت ولي الله ابن نبي الله ولا تقر عينه فيه ونشمته به ، فوالله لليلة ابيتها خائفا منه احب اليّ من جهاد سنة وعبادتها [1] " وهو يتمثل بقول الرسول (صلى الله عليه وآله) : " احب الليالي إليّ ليلة ابيت فيها خائفاً في سبيل الله ".

ليس خائفاً من الله ، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) كان ابداً خائفاً من الله ، انما خائفاً في سبيل الله في معركة أو هجوم مضاد .

وبعد شهرين توفي الحسن بن صالح والتحق بالرفيق الأعلى ، وقال صباح حينها: " دفنته ايضاً كغريب " لان عياله واطفاله لم يسمعوا بنبأ وفاته .

ففكر صباح ان يطبق رأيه وخطته ، فأخذ اطفال عيسى معه ثم ذهب الى سامراء وهو متنكر ، فقد كان اهل البلد يعرفونه ، ولما وصل دخل على المهدي ، فانتفض المهدي العباسي وقال :" عدو الله جاء برجله ائتوني به " .

لقد مضت ٥ سنوات أو اكثر وهو يبحث عنه وصرف الكثير من اموال الدولة في سبيل ان يلقي القبض على هؤلاء الرجال ، وما استطاع ان يقبض عليهم ، والان احدهم يأتي اليه برجليه ، انه احسن صيد بالنسبة للمهدي العباسي .

قال المهدي العباسي : فلا حيّاك الله ولا بيّاك ، ولا قرب دارك ، يا عدو الله ، أنت الساعي على دولتي ، والداعي الى اعدائي ؟

قال صباح :" انا والله هو ، وقد كان كل ما ذكرته " .

فقال : أنت اذن الخائن الذي أتت به رجلاه ، اتعترف بهذا مع ما اعلمه منك ، وتجيئني آمناً ؟.

فأجابه : اني جئتك مبشراً ومعزياً .

---

(١) المصدر ، ص ٢٧٨ .

قال : مبشراً بماذا ؟ ومعزياً بمن ؟

فاجاب : أما البشرى فبوفاة عيسى بن زيد ، وأما التعزية فيه لأنه ابن عمك ولحمك ودمك .

فحوّل المهدي وجهه الى المحراب وسجد وحمد الله ، والعجيب في ذلك انه كان رئيس دولة لا تغيب عنها الشمس ويسجد لله شكراً لان عيسى السقاء في الكوفة توفي .

فهل سجوده هذا يعني ان عيسى مجرد سقاء أم انه كان يشكل خطراً حقيقياً على الظلم والاستكبار ، وانه قد اتخذ السقاية وسيلة لاعماله الحقيقية ؟

وأردف المهدي قائلا : ومنذ كم مات ؟

أجابه : منذ شهرين .

قال : فلم لم تخبرني بوفاته الاّ الآن ؟

أجاب : منعني الحسن بن صالح وقال له بعض قوله .

قال : ما فعل ؟

اجاب : مات ولولا ذلك ما وصل اليك الخبر ما دام حيّاً ، فسجد سجدة أخرى وقال : الحمد لله الذي كفاني أمره ، فلقد كان أشد الناس عليّ ، ولعله لو عاش لأُخرج عليّ غير عيسى ، سلني ما شئت فوالله لاغنينك ولا رددتك عن شيء تريده.

أليس هذا بمستغرب ؟ فالظاهر ان الحسن بن صالح كان عنصراً خطراً على الدولة العباسية ، اكبر امبراطورية على وجه الارض منذ قديم التاريخ والى الآن ، فنحن لم نر امبراطورية اعظم من البلاد الاسلامية .

من كان هذا الرجل ؟ وماذا كان يعمل في سبيل الله حتى أخاف الله منه اكبر الجبابرة ؟

ان هذه اشياء لا يذكرها التاريخ ، انما خلف أسطر التاريخ نقرأ أشياء كثيرة ، ان وراء الاسطر تكمن الحقيقة وهو المهم بالنسبة لنا .

قال صباح : والله مالي حاجة ولا اسألك شيئاً الا حاجة واحدة ، قال : وما هي ؟ قال : ولد عيسى بن زيد ، والله لو كنت املك ما اعولهم به ما سألتك في أمرهم ، ولا جئتك بهم ، ولكنهم اطفال يموتون جوعاً وضراً ، وهم ضائعون ومالهم شيء يرجعون اليه ، إنما كان ابوهم يستقي الماء ويعولهم ، وليس لهم الآن من يكفلهم غيري وانا عاجز عن ذلك ، وهم عندي في ظنك وانت اولى الناس بصبيانتهم واحق بحمل ثقلهم ، فهم لحمك ودمك ، وايتامك واهلك .

قال : فبكى المهدي حتى جرت دموعه ، ثم قال : إذاً يكونون والله عندي بمنزلة ولدي .

قلت : ولهم امان الله ورسوله وامانك ، وذمتك وذمة آبائك في انفسهم واهليهم واصحاب ابيهم ان لا تتبع احداً منهم بتبعة ولا تطلبه .

قال : لك ذلك ولهم[1].

كل ذلك كان تاريخ جهاد . فيحيى بن زيد وعيسى بن زيد والحسين ذي الدمعة ثاروا وشيدوا صرح الرسالة لبنة لبنة من اجسادهم ودمائهم ودموعهم ، فحتى الدمعة كان الرسالي آنئذ يستفيد منها في سبيل توعية الجماهير ، فلم يكن يبكي ضعفاً ولو كان يريد ذلك لبكى في بيته ولم يثر أبداً .

ولكن الرسالي كان يثور ويبكي ويستفيد من دمعته في سبيل اثارة الناس ، كذلك كان الرساليون في التاريخ يبكون ولكن ليس مثل بكائنا بالطبع ، وانما كان بكاؤهم من أجل توعية الناس واثارتهم ، وهذا بكاء مطلوب .

وقبل نهاية الحديث نكرر القول ان الزيدية كانوا درعاً وحماية للحركة الرسالية في التاريخ ، وهذه قضية مهمة وسوف نتكلم عن ثورة أخرى من ثورات الزيدية وهي ثورة ابراهيم ومحمد ، وفي نفس الوقت سنتكلم عن دور الامام الصادق (عليه السلام) في تكريس ملامح الاسلام عبر التاريخ .

---

(١) المصدر ، ص ٢٨٠ .

اسباب سقوط الدولة الأموية

ان سقوط الدولة الاموية الكبيرة وقيام الدولة العباسية بعدها ليس بالأمر السيط . فمن الناحية السياسية كان سقوط الدولة الاموية سببه الطغيان والفساد المنتشر في قيادة الدولة والتناقض والاختلاف بين اركانها ، وكذلك الثورات المتلاحقة من الفئات المستضعفة ضد الدولة ابتداءً من الرساليين ومروراً بالمعتزلة والمرجئة ، وانتهاءً بالخوارج ، وغيرهم من الفئات .

هذه الاسباب تفاعلت مع بعضها وكانت النتيجة هي سقوط الدولة الاموية ، وقد سئل احد شيوخ الامويين بعد سقوط دولتهم : ما كان سبب زوال ملككم ؟

فأجاب : " إنّا شُغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا ، فيئسوا من انصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فتخلّوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت اموالنا ، ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا منافعهم على منافعنا ، وامضوا امورا دوننا اخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم اعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا اعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة انصارنا " (١).

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ .

وعندما نبحث في الجواب بلغتنا نراه يعني :

انـا جعلنـا الرجال في غير مواقعهم ، وضغطنا على اصحاب المزارع من الفلاحين ، فتركوا مزارعهم واتجهوا الى المدن ، وبذلك خربت المزارع وضاق الناس بسياسة الدولة ، وبسبب كثرة الاسراف في الاموال من جانب الامراء ، قلّ العطاء ، فبدأ التململ في صفوف الجيش . ذلك لأنه منذ ان تأسست الدولة الاموية على يد معاوية كان الجيش يدين بالولاء لكثرة العطاء واغداق الأموال لا لشيء آخر .

الجيش القائم على العطاء

يقول معاوية في كتابه الى الامام علي (عليه السلام) :

" امـا بعد فلو علمنا بان الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، وان كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نرم به ما مضى ، ونصلح به ما بقي ، وقد كنت سألتك الشام على ان لا تلزمني لك طاعة " [1].

فمؤسس دولتهم هدفه لذة الفوز بالشام واللعب باموال المسلمين . مرة دخل عمرو بن العاص على معاوية بعدما كبر ودقّ ومعه مولاه وردان ، فاخذ في الحديث ، وليس عندهما غير وردان ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، ما بقى ما تستلذه ؟ فقال معاوية : اما النساء فلا ارب لي فيهن ، واما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهي بها جلدي فما ادري ايهما ألين ، واما الطعام فقد اكلت من لذيذه وطيبه حتى ما ادري أيه ألذ واطيب ، واما الطيب فقد دخل في خياشيمي منه حتى ما ادري ايه اطيب ، فما شيء الذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ، ومن ان انظر الى بني وبني بني يدورون حولي ، فما بقي منك يا عمرو ؟ قال : " مال اغربه فاصيب من ثمرته ومن علته ، فالتفت معاوية الى وردان فقال :" ما بقي منك يا وردان ؟ فقال : ضيعة كريمة سنية اعلقها في

---

(١) نفس المصدر / ص ١٣ .

اعناق قوم ذوي فضل واخطار لا يكافئونني بها حتى القى الله تعالى وتكون لعقبي في اعقابهم بعدي ، فقال معاوية : تبّاً لمجلسنا سائر هذا اليوم ، ان هذا العبد غلبني وغلبك ! " (١).

حلفاء النظام الأموي طائفة من المرتزقة

ولقد بدء تحالف عمرو بن العاص مع معاوية هكذا ، نزل عمرو بن العاص الشام فكتب الى معاوية : " ما كنت صانعاً اذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما انت صانع " فبعث اليه معاوية فسار اليه ، فقال معاوية : " بايعني ، قال : لا ، والله لا اعطيك من ديني حتى انال من دنياك ، قال : مصر طعمه ، فاجابه الى ذلك وكتب له به كتاباً " (٢).

ومرة في ايام صفين لما رأى معاوية القتلى في اهل الشام استدعى النعمان بن جبلة التنوخي ، وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء ، وقال له : لقد هممت ان اولي قومك من هو خير منك مقدماً وانصح منك ديناً ، فقال له النعمان : اما لو

---

(١) المصدر ، ص ٢٢ .

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

وجاء في كتاب العقد الفريد ج ٣ ص ١١٣ " علم معاوية والله إن لم يبايعه عمرو بن العاص لم يتم له الامر .. فقال له يا عمرو اتبعني قال لماذا ؟ للآخرة فوالله ما معك آخرة أم الدنيا فوالله لا كان حتى اكون شريكك فيها ، قال معاوية انت شريكي ، قال عمرو فاكتب لي مصر وكورها ، فكتبها له ، وكتب في آخر الكتاب .. وعلى عمرو الطاعة والسمع ، قال عمرو ، واكتب انهما لا ينقصان من شرطه شيئاً ، قال معاوية : لا ينظر الناس الى هذا ، قال عمرو حتى تكتب ، فكتب معاوية ، والله لا يجد بداً من كتابتها " ودخل عتبة بن ابي سفيان على معاوية وهو يكلم عمراً في مصر وعمرو ويقول له : إنما انا ابايعك بها ديني . والى ذلك يشير عمرو في قوله :

معاوي لا اعطيك ديني و لم انل ‏ ‏ ‏ ‏ به منك ديناً فأنظرن كيف تصنع .

كنا ندعو قومنا الى جيش مجموعة لكان في وسع الرجال بعض الاناة ، فكيف ونحن ندعو الى سيوف قاطعة ، وردينية شاهرة ، وقوم ذوي بصائر نافذة ، والله لقد نصحتك على نفسي ، وآثرت ملكك على ديني ، وتركت لهواك الرشد وانا اعرفه، وحدت على الحق وانا ابصره ، وما وقفت لرشد حين اقاتل على ملكك ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وآله) واول مؤمن به ومهاجر معه ، ولو اعطيناه ما اعطيناك لكان ارأف بالرعية ، واجزل في العطية ، ولكن قد بذلنا لك الامر ولابد من اتمامه كان غيّاً او رشداً وحاشا ان يكون رشداً ، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها اذ حرمنا اثمار الجنة وانهارها ، وخرج الى قومه وصمد في الحرب "[1].

الحرب للدفاع عن المصالح وللحصول على المكاسب

لقد صرح بالحقيقة وهي انهم كانوا يقاتلون عن تين الغوطة وزيتونها ، وهل يعقل ان انسانا مثل الوليد الذي يقول بعد ان جعل القرآن الكريم غرضاً للنشاب :

تهـــــــددني بجبـــار عنيـــد ... فها انـا ذاك جبـــار عنيـــد
اذا مـا جئت ربـك يـوم حشر ... فقـــل يا رب مزّقنـــي الوليـــد

وقال ايضاً :

فقـــل لله يمـنعـنـــي طعامـــي ... وقـل للــه يمنعنـــي شرابـــي !

او انسان مثل يزيد بن معاوية صاحب الخمر والقرود والغواني ، او مثل باقي الخلفاء الامويين ، هل يعقل ان هؤلاء يريدون اعلاء كلمة الاسلام بالجهاد في سبيله ، انها مهزلة ان صدقنا بهذا .

لقد كان الهدف الاول والاخير لهؤلاء الخلفاء هو جلب العدد الاكبر من الغواني والجواري والاكثر من المغانم ومن الاموال ، وكيف؟ ومن اين؟ ان لم تكن الفتوحـات هي الوسيلة لجلب الاموال الطائلة التي تُعطى لقواد الجيش ليوالوا النظام؟ ومن اين اذن الاموال الطائلة التي تصرف في اللعب والفساد ؟

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨٤ .

والناتـج من كل ذلك هو ثورة الجيش على النظام عندما قلّ العطاء كما ان هناك داعياً آخر لثورة الجيش عليهم وهي كثرة الحروب والاغتيالات التي حصلت لقواده .

ان الدولة الاموية كانت تعتمد على الجيش ، وحينما قلّ عطاؤه وزادت نقمة الرعية قلّ ولاؤه وحين قلّ الولاء انتهت الدولة..

العباسيّون خلفاء النظام الأموي

ولكن كيف قامت الدولة العباسية ؟

من الناحية الاجتماعية نستطيع ان نفسر قيام الدولة العباسية بانهم كانوا يمثلون الجناح الوسط داخل الامة الاسلامية ، أي الوسط بين المبادئ الصحيحة للاسلام التي كان يحملها الرساليون ، وبين السلوك المنحرف الذي مثله بنو أمية .

فبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) تقاسمت الأمة الاسلامية ثلاثة اجنحة هي :

الجناح الاول : جناح الامام علي بن ابي اطالب ، وهو الجناح الرسالي الثابت الذي لا تأخذه في الله لومة لائم .

الجناح الثاني : الجناح الجاهلي المتطرف ، وهذا الجناح يضم بني امية من أمثال أبي سفيان والمغيرة بن شعبة والحكم بن العاص بن أمية .

الجناح الثالث : جناح الوسط ، ويضم ابا عبيدة الجراح وكثيراً من المسلمين ومنهم العباسيون ، وهم الذين سوف يقومون بدور هذا الجناح في المستقبل .

ان الجناح الصحيح هو الجناح الثابت المستقيم على الفكر الاسلامي ، الجناح المحافظ على القيم والمبادئ والملتزم بها التزاما صارماً كما قالت فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها :

" وما نقموا من ابي الحسن ، نقموا والله منه نكير سيفه ، وشدة وطأته ونكال وقعته ، وتنمّره في ذات الله عزّ وجل " (١).

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٣ ، ص ١٥٨ .

وليس بمقدور القلم او اللسان التحدث عن كل مواقف الاستقامة والثبات على الحق ومواجهة الباطل التي وقفها الامام علي (عليه السلام) ان الامر الثابت هو استقامته حتى النهاية واستقامته في مواقف تزلّ فيها اقدام الرجال وتلين عندها عزائم الابطال .

ولكن الجناح العباسي اخيراً استطاع التغلب على الساحة بوجود ظروف مهيأة لـه ، اذ ان اغلب الناس لم يكن يهمهم من يحكمهم إلاّ انهم كانوا متفقين على أمر واحد ، هو رفض الحكم الاموي والشعور بالذنب تجاه آل محمد .

وبنو هاشم سواء العباسيون او العلويون او اولاد جعفر او اولاد عقيل ، كل هؤلاء كانوا قد اجمعوا امرهم في اطار الدعوة الى الرضا من آل محمد .

والرضا من آل محمد يعني الدعوة الى الرجل الذي تتوفر فيه المؤهلات الرسالية القيادية ولكن هذه الكلمة فضفاضة ، تجمع شتات الفرق الثورية ولان الدعوة كانت على درجة كبيرة من السرية فقد تجمّع تحت هذا الشعار العديد من الفرق الثورية .

تحول القيادة الى العباسيين

بعد مقتل الامام الحسين (عليه السلام) بدأت الحركة السياسية تترسخ جذورها في ضمير الناس اذ تحول الفكر الرسالي من مبدأ لمجموعة من الناس الى مبدأ تحمله اوسع قطاعات الامة الاسلامية .

وانتشرت هذه الحركة في جميع الارجاء وكان القائد التنظيمي لها ، احد اولاد محمد بن الحنفية وهو عبد الله المكنّى بابي هاشم الذي يبدو ان السلطات الاموية كانت قد اكتشفت اهميته، لذلك استدعاه سليمان بن عبد الملك الى الشام واكرمه ودسّ اليه السم فخرج من الشام قاصداً المدينة وفي طريقه وصل الى منطقة الحميمة وفيها غلب عليه المرض وخشي ان يموت فتضيع دعوته ولم يجد هناك رجلا يوثق به إلاّ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فخوّل إليه أمور العمل وبيّن له من هو قائد الحركة في المغرب ومصر وخراسان وري والكوفة والبصرة ، وكيفية العمل وأسماء

انصاره واعطاه رسائل اليهم ، وبيّن اسرار الحركة ونقلها الى هذا الرجل العباسي وكان من المقرر ان يتبع هذا الرجل العباسي الخطة نفسها التي كان يتبعها الرجل العلوي ، بيد ان علي بن عبد الله خان الدعوة وجعلها في مجموعة بني العباس وكانت الثورة حينها ناضجة مختمرة والاحزاب والحركات مستعدة للقيام ، فتحولت الثورة حينها من الجناح العلوي الى الجناح العباسي .

ولكن هذا لا يشكل السبب الوحيد الذي ادى الى تحول الخلافة من العلويين للعباسيين ، انما السبب الرئيسي هو ان العباسيين لم يكن يهمهم إلاّ الوصول الى الحكم بينما العلويون كان همهم من الوصول الى الحكم ان يحققوا هدفهم وهو تطبيق حكم الله .

وكان العباسيون ينتظرون سقوط الدولة الاموية لكي تتحول السلطة بيدهم ، وكانوا يصوّرون بانهم هم الذين سيطبقون وسيجسدون الرسالة ، بمعنى انهم قد حولوا النظرة الى الهدف وهو تطبيق القيم ، الى النظرة الى الاشخاص وحكم الاشخاص ، واكتسحوا الشارع ووصلوا الى الحكم .

وهناك وقائع كثيرة تدل على انهم لم يكونوا من البداية على الخط الصحيح ، مثلا ان ابا سلمة الخلال وهو داعية كبير من دعاة العباسيين وبيده الخيوط الرئيسية للحركة العباسية ، بعد دخول ابو مسلم الخراساني العراق قاصداً احتلال الكوفة المعروفة بتشيعها للامام الصادق (عليه السلام) ، يكتب رسالة الى الامام الصادق (عليه السلام) يقول فيها :

" يابن رسول الله ، كنا ندعو الى الرضا من آل محمد والرضا من آل محمد هو انت وانّا ندعو اليك والامر قريب .وقد نصبنا ابا مسلم وآخرين في مختلف الامصار".

ولأن ابا سلمة كان يعلم رفض الامام الصادق (عليه السلام) لما بعث به إليه ، كتب نسخة ثانية من الكتاب ووجهها بيد نفس الرسول وهو محمد بن عبد الرحمــن بن اسلم ، وكـان جده مولى لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ، الى عبد

الله بن الحسن .

وجاء هذا الرجل بالرسالة الى الامام الصادق (عليه السلام) وكان هناك مصباح زيتي فوضعها عليه فاحترقت ، وقال الامام (عليه السلام) :

" وما انا وابو سلمة ؟ وابو سلمة شيعة لغيري "

وعندما رأى الرجل ذلك المشهد وكان قد ائتمنه ابو سلمة الخلاّل على سر كبير قـال :

" يابن رسول الله ، الجواب :

فأجابه (عليه السلام) : عرّف صاحبك بما رأيته .

فتعجب الرسول وقال عجبا ان احدا تعرض عليه الخلافة فيرفض ، ثم ذهب الى عبد الله بن الحسن ، فجاء ابو محمد عبد الله بن الحسن الى الامام الصادق (عليه السلام) فقال :

يا ابا محمد بهذا الكتاب يدعوني أبو سلمة الى ما اقبله وقد قدمت عليه شيعتنا من اهل خراسان ، فقال له ابو عبد الله : " يا ابا محمد ، ومتى كان اهل خراسان شيعة لك ؟ انت بعثت ابا مسلم الى خراسان ، وانت امرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا الى العراق انت كنت سبب قدومهم او وجهت فيهم ؟ وهل تعرف منهم احداً ؟ فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام ، الى ان قال : انما يريد القوم ابني محمداً لانه مهدي هذه الامة ، وقال للامام : والله ما يمنعك من ذلك إلاّ الحسـد، فقال ابو عبد الله (عليه السلام) :

" والله ما هذا الا نصح مني لك ، ولقد كتب اليّ ابو سلمة بمثل ما كتب به اليـك، فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك ، ولقد احرقت كتابه من قبل ان اقرأه ، فانصرف عبد الله من عند الامام جعفر الصادق مغضباً " [١].

ولقـد كان العباسيون يستفيـدون من أي اسم علـوي يدخل معهـم في واجهـة

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

الحركة ، فلقد كان للعلوي سحر في ان يستهوي القلوب كما كان يبعد عنهم تهمة سحب القيادة من العلويين .

ولقد كان الشغل الشاغل للعباسيين مسألة العلويين منذ ان كانت الحركة سرية حتى آخر يوم في دولتهم ، ولقد كان ابرز شاهد على حديثنا هذا ان الخليفة العباسي لا يفتأ يخاف من وزيره او حاشيته من ان تكون موالية للعلويين . ولكن أهل الكوفة كان اتجاههم اتجاهاً علوياً ويعرفون الفرق بين العلويين والعباسيين ، بينما لم يعرف اهل خراسان هذا الفرق بذلك الوضوح ، فقد كانوا يقولون هاشميين ولكن لا يفرقون بين العلوي والعباسي . وبدأ ابو سلمة الخلّال بنشر الدعوة باسم الرضا من آل محمد وكان معروفاً عند الناس بانه علوي .

والمهم في كل ذلك اننا نستدل من هذه الواقعة على ان تحول الحركة الجماهيرية من العلويين للعباسيين لم يكن تحولا آنياً عبر قصة بسيطة في الحميمة، انما كان ذلك التحول لان التيار العباسي كان تياراً انتهازياً ، فالغاية عنده تبرر الوسيلة ، وكان رسالي الواجهة ، مصلحي الباطن . مثلا لقد حنث المنصور الدوانيقي في يمينه ثلاث مرات وذلك عندما حلف على ان يعطي الامان لابن هبيرة ، والثانية مع عمه عبد الله بن علي ، والثالثة مع ابي مسلم الخراساني ، وكلهم غدر بهم بعد يمينه على ان يؤمنهم ، فماذا تريد من الرأي العام ان يقول في رئيس دولة يحلف ثم يحنث يمينه ، وتتكرر العملية ثلاث مرات؟ .

وبهذا الاسلوب جمع التيار العباسي المرجئة والخوارج في البداية وايدهم وكان يقول لهم ان الحق معكم وسوف نحكم باسمكم .

فجاء الخوارج مع العباسيين في البداية لانهم سمعوا بان العباسيين سوف يستولون على الحكم ويقومون بتسوية الامر شورى بين المسلمين كذلك المعتزلة دخلوا مع العباسيين عندما قالوا لهم بانهم سيأتون بواصل بن عطاء الى الحكم .

ولكن عندما وصل العباسيون الى السلطة قاموا بتصفية الرؤوس التي جاءت بهم الى الحكم كأبـي مسلم الخراساني الذي خدمهم خدمة كبيرة ، وقاموا بتصفيـة

ابـي سلمة الخلاّل داعيتهم في الكوفة .

كمـا قتل المنصور عمه عبد الله بن علي الذي طارد آخر الخلفاء الامويين وقتله فـي مصـر . وهكذا كان العباسيـون يقومون باغتيال الرمـوز ، وقاية من أي تحزبات ضدهم ، وهذا ما رأيناه في أعمـال العباسيين تجاه البرامكة عندما قام الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكي ، واستئصال شأفة الباقيـن منهـم .

لقد كان العباسيون يبقون على الافراد ما بقيت لديهم حاجة اليهم ، وعقب انتهائها لايجدون غير تصفيتهم .

اسباب نجاح حركة العباسيين

هناك اسباب مباشرة لنجاح الحركة العباسية وهي :

السبب الاول : طول الفترة التي امضتها الحركة في النضال للوصول الى الحكم وعلينا ان لا نتصور بان الحركة العباسية كانت وليدة عشية وضحاها . وربما نستطيع ان نقول ان حوالي ٣٠ الى ٥٠ سنة من العمل ، هي التي جاءت بهم الى دفة الحكم .

وان بعض ائمة العباسيين قُتلوا في عهد الأمويين ، بمعنى ان الناس بايعوهم ، ولكن الأمويين قتلوهم ، وذلك بعد ان ظهرت الى ساحة العلن .

السبب الثاني : اختيارهم لخراسان ، حيث كانت تضم ميزات عديدة ساعدت على نمو المعارضة وتحولها الى تيار ناضج ضد الحكم الاموي ومنها :

الف : ابتعاد خراسان عن دار الخلافة ، مما يسمح بازدياد العمل وتقويته .

باء : وجود شخصيات معارضة للحكم الأموي نتيجة لعنصريته الغربية حيث كان يعتبر أهاليها من الموالي .

جيم : احاطـة بلاد خراسان ببـلاد كثيـرة كان بامكان الثوار ان يعتمدوا عليها ويأتوا بالجيوش منها ، بمعنى كثرة عددها ، واستمرارية قوتها .

دال : سلامة ميول اهالي خراسان ، أي انهم كانوا خالصين في الولاء لبني هاشم .

فالاختيار كان جيداً ، لذلك كان مبدأ الزحف من خراسان صوب العراق واتجهوا بعدها الى الشام ، وبعدها اصطدموا مع مروان الحمار آخر الخلفاء الامويين وقتلوه .

مع ان مروان كان اذكى الخلفاء الامويين وامكرهم ، وقد لقّب بالحمار لطول نفسه في محاربته لأعدائه ، ولشدة تحمله ، مع كل ذلك فقد كانت عواصف الثورة اقوى منه فقلعته .

وفي فترة خلافته التي لم تتجاوز الخمس سنين وبضعة أشهر ، لم يفارق مروان الحمار ساحة الحروب ، ان ذلك يرسم لنا هيجان الوضع سياسياً واجتماعياً في تلك الفترة ، فقد كانت اخبار الحروب تدوي آنذاك في كل مكان ، ولو كان مروان بن محمد اول الخلفاء الامويين - على سبيل الفرض - لكان له تاريخ مسطور كمعاوية، ولكن الدولة الاموية كانت في نزعات الموت ولا سبيل لارجاع الحياة إليها وسقوطها كان مسألة وقت فقط .

والواقع ان الدولة الأموية انتهت منذ عهد هشام بن عبد الملك والذين اتوا من بعده كانوا اربعة خلفاء اولهم حكم سنة وبضعة اشهر ، والثاني خمسة اشهر ، والثالث شهرين ، والرابع كان عهده عهد الحروب ، لا عهد الملك .

وهؤلاء لم تكن لهم هيبة الملك والسلطة وكلهم كانوا مشغولين باللهو والخلاعة ، وقسم كبير من الخلفاء الامويين عندما جاؤا الى الخلافة لم تكن البلاد البعيدة تعرف انهم اصبحوا خلفاء ، وهذا يدل على ان الدولة كانت قد زالت منذ ايام هشام ، خاصة اذا عرفنا ما قام به هشام في فترة حكمه التي طالت حوالي (١٩ سنة وسبعة اشهر) والتي كانت بين (١٠٥ - ١٢٥) من اعمال القتل والذبح والارهاب ضد الفئات الاسلامية الاخرى .

الامام الصادق ودوره في التحولات

عاصر الامام الصادق (عليه السلام) نهاية الحكم الاموي وبداية الحكم العباسي ، وهنا نتسائل : ما هو دور الامام الصادق (عليه السلام) في تلك التحولات؟ .

سألت احد الكتاب الاسلاميين : ماذا عمل الأئمة (عليهم السلام) بعد الامام الحسين (عليه السلام) ؟

فأجاب : بصراحة ان الأئمة (عليهم السلام) بعد الامام الحسين ، اتجهوا اتجاهاً غير سياسي ، فلم يتدخل واحد منهم في السياسة .

ولكن من خلال العودة الى التاريخ يتضح ان الأئمة ابتداءً من الامام زين العابدين (عليه السلام) وانتهاء بالامام الحجة (عجل الله فرجه) ، قد دخلوا في كل مجالات ونواحي السياسة ، فحركة الرساليين آنئذ في عهد الامام زين العابدين (عليه السلام) كانت حركة معارضة . وحتى في عهد الامام الصادق وصلت الى درجة سيطرت فيها على قطاعات واسعة من البلاد الاسلامية وظلت هكذا حتى عهد باقي الأئمة (عليهم السلام) .

فالأئمة وابتداءً من الامام الصادق كانوا يحكمون اجزاء من الدولة الاسلامية ، ولقد كانت سيطرتهم على تلك الاجزاء عن طريق ولاتها ، الذين كانوا من انصارهم . وعلى سبيل المثال ، كان والي الاهواز يجاهر نوعاً ما بالتشيع ويدعو الى الامام الصادق (عليه السلام) ويطيع اوامر الامام الذي يبعث إليه برسالة تختص بالتنظيم الاداري مرة وبالقضاء مرة اخرى ، وهكذا .

وكما ان الامام علي (عليه السلام) كان يكتب تنظيماً ادارياً لواليه على مصر مالك الاشتر (رض) ، فقد كان الامام الصادق (عليه السلام) ايضاً يكتب تنظيماً ادارياً لوالي العباسيين على الاهواز ، فبالرغم من ان القضية كانت صعبة ومعقدة الا ان العباسيين لم يستطيعوا ان يحكموا لوحدهم ، وطبيعي ان الرساليين لا يتركون التدخل في شؤون الحكم ، ومثال على ذلك ربيع الذي كان حاجباً للمنصور ، وتعني كلمة حاجب في ذلك الوقت (وزير البلاط) ، كان هذا الرجل من محبي الأئمة ، وفي اليوم الذي جاء المنصور بالامام الصادق (عليه السلام) قال الامام للربيع : يا ربيع انا أعلم ميلك الينا ، فدعني أصلي ركعتين وادعو .

فقال له الربيع : " شأنك وما تشاء " ، بعد ذلك بكى الربيع ، فصلى الامام ركعتين وبعدها دخل على المنصور وكان قد جعل سيفا تحت لبده وكلما يحتد النقاش بينه وبين الامام الصادق (عليه السلام) كان المنصور يقبض على السيف، وكأنه يهمّ بقتله. يقول الربيع: " وجعلت في نفسي إن أمرني فيه بأمر أن أعصيه، لانني ظننت أنه يأمرني ان آخذ السيف فاضرب به جعفراً ، وقلت : " وإن أمرني ضربت المنصور نفسه ، وإن أتى ذلك عليّ وعلى ولدي " [1].

وسوف نبين في الفصول القادمة دور الامام الصادق (عليه السلام) في تلك الفترة بشيء من التفصيل .

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٧ ، ص ١٩٧ .

الباب الثالث

مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

مدخل الى واقع الحركة الرسالية في الدولة العباسية

في القرن الأول للهجرة كانت المبادئ الرسالية العامة هي التي تتكامل في النفوس وفي الانظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكانت الدولة الاسلامية تقوم بالامتداد عبر جميع الاتجاهات غرباً ، وشرقاً ، وشمالاً ، وجنوباً ، ولكن في نفس الوقت كانت هناك حركة معارضة تصحيحية هي الحركة الرسالية التي كان يقودها ويمثلها الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) ثم اولاده الاطهار (عليهم السلام) .

وفي القرن الثاني للهجرة تحول الجهد العملي لجميع ابناء الأمة الى الاصلاح الداخلي وتوقفت الفتوحات الخارجية نوعاً ما وتوقف الاهتمام بها .

وقد فكرت العناصر المؤمنة الرسالية في التوجه نحو الداخل ، أي نحو تصحيح المسيرة ، لذلك نلاحظ في القرن الثاني الهجري نشوء حركات فكرية وسياسية كثيرة في الدولة ، وهي وان كانت ذات اتجاهات مختلفة ، الا انها جميعها كانت تهدف هدفاً مشتركاً واحداً وهو الاصلاح الداخلي في الأمة .

ومن جملة تلك الحركات: المعتزلة ، والمرجئة ، والخوارج والزيدية وحركات اخرى ، طبعاً مضافة الى الحركة الأم التي كانت عليها اعباء التغيير اكثر من غيرها وهي حركة الرساليين .

وفي القرن الثالث للهجرة نجحت الحركات الاسلامية في ايجاد نوع من التوازن السياسي داخل الامة الاسلامية ، وكان نتيجة ذلك ان انصب الاهتمام اكثر فأكثر على اللغة وآدابها والعمران بمجالاته المختلفة : فتحولت الحضارة الاسلامية من حضارة القيم والمقدسات والعلوم الى حضارة العمران المادي ، والترف الأدبي فقط .

ونحن نتصور ان هذه الدرجات والمراحل موجودة ليس فقط في التاريخ الاسلامي وانما في كل الأمم ، والحضارات الماضية .

كانت تلك نظرة عامة للتاريخ الاسلامي ، واذا طبقنا هذه النظرة على العهد العباسي فاننا سنلاحظ انه قد تميز باصلاحات سياسية واسعة بالرغم من انه كان عهد تحضر عمراني فقط ، ولم يكن يتمتع بهذه الاصلاحات في بداية عهده ، وكانت هذه الاصلاحات نتيجة مباشرة لاختمار الحركة التصحيحية داخل الأمة الاسلامية ، فقد استوعبت ذهنية الأمة مفهوم الحركة التحررية بشكل جيد .

فالفكر والمفاهيم السياسية التي فرضها الحكام على الجماهير المسلمة ، قد ذابت عمليا فـي القرن الأول ، بالطبع ان كثيراً من الناس كانوا قد انخدعوا بالتأويل الخاطئ للآية الكريمة ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء/٥٩) ولكن غالبية الأمة عرفت بعد ذلك ان ليس كل من جلس على سدة الحكم فهو مخوّل أن يحكم بما يشاء ، بل إن على المسلمين أن يقوموا في وجه الحاكم الظالم ، فقد كان سكوتهم من الحاكمين الطغاة سبباً في نزول الكوارث بهم ، وبذلك إنضوى الناس تحت الالوية المختلفة التي كانت تحارب الوضع القائم .

وهكذا نجد إن الحركات التحررية قد اجتمعت على اسقاط الدولة الاموية التي كانت صعبة السقوط ، والوضع الاموي كما حللناه فيما سبق ، كان يعتمد على الجيش المرتزق ، وعلى القبائل الجاهلية ، وعلى كل فكرة جاهلية مادية ، من نظام العائلة الحاكمة الى الطابع العنصري العربي (العدناني والشامي ضد القحطاني)

وانتهاءً ببقية المفاهيم الجاهلية المادية ، فكانت قوة الدولة الاموية من النوع المرحلي، ولهذا فقد اجتمعت الحركات التحررية واسقطت هذه الدولة، وبعد سقوطها اختلفت هذه الحركات مع بعضها البعض .

فقد اشتركت الحركة الزيدية مثلا مع العباسيين في اسقاط الدولة الاموية ولكن حينما جاء الخليفة العباسي الثاني وهو المنصور الدوانيقي سرعان ما قام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (عليه السلام) بالحركة المعارضة ، وكانت هذه اولى الحركات التي قامت ضد العباسيين .

حركة محمد ذي النفس الزكية

كيف قامت هذه الحركة ولماذا ؟

قبل ان نبين ذلك لابد ان نعرف ان الأمة الاسلامية كانت قد تحولت إلى أرضية خصبة للحركة التحررية ، فالإمام الحسين (عليه السلام) كان قد جهد كثيراً حتى اوجد بعض الانصار ليحاربوا معه ، وبعد الامام الحسين (عليه السلام) جهد المختار وزيد ولكن عندما جاء محمد وابراهيم إبنا عبد الله بن الحسن كانت الأرضية حينها اكثر صلاحية ونضوجاً ، وكان الناس اكثر وعياً فالتفوا حولهما ، وتساقطت الولايات الواحدة بعد الاخرى بيد محمد واخيه ابراهيم، كل ذلك بفعل التحول الذي كان قد حدث ، ويشير المؤرخون الى ظاهرة ذات دلالة كبيرة وهي ان الامام الحسين أخذ الشرعية لثورته من يد النظام الحاكم وسلمها الى الحركة المناهضة في وعي الاغلبية من ابناء الأمة ، فالبصرة كانت معقلا من معاقل الفكر المعادي لاهل البيت (عليهم السلام) وبعدها تحول هذا المعقل وسقط بيد الحركة الزيدية في عهد العباسيين .

ولذا فانهم يقولون ان ذلك كان دليلا على مدى توغل الزيدية وانتشار افكار المعارضة في البصرة ، وذلك يعني ان الارضية كانت صالحة للثورة وان الأمة قد اختمرت فيها الفكرة التي تقول : يجب ان نقوم وندافع عن حريتنا وذلك بتطبيق الاسلام بصورة صحيحة وإلاّ لن نستطيع ان نحصل على حقوقنا بل سنظل نرزح

تحت الطغيان والظلم . وهكذا قامت الحركة الزيدية بالثورة في عهد المنصور الدوانيقي ثاني الخلفاء العباسيين .

فقبل ان يتمتع الخلفاء العباسيون بالجلوس على كرسي الخلافة ، اذا بهم يرون ان محمد بن عبد الله يثور ضدهم ، وكان يُدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه ، وكان والده عبد الله يقوم بتهيئته مع أخيه ابراهيم للقيام ، وهذا قليلا ما نجد امثاله في التاريخ ، وهو ان نجد الأب نفسه قادراً على تحمل اعباء الثورة والقيام ضد الدولة، ومع ذلك يهيئ ابنه لهذا الأمر ، ويقول له : أنت مهدي هذه الأمة .

ان فكرة المهدي عند الزيدية تختلف عن الفكرة التي لدى سائر الرساليين الشيعة، فعند الزيدية المهدي هو الذي يقوم بالسيف من آل محمد ، وكانت فكرة المهدية منتشرة ليس فقط عندهم وانما عند كل المذاهب الاخرى .

لقد كان عبد الله يقول لابنه : انت الذي يجب ان تصحح الحكم وذلك منذ ايام الامويين ، وفي بداية الثلاثينات من عمره ، غاب محمد عن انظار الناس .

فلسفة الغيبة عند الثوار

فالرجل من اهل البيت حينما كان يغيب فان ذلك يعني انه قد ابتدأت حركة معينة ، فغيبته لا تعني انه يترك الساحة ، بل تعني انه يتنكر ويخفي هويته ، حتى يتمكن من الاتصال بالجماعات والقيام بالاعمال التحضيرية اللازمة حتى اذا حانت ساعة الصفر ظهر معلناً الثورة .

وهذا ما قام به محمد فقد توارى وتبعه اخواه ابراهيم وادريس في الاختفاء ، وتفرق باقي اخوة محمد وولده في البلدان يدعون الى امامته ، فكان فيمن توجه الى مصر ابنه علي بن محمد ، والى خراسان ابنه عبد الله والى اليمن ابنه الحسن والى الجزيرة ابنه موسى ، والى الري ثم الى طبرستان ابنه يحيى . فشكلوا الحركة الثورية في أيام الامويين ، وبعدها ، اجتمعت جماعة من بني هاشم في الابواء وهو مكان بين مكة والمدينة وكان فيهم ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله العباسي (الذي لقب بالامام في الدعوة العباسية فيما بعد) وابو جعفر المنصور وصالح بن علي

وعبد الله بن الحسن بن الحسن ، وابناه محمد وابراهيم، ومحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان .

فقال صالح بن علي : قد علمتم انكم الذين مدّ الناس اعينهم اليهم ، وقد جمعكم الله في هذا الموضع ، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه اياها من انفسكم، وتواثقوا على ذلك حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين .

فتكلم عبد الله بن الحسن ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال قد علمتم ان ابني هذا هو المهدي فهلموا فلنبايعه ، وقال ابو جعفر المنصور : لاي شيء تخدعون انفسكم، والله لقد علمتم ما الناس الى احد اصور (اميل) اعناقاً ولا اسرع اجابة منهم الى هذا الفتى يريد محمد بن عبد الله .

قالوا : قد - والله - صدقت ، ان هذا لهو الذي نعلم ، فبايعوا جميعاً محمدا ، ومسحوا على يده ، قال عيسى : وجاء رسول عبد الله بن الحسن الى ابي محمد بن عمر بن علي ، أن اتنا فاننا مجتمعون لأمر، وارسل بذلك الى جعفر بن محمد (عليه السلام) .

فقال لهم عبد الله بن الحسن : لا نريد جعفرا لئلا يفسد عليكم أمركم .

قال عيسى : فأرسلني ابي انظر ما اجتمعوا عليه ، وارسل جعفر بن محمد (عليه السلام) محمد بن عبد الله الارقط بن علي بن الحسين ، فجئناهم فاذا بمحمد بن عبد الله يصلي على طنفسة مثنية فقلت : ارسلني ابي اليكم لأسألكم لاي شيء اجتمعتم ؟

فقال عبد الله : اجتمعنا لنبايع المهدي محمد بن عبد الله .

قالوا : وجاء جعفر بن محمد فأوسع له عبد الله بن الحسن الى جنبه ، فتكلم بمثل كلامه .

فقال جعفر : لا تفعلوه فان هذا الأمر لم يأت بعد ، وان كنت ترى - يعني عبد الله - ان ابنك هذا هو المهدي فليس به ، وان كنت انما تريد ان تخرجه غضباً لله ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإنّا والله لا ندعك وانت شيخنا ، ونبايع ابنك ".

فغضب عبد الله وقال : لقد علمت خلاف ما تقول ووالله ما اطلعك الله على غيبه ، ولكن يحملك على هذا الحسد لابني .

فقال :" والله ما ذاك يحملني، ولكن هذا واخوته وأبناؤهم دونكم ، وضرب بيده على ظهر ابي العباس ، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن وقال : انها والله ما هي اليك ولا الى ابنيك ولكنها لهم ، وان ابنيك لمقتولان " .

ثم نهض ، وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال :

أرأيت صاحب الرداء الاصفر - يعني ابا جعفر المنصور - ؟ قال : نعم ، قال : فأنا والله نجده يقتله ، قال له عبد العزيز : ايقتل محمدا ؟ ، قال : نعم " .

قال : فلما قال جعفر ذلك انفضّ القوم وافترقوا و لم يجتمعوا بعدها " [1].

وهكذا اجتمعت شيوخ بني هاشم سواء من العباسيين او الحسنيين أو الحسينيين او اولاد جعفر وعقيل ، بما فيهم ابو العباس السفاح والمنصور الدوانيقي باعتبار ان الدولة الاموية كانت على مشارف السقوط فنصبوا الخليفة محمدا الذي هيأه ابوه للخلافة .

وكان محمد يمتلك المؤهلات القيادية والاعوان المنتشرين في كافة البلاد الاسلامية والذين كانوا ينتظرون القيام ، والكل بايعه حينها الا الامام الصادق (عليه السلام) فانه لم يبايع .

وكان المنصور آنئذ قد بايع محمداً ، ولمحمد في عنق المنصور قاتله بيعة ، وقد روي ان المنصور بايع محمداً مرتين قبل ان تتحول قيادة الحركة من العلويين الى العباسيين حسب القصة المعروفة .

وعندما جاء المنصور الى الحكم وقام بأعمال مخالفة للشريعة قرر محمد واخوه ابراهيم اعلان الثورة على النظام المنحرف واتخذا من المدينة والبصرة قاعدتي انطلاق ، فالمدينة كانت مركزاً من المراكز الدينية المقدسة وكانت الامة الاسلامية

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٢٠٦ .

متوجهة اليها باعتبارها مركزا دينياً ، ومن جهة ثانية كانت البصرة مركزاً عسكرياً متقدما لابأس به .

فالتخطيط كان جيداً ، وكان يقوم على اساس ان يثور محمد في المدينة المنورة ويستولي على مكة واطرافها، بينما يفجر اخوه ابراهيم ثورة اخرى في البصرة في نفس الوقت ، ولكن الذي حصل ان الاتصالات بين محمد واعوانه في مختلف الامصار كمصر وخراسان وري وغيرها من المناطق لم تكن على ذلك المستوى من السرعة والتنظيم ، هذا من ناحية الحركة ، اما من ناحية الدولة العباسية والتي كان يرأسها ابو جعفر المنصور ، فقد وصلت إليه عن طريق الربيع انباء عاجلة مفادها ان محمدا قد نهض في المدينة وكانت الاخبار الواصلة تؤكد ان ابراهيم قد استولى على الامارة في البصرة ، وان بلاد فارس والاهواز وواسط اصبحت تحت سلطته، فدبّر المنصور خطة مضادة لما حدث ، وأول ما فعل هو ارساله عبد الله الى الكوفة ، وقد اشار عليه بهذا العمل عمه عبد الله بن علي الذي كان في السجن ، فسدّت منافذ الكوفة وضربت اعناق كثير من الناس فيها وبالتالي أمن المنصور من الكوفة والتي كانت موالية لاهل البيت ، في نفس الوقت بعث الى مسلم بن قتيبة والذي كان أحد قوّاد جيوشه آنئذ في الري ثم جهّز له جيشاً قوياً وارسله الى قتال محمد في المدينة .

ولقد كان تحرك ابراهيم السابق لأوانه يعود كما يقول المؤرخون الى ان اشاعات قد وصلت الى ابراهيم مفادها ان أخاه محمدا قد خرج واستولى على مكة والمدينة ، فقرر الخروج فوراً بينما كان عليه ان ينتظر الرسائل التي يجب ان تصله من اخيه محمد باعتباره القائد الأعلى للحركة .

فخروج ابراهيم بهذه السرعة وبدون التنسيق مع محمد ومع باقي الامصار كمصر والعراق وخراسان ، جعل العباسيين يوجهون جيشاً الى قائد الحركة محمد ، ويقضون عليه وعلى حركته في المهد ، ولم يدّخر المنصور جهدا الا وبذله في مواجهة حركة المعارضة ، فقد ارسل الى واليه في خراسان رأساً وقال له : قل

لأهل خراسان ان هذا هو رأس محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن حتى يضمن بالتالي عدم تحركهم .

ولقد كانت الحركة واسعة جماهيرياً ، وقد قيل حينها ان امر الخلافة سوف يكون للعلويين وكان المنصور حينها في أشد حالات الخوف والترقب ، ويدل على ذلك كتبه التي ارسلها لمحمد يلّين له الطرف ويدعوه للمسالمة ، وكيف لا يخاف المنصور من محمد اذا ما عرفنا ان جيشه في المدينة كان يربو على مائة الف وكذلك جيش اخيه في البصرة من دون باقي الامصار .

ولقد كان ممن ايد ودعم محمد بعض فقهاء العراق ومنهم ابو حنيفة والذي انتقدته المرجئة على تأييده وكذلك كان مالك حتى ان أبا حنيفة كان يجهر في امر ابراهيم جهراً ، ويعني للناس بالخروج معه وانه كتب الى ابراهيم بن عبد الله : اذا اظفرك الله بعيسى واصحابه فلا تسر فيهم سيرة ابيك في اهل الجمل فانه لم يقتل المنهزم ، ولم ياخذ الاموال ولم يتبع مدبرا ، لأن القوم لم يكن لهم فئة ، ولكن سر فيهم بسيرته يوم صفين ، فانه سبى الذرية ودفف الجريح ، وقسم الغنيمة ، لأن اهل الشام كانت لهم فئة وكانوا في بلادهم ، فظفر ابو جعفر المنصور بكتابه فسيره وبعث إليه فاشخصه ، وسقاه شربة فمات منها ودفن ببغـداد [1].

ومن جملة الفقهاء الذين ايدوا حركة محمد النفس الزكية ، عباد بن العوام ، واسامة بن زيد ، وهارون بن سعد الذي جاء مع سالم الحذاء ، وحمزة بن عطاء وخليفة بن حسان وسلام بن ابي واصل وكان هؤلاء من خلّص اصحاب زيد بن علي، وكانوا من جملة الناس الذين استطاعوا الهروب من الكوفة والالتحاق بابراهيم، حتى قيل انه لم يبق فقيه في العراق الا والتحق بابراهيم ، لذلك بعد انهزام ابراهيم قتل قسم منهم والقسم الآخر توارى حتى مات المنصور .

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٣٦٧ .

ولقد كان من ضمن الأدلة على قوة حركة ابراهيم انه كان ينصّب الولاة . فقد ولّى هارون بن سعد على واسط ، فلم تجد الجماهير بدا من اتباع ابراهيم ، هذا على مستوى الحكم .

اما على مستوى الحرب فقد كانت له اخطاء قاتلة مثلا ، عند لقائه بجيش عيسى بن موسى ، لم يكن جيشه منظما على هيئة كراديس مرصوصة ، وهذا ينافي تنظيم الجيش آنذاك .

التجسس على الحركة

وعلى صعيد الحركة تروى حادثة تبين بعض الاخطاء التنظيمية التي كانت قاتلة لها : روي ان ابا جعفر المنصور دعى عقبة بن سلم وسأله عن اسمه ؟ فقال : عقبة بن سلم بن نافع من الأزد ، من بني هنادة فقال : اني ارى لك همة وموضعا، واني اريدك لأمر انا معني به .

قال : ارجو ان اصدق امير المؤمنين ، قال : فاخف شخصك وائتني في يوم كذا ، فأتاه ، فقال : ان بني عمنا هؤلاء قد ابو الا كيدا لملكنا ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون اليهم بصدقات ، وألطاف ، فاخرج بكسى وألطاف حتى تأتيهم متنكرا بكتاب تكتبه عن اهل القرية ، ثم تسير ناحيتهم ، فان كانوا نزعوا عن رأيهم فاحبب الله بهم واقرب ، وان كانوا على رأيهم علمت ذلك ، وكنت على حذر منهم ، فاشخص ، حتى تلقى عبد الله بن الحسن متخشعا فان جبهك ، وهو فاعل ، فاصبر ، وعاوده ابدا حتى يأنس بك فإذا ظهر لك ما قبله فاعجل عليّ ، ففعل ذلك ، وفعل به حتى آنس عبد الله بناحيته ، فقال عقبة : الجواب ، فقال له عبد الله : امّا الكتاب فاني لا اكتب الى احد ، ولكن انت كتابي اليهم فاقرأهم السلام ، واخبرهم ان ابني خارج الوقت كذا وكذا ، فشخص عقبة حتى قدم على ابي جعفر فاخبره الخبر " [١].

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢١١ .

من هذا نرى ان المنصور الذي كان يوما من الايام عضوا في الحركة في ايام الامويين ، قد وصلت اليه اخبار تلك الحركة بكل تفاصيلها وهو متربع على سدة الخلافة ، وقد حارب جيش ابراهيم الجيش العباسي الذي بعثه المنصور الدوانيقي ولكنه انهزم عسكرياً وكانت الهزائم في ذلك الوقت تحدث ليس فقط نتيجة للقوة والميزان العسكري ، وانما أيضا نتيجة لمفاجئات غير متوقعة .

فمن الاقدار العجيبة ان ابراهيم جاءه سهم فقتله ، والزيدية اغلبهم قتلوا بالسهام، ويستدل من ذلك ان قادة الزيدية كانوا يمتازون بالشجاعة ويجابهون العدو بأنفسهم ، فكانوا يتقدمون الصفوف لذلك يتعرضون للسهام .

ولكن الفشل العسكري لم يكن يهمهم ، فالقتل لهم عادة وكرامتهم من الله الشهادة ، فلم يكن الرجل منهم يفكر في الحكم وانما كان يفكر في الحرب ضد اعداء المبدأ ولا يهاب الموت .

وهناك شاهد تاريخي وهو ان محمد بن عبد الله واخاه ابراهيم وأباهم عبد الله بن الحسن بن الحسن لم يكونوا ذوي عقيدة زيدية مع ان حركتهم قامت على أكتاف الزيدية .

ان الزيدية ظلواعلى طول التاريخ ومنذ مقتل زيد بن علي على استعداد للقيام مع أي رجل من اهل البيت يحمل السيف ويقودهم، والذي جلب الزيدية لمحمد بن عبد الله هو عيسى بن زيد . وايضا لا نظن بان عبد الله وابنيه كانوا في باطنهم يعتقدون بأن محمداً هو المهدي ، مع انهم كانوا يجهرون بذلك ، وخير دلالة على ذلك هو رسالة الامام الصادق (عليه السلام) لعبد الله بن الحسن عندما سجن في الكوفة بعدما قتل محمد ، والتي جاء فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الى الخلف الصالح والذرية الطيبة من ولد اخيه وابن عمه ، اما بعد : فلئن كنتَ قد تفردت انت واهل بيتك ممن حُمل معك بما اصابكم ، ما انفردتَ بالحزن والغيظ والكآبة والهم ووجع القلب دوني ، ولقد نالني من ذلك من الجزع والقلق وحر المصيبة مثل ما نالك ، ولكن رجعتُ الى ما

امر الله جل وعز به المتقين ، من الصبر وحسن العزاء ، حين يقول لنبيه (صلى الله عليه وآله الطيبين) فاصبر لحكم ربك فانك بأعيننا "[1].

ويقول صاحب البحار العلامة المجلسي (ره) :" وهذه شهادة صريحة من طرق صحيحة بمدح المأخوذين من بني الحسن (عليه السلام) وانهم مضوا الى الله جل جلاله بشرف المقام والظفر بالسعادة والاكرام " وقد اورد العلامة روايات تشهد بصحة عقيدتهم بآل البيت، منها :

ما رواه يحيى بن عبد الله - الذي كان من الذين تخلفوا في الحبس من بني الحسن - قال حدثنا عبد الله بن فاطمة الصغرى عن ابيها عن جدتها فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) قالت :" قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله) : "يدفن من ولدي سبعة بشط الفرات ، لم يسبقهم الأولون و لم يدركهم الآخرون " فقلت : نحن ثمانية ؟ فقال : هكذا سمعت ، فلما فتحوا الباب وجدوهم موتى واصابوني وبي رمق وسقوني واخرجوني فعشت ، وكان يحيى ممن سجن مع ابيه عبد الله بن الحسن بن الحسن في الكوفة .

ابناء الحسن يتوارثون لواء المعارضة

انتهت حركة محمد واخيه ولكن هل قُبِرَت المعارضة ؟

التاريخ يجيب : كلا ! ، فعبد الله بن محمد سار الى خراسان ولما طورد هرب الى السند ، ويحيى بن عبد الله واخو محمد بن عبد الله خرج من السجن كما اتينا على ذكره ثم سار الى بلاد الديلم وتنقل في الامصار .

وكان الرشيد قد كلّ من ملاحقته ، وصار له حفيد يدعى محمد بن جعفر بن عبد الله سار الى مصر ثم الى المغرب وقد بايعته عدة بلدان آنذاك .

اما ادريس بن عبد الله أخو محمد فقد هرب الى المغرب واجابه خلق من الناس وبعد ذلك ارسل الخليفة العباسي من يسمه فَقُتِل ، ولكن ولده ادريس بن ادريس

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٧ ، ص ٢٩٩ .

بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، واصل مسير أبيه وتأسست دولة الادارسة ، وهكذا بقيّة رجال محمد بن عبد الله فكلهم انتشروا في البلاد وكانوا نطف الثورات فيما بعد ، حتى ان يحيى وادريس ابني عبد الله قد شاركا في عملية فخ ايضاً .

حركة الزيدية تفضح العباسيين

كانت الحركة الزيدية ذات اهمية كبيرة ، وتصل اهميتها بأهمية حركة الامام الحسين (عليه السلام) من ناحية استراتيجية وليس من ناحية الضخامة ، او المقارنة ، والسبب في ذلك: إن حركة الامام الحسين (عليه السلام) كانت الادانة المباشرة لعملية انحرافية ولعملية احداث بدعة في الدولة الاسلامية وهي انتقال الخلافة الى ملك وراثي فالامام الحسين (عليه السلام) قام في مواجهة الباطل ، كما قام جده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بمفهوم احقاق الحق .

وحركة الامام الحسين هي التي فجّرت جميع الثورات التي ظهرت بعد ذلك ، فهي قامت ضد الباطل ، وكانت الاولى في هذا العمل .

وهكذا جاء العباسيون الى الحكم باسم الخلافة الشرعية وكان من الممكن ان تنطلي على الناس هذه الحيلة، وكان المفروض هنا ان تقوم فئة معينة بالسيف وتقاتل بقوة وتبدأ حركة معارضة جديدة ضد الحكم العباسي، فكانت حركة محمد وابراهيم هي التي تصدت لهذه المهمة العسيرة .

حركة الحسين صاحب فخ

وتلت حركتهما حركة " فخ " والتي لم تكن كحركة ابراهيم ومحمد التي اتخذت الطابع العسكري والسياسي والتي اتصل محمد ايامها بالقادة والاحزاب المختلفة وكوّن لنفسه امتدادات دامت لفترة من الزمن وكادت تزيل الدولة العباسية .

ولكن حركة حسين بن علي صاحب (فخ) وجماعته اتخذت الطابع العفوي كحركة الفقهاء كما بيّنا ، والزهاد والعباد واصحاب الفكر ، وكثير من الفقهاء

في المدينة كعلي بن هشام بن البريد ويحيى بن علي وسعيد بن خيثم وبني الحسن بن الامام الحسن (عليه السلام) والمدينة كانت تشبه (الحوزة العلمية في هذا العصر) ، هؤلاء ايّدوا حركة " الحسين بن علي " وروي عن ابراهيم بن اسحاق القطان قال سمعت الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله يقولان : " ما خرجنا حتى شاورنا اهل بيتنا ، وشاورنا موسى بن جعفر (عليه السلام) فأمرنا بالخروج " (١) .

وكان والي المدينة لا يتورع عن التنكيل بهم باستمرار ويستعرضهم يومياً ويطالبهم بالمجيء امامه في حركة استعراض يومية . وكانوا يخافون حينها الغياب عن الاستعراض امامه ، لأنه وبمجرد غياب احدهم فان الوالي كان يقوم باعتقال جميع الهاشميين كباراً وصغاراً .

واستمر الامر بهم هكذا فبعثوا برسالة الى الخليفة وكان في ذلك اليوم الهادي العباسي ، فلم يعرهم انتباها ، لذلك اجتمع الحسين بن علي بن الحسن بن الامام الحسن (عليه السلام) بجماعته وقرروا الثورة على الوالي .

وكان شعارهم آنذاك " أحد أحد " وثاروا على الوالي ، فهرب من المدينة واستولوا على المدينة وجاؤوا الى مكة ليأخذوها ويستولوا من بعدها على البلدان الاخرى .

أخطاء حركة (فخ)

لقد كانت المدينة المنورة ومكة المكرمة منطقتين استراتيجيتين من الناحية الدينية والروحية فقط ، اذ كان يكثر فيهما العباد والزهاد والفقهاء والحجاج ، كما ان فيهما الحرمان الشريفان .

ولكن من الناحية العسكرية والسياسية لم تكن لهما أهمية ، فالثقل السياسي في الدولة الاسلامية كان في البصرة والكوفة وبغداد ، لذلك فالمدينة هي منطقة

---

(١) أبو الفرج الاصفهاني باسناده عن علي بن العباس بن الحسين بن محمد عن احمد بن كثير الذهبي عن ابراهيم بن اسحاق القطان .

مفتوحة امام أي جيش معتدي .

ان الحسين صاحب فخ واصحابه لم يعتبروا من الثورات السابقة التي وقعت بنفس الخطأ والذي أدى بها الى القتل ، كحركة اهل المدينة بزعامة عبد الله بن حنضلة غسيل الملائكة والتي انتهت بواقعة الحرة الدامية .

وحركة عبد الله بن الزبير ، وحتى ثورة محمد بن عبد الله التي وقعت قبل مدة وجيزة في نفس الخطأ ، فكان على الحسين بن علي بن الحسن ان يعتبر من تجربة محمد وان يتأنى طويلا قبل أن يخرج لكي يرسل الدعاة وأن يكون اكثر انضباطاً في التنظيم وغيرها من العبر التي يجب ان يكتسبها من تجربة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن .

وفـي طريقه الى مكة اشتبك مع الجيش العباسي في منطقة تسمى (فخ) وتقاتلا ، وأبلت جماعة الحسين بن علي بلاءً حسنا وصمدوا صمود الجبال الشداد حتى أن موسى بن عيسى احد قواد الجيش العباسي طلب من الحسين بن علي توقيف الحرب ، وذلك بعد ان قال له حيلة : لك الامان ، فرفض الجيش المهادنة واعاد محمد بن سليمان الحيلة وقال :" يابن خال ، اتق الله في نفسك ولك الامان ".

فأجابـه الحسن بن محمد ، وكان قد اصابت عينـه نشابـة : " والله مالكم أمـان" (١)وجعل الحسن بن محمد يقاتل الجيش أشد قتال ، ثم قُتل الحسين اصحابه بالرغم من انهم حاربوا ببسالة عجيبة .

ادريس وريث حركة (فخ)

وبقي منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الامام الحسن (عليه السلام) واخوه يحيى الذي كان يعد للثورة مع محمد وابراهيم ابناء عبد الله فكانوا ثلاثتهم يشكلون قيادة الحركة أيام الامويين ، وفي بداية عهد العباسيين ، وكان ادريس في

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٤٥١ .

تلك الفترة غائباً يخطط لحركته ، ولما رأى الحرب التي اشترك فيها في (فخ) قد دارت ضدهم ، خرج بجرحه وتنكّر وذهب الى مصر ثم الى البربر في المغرب ، وأخذ يدعوهم ويعرفهم بقرابته من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فاجتمعت له قادة العشائر وبايعوه ، وهكذا قامت دولته وصار لها حدود مرسومة .

وكانت فرصة ثمينة لادريس فعمل على تقوية بلاده وبقي يحكم الى ان اغتيل ، فحكم اعقابه من بعده الى عهد قريب .

ان دولة الادارسة جاءت بعد تخطيط وعمل مجهد ، فالرجل الجريح الذي هرب من سيف القائد العباسي في فخ ذهب الى المغرب وكوّن اكبر دولة، وانه لعمل عظيم ان يزحف بجروح بجرحه وحيداً ليواصل الحركة بل يؤسس دولة في أقاصي البلاد ، وهذا بحق من الاعمال التي يقف المرء عندها وقفة اجلال واكبار بالخصوص عندما تأتي من فرد وحيد في حالة مرض جسدي ، وبعد هزيمة عسكرية !

وهذا يصدّق كلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) اذ يقول : "الا ان بقية السيف اكثر عدداً " .

وكانت دولة ادريس اول دولة رسالية دامت في التاريخ .

يحيى بن عبد الله يتابع مسيرة اخوته

أما يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الامام الحسن اخو محمد وابراهيم واخو ادريس، والذي كان من اعضاء حركة محمد وابراهيم ثم عمل في حركة الحسين بن علي وكان فقيهاً ، قد تربى في حجر الامام جعفر الصادق (عليه السلام) فروى كثيراً من الاحاديث عنه ، وكان يحيى بن عبد الله بن الحسن اذا حدّث عنه قال : حدثني حبيبي جعفر بن محمد ، يحيى هذا لما قتل اصحاب فخ كان في قبلهم ، فاستتر مدة يجول في البلدان ، ويطلب موضعا يلجأ إليه ، وعلم الفضل بن يحيى البرمكي الذي كانت لدية ميول الى اهل البيت بمكانه في بعض النواحي فأمره

بالانتقال عنه والتوجه الى الديلم ، وكتب له منشوراً لا يتعرض له أحد ، فمضى متنكراً حتى ورد الديلم ، وبلغ الرشيد خبره ، فولى الفضل بن يحيى مهمة الخروج اليه .

قليل مثل هذه النماذج في التاريخ يتربى في معدن العلم ويشارك في ثورتين ويسجن حتى يكاد يموت ، وبعدها يقضي حياته متنقلا بالخفية في البلدان ورغم هذه المصاعب لا ينثني أبداً عن مبدئه الرسالي . يحيى هذا هو ابن المدينة المنورة ولكن مرة تجده في الديلم ومرة في الشام ومرة في السند ومرة في الكوفة ، ولكن كيف لنا ان نتعجب من هذه الشخصية وهي ربيبة الامام الصادق (عليه السلام)، أما قصة كشفه عند الرشيد فتتلخص في ان رجلاً جاء الى الرشيد فقال : يا امير المؤمنين نصيحة ، فقال لهرثمة (احد خواصه) اسمع ما يقول، قال : " انها من اسرار الخلافة " فأمر الرشيد الرجل الا يبرح، فلما كان في وقت الظهيرة دعا به ، فقال الرجل : اخلني ، فالتفت الرشيد الى ابنيه فقال : انصرفا، ثم اقبل الرشيد على الرجل فقال : هات ما عندك ، قال : على ان تؤمنني من الاسود والاحمر ، قال : نعم واحسن اليك .

قال : كنت في خان من خانات حلوان ، فاذا انا بيحيى بن عبد الله في درّاعة صوف غليظة وكساء صوف أحمر غليظ ومعه جماعة ينزلون اذا نزل ويرتحلون اذا رحل ويكونون معه ناحية ، فيوهمون من وراهم انهم لا يعرفونه وهم اعوانه ، مع كل واحد منهم منشور بياض يؤمن به ان عرض له .

قال : اوتعرف يحيى ؟

قال : قديماً وذاك الذي حقق معرفتي بالأمس له .

قال : فصفه لي .

قال : مربوع اسمر ، حلو السمرة ، حسن العينين ، عظيم البطن .

قال : هو ذاك ، فما سمعته يقول ؟

قال : سمعته يقول شيئاً ، غير انى رأيته ورأيت غلاماً له اعرفه ، لما حضر وقت صلاته فأتاه بثوب غسيل فالقاه في عنقه ونزع جبته الصوف ليغسلها ، فلما كان بعد الزوال صلى صلاته ظننتها العصر ، أطال في الاوليتين وحذف الاخيرتين ، فقال الرشيد : لله أبوك ، لجاد ما حفظت ، تلك صلاة العصر وذلك وقتها عند القوم احسن الله جزاك ، وشكر سعيك فما انت ؟ وما اصلك ؟ وبعد ذلك اغدق عليه الرشيد الاموال الا انه امر ايضا بصفع الرجل جزاءً لصحبته السابقة ليحيى[1]. بعد ذلك يحتال الرشيد في عملية اغتياله ، فينتقل يحيى الى جوار ربه بعد حياة ملؤها الجهاد الدؤوب .

بعد ذلك هل انتهت شجرة أبناء عبد الله ؟ كلا : فهي لا تفتأ تعطي ثمارها، فهذا حفيده محمد بن جعفر بن عبد الله يتوجه الى المغرب عبر مصر فيتصل ببلاد تاهرت السفلى فيجتمع اليه خلق من الناس فيظهر فيهم بالعدل وحسن الاستقامة ثم بعد ذلك يستشهد مسموماً [2] . وهكذا الطريق الرسالي لا يستشهد واحد فيه، الا ويقوم آخر ويواصل المسيرة .

وهناك دول اخرى ايضا بقيت في التاريخ من جماعة الزيدية كدولة الامام الناصر في (الديلم) .

الى هنا انتهى حديثنا عن الزيدية ، ويبقى علينا ان نتحدث عن الاسماعيلية ، وبعد فهم الاسماعيلية والزيدية معاً سنفهم الحركة الرسالية ، وان الائمة (عليهم الصلاة والسلام) لم يكونوا بعيدين ابدا عن هذه الحركات ، وانما كانوا يوجهونها من بعيد وهم يقودون حركات كثيرة في نفس الوقت ، فالدولة الاسلامية كانت كبيرة وتغيير معالمها عملية شاقة ، وبحاجة الى جهود جبارة .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦٦ .

(٢) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

كيف كان الأئمة عليهم السلام يوجهون الأمة ؟

شمولية توجيه الأئمة

قبل كل شيء لابد ان نذكركم بما سبق وأن تحدثنا حوله عندما تكلمنا عن حياةالامام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) .

آنئذ قلنا : ان الامام علي بن الحسين كان يحرك جميع الخيوط الموجودة في الامة الاسلامية وهو جالس في بيته في المدينة المنورة وذلك عن طريق تربية عناصر قيادية كفوءة توجه توجيها دقيقاً للقيام بكافة الافعال التي يتطلبها العمل الاسلامي .

وقلنا آنئذ ان الامام لم يكن رجل عبادة وزهد وفقه فقط ، وانما كان رجل ثورة وتغيير شامل في الامة . وهذه وظيفة الانبياء كما هي وظيفة الائمة وكل المصلحين التاريخيين ، فهم لا يحصرون انفسهم في نطاق ضيق من الثورة السياسية او التغيير الثقافي او الاصلاح الاجتماعي ، وانما يجمعون الاعمال كلها ويوجهون الامة توجيهاً شاملاً .

لقد كان حضور الائمة المعصومين (عليهم السلام) في الساحة يغطّي كل مجال وكانوا بمثابة الدفة في سفينة الامة ، لا يبرحون يحافظون على مسيرتها ، فهذه آثارهم تشهد بفيضهم الزاخر وسابغ نميرهم من الفقه الى العقائد الى العرفان .

وانتهاء بمختلف المعارف الاسلامية . وفي مجال السياسة والمجتمع ومشاكله ومختلف شؤونه ، كان حضورهم في الطليعة ، خاصة بعدما عرفنا كيف كان الائمة المعصومون يشيعون مختلف المجالات فعالية ونشاطاوكانوا يقودون الحركات بشكل غير مباشر مع افعامهم روح الامة بالايمان حتى يبقى الاسلام حياً، وكانوا يربّون آلاف الشخصيات تربية رسالية ، ويغذّونهم بالعلوم المختلفة .

موقف تجاه كل حدث

فالائمة كانت لديهم مواقف تجاه كل الاحداث حتى الصغير منها ، والتاريخ يشهد على سيرتهم هذه ، فلا يمر تغيير او حدث على الساحة ، الا وللائمة رأي وعمل تجاهه ، يبلّغونه خواصهم مرة ، وينشرونه على الملأ اخرى . واي شيء أدل على ذلك من ان الخليفة الاموي او العباسي على السواء ، لم تكن عينه تنام حتى تأتيه الاخبار عن الأئمة اولاً بأول ، ومن ان نرى استدعاء الخلفاء لهم كرّات ومرّات ، وتدور الاتهامات حولهم وانهم يدعون لانفسهم وانهم عملوا كذا وكذا. ومن ان نراهم في السجون واحدهم يولّى العهد والاخر يسجن في نفس مدينة الخليفة (سامراء) لكي لا يظل الخليفة خائفا منهم بل يطمئن لأن الامام تحت مراقبته المباشرة . ومن ان يقضي بعض منهم طيلة حياته في السجن ، ومن ان الخلفاء لا يفتأون يجلبون علماء الامصار وجهابذتها فقط لكي يناظروا الائمة ويقفوا على خطأ عندهم وكأن المسألة مناظرة بين رئيسين مرشحين للانتخاب . كل ذلك يدلّ على ان الائمة كان لهم موقف تجاه أي حدث يقع في الدولة الاسلامية حتى الصغير منها ، ولا يعني قولهم (ما منّا إلاّ مقتول أو مسموم) إلاّ على انهم كانوا لولب التوجيه السياسي .

فاذا عرفنا هذه الحقيقة بالنسبة الى الامام زين العابدين (عليه السلام) فسنعرضها ايضا بالنسبة للامام الصادق (عليه السلام) .

التقية دعامة ثابتة في قيادة الائمة

ولكن بما ان اعمال الأئمة (عليهم السلام) كانت على الاكثر اعمالا تتسم بطابع

التقية ، أي السرية والكتمان فانها لم تكن تظهر الا متأخرا ، وحتى حينذاك لم يكن للموالين ان يظهروا كافة الخطط التي كان يرسمها الأئمة المعصومون (عليهم السلام) .

روي عن عبد الاعلى عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال :

" انه ليس من احتمال امرنا التصديق والقبول به فقط . من احتمال امرنا ستره ، وصيانته من غير اهله ، فاقرأهم السلام وقل لهم : رحم الله عبدا اجترّ (جرّ) مودة الناس الى نفسه ، حدّثوهم بما يعرفون ، واستروا عنهم ما ينكرون ، ثم قال : والله ما الناصب لنا حرباً بأشد علينا مؤنة من الناطق علينا بما نكره . فاذا عرفتم من عبد اذاعة فامشوا إليه وردّوه عنها فان قبل منكم وإلاّ فتحملوا عليه بمن يثقل عليه ، ويسمع منه . فان الرجل منكم يطلب الحاجة فيلطف فيها حتى تقضى له ، فالطفوا في حاجتي كما تلطفون في حوائجكم ، فان هو قبل منك والا فادفنوا كلامه تحت اقدامكم ولا تقولوا انه يقول ويقول ، فان ذلك يحمل عليّ وعليكم، اما والله لو كنتم تقولون ما اقول لاقررت انكم اصحابي .." (١) .

كل ذلك لسبب بسيط وهو انه لو عرف النظام الحاكم طريقة قيام الائمة المعصومين في توجيه الامة ، لقام بتدبير المؤامرات المضادة وعرقل اعمالهم . فلو عرف المنصور الدوانيقي طريقة قيام الامام الصادق (عليه السلام) بادارة المجتمع وتوجيهه وقيادته ، وحتى اذا كانت هذه المعرفة بعد حياة الامام الصادق (عليه السلام) فان باستطاعة المنصور الدوانيقي ان يستفيد من هذه المعرفة في ضرب الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) وريث الامام الصادق . ولو عرف هارون الرشيد طريقة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) بعد حياته لاستطاع هو او المأمون العباسي الاستفادة من تلك المعرفة في ضرب الامام الرضا (عليه السلام) . لذلك تجد في الاحاديث الكثيرة عن الائمة المعصومين (عليهم السلام) يقولون

---

(١) الكافي ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

فيها ان : " كتمان امرنا جهاد " . ولكن أي امر يقصدون ؟ هل ان كتمان فضائلهم وعدم اظهارها جهاد ؟

بالعكس فالأئمة (عليهم الصلاة والسلام) كانوا يشجعون امثال دعبل والسيد الحميري والكميت والفرزدق على اظهار فضائلهم . فمثلا ، الامام علي بن الحسين (عليه السلام) حينما سمع ان الفرزدق قد سُجن بسبب قصيدته المشهورة في مدحه امام الطاغية الاموي ، لم يغضب ، و لم يتضايق ، وانما بعث اليه بآلاف الدراهم تشجيعاً له على موقفه ، وكذلك الامام الصادق (عليه السلام) كان يشجع الحميري والاشجع السلمي ، والامام الرضا (عليه السلام) كان يشجع دعبل الخزاعي معنوياً ومادياً حيث دفع إليه حين انشده قصيدته التائية مائة دينار وجبّة كان قد صلى فيها ماشاء الله .

فنتساءل اذا : ما هو الامر الذي كان الأئمة المعصومون (عليهم السلام) يأمرون اتباعهم بكتمانه والمحافظة على سريته ؟

ان هذا الامر يرتبط بالخطط والاساليب أي ما يسمى بـ (بالتكتيك) الذي يتبعه الائمة (عليهم السلام) في تبليغ الرسالة والمحافظة عليها في ظل النظم الارهابية، فان السلطة الطاغوتية اذا عرفت بأسلوب الحركة الثورية فانه يسهل عليها وضع الخطط المضادة والقيام بوأدها والفتك بأعضائها .

فمثلاً المنصور الدوانيقي ، وهو من البيت العباسي الذي كان يشترك مع البيت العلوي في العمل سوية على اسقاط الدولة الاموية ، كان قد عرف بعض اساليب الائمة في ادارة العمل الثوري وتوجيهه .

لذلك حينما كان في منطقة الربذة (مدفن ابي ذر) تساءل ما الذي دفع محمد ذي النفس الزكية الى القيام بثورته ضدنا ؟ أليس الامام الصادق (عليه السلام) ؟

هكذا فكّر في نفسه وطلب الامام الصادق (عليه السلام) وكان حينها مع المنصور في منطقة الربذة وقال قبل ان يأتي الامام لبعض اتباعه :

" من يعذرني من جعفر هذا ، قدّم رجلا وأخرّ اخرى ، يقول : انتحى عن محمد

(يقصد محمد ذي النفس الزكية) فان يظفر فانما الامر لي ، وان تكن الاخرى فقد احرزت نفسي ، اما والله لأقتلنه " [1].

ويفسر صاحب كتاب (بحار الانوار) العلامة المجلسي رحمة الله عليه هذه الكلمة فيقول :

" ان معنى قدّم رجلا واخر اخرى ، أي وافق محمد بن عبد الله في بعض الامر وحثه على الخروج ، وتنحى عنه ظاهرا ، أو حرف الناس عن ناحيتنا ، ولم يوافقه في الخروج ، يقول (يقصد ان الامام الصادق (عليه السلام) يقول في نفسه) : اتنحى عن محمد بن عبد الله بن الحسن (يقصد ذي النفس الزكية)، فان يظفر محمد فالامر لي لكثرة شيعتي وعلم الناس باني اعلم واصلح لذلك وان انهزم وقُتِل فقد نجّيت نفسي من القتل..

وقال المنصور للامام في موقف آخر: " وانت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك، وافسادك على اهل هذا البيت من بني العباس ، وما يزيدك الله بذلك الا شدة حسد ونكد ، ما تبلغ به ما تقدره [2].

فالمنصور كان يعلم يقينا ان الامام الصادق (عليه السلام) صاحب موقف تجاه أي حركة وسكنة على الساحة الاسلامية ، لذلك فمن المستحيل ان يكون تحرك ابن الحسن ضد الحكم العباسي بعيداً عن توجيه الامام الصادق (عليه السلام) .

حركة اسماعيل بن الامام جعفر الصادق

وليس من الصدفة ايضا ان يبرز ابن الامام الصادق (عليه السلام) مرة واحدة ويقود بنفسه اكبر حركة ضد الحكم العباسي ويفجر اكبر ثورة مسلحة في تاريخ الدولة الاسلامية كله وهو اسماعيل ، والفضل في ذلك يعود كله الى تربية الامام الصادق (عليه السلام) وتوجيهه ودعمه ورقابته على مجريات الامور في الامة الاسلامية .

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٧ ، ص ١٩٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٤٧ ، ص ١٩٦ .

فقد جعل ابنه اسماعيل يقوم بالتجارة، والمعروف تاريخيا ان الائمة المعصومين كانت تجبى اليهم الاموال رغم الحظر الذي كانت تفرضه السلطات على ذلك . وكانوا يأمرون مواليهم وانصارهم بدفع الخمس والزكاة ، وكانوا يبعثون افراداً منهم لجمعها ، وكان عدد الموالين في ذلك الوقت ليس قليلاً . فعددهم كان كبيراً ، وكانت لهم تجارة واموال وكانت الدولة الاسلامية آنئذ في قمة مجدها فكان الخمس الذي يقدمونه شيئا كبيراً، ولذلك لم يكن الائمة يحتاجون الى اكتساب الاموال عبر التجارة.

فما هو السبب الذي كان يدعو اسماعيل الى ممارسة التجارة، إذن؟ ان هذا السؤال نوجهه الى التاريخ .

ان التاريخ يحدثنا بان اسماعيل كان تاجرا ولكنه يتحول مرة واحدة الى قائد حركة كبيرة في التاريخ ، وكانت هذه ثاني حركة استطاعت ان تتغلب على اكبر دولة في العالم آنذاك ، وهي الدولة العباسية ، فالقضية لم تكن عملية تجارة وانما التجارة كانت تغطية لاعمال اخرى اكبر منها . ومن حيث المجموع نعرف بان الائمة المعصومين (عليهم السلام) كانوا يحركون الخيوط العديدة في الساحة الاسلامية .

فالامام الصادق (عليه السلام) كان يدرّس بطريقة مباشرة أربعة آلاف انسان واستطاع ان يكوّن منهم جامعة تحتوي على عدة كليات وفروع في الفقه والاصول والتاريخ والفلسفة ومختلف المعارف الاسلامية ، حتى ان عبد الله الديصاني عندما جاء الى المدينة المنورة وقال للامام الصادق (عليه السلام) جئتك لاناقشك قال الامام : في أي موضوع ؟ فقال : في الفقه ، فحوله على شخص قائلا : عليك بمحمد بن مسلم .

وعندما تناقش معه غلبه محمد بن مسلم ، فطلب ان يناقش في الاصول باب الكلام فقال له الامام الصادق (عليه السلام) : ان هشام امامك . فرأى عبد الله الديصاني ان كل واحد من تلامذة الامام ، هو بحر من العلوم .

صحيح اننا أخذنا الفقه من جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ولكن اصول الفكر اخذها المسلمون من الامام الباقر (عليه السلام) ، والعبادة والتقوى والروح الدينية من الامام السجاد ، والثورة من الامام الحسين (عليه السلام) والصلح والسلم والتضحية من الامام الحسن (عليه السلام) والقضاء والشجاعة والرسالة من الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) .

فالحركة الرسالية ليست مرتبطة بشخص جعفر بن محمد (عليه السلام) ، انما لاننا حصرناها في نطاق ضيق وهو الفقه الذي كان من وظيفة الامام الصادق بيانه وشرحه ، نظرا لأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت مناسبة لنشره ، لذلك نسبنا المذهب الى الامام جعفر بن محمد (عليه السلام) .

من هنا نرى ان الامام كان يجمع هذه الخيوط جميعا في يده وكان يحيط بكل الامور احاطة تامة . ومن الغريب المدهش اننا نتصور ان الائمة كانت وظيفتهم الاساسية الخوض في أمور الفقه الصغيرة ، بل الاغرب منه اننا لا نعرف الائمة إلاّ من خلال هذا التصور ، لذلك ننسب المذهب الى الامام جعفر الصادق ونقول : المذهب الجعفري .

والهيكل الأساسي لفقهنا في الوقت الحاضر يرجع في الاصل الى فقه الامام جعفر الصادق (عليه السلام) بل ان الفقه الاسلامي بشكل عام بما فيه من مذاهب متعددة يستقي اصوله من ذلك الامام العظيم .

أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، ومحمد بن إدريس واحمد بن حنبل هؤلاء اخذوا من الامام الصادق الكثير من الفقه ، وهذه قضية معروفة .

لكن الامام الذي استطاع ان يبلغ بالفقه الاسلامي هذا الشأن العالي ، هل سكت عن التغيير والاصلاح الاجتماعي ؟ الم يكتب كتاباً لوالي المنصور على الأهواز يبين له كيفية القضاء والادارة وطرقها واساليبها ؟ ويكتب كتاباً في الحقوق الاجتماعية ، يشبه كتاب الامام زين العابدين (عليه السلام) في الوصايا المطولة؟ ويربي رجلاً عالماً في الكيمياء وهو جابر بن حيان الكوفي . حتى اعترف ذلك

الكاتب الغربي بان الامام الصادق (عليه السلام) هو ملهم الكيمياء ، لان جابر بن حيان كتب ٤٠٠٠ كتاب حول الرياضيات والكيمياء ، انتشر على اثرها هذا العلم .

هذا الامام هل تراه يسكت عما يجري حوله في حين كانت الدولة الاسلامية تعيش العديد من الخضّات الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية والفكرية ؟

بالطبع كلا ، لقد كانت وظيفته الاساسية هي التوجيه ، ولكن الخطط السياسية وطرقها واساليبها ، التي بينها الامام لا تظهر لنا بجلاء ، الا من خلال بعض القضايا التي لا نعرفها كل المعرفة بسبب منهج التقية الذي كان يتبعه .

ائمة اهل البيت والصراع السياسي في الامة ؟

والنقطة الثانية التي نحب ان نشير اليها بالنسبة الى الامام الصادق (عليه السلام) بالذات والائمة المعصومين عموما هي كيفية ادارة الصراع السياسي ، والقصة التالية تكشف ذلك .

جاء رجال من كبار الرساليين في الكوفة الى محمد بن الحنفية في المدينة المنورة وسألوه : يابن رسول الله : هل ان المختار الثقفي من قبلك فنبايعه ام لا ؟

يقول العلامة المجلسي (رض) في كتاب بحار الانوار ان محمد بن الحنفية قال لهؤلاء الرجال قوموا بنا الى امامي وامامكم علي بن الحسين (عليه السلام) فلما دخلوا عليه اخبر خبرهم الذي جاءوا لأجله ، فقال الامام زين العابدين (عليه السلام) : " يا عم لو ان عبداً زنجياً تعصب لنا اهل البيت ، لوجب على الناس مؤازرته ، وقد وليتك هذا الامر ، فاصنع ما شئت " فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون : اذن لنا زين العابدين (عليه السلام) ومحمد ابن الحنفية " (١).

وماذا تعني هذه الاجابة ؟

انهـا تعني ان العبرة ليست بالاشخاص وانما بالمناهج والاهداف والطرق والوسـائل

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٥ ، ص ٣٦٥ .

التي تتبع للوصول الى الاهداف ، بمعنى انه هل كان يهم الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام) ان يكون خليفة مهما ترتب على ذلك، ام كان يهمه ان تسير الدولة الاسلامية على المنهاج الصحيح ؟ وهل كان يهم الامام الحسن (عليه السلام) ان يكون خليفة ولو ادى ذلك الى زوال الدولة الاسلامية ، ام كان يهمه ان تبقى الدولة الاسلامية على وحدتها امام الروم والفرس؟ وكذلك بقية الائمة المعصومين (عليهم السلام) ، ماذا كان يهمهم ؟ وماذا كان الهدف الاساسي في حياتهم ؟ بالطبع لم يكن اشخاصهم .

وانما لأن اشخاص الائمة هم الذين جسدوا المبادئ والبرامج والمناهج الرسالية الصحيحة . وإذا كان تركيزنا على أشخاص الأئمة عليهم السلام فلأننا لا نستطيع ان نفهم البرامج الا من خلال فهمنا للاشخاص الذين جسدوها ، فلا نفهم العدالة الا من خلال علي ، ولا الصلح الا من خلال الحسن ، ولا الشجاعة الا من خلال الحسين ، ولا الزهادة الا من خلال زين العابدين ، لا لأننا نتخذهم اندادا للقيم .

وكان الائمة يعرفون مناهج الاسلام ، ويقيّمون انفسهم على ضوء تلك المناهج، ولا يقيّمونها من خلال انفسهم ، واذا كان هذا الامر صحيحا وهو صحيح فعلا ، فلابد ان نعرف ان الائمة المعصومين (عليهم الصلاة والسلام) كانوا يقودون الامة الاسلامية ويؤيدون تلك الحركات التي تكون نتيجتها صحيحة وسليمة بالنسبة للامة الاسلامية ، ولا يهمهم اشخاصهم .

لقد كان ائمة اهل البيت يعملون لكي تكون الامة الاسلامية اقرب الى المناهج الاسلامية وان لا تحكمها المناهج الباطلة ، والرساليون آنئذ كان يهمهم هذا الجانب ، فالرساليون الحقيقيون لم يكن يهمهم شخص الامام ، بل انهم كانوا يطيعون شخص الامام ويتبعونه لانهم يعرفون انه قد نص عليه من قبل الله ، وما نص الله عليه الا لأنه يتبع البرامج الصحيحة ويريد تطبيق حكم الله .

من هنا ترى ان الامام الصادق (عليه السلام) يؤيد حركة محمد ، ولا يهمه حينها ان محمداً غير جعفر ، وانه ابن عبد الله وجعفر هو ابن محمد الباقر (عليه

السلام) ان المهم حينها عند الامام هو الفكر ، فالامام يضع برنامجه حسب الاهداف الحقيقية .

من هنا نستطيع ان نقيّم التاريخ تقييماً جديداً ، ونفنّد بعض الأراء المحسوبة على الموالين والقائلة بشتم وسب اسماعيل فحقيقة الامر ان اسماعيل مات في زمان الامام الصادق (عليه السلام) ، والاسماعيلية اتبعوا اسماعيل بعد الامام الصادق وليس في ايامه .

يقول العلامة المجلسي (ره) روي ان ابا عبد الله (عليه السلام) جزع عليه جزعا شديداً ، وحزن عليه حزنا عظيما ، وتقدم سريره بغير حذاء ولا رداء ، وامر بوضع سريره على الارض - مراراً كثيرة - . وكان يكشف عن وجهه وينظر اليه، يريد بذلك تحقيق امر وفاته عند الظانين خلافته له من بعده وازالة الشبهة عنه في حياته [1]. وبعدها اورد الروايات التي تبين مدى حب الامام لولده اسماعيل .

ومخالفة الاسماعيلية للامام موسى بن جعفر كانت قضية ثانية ليست مرتبطة بشخص اسماعيل ، ولكن بعض الرساليين يسبون اسماعيل ، لماذا ؟

ان السبب في ذلك هو إدانتهم لاؤلئك الذين خالفوا الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) وذلك بسبّ اسماعيل وهكذا فقد حوّلوا القضية كلها الى قضية شخصية فوقعوا في الخطأ الجسيم .

وترى بعض الناس يتعجبون من الامام الصادق (عليه السلام) كيف انه يترحم على زيد بن علي وابنه يحيى ، ويقولون في قرارة انفسهم ان يحيى لم يقم باذن امام زمانه وقتل وسوف يذهب الى النار ، فكيف يبكي عليه الامام ؟ انهم يجدون في ذلك نوعا من التناقض !

والواقع ليس هناك أي تناقض ، فقد كان الامام الصادق (عليه السلام) يؤيد كل انسان يثور على طاغية زمانه ويسير على جادة المنهاج الصحيح ، فلم يكن

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٤٧ ، ص ٢٤٣ .

يهمه شخصه .

بهذا التقييم نستطيع ان نعرف ونكتشف كثيرا من خفايا التاريخ الاسلامي .

وفي البحوث القادمة سوف نصل الى هذه الحقيقة وهي ان الائمة (عليهم الصلاة والسلام) وخصوصا الامام موسى بن جعفر ، كانوا يؤيدون بعض الحركات والاشخاص ، بحيث يبدو للباحث غير المتعمق ان هذه المواقف تناقض الخط الرسالي للائمة .

حينما توفي الامام الصادق (عليه السلام) وَصّى من بعده لخمسة احدهم ابنه عبد الله المعروف " بالافطح " ، والثاني ابنه موسى (عليه السلام) ، والثالث "محمد بن سليمان" الوالي العباسي على المدينة ، والرابع زوجته " حميدة " والخامس الخليفة " المنصور العباسي " المعروف بالدوانيقي .

كانت التشكيلة غريبة ولكن حين ظهرت الاسباب التي دعت الامام الى ان يجعل اوصياءه هؤلاء الخمسة تبينت الحكمة من ذلك .

فحينما سمع المنصور العباسي بموت جعفر الصادق (عليه السلام) كتب رسالة الى واليه على المدينة محمد بن سليمان جاء فيها :" وان كان اوصى الى رجل بعينه فقدّمه واضرب عنقه " ، فاجابه سليمان : " ان اوصياءه خمسة فأيهم اقتل " ؟

وحينما قرأ المنصور الجواب قال : " ليس الى قتل هؤلاء سبيل " [(١)].

وهكذا استطاع الامام بوصيته الحكيمة ان يحمي الوصي الشرعي له من بطش المنصور ، وقد فطن الرساليون للسر ، فمثلا ، ابو حمزة الثمالي احد قادة الرساليين

---

(١) الكافي ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

في الكوفة ، لمّا سمع نبأ وفاة الامام الصادق (عليه السلام) وهو في ظهر الكوفة عند قبر الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) مع جماعة من اصحابه ، شهق شهقة واغمي عليه فلما افاق قال : هل اوصى الى احد ؟ قال الاعرابي الذي نقل الخبر : نعم اوصى الى ابنه عبد الله وموسى ، وابي جعفر المنصور ، فتبسم ابو حمزة وقال : الحمد لله الذي هدانا الى الهدى وبيّن لنا عن الكبير ودل على الصغير ، واخفى عن امر عظيم . فسئل عن قوله فقال : بيّن عيوب الكبير ودل على الصغير لاضافته ايّاه ، وكتم الوصية للمنصور لانه لو سأل المنصور من الوصي لقيل انت [1].

وبيان ذلك انه لما قرن الامام الصادق (عليه السلام) الكبير وهو عبد الله الذي كان اكبر اولاده ، بعدما توفى اسماعيل ، مع الصغير وهو الامام موسى (عليه السلام) دل على ان الكبير ذو عاهة لا يصلح ان يكون الوصي بعده ، وان الوصي هو موسى الكاظم (عليه السلام) .

وكذلك اخفى الامر على المنصور لانه قد كتبه كأحد الاوصياء . فاذا كانت الامامة لكبير السن ، فان عبد الله هو الامام ، ولا يحتاج الى وصية ولا يمكن ان يجعل الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) وصيه معه وهذا يدل على ان الوصي الحقيقي هو الامام موسى (عليه السلام) .

يقول ابو حمزة الثمالي (رحمة الله عليه) : " واخفى عن امر عظيم " فماذا يعني إخفاء امر عظيم ؟

انه يعني سرا كامنا في وصية الامام جعفر الصادق (عليه السلام) في خمسة بتوزيعها بينهم ، وكذلك يعني نفس السر الذي اراد كشفه المنصور الدوانيقي حينما امر بقتل وصي الامام ، اذا كان قد اوصى الى رجل واحد ، ومعناه ثالثا من الناحية الدينية المذهبية ، ان الامامة في المذهب الرسالي ليست بالسن ولا حتى

---

(١) المناقب لابن شهر اشوب ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ .

بالوراثة ، فهم لم يعتقدوا بالائمة المعصومين (عليهم السلام) لانهم ابناء رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقط . وانما لأنهم اعلم اهل زمانهم وافضلهم واحسنهم خلقا واكملهم صفات وبالتالي اكفأهم لامامة المسلمين . وربما كان ابو حمزة الثمالي يعني بكلمته " واخفى عن امر عظيم " ما كان ينتظره الرساليون من ظهور القائم من آل محمد . لان الامام الصادق (عليه السلام) كان يعد ابنه موسى بن جعفر للقيام بالثورة لتغيير النظام وادارة شؤون المسلمين ، دعنا نوضح المسألة اكثر ..

سبق ان قلنا ان الائمة المعصومين (عليهم السلام) باجمعهم اشتركوا في الاصلاحات السياسية والاقتصادية والدينية والعقائدية اشتراك الموجه والمسير .

الامام الكاظم نموذج متميز

ولكن هناك بعض الائمة تميزت ظروفهم بأنها كانت اقرب الى التغيير السياسي في الامة ، من بينهم الامام الحسين (عليه السلام) . وكذلك الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) حيث كان من المفروض ان يكون هو القائم من آل محمد (صلوات الله عليهم) بامرة المؤمنين ، حتى انه لما قتل وشيعت جنازته ، نادى العباسيون على جثمانه :" هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة انه لا يموت فانظروا اليه ، فنظروا " [1] دلالة على ان الاعتقاد السائد آنذاك كان انه قائم آل محمد وانه لا يموت حتى يملأ الارض قسطاً وعدلا ، ولكن الله اخّر هذا الامر ايضا، فلم يجعل الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) قائماً حيث قتل شهيداً، وكان مقتله بطريقة مأساوية لم يقتل بها احد من الائمة الآخرين ، باستثناء الامام الحسين. فطريقة استشهاد الامام الكاظم وما جرى في حياته بذاته دليل على طبيعة الظروف التي كان يمر بها . فبالرغم من حضور جميع الائمة في ساحة السياسة حيث انه لو اردنا ان ننظر الى الائمة وحياتهم بشكل اجمالي ، لرأينا ان الامام علي

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٥٠٥ .

وان كان جالسا في بيته مدة خمسة وعشرين سنة ، ولكن في الوقت نفسه كان المقرر لاهم الشؤون في الدولة الاسلامية وانه كان يندب لكل مشكلة، وقد اشتهر في اللغة العربية بهذا المثل :" مشكلة ليس لها ابو حسن " كمثل لأي مشكلة يستحال حلّها " ولولا علي لهلك عمر " رددها الخليفة عمر بن الخطاب (١٢٥ مرة) . فالامام كان يراقب بدقة الاحداث السياسية وهكذا سائر الائمة ولكن تميزت شهادة الامام الكاظم (عليه السلام) بالمأساوية فمثلا الامام الحسن (عليه السلام) لم يدخل السجن مرة واحدة ولكنه دسّ اليه السم غدراً ، واغتالوه بهذه الطريقة الجبانة ، وكذلك الامام زين العابدين (عليه السلام) دسّ اليه السم بشكل خداع ، والامام الصادق ، وعلي بن موسى الرضا (عليهم السلام) والائمة الآخرون على هذه الطريقة ، وكان مقتلهم ومدفنهم باعتزاز ولم يسجنوا ولم يهانوا في حياتهم بمثل ما حصل للامام الحسين والامام موسى بن جعفر (عليهم السلام) .

لماذا تميزت حياة هذين الامامين الشهيدين بسمة خاصة هي سمة المأساة او السجن الطويل والقتل والاهانة ؟

لماذا كان ينادى على جثمان الامام الكاظم حسب ما جاء في الزيارة باحتقار واستخفاف ، وكان هذا بمثابة اهانة كبيرة للامام ، فبعد ان اخذ سليمان جثمان الامام قال :

" هذا موسى بن جعفر قد مات ، فانظروا اليه ، فجعل الناس يتفرسون في وجهه وهو ميت [١]".

وروي انه صلوات الله عليه لما أتي بجثمانه الطاهر الى مجلس الشرطة قام اربعة نفر فنادوا :" الا من اراد ان يرى (...) ابن (...) موسى بن جعفر فليخرج " [٢].

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٥٤ .

(٢) بحار الانوار ، ج ٤٨ ، ص ٢٢٧ ، وعيون اخبار الرضا ، ج ١ ، ص ٩٩ .

وكان النداء يحتوي على كلمات مهينة والعياذ بالله من ذلك ، بل قيل انه ترك لمدة ثلاثة ايام على الطريق يأتي فينظر اليه ثم يكتب في المحضر [1].

فلماذا عامل العباسيون الامام موسى بن جعفر (عليهما السلام) بهذه القساوة، كما عامل الأمويون من قبلهم الإمام الحسين (عليه السلام)؟

لقد قام الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، بتدبير خطة للتغيير السياسي في الامة ، ابتداءً من اخفاء الامام الصادق لامامته وانتهاءً بوفاته ، ومرورا بكل الاحداث التي جرت في ايامه . وبالرغم من ان الامر كان يجري في سرية تامة ، الا ان ما روي عن حياة الامام الكاظم يرسم لنا صورة واضحة عن ماهية الاهداف التي كان ينشدها ويسعى لتحقيقها .

روي ان محمد بن اسماعيل لّما حضر عند هارون الرشيد قال له : يا امير المؤمنين ، خليفتان في الارض ، موسى بن جعفر في المدينة يجبى له الخراج ، وانت في العراق يجبى لك الخراج ؟

فقال : والله ا؟ ، فقال : والله .

وروي ايضا : لم يكن موسى بن جعفر (عليه السلام) ممن يجمع المال ولكنه قد حصل في وقت الرشيد وكثر اعداؤه ، ولم يقدر على تفريق ما كان يجتمع إلاّ على القليل ممن يثق بهم في كتمان السر ، فاجتمعت الاموال لاجل ذلك واراد ان لا يحقق على نفسه قول من كان يسعى به الى الرشيد ويقول : انه تحمل اليه الاموال وتعقد له الامامة ويحمل على الخروج عليه ، ولولا ذلك لفرق ما اجتمع من هذه الاموال .

وروي انه اجتمع جماعة من الشيعة في نيسابور واختاروا محمد بن علي النيسابوري فدفعوا اليه ثلاثين الف دينارا وخمسين الف درهما وشقة من الثياب ، واتت امرأة تدعى شطيطة بدرهم صحيح وشقة خام من غزل يدها تساوي اربعة

---

(١) عمدة الطالب ص ١٨٥ .

دراهم فقالت : ان الله لا يستحي من الحق ، ثم جاءوا بجزء فيه مماثل ملء سبعين ورقة في كل ورقة مسألة وباقي الورقة بياض ليكتب الامام الكاظم لهم الجواب تحتها ، وقد حزمت كل ورقتين بثلاث حزم وختم عليها بثلاث خواتيم على كل حزام خاتم وقالوا : ادفع الى الامام ليلة وخذ منه في غد [1] .

الحركة الرسالية دولة داخل دولة

لقد وصلت الحركة الرسالية في عهد الامام الكاظم (عليه السلام) الى درجة كبيرة من القوة ، واصبحت تشكل معها دولة داخل دولة ، حتى ان كثيراً من اعوان هارون الرشيد ووزرائه كانوا ينتمون إلى تلك الحركة ، وكان كل ذلك يجري وفق تنظيم دقيق وسرية تامة .

يقول علي ابن يقطين الذي كان بمثابة وزير لهارون الرشيد :

كنت واقفا عند هارون الرشيد اذ جاءته هدايا ملك الروم وكان فيها دراعة ديباج سوداء منسوجة بالذهب لم أر احسن منها فرآني انظر اليها ، فوهبها لي ، وبعثتها الى ابي ابراهيم (عليه السلام) (يعني موسى بن جعفر) ومضت عليها برهة تسعة اشهر وانصرفت من عند هارون بعد ان تغديت بين يديه ، فلما دخلت داري قام اليّ خادمي الذي يأخذ ثيابي بمنديل على يده ، وكتاب لطيف ختمه رطب ، فقال : اتاني بهذا رجل الساعة فقال : اوصله الى مولاك ساعة يدخل ، ففضضت الكتاب واذا به كتاب مولاي ابي ابراهيم (عليه السلام) وفيه :" يا علي هذا وقت حاجتك الى الدراعة ، وقد بعثت بها اليك " فكشفت طرف المنديل عنها ورأيتها وعرفتها ، ودخل عليّ خادم هارون الرشيد بغير اذن فقال : اجب امير المؤمنين قلت: أي شيء حدث ؟ فقال : ما فعلت بالدراعة التي وهبتك، قلت: خلع امير المؤمنين عليّ كثيرة من الدراريع وغيرها ، فعن أيّها يسألني؟ قال: دراعة الديباج السوداء الرومية المذهبة ، فقلت : ما عسى ان اصنع بها البسها في

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٨ ، ص ٧٣ .

اوقات وأصلي فيها ركعات ، وقد كنت دعوت بها عند منصرفي من دار امير المؤمنين الساعة لألبسها ، فنظر الى عمر بن بزيع فقال : قل له يحضرها فارسلت خادمي فجاء بها فلما رآها قال : يا عمر ما ينبغي ان تنقل على علي بعد هذا شيئا قال : فأمر لي بخمسين الف درهم حملت مع الدراعة الى داري ، قال علي بن يقطين : وكان الساعي ابن عم لي فسود الله وجهه وكذبه والحمد لله (١).

سعي السلطات العباسية لكشف الحركة الرسالية

لما كانت الحركة الرسالية على مدى واسع من الانتشار ، وكان التغلغل الرسالي داخل الدولة وسيعاً ، لم تبرح السلطات العباسية من التجسس وبث العيون ومراقبة الوزراء .

ولكي تتمكن السلطات العباسية من الحصول على المعلومات فقد بذلت من اجل ذلك الكثير من الاموال لشراء الذمم حتى ذمم بعض العلويين .

فقد روي ان يحيى بن خالد قال ليحيى بن ابي مريم : الا تدلني على رجل من آل ابي طالب له رغبة في الدنيا ، فاوسع له منها ؟ قال : بلى ، أدلك على رجل بهذه الصفة وهو علي بن اسماعيل بن جعفر بن محمد فارسل اليه يحيى فقال : اخبرني عن عمك وعن شيعته والمال الذي يحمل اليه ، فقال له : عندي الخبر فسعى بعمه .

ولما ايقنت السلطات العباسية بخطورة الاهداف التي كانت الحركة الرسالية بقيادة الامام الكاظم (عليه السلام) تسعى الى تحقيقها ، ولكنها في نفس الوقت لم تكن تتمكن من كشف مخططات الحركة الرسالية ، الامر الذي فكرت السلطات العباسية معه بضرب رأس الحركة مهما كلفها الامر ، فعمدت الى سجن الامام الكاظم الذي سجن اغلب ايام حياته .

---

(١) المصدر ، ص ٥٩ ، نقلا من كتاب الخراج والجرائح ، ص ٢٠٣ .

الا ان امر الحركة لم يضعف بالشكل الذي كانت تتمناه السلطات ، فقد كان الامام وعبر الرساليين داخل جهاز السلطة ، يقود الحركة ويدير اعمالها وهو في السجن ، الامر الذي جعل السلطات في حالة هستريا قررت معها تصفية الامام جسدياً .

ان استمرار وتصاعد الحركة الرسالية ، كان يهدد الدولة العباسية يوماً بعد يوم. وكيف لا يحدث ذلك الارتعاش عند الخلفاء العباسيين وهم يعرفون ان الحركة الرسالية هي امتداد للرسالة المحمدية ، واستمرار لما اتى به الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله) بل هم يعرفون ان الحركة كان لا ينقصها الاموال ، فالرساليون يدفعون الخمس والزكاة للامام المفترض الطاعة بامر الله عز وجل .

ومن الناحية العسكرية فهم يعرفون ان كل رسالي متى ما امره امامه بالخروج ، فانه لا يفتأ يطيع امامه . روي عن يونس بن عبد الرحمن قال : قال يحيى بن خالد البرمكي لهارون : يا امير المؤمنين اني قد استنبطت امر هشام (يقصد هشام بن الحكم) فاذا هو يزعم ان لله في ارضه اماماً غيرك مفروض الطاعة ، قال هارون : سبحان الله !! قال يحيى بن خالد : نعم ، ويزعم انه لو امره بالخروج لخرج ، وانما كنا نرى انه ممن يرى الالباد بالارض .

فقال هارون ليحيى : فاجمع عندك المتكلمين ، واكون انا من وراء الستر بيني وبينهم لئلا يفطنوا بي ، ولا يمتنع كل واحد منهم ان يأتي بأصله لهيبتي ، قال : فوجّه يحيى فأشحن المجلس من المتكلمين فتساءلوا وتناظروا وتقاطعوا وتناهوا الى مشادة الكلام ، كل يقول لصاحبه : لم تجب ، ويقول : قد اجبت وكان ذلك حيلة من قبل يحيى على هشام ، اذ لم يعلم بذلك المجلس ، وغاب عنه لعلّة في جسمه . فلما تناهوا الى هذا الموضع ، قال لهم يحيى بن خالد : اترضون فيما بينكم هشاما حكما ؟ قالوا : قد رضينا ايها الوزير ، فأتي لنا به وكان عليلاً ، فقال يحيى فانا اوجه اليه فادعوه ان يتجشم المشي ، فوجه اليه فاخبره بحضورهم وانه انما منعه

ان يدعوه اول المجلس ابقاءً عليه من العلة ، وان القوم قد اختلفوا في المسائل والاجوبة ، وتراضوا بك حكما بينهم فان رأيت ان تحمل على نفسك فافعل .

فلما صار الرسول الى هشام قال لي : يا يونس قلبي ينكر هذا القول ولست آمن ان يكون ههنا امر لا اقف عليه ، لأن هذا الملعون يحيى بن خالد قد تغيّر عليَ لأمور شتى ، وقد كنت عزمت ان منّ الله عليّ بالخروج من هذه العلة ، ان اشخص الى الكوفة ، واحرم الكلام بتّة والزم المسجد ليقطع عنّي مشاهدة هذا الملعون - يحيى بن خالد - قال : جعلت فداك لا يكون إلاّ خيراً ، فتحرز ما امكنك فقال لي : يا يونس اترى المتحرز عن أمر يريد الله اظهاره على لساني انّى يكون ذلك ، ولكن قم بنا على حول الله وقوته .

فركب هشام بغلاً كان مع رسوله ، وركبت انا حماراً كان لهشام قال : فدخلنا المجلس فاذا هو مشحون بالمتكلمين ، قال : فمضى هشام نحو يحيى فسلّم عليه وسلّم على القوم وجلس قريباً منه ، وجلست انا حيث انتهى بي المجلس . فحكم هشام بينهم ، ثم قال يحيى بن خالد لهشام : انّا قد اعرضنا عن المناظرة والمجادلة منذ اليوم ولكن ان رأيت ان تبين عن فساد اختيار الناس الامام وان الامامة في آل بيت الرسول دون غيرهم ؟

قال هشام : ايها الوزير العلة تقطعني عن ذلك ولعل معترضا يعترض ، فيكتسب المناظرة والخصومة قال : ان اعترض معترض قبل ان تبلغ مرادك وغرضك فليس ذلك له بل عليه ان يحفظ المواضع التي له فيها مطعن، فيقفها الى فراغك ولا يقطع عليك كلامك ، فبدأ هشام (اطال الحديث واختصرنا منه موضع الحاجة) فلما فرغ مما قد ابتدأ فيه من الكلام ، في فساد اختيار الناس الامام ، قال يحيى لسليمان ابن جرير : سل ابا محمد عن شيء ، من هذا الباب ؟ قال سليمان لهشام : اخبرني عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) ، امفروض الطاعة ؟ فقال : هشام : نعم قال: فان امرك الذي بعده بالخروج بالسيف معه تفعل وتطيعه؟ فقال هشام : لا يأمرني قال : ولم اذا كانت طاعته مفروضة عليك ،

وعليك ان تطيعه ؟

فقال هشام : عدّ عن هذا ، فقد تبين فيه الجواب ، قال سليمان: فلم يامرك في حال تطيعه وفي حال لا تطيعه ؟

فقال هشام : ويحك لم اقل لك انّي لا اطيعه فتقول : ان طاعته مفروضة . انّما قلت لا يأمرني . فقال سليمان : ليس اسألك الا على سبيل سلطان الجدل ، ليس على الواجب انه يأمرك . فقال هشام كم تحول حول الحمى ، هل هو الا ان اقول لك ان امرني فعلت، فتنقطع اقبح الانقطاع ولا يكون عندك زيادة ، وانا اعلم بما يجب قولي ، وما اليه يؤول جوابي .

قال : فتغير وجه هارون ثم عضّ على شفتيه وقال : مثل هذا حي ويبقى لي ملكي ساعة واحدة !! فوالله للسان هذا أبلغ في قلوب الناس من مائة الف سيف .

وقام الناس واغتنمها هشام فخرج على وجهه الى المدائن ، قال : فبلغنا ان هـــارون قال ليحيى : شدّ يــدك بهذا واصحابه ، وبعث الى ابي الحسن موســى (عليه السلام) فحبسه فكان هذا سبب حبسه مع غيره من الاسباب (١).

ومع ان هارون لم يكن يحتاج الى معرفة هشام بن الحكم لكي يسجن الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) بقدر ما كان يحتاج الى المعلومات عن الحركة الرسالية ، فالسلطات كانت في حالة هستريا ، وكانت متحيرة ماذا تفعل فهي تخشى من ردة الفعل ان قتلت الامام الا انها لم تجد خيارا آخر .

روى انه لما جيء بجثمان الامام (عليه السلام) الى مجلس الشرطة ونودي بذلك النداء الشنيع ، خرج سليمان بن ابي جعفر من قصره الى الشط فسمع الصياح والضوضاء فقال لولده وغلمانه : ما هذا ؟ قالوا : السندي بن شاهك ينادي على موسى بن جعفر وهو على نعش ، فقال لولده وغلمانه : يوشك ان يفعــل هذا به في الجانب الغربي ، فاذا عبر به فانزلوا مع غلمانكـم ، فخذوه مــــن

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٨ ، ص ١٨٩ .

ليستفحص عن حالها فرآها ساجدة لربها لا ترفع رأسها تقول : قدوس سبحانك

فلما عبروا به نزلوا اليهم فأخذوه من ايديهم وضربوهم وخرقوا عليهم سوادهم ووضعوه في مفرق اربعة طرق وأقام المنادون ينادون الا من اراد الطيب ابن الطيب موسى بن جعفر فليخرج ، وحضر الخلق ، وغسّل وحنّط بحنوط فاخر ، وكفنه بكفن فيه حبرة استعملت له بألفين وخمسمائة دينار ، عليها القرآن كله واحتفى ومشى في جنازته متسلبا مشقوق الجيب الى مقابر قريش ، حيث دفن (عليه السلام) هناك . وكتب بخبره الى الرشيد فكتب الى سليمان بن ابي جعفر : وصلت رحمك يا عمّ ، واحسن الله جزاك والله ما فعل السندي بن شاهك لعنه الله ما فعله عن امرنا " (١).

وهذا موقف ضعف يبين مدى الخوف الذي كانت فيه الدولة حيث لم تبد أي فعل تجاه هذا الحدث .

وروي ايضا ان ا لامام لما اعتقل وهو قائم يصلي عند رأس النبي (صلى الله عليه وآله) وحمل الى هارون كان يقول :

" اليك اشكو يا رسول الله ما القى، واقبل الناس من كل جانب يبكون ويضجون ، فلما حمل الى بين يدي الرشيد شتمه وجفاه ، فلما جنّ عليه الليل امر ببيتين فهيئا له فحمل موسى بن جعفر (عليه السلام) الى احدهما في خفاء ، ودفعه الى حسان السروي وامره ان يصير في قبة الى البصرة فيسلمه الى عيسى بن جعفر بن ابي جعفر ، وهو اميرها ووجه قبة اخرى علانية نهاراً الى الكوفة معها جماعة ليعمّي على الناس امر موسى بن جعفر (عليه السلام) ، فحبسه عيسى في بيت من بيوت المحبس الذي كان يحبس فيه ، واقفل عليه وشغله عن العيد فكان لا يفتح عنه الباب الا في حالتين حال يخرج فيها الى الطهورة ، وحال يدخل اليه فيه الطعام (٢).

---

(١) المصدر ، ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر ، ص ٢٢١ .

لقد كانت السلطات العباسية على وجل شديد من رد فعل جماهيري وهل اكتفت بهذه الاحتياطات ؟ بالطبع لا .

فقد روي عن محمد بن صدقة العنبري قال : لما توفي أبو ابراهيم موسى بن جعفر (عليه السلام) ، جمع هارون الرشيد شيوخ الطالبية وبني العباس وسائر اهل المملكة والحكام واحضر ابا ابراهيم موسى بن جعفر (عليه السلام) فقال : هذا موسى بن جعفر قد مات حتف انفه وما كان بيني وبينه ما استغفر الله منه في امره (يعني في قتله) فانظروا إليه . فدخل عليه سبعون رجلاً من شيعته فنظروا الى الامام (عليه السلام) وليس به اثر جراحة ولا خنق ، وكان في رجله اثر الحنــــاء [1].

هارون الرشيد الذي يرأس مملكة لا تغيب عنها الشمس ، يحضر كل وجهاء المجتمع وزعمائه ، ويجعل نفسه في منصة المتهم ويحاول ان يبرئ نفسه ، فكيف يحدث منه هذا لولا خشية رد الفعل الذي قد يقلب عليه حكمه .

حياة الامام الكاظم (عليه السلام) في السجن

روي عن علي بن ابراهيم عن احمد بن عبد الله القروي عن أبيه قال : دخلت على الفضل بن الربيع وهو جالس على سطح فقال لي : اشرف على هذا البيت وانظر ما ترى ؟ فقلت : ثوبا مطروحا فقال : انظر حسنا فتأملت فقلت : رجل ساجد فقال لي تعرفه ؟ هو موسى بن جعفر ، اتفقده الليل والنهار فلم اجده في وقت من الاوقات الا على هذه الحالة . انه يصلي الفجر فيعقب الى ان تطلع الشمس ، ثم يسجد سجدة ، فلا يزال ساجدا حتى تزول الشمس . وقد وكّل من يترصد اوقات الصلاة ، فاذا اخبره وثب يصلي من غير تجديد وضوء ، وهو دأبه فاذا على العتمة افطر ، ثم يجدد الوضوء ثم يسجد فلا يزال يصلي في جوف الليل حتــى يطلع الفجر ، وقال بعض عيونه ، كنت اسمعه كثيرا يقــول في دعـــائــه :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ .

" اللهم انك تعلم انني كنت اسألك ان تفرغني لعبادتك ، اللهم وقد فعلت فلك الحمد " [1].

فهذا هو الامام في عبادته ، وهذا هو الامام في شجاعته ، وقاطعية عزيمته . وحينما يأتيه الفضل بن الربيع ويقول له : إستعد للعقوبة يا ابا ابراهيم رحمك الله ، يقول (عليه السلام) : " أليس معي من يملك الدنيا والآخرة ، ولن يقدر اليوم على سوء بي إن شاء الله " .

وهو نفسه الامام حينما ذاعت الاسرار وادخل على هارون فقال : ما هذه الدار ؟ فقال الامام : " هذه دار الفاسقين " . قال الله تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لاَّيُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (الاعراف/١٤٦) .

فقال هارون : فدار من هي ؟ قال : " هي لشيعتنا فترة ولغيرهم فتنة " قال : فما بال صاحب الدار لا ياخذها ؟ فقال : " اخذت منه عامرة ولا يأخذها الا معمورة " قال فأين شيعتك ؟ فقرأ ابو الحسن (عليه السلام) ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (البينة/ ١) فغضب عند ذلك وغلظ عليه " .

وهو الامام نفسه الذي يشرف على مجريات الامور والتغيرات في الامة الاسلامية حتى ان جعفر بن محمد بن الاشعث احد وزراء هارون كان من شيعة الامام ، فقد روي ان يحيى بن خالد البرمكي قال للرشيد : يا امير المؤمنين قد كنت اُخبرك عن جعفر ومذهبه فتكذّب عنه ، وهنا امر فيه الفيصل قال : وما هو؟ قال : انه لا يصل اليه مال من جهة من الجهات الا اخرج خمسه فوجه به الى موسى بن جعفر ، ولست اشك انه قد فعل ذلك في العشرين الف دينار التي امرت بها له ، فقال

(١) بحار الانوار ، ج ٤٨ ، ص ٢١٠ .

هارون : ان في هذا لفيصلا ، فأرسل الى جعفر ليلاً ، فلما طرق جعفر رسول الرشيد بالليل خشي ان يكون قد سمع فيه قول يحيى وانه انما دعاه ليقتله ، فأفاض عليه ماء ودعا بمسك وكافور فتحنط بهما ولبس بردة فوق ثيابه واقبل الى الرشيد، فلما وقعت عليه عينه وشمّ رائحة الكافور ، ورأى البردة عليه قال : يا جعفر ! ما هذا ؟ فقال : يا امير المؤمنين قد علمت انه قد سُعيَ بي عندك فلما جاء رسولك في هذه الساعة لم آمن ان يكون قد قرح في قلبك ما يقال عليّ فأرسلت اليّ لتقتلني، فقال : كلا .. ولكن قد أُخبِرت انك تبعث الى موسى بن جعفر من كل ما يصير اليك بخمسه ، وانك قد فعلت ذلك في العشرين ألف دينار ، فأحببت ان اعلم ذلك ، فقال : جعفر : الله اكبر يا أمير المؤمنيـن ، مر بعض خدمك يذهب فيأتيك بها بخواتيمها ، فقال الرشيد لخادم له : خذ خادم جعفر وانطلق به حتى تاتيني بهذا المال ، وسمّى له جعفر جاريته التي عندها المال فدفعت اليه البدر بخواتيمها ، فأتى بها الى الرشيد ، فقال له جعفر : هذا اول ما تعرف به كذب من سعى بي اليك ، قال صدقت ياجعفر انصرف آمنا فاني لا اقبل فيك قول احد [1].

فالذي يكون في مثل هذا المقام الكريم والنشاط المذهل كيف لا يخاف هارون العباسي منه على عرشه ، هارون الذي لم يدخر وسيلة الا واستعملها ضد الامام .

فقد روي ان هارون العباسي انفذ الى موسى بن جعفر (عليه السلام) جارية خصيصة ، لها جمال ووضاءة لتخدمه في السجن ، فقال الامام لمن اتى بها : قل له ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (النمل/٣٦)

لا حاجة لي في هذه ولا في امثالها ، قال الراوي : فاستطار هارون غضبا وقال: ارجع اليه وقل له : ليس برضاك حبسناك ولا برضاك اخذناك واترك الجارية عنده وانصرف ، قال فمضى ورجع ثم قام هارون من مجلسه وانفذ الخادم اليه

---

(١) المصدر ، ص ٢٠٨ .

ليستفحص عن حالها فرآها ساجدة لربها لا ترفع رأسها تقول : قدوس سبحانك سبحانك ، وتستغفر الله . فقـال هـارون : سحرها والله موسى بن جعفر بسحره [١].

ولم يشف هارون غليله من الامام بكل هذه الالوان من العذاب ، حتى انه بنفسه صعد سطحا يشرف منه على الحبس الذي فيه ابو الحسن فكان يرى ابا الحسن (عليه السلام) ساجدا فقال للربيع : ماذاك الثوب الذي اراه كل يوم في ذلك الموضع ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما ذاك بثوب وانما هو موسى بن جعفر ، له كل يوم سجدة بعد طلوع الشمس الى وقت الزوال ، قال الربيع : فقال هارون : اما ان هذا من رهبان بني هاشم قلت : فما لك قد ضيقت عليه في الحبس ؟! قال : هيهات لابد من ذلك [٢].

وكيف لا يكون لهذا الطاغية هذا القلب القاسي البعيد عن الانسانية ؟ ان نعيم الملك الذي هو فيه جعله في درك الضلال . ومع كل ذلك الطغيان ، كان الخوف يساور النظام العباسي بأكمله ، وروي عن يونس بن عبد الرحمن قال : حضر الحسين بن علي الرواسي جنازة ابي ابراهيم (عليه السلام) فلما وضع على شفير القبر ، اذا رسول السندي بن شاهك قد أتى أبا المضا خليفته ، وكان مع الجنازة وامره ان يكشف وجهه للناس قبل ان تدفنه حتى يروه صحيحا لم يحدث به حدث ، قال : فكشف عن وجه مولاي حتى رأيته وعرفته ثم غطى وجهه وأُدخل قبره (عليه السلام) ، وحتى ان يحيى بن خالد قال لهارون يوما : الذي اراه لك يا امير المؤمنين ان تمتن عليه ، وتصل رحمه فقد والله افسد علينا شيعتنا ، وكان يحيى يتولاه وهارون لا يعلم ذلك ، فقال هارون انطلق اليه واطلق عنه الحديد وابلغه عني السلام وقل له : يقول لك ابن عمك انه قد سبق مني فيك يمين اني لا اخليك حتى تقر لي بالاساءة وتسألني العفو عما سلف منك ، وليس عليك في اقرارك عار

---

(١) المصدر ، ص ٢٣٨ .

(٢) المصدر ، ص ٢٢١ .

ولا في مسألتك اياي منقصة ، وهذا يحيى بن خالد ثقتي ووزيري وصاحب امري فسله بقدر ما اخرج من يميني وانصرف راشداً (١).

فهم لم يدخروا ارهاباً وتعذيباً ، ومساومة ، واغراء ، وكل ما في يدهم ان يعملوه ولكن هل يتوقع من جبل ان يتحرك عن موقعه ؟ كلا ..

ان حياة الامام يعجز القلم عن ذكر يومياتها المثيرة ووقائعها المجيدة ، ولكن تبقى كلمة لابد من قولها ، وكم قبلت هذه الكلمة : " ان الله يعلم حيث يضع رسالته " فعن بشار مولى السندي بن شاهك ، قال : كنت من اشد الناس بغضا لآل ابي طالب ، فدعاني السندي بن شاهك يوما فقال لي : يا بشار اني اريد ان ائتمنك على ما ائتمني عليه هارون ، قلت : اذن لا ابقي فيه غاية فقال : هذا موسى بن جعفر قد دفعه اليّ ، وقد وكلتك بحفظه ، فاجعله في دار دون حرمة . ووكلني عليه فكنت اقفل عليه عدة اقفال ، فاذا مضيت في حاجة وكّلت امرأتي بالباب ، فلا تفارقه حتى ارجع ، قال بشار : فحوّل الله ما كان في قلبي من البغض حباً " .

فهذه رشفة من حياة الامام المليئة بالعمل الدؤوب والجهاد المتواصل في سبيل الله عز وجل .

الرساليون في عهد الامام الكاظم (عليه السلام)

كان الرساليون في فترة امامة موسى بن جعفر (عليه السلام) في اشد اوقاتهم تقية ، ولم يمر الرساليون في اوقات وظروف شديدة كتلك الا في ايام معاوية بعد مقتل الحسن (عليه السلام) وانتقال السلطات الظاهرية الى معاوية .

لقد كانوا حينها لا يستطيعون ان يذكروا اسم الامام فكانوا يقولون : قال العبد الصالح وهذا من القاب الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، لذلك نرى اكثر الروايات التي عن الامام موسى الكاظم (عليه السلام) ترد بالقاب العبد الصالح ،

---

(١) المصدر ، ص ٢٣٠ .

والعالم وامثالهما وكان الرساليون عندما يأتون بكلام للامام يقولون : قال الصابر او قال الامين ، او قال الزاهد ، او قال ابو ابراهيم او قال الرجل .

وحتى بعد رحيل الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) والتزام الرساليين بالتقية فانهم كانوا يسمونه (الماضي) او (الراحل) .

روي عن عبد الله البزاز النيسابوري قال : كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة ، فرحلت اليه في بعض الايام فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعليّ ثياب السفر لم اغيرها ، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر ، فلما دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه الماء فسلمت عليه وجلست ، فأتى بطشت وابريق فغسل يديه ثم امرني فغسلت يدي واحضرت المائدة وذهب عنيّ أنّي صائم واني في شهر رمضان ، ثم ذكرت فأمسكت يدي فقال لي حميد : مالك لا تأكل؟ فقلت : ايها الامير هذا شهر رمضان ، ولست بمريض ولا بي علة توجب الافطار ، ولعل الامير له عذر في ذلك او علة توجب الافطار ، فقال : ما بي علة توجب الافطار واني لصحيح البدن ، ثم دمعت عيناه وبكى فقلت له بعد ما فرغ من طعامه : ما يبكيك ايها الامير ؟ فقال : انفذ اليّ هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل ان اجب ، فلما دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتقد وسيفاً اخضر مسلولاً وبين يديه خادم واقف فلما قمت بين يديه رفع رأسه اليّ فقال : كيف طاعتك لامير المؤمنين ؟ فقلت : بالنفس والمال ! فأطرق ثم اذن لي بالانصراف .

فلم البث في منزلي حتى عاد الرسول اليّ وقال : اجب امير المؤمنين ، فقلت في نفسي: إنّا لله ، أخاف ان يكون قد عزم على قتلي وانه لما رآني استحى مني، فعدت الى بين يديه فرفع رأسه فقال : كيف طاعتك لامير المؤمنين ؟ فقلت : بالنفس والمال والاهل والولد ، فتبسم ضاحكا ، ثم اذن لي في الانصراف .

فلما دخلت منزلي لم البث ان عاد الرسول اليّ فقال : اجب امير المؤمنين ، فحضرت بين يديه وهو على حاله ، فرفع رأسه اليّ فقال : كيف طاعتك لأمير

المؤمنين ؟ فقلت : بالنفس والمال والاهل والولد والدين . فضحك ثم قال لي : خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم .

قال : فناول الخادم السيف وناولني اياه ، وجاء بي الى بيت فاذا به بئر في وسطه، وثلاث بيوت ابوابها مغلقة ففتح باب بيت منها فاذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشبان ، مقيدون . فقال لي : ان امير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء ، وكانوا كلهم علوية من ولد علي وفاطمة (عليهم السلام) فجعل يخرج اليّ واحدا بعد واحد فأضرب عنقه ، حتى اتيت على آخرهم ثم رمى بأجسامهم ورؤوسهم في تلك البئر .

ثم فتح باب بيت آخر ، فاذا فيه ايضا عشرون نفسا من العلوية من ولد علي وفاطمة (عليهم السلام) مقيدين فقال لي : ان امير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء فجعل يخرج اليّ واحدا واحداً فأضرب عنقه ويرمى به في تلك البئر ، حتى اتيت على آخرهم ، ثم فتح باب البيت الثالث فاذا فيه مثلهم عشرون نفسا من ولد علي وفاطمة (عليهم السلام) مقيدين عليهم الشعور والذوائب فقال لي : ان امير المؤمنين يأمرك ان تقتل هؤلاء ايضا ، فجعل يخرج اليّ واحدا بعد واحد فأضرب عنقه ، فيرمي به في تلك البئر ، حتى أتيت على تسعة عشر نفسا منهم وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي : تبا لك يا مشؤوم ! أي عذر لك يوم القيامة اذا قدمت على جدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وقد قتلت من اولاده ستين نفساً قد ولدهم علي وفاطمة (عليهم السلام) فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي ، فنظر اليّ الخادم مغضباً وزبرني فأتيت على ذلك الشيخ ايضا فقتلته ورمى به في تلك البئر فاذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فما ينفعني صومي وصلاتي وانا لا اشك أنّي مخلد في النار[1].

ولــذلك حينما يأتي الفقهاء الى الروايات المنقولة عن الامام موســى بن جعفــر

---

(١) المصدر ، ١٧٨ وعيون اخبار الرضا ، ج ١ ، ص ١٠٨ .

(عليه السلام) فانهم يفسرونها بالتقية فيما اذا عارضت الروايات الاخرى ، اسرع مما يفسرون سائر الروايات المنقولة عن بقية الائمة المعصومين (عليهم السلام) ، ويرجعون سبب ذلك الى ان عهده تميز بشدة التقية .

فقد روي عن صالح بن واقد الطبري قال : دخلت على موسى بن جعفر (عليه السلام) فقال : " يا صالح انه يدعوك الطاغية - يعني هارون الرشيد - فيحبسك في محبسه ويسألك عني فقل اني لا اعرفه .

قال صالح : فدعاني هارون من طبرستان فقال : ما فعل موسى بن جعفر فقد بلغني انه كان عندك ؟ فقلت : وما يدريني من موسى بن جعفر ؟ انت يا امير المؤمنين اعرف به وبمكانه ، فقال : اذهبوا به الى الحبس [1].

روي عن ابي حمزة الثمالي قال : قلت لابي جعفر (عليه السلام) ان علياً (عليه السلام) كان يقول : " الى السبعين بلاء ، وكان يقول : بعد البلاء رخاء " وقد مضت السبعون و لم نر رخاء ، فقال ابو جعفر (عليه السلام) : " يا ثابت ان الله تعالى قد وقّت هذا الامر في السبعين ، فلما قتل الحسين اشتد غضب الله على اهل الارض فأخره الى اربعين ومائة سنة ، فحدثناكم فأذعتم الحديث وكشفتم قناع السر ، فأخره الله و لم يجعل له بعد ذلك وقتا عندنا ، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب " قال ابو حمزة : وقلت ذلك لابي عبد الله (عليه السلام) فقال: " قد كان ذلك " .

وهناك رواية عن داود الرقي قال : قلت لابي الحسن الرضا (عليه السلام) جعلت فداك انه والله ما يلج في صدري من امرك شيء الا حديثاً سمعته من ذريح يرويه عن ابي جعفر (عليه السلام) قال لي : " ما هو " قلت سمعته يقول : " سابعنا قائمنا ان شاء الله " قال : " صدقت وصدق ذريح وصدق ابو جعفر (عليه السلام) " فازددت والله شكا ، ثم قال لي : " يا داود بن ابي كلدة : اما والله لولا ان موسى قال للعالم

---

(١) المصدر ، ص ٦٧ .

(ستجدني ان شاء الله صابراً) ما سأله عن شيء وكذلك ابو جعفر (عليه السلام) لولا ان قال ان شاء الله لكان كما قال ، فقطعت عليه" [1].

لقد بدأ الرساليون في ذلك الظرف يتناقلون الكلام ، الى درجة انه شاع وفشى فبلغ السلطات ذلك ، فاعتقلت مجموعت من الرساليين وسجنت الامام (عليه السلام) وقتلته بعد ذلك .

وكان الكاظم بين ان يتحمل خطأ الرساليين ويسجن شخصياً ، وبين ان يدعهم يتحملون الخطأ ، وهذا يعني ان الألاف سوف يذهبون ضحية بسيف السلطات العباسية ، ولكن الامام فدى شيعته بنفسه ، تفانياً منه في سبيل المبدأ وشيعته واستمرار الرسالة .

فبينما نرى في الكثير من الاوقات ان الرؤساء يتنازلون عن اتباعهم ويتركونهم يُقتَلون ، وينزوون جانباً متبرئين منهم ، نرى ان الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) بقي مع اتباعه وهو الذي قُتِل .

وهنا عندما ننظر الى موقف الامام (عليه السلام) لابد ان نمتلئ اكباراً واجلالاً له ، بالرغم من فداحة الخطأ الذي كشف امر الحركة وعزمها على القيام والثورة ضد السلطة العباسية فقد كان من الممكن للرساليين ان يقوموا بالسيف ، لو انهم طبقوا كل التعاليم ، ولكنهم لم يكونوا حينها صالحين لاستلام الحكم وكان من الواجب ان يتحملوا نتائج وتبعات افشاء السر .

كانت هذه لمحات من حياة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) الوصي بعد والده الامام جعفر الصادق (عليه السلام) .

استقامة اسماعيل بن الامام الصادق (عليه السلام)

كانت حياة اسماعيل منذ البداية حياة معينة تميزت بقيامه بتربية العديد من

---

(١) المصدر ، ص ٢٦٠ .

الكوادر الرسالية في غير مكان من الاماكن التي كان يتنقل بينها . وهنا نتساءل عن مصير تلك المجموعة التي كونها اسماعيل بن الامام جعفر الصادق ونظم علاقاتهم وجعلهم على شكل خلايا ، وارسل الدعاة هنا وهناك ؟

وقبل ذلك علينا ان نشير الى ان استقامة اسماعيل هو امر مسلم به بالرغم من وجود بعض الآراء التي ترى خلاف ذلك .

ولكن الرأي الاقوى يقول : بان اسماعيل كان رجلا مؤمنا صادقا صالحا ، ذلك لان الامام الصادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، وانه حينما يتوفى ابنه يجزع عليه جزعاً شديداً ، ويبكي عليه بكاء مراً ، ويقبل جبهته وذقنه ونحره ويمشي وراء جنازته ، وكلما مشت الجنازة خطوات يامر المشيعين بالتوقف وطرحها على الارض ، ويأمر بفتح الكفن ، فيفتح له حتى الرقبة فينظر إليه ويأمر الناس بالنظر اليه ، ويامرهم بربط الكفن مرة اخرى .. وهكذا استمر الامر به مرات خلال مسافة من بيت الامام الى البقيع .

عن عمار بن حيان قال : اخبرني ابو عبد الله (عليه السلام) ببر ابنه له وقال : " كنت احبه وقد ازداد اليّ حباً ".

اما الروايات التي نقرأها عن تأكيد الامام الصادق (عليه السلام) على وفاة ابنه الاكبر اسماعيل، ليست الا لقطع الطريق على من سيذهب بغيبته وان الامامة له بعد ابيه.

جاء في الرواية عن زرارة بن أعين قال : دعا الصادق (عليه السلام) داود بن كثير الرقي ، وحمران بن أعين وابا بصير ودخل عليه المفضل بن عمر واتى بجماعة حتى صاروا ثلاثين رجلا فقال :

" يا داود اكشف عن وجه اسماعيل فكشف عن وجهه ، فقال : تأمله يا داود فانظره احيّ هو ام ميت " ؟ فقال : بل هو ميت فجعل يعرضه على رجل رجل حتى اتى على آخرهم فقال (عليه السلام) : اللهم اشهد ثم أمر بغسله وتجهيزه ثم قال : يا مفضل احسر عن وجهه فحسر عن وجهه فقال : احيّ هو ام ميت ؟ انظـروه اجمعكم ! فقال : بل هو يا سيدي ميت فقال : شهدتم بذلك وتحققتموه؟

قالوا : نعم وقد تعجبوا من فعله ، فقال اللهم اشهد عليهم ، ثم حمل الى قبره فلما وضع في لحده قال : يا مفضل إكشف عن وجهه ، فكشف فقال للجماعة : انظروا أحي هو ام ميت ؟ فقالوا : بل ميت يا ولي الله ، فقال : اللهم اشهد فانه يرتاب المبطلون يريدون اطفاء نور الله ، ثم اومأ الى موسى (عليه السلام) قال : "والله متم نوره ولو كره الكافرون " ، ثم حثوا عليه التراب ثم اعاد علينا القول فقال : الميت المكفن المحنط المدفون في هذا اللحد من هو ؟ قلنا : اسماعيل ولدك ، فقال : اللّهم اشهد ثم اخذ بيد موسى فقال :" هو حق والحق معه ومنه الى ان يرث الله الارض ومن عليها ".

وهذا العمل من الامام ، هو للتأكيد على وفاته عند الظانين خلافته له من بعده وازالة الشبهة عنه في حياته .

وكان اسماعيل اكبر اخوته وكان الامام الصادق (عليه السلام) شديد المحبة له والبر به والاشفاق عليه وكان قوم من الرساليين يظنون انه القائم بعد ابيه ، والخليفة له من بعده ، اذ كان اكبر اخوته سنا ولميل أبيه إليه ، واكرامه له ، فمات في حياة ابيه (عليه السلام) بالعريض .

وروي ان ابا عبد الله (عليه السلام) جزع عليه جزعاً شديداً ، وحزن عليه حزناً عظيماً ، وتقدم سريره بغير حذاء ولا رداء، وامر بوضع سريره على الارض مرارا ، وكان يكشف عن وجهه وينظر اليه ، يريد بذلك تحقيق امر وفاته عند الظانين خلافته له من بعده وازالة الشبهة عنه في حياته . ولما مات اسماعيل (رحمة الله عليه) ، انصرف عن القول بامامته بعد ابيه من كان يظن ذلك ويعتقده من اصحاب ابيه (عليه السلام) ، واقام على حياته شرذمة لم تكن من خاصة ابيه ولا من الرواة عنه وكانوا من الاباعد والاطراف . فلما مات الامام الصادق (عليه السلام) انتقل فريق منهم الى القول بامامة موسى بن جعفر (عليه السلام) بعد ابيه ، وافترق الباقون فريقين : فريق منهم رجعوا عن حياة اسماعيل وقالوا بامامة ابنه محمد بن اسماعيل ، لظنهم ان الامامة كانت في ابيه وان الابن احق بمقام الامامة

من الاخ ، وفريق ثبتوا على حياة اسماعيل وهم اليوم شذاذ لا يعرف منهم احد يشار إليه وهذان الفريقان يسميان بالاسماعيلية ، والمعروف منهم الآن من يزعم ان الامامة بعد اسماعيل في ولده وولد ولده الى آخر الزمان .

وهكذا توفي اسماعيل ، بيد ان فريقا من حزبه لم يصدقوا وفاته ، وزعموا بان له غيبة . وقبل ان نتناول هذا الرأي بالنقد ، ننقل النص التالي لكاتب اسماعيلي معاصر هو مصطفى غالب، يقول : باعتقادي ان الامام جعفر الصادق (عليه السلام) عندما شعر بالاخطار التي تتهدد حياة ابنه اسماعيل جمع دعاته الاربعة الحرم وولده اسماعيل وتداولوا في الامر ، ومن ثم قرر ان يطلق على ولده ودعاته الاربعة الحرم اسماء مستعارة للتغطية فسماهم كما يتبين من رسالة المهدي (المبارك والميمون وسعيد والخير) الى آخر ما هنالك من اسماء تطلق عادة على الغالي الحسن ، فخرج هؤلاء الدعاة بصحبة اسماعيل (عليه السلام) من المدينة الى الكوفة ، ومن المحتمل ان الامام جعفر (عليه السلام) قد تدبر الامر بالاتفاق مع عامل الخليفة العباسي الذي كان بدوره من اتباعه فاستكتبه محضرا يعلن فيه وفاة اسماعيل بن جعفر (عليه السلام) ، ويستنتج من النصوص الاسماعيلية الكثيرة الموجودة لدينا بأن اسماعيل توجه فورا الى " سلمية " ومنها الى دمشق فعلم المنصور العباسي بذلك فكتب الى عامله ان يلقي القبض عليه ولكن اسماعيل شعر بالامر فغادر دمشق نحو العراق حيث شوهد في البصرة عام ١٥٠ هـ وقيل انه مر على مقعد فشفاه باذن الله . ولبث اسماعيل عدة سنوات يتنقل بين اتباعه حتى اعلنت وفاته سنة ١٥٨ هـ .

ان اعتقاد الاسماعيليين بغيبة اسماعيل، هو أنها غيبة سياسية كغيبة عيسى بن زيد او كغيبة احمد بن عيسى المسمى بأحمد المختفي الذي هرب من السجن في زمن الهادي العباسي فغاب عن الناس وكوّن حركة زيدية وثار في غيبته في ايام المتوكل .

وهذه الغيبـــة ليست من النوع المرتبط بما وراء الغيب والشهود، وليست من نوع

إعتقادنا بغيبة الامام المهدي المنتظر ، فنحن نعتقد بغيبة الامام الحجة (عجل الله فرجه) ليس على اساس انه بعيد عن الانظار ويعيش مختفياً وله وكلاء ويتصل بأبناء الحركة الرسالية وانما هذه غيبة من الله سبحانه وتعالى .

ولان الرسول قد بيّن بانه سيغيب واحد من اولاده وبعد ذلك يخرج ويملأ الارض قسطا وعدلاً ، فان بعض الناس كانوا يستغلون هذا الحديث في غير مصداقه الصحيح ، وليس الرساليون فقط .. وانما عدد الذين ادعوا المهدوية في التاريخ من السنة اكثر بكثير من الشيعة .

وآخر من ادعى المهدوية في الفترة الاخيرة محمد علي باب، وميرزا غلام ، واحمد القادياني . ومن السنة امثال المهدي الذي حارب الانجليز في السودان ، وفي ليبيا. اما غيبة اسماعيل فلم تكن غيبة من الله عز وجل ، وانما غيبة سياسية حسب عقيدة جماعته ، فقد قالوا في انفسهم انه هو الذي كوّننا وربانا وخطط لنا ولابد ان يظهر .

وهنا بدأ اول انحراف لجماعة اسماعيل ابن الامام الصادق (عليه السلام) حيث انكروا امامة الامام موسى بن جعفر الصادق (عليه السلام) واستدلوا على ذلك بان الامام لابد ان يكون الولد الاكبر واسماعيل هو الاكبر فالامامة فيه وكأن الامامة وراثة قبلية ، وأين الاسماعيلية عن خبر موت اسماعيل ، وقيام الامام الصداق بلغنه ، وتأكيد ذلك للمشيعين من اصحابه ؟ لانه كان يعرف ان هناك جماعة في قلوبهم ريب من موت اسماعيل .

قوة الحركة الاسماعيلية

خلاصة القول: ان الاسماعيلية سقطوا في انحراف عقائدي اكبر من الانحراف عند الزيدية ، ولكنهم على الصعيد السياسي بقوا يزلزلون عرش الخلافة العباسية ، وكانوا يمثلون الدرع الواقي للحركة الرسالية .

واستطاعت الحركة الاسماعيلية الكبيرة ، والتي قلنا عنها انها كانت اقوى حركة رسالية في التاريخ، من تكوين دولة في المغرب ثم في مصر على يد عبد الله المهدي

سنة ٢٩٦ هـ وهي الدولة الفاطمية ، كما اسسوا دولة اخرى في فارس على يد الحسن بن الصباح سنة ٤٨٢ هـ وفي مصر على يد القائد جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ واخرى في اليمن على يد ابن حوشب سنة ٢٧٠ هـ واخرى في البحرين على يد الحسن الاهوازي وحمدان بن الاشعث وابي سعيد الجناسي وزكرويه بن مهرويه سنة ٢٧٠ هـ وكانت للاسماعيليين قلاعهم وحصونهم المستقلة المنيعة في بلاد الشام، وكذلك في ايران .

ان حركة الزيدية كحركة سياسية انتهت تاريخيا بعد القرن الثالث الهجري ، اما الحركة الثورية العسكرية التي بقيت كحركة سياسية مستمرة فهي الحركة الاسماعيلية ، وقد عملت ما عملته الحركة الزيدية ايام الائمة (عليهم السلام) فمن المعروف ان عبد الله المهدي الاسماعيلي مؤسس الدولة الفاطمية ، كان من دعاة الحركة الاسماعيلية الكبار وقد سجن عدة مرات واستطاع الهروب من السجن ، وسلالته هم الذين توالوا على الحكم في الدولة الفاطمية .

الحركة الرسالية احتمت بالحركة الزيدية التي كانت الجناح العسكري لها ، وكان هذا الى القرن الثالث الهجري ، وبعد القرن الثالث الهجري قامت الحركة الاسماعيليـة بهذا الدور الذي جعل المد الرسالي في مأمن من بطش الدولة العباسية . فالحقيقة ان الحركة الاسماعيلية كانت من العوامل المهمة في تشيع ايران ، وكتب التاريخ مليئة بالقصص المؤيدة لهذا الامر وفي بداية نشأة الحركة الاسماعيلية كان افراد هذه الحركة يشعرون بانهم هم الواجهة العسكرية السياسية للحركـة الرسالية ولم يكونوا يؤمنون بتلك المفارقات العقيديـة التي هم عليهـا الآن .

دور الامام موسى بن جعفر عليه السلام في الحركة الرسالية

الترف في العصر العباسي

كان ابراهيم بن محمد بن علي المسمى بالامام ، اول من بويع بالخلافة العباسية، ولكنه قبل ان يرتقي كرسي الحكم ، سقط بيد الامويين فقتل مسموما ، وفي بعض التواريخ طبخ جثمانه .

وكان ابنه محمد محترما في الدولة العباسية ، فهو اخ الخليفة العباسي الاول ابو العباس السفاح ، والخليفة الثاني ابو جعفر المنصور .

جاء محمد بن ابراهيم يوما الى الفضل بن يحيى ومعه سفط فيه جوهر ، وقال ان حاصلي قد قصر عما احتاج اليه ، وقد علاني دين مبلغه الف الف درهم ، واني استحي ان أُعلم أحداً بذلك ، وآنف ان اسأل احدا من التجار ان يقرضني ذلك ، وان كان معي رهن يفي بالقيمة ، وانت ابقاك الله ! لك تجار يعاملونك ، وانا اسألك ان تقترض لي من احدهم هذا المبلغ ، وتعطيه هذا الرهن.

فقال له الفضل : السمع والطاعة ، ولكن لكي تعجل بهذه الحاجة ، عليك ان تقيم عندنا هذا اليوم ، فأقام عنده ثم أخذ الفضل السفط الى منزله ، وأخذ خيطاً وكبله بقبضة واقام محمد في دار الفضل الى آخر النهار ، ثم انصرف الى داره ، فوجد السفط ومعه الف الف درهم ، فسرّ بذلك سروراً عظيماً .

فلما جاء الغد بكّر محمد الى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكّر من باب آخر ، ومضى الى دار ابيه فمضى محمد اليه ، فلما علم بذلك خرج من باب آخر ومَضى الى داره فمضى محمد اليه واجتمع به وشكره وقال له :" انيّ بكّرت اليك لاشكرك على احسانك " .

فقال الفضل : " اني فكرت في امرك فرأيت ان هذه الالف الف التي حملتها امس اليك تقضي بها دينك ، ثم تحتاج فتقترض وبعد قليل يعلوك مثلها ، فبكرت الى امير المؤمنين وعرضت عليه حالك واخذت لك مئة الف الف درهم اخرى ، وكذلك فعلت لما حضرت انت الى باب ابي لأني ما كنت اؤثر ان ألقاك حتى يحمل المال الى منزلك وقد حمل ثلاثة ملايين درهم الى دار محمد بن ابراهيم في ذلك النهار " (١).

ماذا تعني هذه القصة التي ذكرها المؤرخون ؟ انها تعني :

اولاً : ان الوضع الذي كان يعيشه المسلمون في ايام الرشيد كان وضعا متميزا بزيادة الموارد المالية ، وبتكدس الثروات الطائلة في ايدي معدودة جدا من البيت العباسي واصحابهم البرامكة والمنتفعين من النظام العباسي .

ثانياً : ان هذه المجموعة الصغيرة من المتربعين على الكراسي كانوا يتلاعبون باموال الناس كما يتلاعب الصبيان بالكرة .

وبتعبير آخر كانوا يتلاعبون بمصير امة لا تغرب عنها الشمس ، ويتلاعبون بقوت اناس دخلوا الاسلام لكي يتخلصوا من جور الطغاة الكفرة ، فرأوا ان الحكام المسلمين ليسوا بأفضل من غيرهم .

هناك رجل اسمه الوليد بن الطريف الشاري الشيباني ، ثار سنة (١٨٧ هـ) في منطقة تسمى نصيبين ثم في ارمينية ثم آذربايجان . وهذه المناطق كانت واحدة من الناحية الادارية ، فَقَتَل والي نصيبين التي كانت المركز الاداري لهذه المقاطعة وأخذ

---

(١) الفخري / ص ١٨٥ .

الحكم ، فبعث اليه هارون الرشيد بيزيد بن مزيد وهو احد القادة العسكريين الكبار مع جيش كثيف جدا فحاربه ، وكان الوليد بن طريف ينشد في معركته هذه الابيات :

انـــا الوليـد بن طريف الشـــاري قســـورة لا يصطلـــي بنـــاري

جوركـــم اخرجنـــي مـــن داري

ان هذه الارجوزة تدل على طبيعة الظلم والحرمان الذي كانت تعيشه الامة الاسلامية آنئذ ، واكثر العلويين الذين خرجوا لقتال بني العباس كان همهم الاول هو رفع الحرمان عن الناس .

كانت امرأة تستجدي في شوارع الكوفة وكانت تتبع احمال الرطب فتلتقط ما يسقط منه فتجمعه في كساء رث عليها ، فمّر بها محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم وهو ابن طباطبا بن الحسن بن الامام الحسن (عليه السلام) وهو صاحب ابي السرايا فسألها عما تصنع بذلك ، فانتسبت فاذا بها من عائلة شريفة من ابناء المهاجرين والانصار في الكوفة ، اولئك الذين على اكتافهم وبجهودهم قامت الدولة الاسلامية .

ثم قالت : اني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤونتي ولي بنات لا يعدن على انفسهن بشيء ، فانا اتتبع هذا من الطريق واتقوته انا وولدي ، فبكى بكاء شديدا ثم قال : انت والله وأشباهك تخرجوني غداً حتى يسفك دمي[1] .

لماذا قام العلويون بحركات استشهادية

ان كثيراً من الحركات العلوية التي انتشرت في ايام العباسيين كانت استشهادية وكان اصحابها يعرفون انها ستنتهي الى الفشل ، ولكن كانوا يضيقون ذرعاً بالدنيا ولا يستطيعون الصبر لكي يمنحوا لانفسهم الفرصة الكافية للتخطيط . لقد كانوا يثورون ويعرّضون انفسهم للقتل والشهادة دفاعا عن المحرومين .

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٣٤٦ .

في ايام الرشيد كانت الطبقة التي تحكم البلاد هي طبقة البيت العباسي بفروعه المنتشرة ، وطبقة العسكريين الكبار والدهاقنة العلوج ، الذين هم من القوميات غير العربية التي اعتنقت الاسلام ، لكي تتمتع بعدالة الاسلام ، الا ان رؤساء تلك الطوائف بقوا على وضعهم السابق واخذوا يستثمرون طاقات وجهود الفلاحين والتجار واصحاب المهن والحرف الصغيرة ، ويتعاونون ويتآمرون مع الطبقة الكبيرة ، التي هي طبقة كبار التجار والملاكين وكبار العسكريين وعلى رأسهم وفي طليعتهم الطغاة العباسيون .

هؤلاء جميعا كانوا يتعاونون في سبيل امتصاص واستعباد الطبقات المحرومة ، بينما اكثر المسلمين كانوا يعيشون في حالة الحرمان . في مثل وضع كهذا كيف كان يجب على الامام موسى بن جعفر ان يتصرف؟ وما هي خطته العملية ؟

الامام يبعث الروح في الامة

لقد عمل الامام الكاظم على تنمية الوعي السياسي والديني عند الجماهير المحرومة من الفلاحين والموالي وصغار التجار وممن يصلح من عناصر النظام وليس اقطابه ، ومن ثم تربية مجموعة من القادة الذين لا يبيعون انفسهم للملذات ومغريات هذه الدنيا الزائلة .

فمثلا نرى ان كثيرا من العلويين الذين كانوا بالامس القريب ثوارا ، والذين قتل آباؤهم او اخوانهم او اقاربهم على يد العباسيين ، قد وقعوا فريسة الاغراء المادي حيث كان العباسيون ما يفتأون يحاولون شراءهم بالمال ، وكانت اموال الدولة آنئذ كثيرة ، وكانوا يستطيعون ان يصرفوا الكثير منها في سبيل شراء الضمائر .

ان احد ابناء اقارب الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) هو الذي وشى الى هارون الرشيد وتسبب في مقتل الامام في سبيل الحصول على مائة الف درهم ، وكان هذا المبلغ يعني شيئا كثيرا ذلك اليوم ، لأن البيت الواحد كان يُبنى ببضع مئات من الدراهم فقط .

انها كـانت تكفيـه واولاده مؤونـة الكـد ، هذا بالإضافة إلى المناصب التي كانت تمنح لأمثال هؤلاء، فالرجل اذا كان موالياً للنظام فانه كان يُعيّن والياً على مصر او قائداً في المغرب او في بلاد فارس أو ...

فالاغراء من قبل النظام كان ضخما ، وهذا الرجل كان يفكر في نفسه ايبقى مع الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) حيث الحرمان والمطاردة ام يعيش حياة الاغنياء المترفين؟

وجاء في رواية: ان عشرات العلويات لم يكنّ يملكن غير ثوب واحد للصلاة ، فكانت احداهن تخلع الثوب وتعطيه للاخرى ، فتصلي به ، وهكذا يتداولن الثوب الواحد الى آخر الوقت ، وكن في البرد يحتمين بالشمس .

فهل يستطيع ان يعيش مع امامه الحق هكذا ام يساق مع الطغاة ؟

جاء محمد الى هارون الرشيد ، وقال له : السلام عليك يا هارون .

فقال هارون : لماذا لا تسلم عليّ بالخلافة ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ! خليفتان في الارض موسى بن جعفر في المدينة يجبى له الخراج وانت في العراق يجبى لك الخراج .

فقال هارون : والله؟ فأمر هارون له بمائة ألف درهم .

بالطبع لقد كان هارون الرشيد يعرف هذا الوضع الاّ ان العباسيين كسائر الحكام الديكتاتوريين تستخفهم الاثارات، والشواهد التاريخة تدل على ذلك ، لذلك انثار هارون بكلام محمد وقدم له هدية مأة الف درهم ، وقرر قتل الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) بهذه الاثارة الرعناء .

ومرة كان السفاح جالسا في مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وسبعون من بني امية ، وقد اكرم السفاح سليمان فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده :

لا يغرنـك ما تـرى مـن رجـال ... ان تحت الظلـوع داء دويـا

فضع السيف وارفع السوط حتـى ... لا تـرى فوق ظهرهـا امـويـا

فالتفت سليمان وقال : قتلتني يا شيخ ! ثم دخل السفاح واخذ سليمان فقُتل .

ودخل على ابي العباس شاعر آخر ، وقد قدم الطعام ، وعنده سبعون رجلا من بني امية فانشده :

اصبح الملك ثـابـت الاســاس ... بالبهاليـل من بـني العبــاس
طلبـوا وتـر هاشم فشفـوهـا ... بعد ميـل من الزمـان ويـاس
لا تقيلـن لعبـد شمـس عشـارا ... واقطعن كل رقلـة وغـراسـي
ذلهـا اظهـر التـودد منـهـا ... وبها منكم كحـز المواسـي
ولقـد غاظـني وغـاظ سوائـي ... قربهم من نمـارق وكراسـي
انـزلـوهـا حيـث انـزلهـا الله ... بـدار الهـوان والاتعـاس
واذكـروا مصرع الحسين وزيـد ... وقتيـلا بجـانـب المهـراس
والقتيـل الـذي بـحـرّاس اضحـى ... ثاويـا بـين غـربـة وتناسـي [1].

والمهراس مـاء بجبل احد قُتل عنده حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء ، ودفن ، والقتيل بحرّاس هو ابراهيم المسمّى " بالامام " فضرب ابو العباس اعناقهم .

وهكذا كانوا يستثارون ، فالرجل حينما جاء وأثار هارون الرشيد فاذا به يذهب شخصيا الى المدينة لاعتقال الامام ، لانه كان يعرف ان الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) يمتلك سلطة روحية على جميع المسلمين ، ويعرف انه اذا بعث بأحد قواده ليأتي بالامام فان قائده قد يخونه ولا يطيع أوامره .

هارون الرشيد يعتقل الامام

وهنا قام هارون شخصياً باعتقال الامام حيث ذهب الى الحج وجهز نفسه واخذ معه الجيوش والاموال ، حيث ارهب الناس وطمعهم خوفا من أي ردة فعل يبديها الناس تجاه ما ينوي عمله .

يقول الراوي : سأل الرشيـد موسى بن جعفر : انت الذي تبايعك الناس سراً ؟

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٧٤ .

قال : " انا امام القلوب وانت امام الجسوم " [1].

ولم يجد هارون الرشيد بدا من اعتقال الامام الكاظم فاعتقله وطلب تجهيز محملين، محمل يذهب على طريق الكوفة ، ومحمل يذهب على طريق البصرة لكي يعمي على كل من يريد تخليص الامام ، وكان قد جهز المحملين ليلا وراء الستر ضماناً لعدم هياج الناس وثورتهم .

وهذا يدل على ان الوضع الذي كان يعيشه المسلمون آنئذ تميّز بان الامام (عليه السلام) كان يبعث الروح الاسلامية في الامة ، وفي ابنائها المحرومين ، وكان الخلفاء يريدون تطميع الناس وارشاءهم وشراء ضمائرهم ، وتكوين مجموعة من المتزلفين والمرتزقة حولهم ليحاربوا الائمة (عليهم السلام) اصحاب الحق الشرعـي.

ان بعث الوعي يعني القضاء على اهم عامل يستند اليه الحكام الظلمة وهو تجهيل الناس واعماء الحقائق عنهم . تارة بالارهاب واخرى بالإغراء .

ولم يكن الامام الكاظم (عليه السلام) والحركة الرسالية تتوسل بشيء من ذلك فـي سبيل الوصول الى الحكم كما فعل العباسيون الذين قاموا باسم مظلومية الناس، فاذا ماحكموا بقيت تلك المظلومية بل وتعددت اشكالها .

الامام ينشد ثورة حقيقية

ان الامام لم يكن يشتري الضمائر او يسلك تلك الاساليب الملتوية، وحتى إذا استولى على الحكم، أخذ اموال المحرومين والمضطهدين ووزعها على كبار القادة، وبالطبع كان بامكانه ان يفعل ذلك ولكنه كان حينها لا يختلف عن هارون الرشيد (والعياذ بالله) ولم يكن يسمى موسى بن جعفر إماماً معصوماً، وحاشا الامام المعصوم ان يكون كذلك لقد كان الامام (عليه السلام) شخصية رسالية مؤمنة باهداف الله ، وكان لديه فكر وتخطيط وبرنامج معين يريد ان يطبقه في الامة،

---

(١) الصواعق ، ص ١٢٥ .

لينصر المظلومين ، وهذه كانت قمة الصعوبة في عملية التغيير التي كان الائمة (عليهم الصلاة والسلام) ينشدونها .

انه كان تغييراً حقيقيا ، ولم يكن بجرد ترديد شعارات او بيان الفاظ يتلاعب بهـا .

دولة الادارسة

في عهد الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) قامت عدة ثورات منها ثورة ادريس ، وقد ذكرنا شيئاً عن ادريس الذي جرح في (فخ) واستطاع ان يخرج الى المدينة ومنها يختفي فترة ثم يذهب الى مصر متنكراً مع حجاجها ، ومنها تسلل حتى وصل الى المغرب وجمع البربر وكوّن هناك دولة سميت بدولة الادارسة ، وكانت قوية . ولقد بعث هارون الرشيد بعدة قادة عسكريين من امثال هرثمة بن أعين في مئات الالوف من الجنود حتى يحطموا دولة الادارسة فما استطاعوا كسر أي قرن لها وبقيت صامدة .

ولكن الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) لم يكن يريد ان يكوّن دولة حتى كمثل دولة الادارسة ، وانما كان يهدف الى تغيير الامة الاسلامية كلها . وذلك باعطاء المحرومين قوة وتنظيماً واشباعهم بقيم معينة حتى يقوموا بالثورة على السلطة الطاغوتية الظالمة .

ان الامام كان يريد ان يكوّن مجموعة من الناس ذوي عقيدة راسخة ، ولقد كان الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) معتقلاً في السجن الذي انتهى اليه وهو سجن السندي بن شاهك ، الذي كان مظلما وقد منع السندي بن شاهك اتصال أي احد بالامام ، لكن مع ذلك كان الامام يتصل بالرساليين في بغداد ، ويعطيهم أوامر ، ولدينا روايات عديدة بان الامام (عليه السلام) كان على اتصال بهؤلاء ، الا ان بعض الناس يفسرون اتصال الامام (عليه السلام) بانه كان اتصالا غيبيا بمعنى ان الامام وبطريقته الغيبية يفتح السلاسل من يديه ورجليه ويخرج ، ثم يذهب للاتصـال بجماعته في بغـداد ، واعطائهم الخطط والاوامر ثم يرجع الـى

سجنه .

ونحن نستبعد ذلك ، لا لأن الائمة (عليهم السلام) لا يستطيعون ان يقوموا بمثل هذه الامور بإذن الله، فربما يسخر لولي متى يشاء وكيف يشاء ، وانما لأن الائمة (عليهم السلام) لم يكونوا يريدون تغيير الامة عن طريق الغيبيات .

وإلاّ لكانت القضية في غاية البساطة ، فالامام (عليه السلام) يرفع يده بالدعاء الى الله ان يقتل هارون الرشيد ويحيى وفضل والسندي بن شاهك وعيسى ، فيستجيب الله دعائه ، فيأتي ويحكم البلاد كأبسط ما يكون .

لقد كان الامام يريد، كما رسالات السماء كلها أيضاً ، كانت تريد تغيير الامة درجة فدرجة وبذلك ترتقي نحو الكمال حتى يكون الناس هم الذين يطبقون الاحكام والقيم والامام كبشر يعطي من طاقته ومن علمه ومن تقواه لهذه الامة المحرومة ما يعطيها القوة ، ويمكنها من القيام والنهوض وفق القوانين والشروط الطبيعية .

وهذا يدل على ان الامام كان يتصل بالموالين بطرق عادية كما يدل على تفاني الموالين ، فكان الواحد منهم مثلا يصبح خادما عند السندي بن شاهك لفترة طويلة حتى يستطيع الوصول الى سجنه ويتصل بالامام ، بعد ان يثق به ويكون حلقة الوصل بينه وبين الموالين في بغداد .

وهذه هي الطريقة التي كان الامام (عليه السلام) ينشدها .وهي نهوض الامة بتفجير طاقاتها من الداخل . والواقع ان استمرار سيطرة الطغاة قد يكون بسبب غياب الناس عن الساحة ، وذلك حين يكون تناقض النظام الطاغوتي بذاته سببا لضعفه ، ذلك لان الدولة التي تقوم على اكتاف مجموعة من القادة العسكريين او القادة السياسيين اصحاب المصالح والأهواء سرعان ما تتعارض مصالحها مع بعضها، فيدب الخلاف والنزاع فيما بينها.

لننظر كم حرباً وقعت في ايام العباسيين سواء بين العباسيين انفسهم او التي وقعت بينهم وبين اعدائهم .

فمثلا ، الرشيد قتل ابن اخيه عيسى ، وقتل ونكل بجعفر البرمكي ، ونكل بالفضل وبمحمد وبموسى ، وسجن يحيى وقتل كل من كان حول يحيى . وكان يحيى البرمكي حينها الشخص الثاني في الامبراطورية الاسلامية .

وان قتل جعفر البرمكي والتنكيل بالبرامكة لم يكن شيئاً هينا ، فقد كان سبباً لسقوط رؤوس عديدة بعد ان سقط رأسه ، وبالفعل فقد سقطت رؤوس كثيرة بعده .

تفصيل وطبيعة الاوضاع تدل على ان جعفر البرمكي لم يذهب وحده ، وانما سحب وراءه مجموعة كبيرة ضخمة من قواده وندمائه وجماعته ، وقد سميت هذه الحادثة (بنكبة البرامكة) التي تشاءم الناس منها .

ان العالم الاسلامي كان يموج بالسخط والاستياء ، وكان يعبر عن سخطه تجاه الخلافة العباسية عبر الحركات المتعددة وهذه الحركات كان يجمعها قاسم مشترك هو السعي لإسقاط السلطة العباسية واقامة حكم شرعي عادل ، فمرة يقوم يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الامام الحسن (عليه السلام) في الديلم ، واخرى يقوم ابراهيم اخوهم الثالث في العراق ، ورابعة يقوم محمد اخوهم الرابع، ومن بعده الحسين بن علي صاحب فخ في الحجاز ورابعة يقوم ادريس في المغرب العربي .

ان الائمة المعصومين (عليهم السلام) لم يكونوا يريدون اقامة مثل هذه الدويلات ، وانما كانت لهم اهداف ابعد وهي رفع مستوى الامة ووعيها وتنظيمها حتى تكون جديرة بالحرية والمحافظة عليها وجديرة بحكم نفسها .

لهذه الاهداف عمل الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، ولهذه الاهداف قُتل ، وبقيت ثورته مشتعلة ، وهي التي دفعت بالمأمون العباسي الى ان يبعث الى الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ويأتي به من المدينة الى خراسان ويجعله وليا لعهده في قصة سنفصلها في المواضيع القادمة باذن الله .

الحركة الرسالية امتداد لحركة الانبياء عليهم السلام

قبـــل كل شيء لابد ان نعرف ان دور الائمة المعصومين هو مكمل لدور الانبياء، وان حركتهم الرسالية انما هي امتداد للرسالات السماوية التي نزلت قبل الاسلام، وبالتالي لحركة رسولنا الاعظم محمد (صلى الله عليه وآله) .

فلو اردنا ان نعرف مسؤولية الائمة ، لابد ان نعرف قبلئذ مسؤولية الانبياء ووظيفتهم ودورهم واعمالهم واهدافهم الكبيرة في الحياة ، وبعد ان نعرف دور الانبياء وهدفهم الكبير ، فان كل شيء يبدو امامنا واضحا ، ونتسائل :

ما هو دور الانبياء في الحياة ؟

ان هنـاك ميـزة تتمتع بها حركة الانبياء (عليهم السـلام) ، وهي مواجهتهم للطواغيت في عصورهم ، فمثلا ابراهيم (عليه السلام) يقول عنه ربنا :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء/٦٩- ٨٧)

ان كلمـة " فانهم عدو لي " كانت رفضا صارخا لأقوى سلطة متحكمة في قومه، واما النبي موسى (عليه السلام) فقد امره الله سبحانه بالذهاب الى فرعون:

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (النازعات،١٧)

وكذلك سائر الانبياء ، حتى نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) كان في مكة ، كان قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الكافرون،١-٢) .

وكان شعاره : " قولوا لا اله الا الله تفلحوا "

وهكذا كان يرفض سلطة الاقلية المستكبرة ، وهذا الرفض ينسحب على كافة ابعاد الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولا يكتفي الرسول بالرفض بل يضع نظاماً توحيدياً متكاملاً ، وبتعبير اخر ، يمكن ان نلخص دور الانبياء واهدافهم في كلمتين :

الاولى : تنمية الضمير الديني الحق في الانسان .

والثانية : تنظيم حياة الانسان على الارض .

الضمير الديني

وفي ذلك يقول امير المؤمنين علي (عليه السلام) : " فبعث فيهم رسله ، وواتر اليهم انبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا فيهم دفائن العقول ، ويروهم آيات المقدرة " [١].

اذن ، الوظيفة الاولى هي تنمية الضمير الديني للبشر ويندرج تحت هذا العنوان: الانذار ، والتبشير .

فالانبياء جاؤا لينذروا الناس ويبشروهم، ولكن بم ينذرون الناس وبم يبشرونهم ؟ لينذروا الناس بالنار ويبشروهم بالجنة . ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (النساء/١٦٥)

وهذه الكلمة تكررت في القرآن الحكيم مرات عديدة ، وهي اهم وظيفة للانبياء ، ومن آثارها :

١ - تذكرة الانسان بالحياة الآخرة .

---

(١) نهج البلاغة ، خطبة رقم ١ .

٢ - رفع حجب الغفلة والنسيان التي تغلف عقل الانسان .

٣ - اثارة دفائن العقل واستجلاء الضمير .

٤ - تزكية الانسان وتربيته الخلقية .

وهذه كلها تؤدي الى تنمية الضمير الديني في الانسان ، هذا هو اهم عمل كان يقوم به الانبياء في الحياة .

اما الوظيفة الثانية فهي تنظيم حياة الانسان وذلك عبر :

١ - وضع البرامج وبلورتها بشكل كامل .

٢ - رفع العقبات والعراقيل التي تعترض تطبيق تلك البرامج .

فالانبياء جاءوا من اجل وضع برامج للعدالة الاجتماعية والاصلاح الاجتماعي ، بكافة جوانبه الاقتصادية والسياسية والاخلاقية والتربوية .

وليس وضع البرامج فقط ، وانما وضعها وتطبيقها ورفع العقبات التي تحول دون ذلك ، فاذا كان الطغاة يقفون حجر عثرة امام تطبيق المناهج الاسلامية الرسالية ، آنئذ تكون وظيفة الانبياء (عليهم السلام) هي ان يحملوا السيف ، ويعلنوا الحرب عليهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران/١٤٦)

(وكأين) كلمة تستخدم للتكثير والمبالغة ، بمعنى كم من انبياء قاتل معهم علماء فقهاء أخلصوا للرب تعالى ، فكان هذا دور الانبياء في الحياة ، تنمية الضمير الديني ، وهي المسؤولية الاولى وتطبيق البرامج الالهية في الارض ، وهي المسؤولية الثانية وهذا ايضا هو دور الائمة (عليهم السلام) لانهم المستحفظون على رسالات الانبياء . فالامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) كان رجل سياسة ، ولكن السياسة لم تكن كل هم الامام .

فقد روى عبد الله بن عباس (رض) قال : دخلت على علي امير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي : " ما قيمة هذا النعل ؟ ، فقلت :

لا قيمة لها ! ، فقال (عليه السلام) : والله لهي احب اليّ من امرتكم الا ان اقيم حقا او ادفع باطلا " (١).

ومرة قال في احدى خطبه : " ولألقيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفطة عنز "(٢).

فالسياسة في منطق الامام علي (عليه السلام) لم تكن هدفا وكذلك الحكم ، فان يكون شخص علي (عليه السلام) جالسا على اريكة الخلافة الاسلامية ليس مهما ، وانما المهم عنده هو احقاق الحق وابطال الباطل ، ويهم الامام علي (عليه السلام) ان ينمي الضمير الديني في الانسان المسلم .

لذلك نجد ان نهج البلاغة ، وهو كتاب حاكم مقاتل ، وقائد عسكري ، يفيض بالتقوى والتوحيد وبذكر صفات الله سبحانه وتعالى وآياته في الكون . ونجد ان الاحاديث والخطب التي قالها الامام علي (عليه السلام) قبل ان يصل الى الحكم، والتي قالها بعده ، والتي قالها في حالة الحرب او السلم ، كانت على طراز واحد، حيث كانت توجه الامة الى الله سبحانه وتعالى ، وانما نعتبره اماما لأنه قام بذلك وهذه هي وظيفة الامام علي (عليه السلام) ومسؤوليته ، وليس فقط لانه حاكم عادل ، فالحكم بالعدل مهم ولكنه ليس كل شيء .

ان الصفة الاساسية في شخصية الامام علي (عليه السلام) والتي يجب ان تستقطب اهتمامنا هي تقواه ، واستقامته وتجسيده في سلوكه لقيم الرسالة ومناهجها .. بالاضافة الى تربيته لمجموعة منتخبة من الناس كطليعة رسالية ، وضمير انساني ناطق في الامة ، امثال همّام وكميل بن زياد وغيرهم . لقد كانت تربيته لهذه المجموعة تنطبق عليها مواصفات الامام الصادق (عليه السلام) في كلمته " رهبان في الليل واسود بالنهار " .

فهمّام مثلاً هذا الرجل الذي تربى على يد الامام وارتضع من توجيهاته ودروسه،

---

(١) المصدر ، خطبة رقم ٤ .

(٢) خطبة رقم ٣ .

كان يمضي لياليه بالتبتل والتضرع ، وكان يختم القرآن في كل ليلة ، ويروى عنه كذلك انه صلّى عشر سنوات صلاة الصبح بوضوء العشاء ، وفي الوقت نفسه كان حاكما من قبل الامام علي (عليه السلام) على مقاطعة خراسان والتي كانت تشمل في ذلك اليوم كلاً من ايران وافغانستان وقسما من بلاد آسيا الوسطى، فهو لم يكن منقطعا عن الدنيا ، وانما كان كادحا وعاملا طوال النهار ، وقائما في المحراب ليلا ، هذا الرجل ليس الأوحد من بين اصحاب الامام علي (عليه السلام) ان هناك من هم امثاله ، كعمار ، وميثم ، وقمبر ، وحجر بن عدي ، وضرير .

الامام الذي يربي في الكوفة اشخاصا يسهرون الليل تبتلا ويصلون صلاة الصبح بوضوء صلاة العشاء وفي النهار يقودون الناس ، في السلم والحرب ، انه لابد ان يربي مجموعات اخرى على درجات اقل ، بمعنى اذا كان قد كوّن عشرات من الصنف الاول ، فمئات من الذين يسهرون نصف الليل ، وآلاف من الذين يصلون الصلوات ويقرأون القرآن بشكل جيد ، ومليون انسان من النموذج الذي يؤمن بالله ايمانا عميقا ، ويستعد للتضحية في سبيل الله ، وبالتالي فهو يكوّن امواجا متلاحقة داخل الامة الاسلامية موجة تتبع موجة وكل موجة اكبر من السابقة .

وهكذا كان الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) الذي عاش في فترة كانت الامة الاسلامية قد وصلت يومذاك الى قمة مجدها المادي ، وكانت الاموال تجبى الى العاصمة من كل مكان حتى ان الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر الى السحابة المارة ويقول : " شرّقي وغرّبي فخراجك اليّ " .

وكان الحكام والاغنياء ، يملكون الضياع والاموال والعبيد والجواري بلا حساب، ويتمتعون بحياة مرفهة ، ويمارسون البذخ والاسراف العجيب .

فما هي وظيفة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) في هذا الوضع ؟

هل ان وظيفته تنحصر في اسقاط هارون الرشيد ، باعتبار ان هارون الرشيد هو رأس الدولة الفاسد ، وقد امتد فساده الى جسم الامة ايضاً ؟

ان وظيفة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) الاساسية كانت تنمية الروح الدينية في الامة ، لذلك عندما كان الامام (عليه السلام) يُسجن فان سجانيه لم يملكوا الا ان يتأثروا بحياته ، ويتشبعوا بالمبادئ والاخلاق التي كان يجسدها من خلال سلوكه وعبادته ودعائه ومناجاته لله سبحانه وتعالى .

وقد بعث هارون الرشيد رسالة الى ابن عمه يأمره فيها :

" اقتل موسى بن جعفر " وكان ابن عمه عيسى بن جعفر بن ابي جعفر العباسي، والياً من قبله على البصرة .

فبعث اليه عيسى جوابا قال فيه : انني لم ار من موسى بن جعفر الا انه يصلي الليل ويصوم النهار ويدعو ، وحتى في دعائه فانه لا يدعو علينا ، وانا قد وضعت العيون لمراقبته ، فكان يقول : (اللهم انك تعلم انني كنت اسألك ان تفرغني لعبادتك ، اللهم وقد فعلت ذلك فلك الحمد) .

لذا فاما ان تأخذه مني وإلاّ فسوف اخلي سبيله [1].

ثم يأتي به ويضعه عند رئيس الشرطة في بغداد وكان الوزير فيها الفضل بن الربيع، فقال الفضل ايضا : انني لا استطيع ان اجعله عندي فانه انسان لم يطأ التراب أعلم وأعبد منه في زماني هذا ، وقال ايضا لأحد خواصه: فقد تعلم انه لا يفعل احد بأحد منهم سوء الا كانت نعمته زائلة ، ويقول ايضا : قد ارسلوا اليّ غير مرة يأمروني بقتله فلم اجبهم الى ذلك ، واعلمتهم انني لا افعل ذلك ولو قتلوني ما اجبتهم الى ما سالوني[2].

اذن فالامام كان يبث الروح التوحيدية الحقة عبر صلواته ومناجاته ودعواته وقيامه في الليل ويربي بذلك مجموعات من الناس ليكونوا طلائع العمل الرسالي .

اقرؤوا رسالة الامام الى هشام بن الحكم [3] التي هي وحدها كافية لتربية الانسان

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٨ ، ص ١٠٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢١١ .

(٣) تحف العقول عن آل الرسول ، ص ٢٨٢ - ٢٩٧ .

تربيـة متكاملة ، ولو ان انسانا آخر القى بهذه الوصية على هشام ، فقد لا يتأثر بهـا .

اما الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) فانه استطاع ان يبثها في روح هشام، وربما كان للايحاء النفسي في هذه الوصية تأثير اكبر من عباراتها ، لأن الامام كان يجسد تعاليمها في افعاله قبل ان يلقيها كوصايا على هشام ، والاكثر من ذلك الموالي الذين كانوا حول الامام والخدم وكذلك ابناؤه كل واحد من هؤلاء بنظرته الى الامام موسى بن جعفر تحوّل الى رجل متدين رسالي، وهذه هي الوظيفة الاساسية للأئمة (عليهم السلام) .

وربما يقول احدنا كان الواجب على الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) ان يخفي نفسه ويكوّن حركة سرية ويبدأ العمل السياسي ، ان هذا في الواقع عمل مهم ولكن الامام قد وكل امر هذه الوظيفة الى اناس غيره ، وقد تحدثنا سابقاً عن التنظيم الرسالي الذي توسع في عهده .

ان اعظم دور قام به الائمة المعصومون (عليهم السلام) ، هو القيادة الروحية للامة ، لذلك فرضوا انفسهم بصورة طبيعية حتى على اعدائهم ، فمثلا المنصور الدوانيقي هو الذي قتل الامام الصادق (عليه السلام) ، ولكن مع ذلك وبعد وفاة الامام تراه يبكي بكاءً مرا ويقول لأحد رجاله ، وهو ابو ايوب الخوزي : هذا كتاب محمد بن سليمان يخبرنا ان جعفر بن محمد قد مات ، فانا لله وانا اليه راجعون - ثلاثا - واين مثل جعفر ؟ (١).

اننا نقرأ في التاريخ ان الامام علي (عليه السلام) كان يذهب الى حديقة بني النجار ، حيث يقضي الليل هناك ويبكي بصورة متواصلة ، ان هذا لم يكن مجرد بكاء ، وانما كان توجهاً صادقاً وعميقاً لله سبحانه ، وهذا البكاء هو الذي خلف

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٧ ، ص ٢ ، او اعلام الورى ، ص ٢٩٠ .

في نفوسنا شعلة الايمان ، وكان يمشي في طرقات المدينة المنورة علّه يجد فقيراً او مسكيناً او مريضاً ، او صاحب مصيبة فيعزيه .

وفي رواية ان رجلاً كان يتمشى في المدينة المنورة وقد سار في حقولها وعندما اقترب من حقل سمع انينا وبكاءً ، واذا به يجد الامام علي (عليه السلام) واضعا رأسه على الحائط يبكي كالواله ، وقد كان لجؤوه الى الحائط بسبب ان قواه كانت قد خارت من كثرة التعبد والتهجد وقيام الليل .

والامام موسى بن جعفر (عليه السلام) قام ايضا بهذا الدور ، وذلك حينما كانت الامة الاسلامية مبتلاة برجل كهارون الرشيد يحتفظ في قصره بمئات الجواري ، وتلبس جواري زبيدة زوجته احذية من الذهب وفي عهده كان البرامكة وما اشتهروا به من اسراف .

تطور الحركة الاسماعيلية

كان للامامين جعفر الصادق ومحمد الباقر (عليهما السلام) مولى اسمه ميمون القداح ، لعب دوراً بارزاً في نشأة الحركة الاسماعيلية ، حيث ولاه الامام الصادق (عليه السلام) على حفيده محمد بن اسماعيل ليربيه .

وميمون القداح هذا ، كان من اصحاب الامام الباقر ، ومن بعده الامام الصادق (عليهما السلام) فقد روى عنهما روايات كثيرة ، كما انه كان تاجراً وكان دوره كبيراً الى حد اعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي للحركة الاسماعيلية .

كان عمر محمد بن اسماعيل ١٦ سنة ، حين بدأ ميمون القداح حسب بعض الروايات يأخذ البيعة له ، فاجتمع الناس حوله ورشحوه اماما لهم ، وبقي محمد فترة من الزمن في المدينة المنورة الى ان حكم هارون الرشيد ، فسجن الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) وبعدئذ امر بالقاء القبض على محمد وكان من مبررات ذلك انه كان يدعو الناس الى نفسه ويجمع حوله الانصار والاموال ويريد القيام ضد السلطة . فاختفى محمد ثم خرج من المدينة واخذ ينتقل من بلد الى بلد ، فمن المدينة انتقل الى بلاد الري مع دعاته (حيث كان الحاكم اسحاق بن عباس الفارسي من الاسماعيليين العريقين) ثم انتقل الى " نهاوند " ثم الى مدينة " تدمر "

في سورية حيث توفي فيها بعد ان اتخذها الاسماعيليون مركزا لهم ، وارسل دعاته الى المغرب العربي ، وكان يقال ان لمحمد بن اسماعيل مخبئاً سرياً بداره يختفي فيه خوفا من اعوان الرشيد .

ومن بعده بايع الاسماعيليون ابنه عبد الله الملقب باحمد الوفي الذي عاصر المأمون العباسي ، وكان من اساليب السرية لديه ، ما روي انه كان يملك سردابا في بيته متصلا عبر قناة واسعة بالصحراء المحيطة بمدينة السلمية [1] حيث كانت الاموال والذخائر تُحمل على الجمال فينفتح لها باب السرداب في الليل ثم يهال التراب عليه فلا يدري به احد [2] وقد كانت السلمية في مكان وسط من الناحية الجغرافية وقريبة من العراق .

وقد تميز عصر المأمون العباسي كما هو معروف ، بالفلسفة المترجمة من الفكر اليوناني والفارسي القديم والهندوكية القديمة . وانتشرت هذه الفلسفة في اوساط المسلمين انتشاراً واسعاً ، ومن هنا بدأ احمد بن محمد بن اسماعيل بتأليف ونشر ما سمّي برسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء ، التي كتبها احمد اما بنفسه حسب بعض الدلائل التاريخية ، او امر دعاته الكبار بأن يكتبوها ، ثم القى عليها نظرة اخيرة ، وامر باقي الناس من اتباعه وجماعته من ابناء حركته بأن يستنسخوا هذه الرسائل وينشروها ، وهو الارجح بالنسبة لنا ، وتقع هذه الرسائل حالياً في اربع مجلدات .

رسائل اخوان الصفا .. منهج فكري للحركة

وتحتوي رسائل اخوان الصفا كثيراً من الافكار العقائدية حول علم الكلام والسياسية والاخلاق ، وفي شتى المجالات الاخرى المختلفة . وهي على شكل دروس حركية كانت تلقى في الحلقات الخاصة التي كانت لكبار دعاة

(١) السلمية : قضاء في سورية بمحافظة حماة شرقي نهر العاصي فتحها العرب في سنة ٦٣٦ م وهي مركز الاسماعيلية (الموسوعة العربية الميسرة) .

(٢) تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، ص ١٤٩ نقلا عن سيرة جعفر الحاجب ، ص ١٧ .

الاسماعيلية في البلاد الاسلامية . وكان من اولاد احمد ، الخلفاء الاسماعيليون (الفاطميون) في مصر والمغرب العربي ، وقد كانت الحركة الاسماعيلية على جانب كبير من دقة التنظيم وسرية العمل ، اما الامام فقد كان عندهم اعلى سلطة ومصدر كل تشريع ، والحجة او الباب كان نائب الامام وهو ابنه عادة. اما داعي الدعاة فهو الرئيس والمسؤول الاول امام الحجة عن الدعوة في الاقاليم. اما الداعي المطلق (النقيب) فهو الداعي الذي يصل الى مرتبة يصبح له من الصلاحية ما يؤهله للسفر الى الاقاليم . اما الداعي المأذون فهو يتبع الداعي المطلق ويعاونه ، اما الداعي المحصور فهو يتولى الدعوة في منطقة معينة لا يتعداها فهو محصور فيها حتى يأذن له داعي الدعاة بالانتقال الى غيرها . اما الجناح الايمن والجناح الايسر فيقدمان للداعي المطلق الخدمات اثناء جولاته في الاقاليم ويمدانه بالمعلومات .. اما المكاسر فهو الداعية الذي كان في الاصل مطالبا ثم تفقه في الدعوة وتفوق فيها ، اما المطالب فوظيفته التجسس ومعرفة الاخبار وجذب الناس الى الدعوة ، اما المستجيب فهو المنتسب حديثا الى الدعوة الاسماعيلية [1].

فمن هذا يظهر ان للحركة الاسماعيلية اثنى عشر مرتبة وهي : امام ، حجة او باب ، داعي دعاة ، داعـي بلاغ ، داعي مطلق او نقيب ، داعي محصور ، جناح ايمن او يد يمنى ، جناح ايسر او يد يسرى ، مكاسر ، مطالب ، مستجيب . ومن جملة اساليبهم التنظيمية انهم كانوا يكتمون اسم الامام ، فالرجل كان يصبح اسماعيلياً دون ان يعرف من هو امامه بل ولا يكشفون له اسم الحركة واسم الدعاة الا بعد ان يتدرج عبر مراحل ، ويصل الى مستوى معين ، فبعدئذ يكشفون له عن اسم احد الدعاة . ولذلك استطاعواالتسلل الى المراكز الحساسة في الدولة، وفي بعض الفترات كان حاجب احد الخلفاء اسماعيليا كانوا يكشفون

---

(١) القرامطة (٨٠ - ٨٢) عارف تامر .

للفرد المنظم قضايا الحركة بصورة تدريجية فحين يصل الفرد الى درجة معينة يكشف له عن اسم الداعي ، وبعد ذلك يكشفون له عن اسم الحجة وفي الاخير يكشفون له عن اسم الامام .

منهج الغيبة عند الاسماعيلية

من التعليمات التنظيمية الداخلية عند الاسماعيلية ان امامهم لا يكون ظاهراً . فمنذ ان اختفى محمد بن اسماعيل ، ومن بعده احمد الوفي ، لم يظهر احد منهم الى ان حكموا مناطق من البلاد الاسلامية . فبينما نجد ائمتنا المعصومين (عليهم السلام) ظاهرين يدرّسون الناس ويوجهونهم ، ويعرف الناس بأن هذا امام ويرونه بأعينهم ، نجد امام الاسماعيلية على العكس من ذلك مختفيا لا يدري به احد من هو وأين هو وماذا يعمل؟ فليس غريباً ان نجد احد ائمتهم توفي في سورية ، وآخر في مكة وثالث في القسطنطينية التي كانت آنئذ من بلاد الروم ، مما يدل على ان امام الاسماعيلية والرئيس الاعلى للحركة يتلبس بلباس تاجر ويذهب الى البلاد الاجنبية، وكان بعض أئمتهم يقومون بجولات استطلاعية ، يعمل فيها لحركته بحرية وبعيداً عن اعين الرقباء . وقد تدركه المنية هناك حيث ينقل مهام حركته الى خليفته . وعلى سبيل المثال ، كان احمد بن محمد يدير حركته بشكل مباشر ولا يرسل نواباً عنه للمهام الاساسية، فاذا ما استدعى العمل حضوره في مكان ما، كان يقوم بنفسه بالذهاب اليه ويلتقي بالدعاة ويوجههم ، كما كانت لأئمتهم اسماء حركية بعيدة عن اسمائهم الواقعية ، بل يضعون اسماء دعاتهم على انفسهم وهذا من لطائف الحركة . فمثلاً كان عبد الله واحداً من كبار الدعاة فوضع اسمه على امام زمانهم ، فكانوا يتلاعبون بالاسماء في سبيل تحقيق مصالح حركتهم ، وقيل عن التنظيم الاسماعيلي ايضا انه كان للحركة هرم رأسه الامام وله اربعة من الدعاة الاركان ويسمون (حملة العرش) ويقصد بذلك حملة علم الامام ، الذين يقومون بتغيير كل الروايات والآيات تفسيرا سياسيا ، وحملة العرش بدورهم مرتبطون باربعة دعاة ، وهؤلاء الدعاة لهم امناء والامناء لديهم ايادي والايادي عندهم

انصار يسمونهم بـ (اخوان الوفاء) والاخ هو ذلك الرجل الذي كان قد دخل في حركتهم . اما سائر الناس فيعتبرون جمهورا ، ويجب توجيههم .

وكانت الروح الفدائية ، لدى افراد الحركة الاسماعيلية عالية جداً ، باستلهامهم من بطولات كربلاء ، العزم والتضحية والفداء ، وكثيرا ما يروي لنا التاريخ قصصا تحكي موت الدعاة الكبار في الحركة تحت التعذيب ، ولم يسجل ان احدهم استسلم او أفشى سرا من أسرار حركته .

علاقة الاسماعيلية بائمة اهل البيت (عليهم السلام)

بعد هذا السرد المختصر لتاريخ الحركة الاسماعيلية ، نتساءل : هل كان لهذه الحركة ارتباط وعلاقة مع قيادة الحركة الرسالية الامامية ، ام لا ؟

لقد اجبنا في البداية على هذا السؤال بشكل مختصر حينما بيّنا بأن ميمون القداح، وهو الذي يعتبر العامل الرئيسي في نشأة الحركة الاسماعيلية ، هذا الرجل كان صاحب ومولى للامام الباقر (عليه السلام) وأحد صحابة الامام الصادق (عليه السلام) ، وهو الذي استخلفه على حفيده محمد بن اسماعيل، وهذه الحقيقة تدل على واحد من امرين :

الاول : اما ان يكون ميمون القداح ، قد انحرف من المذهب الرسالي الجعفري ، الى المذهب الاسماعيلي المعروف، وهذا امر مستبعد ، لان بعض فقهاء الشيعة نقلوا عنه الاخبار والاحاديث ووثقوه .

الثاني : او انه كان مكلفا من قبل الامام جعفر الصادق (عليه السلام) ومن بعده الامام موسى الكاظم (عليه السلام) بتأسيس وتحريك طريقة معينة من العمل داخل الأمة الاسلامية في ذلك الوقت ، وهذا ما نراه .

ولقد اثارت شخصية ميمون القداح موجة من التساؤلات بسبب حساسية موقعه من الحركة الاسماعيلية ، ومغالاة ابناء هذه الحركة في حقه وجعله شخصية اسطورية، وايضاً بسبب معاداة المعارضين لهذه الحركة الشديدة لميمون الذي اتهموه بكافة التهم التي يفتريها الطغاة ضد مؤسسي الحركات الثورية .

ونرى ان ميمون القداح لم يكن سوى واحداً من الموالين المتشبعين بروح الثورة ، وقد وفّر له قربه من الامام الباقر ونجله الامام الصادق (عليهما السلام) فرصة كافية لمعرفة اصول الحركة الرسالية .

وحين كلفه الامام الصادق (عليه السلام) بالاشراف على تربية حفيده محمد ابن اسماعيل، الحبيب الى قلوب العائلة المفجوعة بوفاة ابيه اسماعيل ابن الامام الصادق المبكر .. بدأ بتأسيس حركة ثورية معارضة للنظام الطاغوتي ، وهو لا يتحمل سلبيات هذه الحركة ، كما لا يتحمل الشهيد زيد بن علي (عليه السلام) سلبيات الحركة الزيدية في التاريخ ، وقبل ان نسرد بقية قصة ميمون نلقي نظرة خاطفة على نظرات كتب الرجال، والتاريخ حوله وذلك عبر ثلاثة مصادر رئيسية .

اولاً : عن كتاب جامع الرواة الموثق عند فقهائنا ومؤلفه العلامة الاردبيلي .. يقول عن الميمون القداح في المجلد الثاني ص ٢٨٦ ما يلي :

" وجدت في كتاب جبرئيل بن احمد بخطه ، حدثني محمد بن عيسى عن محمد بن الفضل الكوفي عن عبد الله بن عبد الرحمن عن الهيثم بن واقد عن ميمون بن عبد الله عن الباقر (عليه السلام) ، وذكر ما يدل على تشيعه " .

وجاء ايضاً : ميمون القداح مولى بني مخزوم المكي ، مولى بن هاشم روى عنهما . وأورد العلامة الاردبيلي عدداً من الروايات التي رواها ميمون القداح عن الامام الباقر (عليه السلام) والتي هي موضع اعتماد عند علماء المذهب الاثني عشري .

منها : عن علي بن الحكم عن معاوية بن وهب عن ميمون القداح عن ابي جعفر (عليه السلام) في باب ان من عف عن حرم الناس عف عن حرمه في اواخر كتاب النكاح ، ابن القداح عن ابيه عن ابي جعفر (عليه السلام) في باب كراهية ان يبيت الانسان وحده في كتاب المروة .

عنـه عن ابيه ميمون عن ابي جعفر (عليه السلام) فيه وفي باب اتخاذ الاجل بعد

كتاب الدواجن ، عنه عن ابيه ميمون عن ابي عبد الله (عليه السلام) في باب قسمة الغنيمة ، عبد الله بن ميمون عن ابان عن ميمون القداح عن ابي جعفر (عليه السلام) باب النوادر في كتاب فضل القرآن اما عن عبد الله ابن ميمون القداح يقول عنه العلامة الاردبيلي في جامع الرواة ص ٥١٢ ج ١ ما يلي :

" عبد الله بن ميمون الاسود القداح كان يبري القداح المكي مولى بني مخزوم روى ابوه عن ابي جعفر وابي عبد الله (عليهما السلام) وروى هو عن ابي عبد الله (عليه السلام) وكان ثقة . حدثني مهدوية عن ايوب بن نوح عن صفوان بن يحيى عن ابن خالد صالح القماط عن عبد الله بن ميمون عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : يا ابن ميمون كم انتم بمكة ؟ قلت نحن اربعة ، قال : اما انكم نور الله في ظلمات الارض ؟

ثم يورد العلامة الاردبيلي عنده من الروايات التي رواها عبد الله بن ميمون القداح في ابواب الفقه المختلفة عن الامام الصادق (عليه السلام) وعن ابيه عن الامام الباقر (عليه السلام) .

ثانياً : اما المؤرخ المصري ، المقريزي فيقول عنه : " قد وقفت على مجلدة تشتمل على بضع وعشرين كراسة في الطعن في انساب الخلفاء الفاطميين تأليف الشريف المعروف (بأخي محسن) يقول فيها : ان هؤلاء القوم من ولد ديصان الثنوي الذي تنسب اليه الثنوية . وديصان هذا ولد إبناً يقال له ميمون القداح ، وكان له مذهب في الغلو ، فولد لهذا ابن يقال له عبد الله ، وكان عارفا عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وولد لعبد الله هذا ابن يقال له احمد بعد ان مات ، فقام إبنه احمد هذا في ترتيب الدعوة وادعى بأنه من نسل محمد بن اسماعيل . ويؤكد اخو محسن بان عبد الله المهدي او محمد المهدي هو سعيد بن الحسين بن احمد بن عبد الله ابن ميمون القداح بن الثنوي الاهوازي واصلهم من المجوس .

ويـرد المقريزي على هذا القـول ، فيقول : " ان بني علي (رض) قد كانـوا إذ

ذاك على غاية من وفور العدد ، وجلالة القدر عند الشيعة ، فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعوة لابن مجوسي او يهودي ؟ فهذا مما لا يفعله احد ولو بلغ الغاية في السخف والجهل ، وانما جاء ذلك من قبل ضعفة بني العباس عندما غصّوا بمكان الفاطميين .

فإنهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحواً من مأتين وسبعين سنة ، وملكوا من بني العباس بلاد المغرب ، ومصر ، والشام ، وديار بكر والحرمين واليمن ، وخطب لهم ببغداد نحو اربعين خطبة ، وعجزت عساكر بني العباس عن مقاومتهم ، فلاذت حينئذ الى تنفير الكافة عنهم بإشاعة الطعن في نسبهم " [1] .

وعندما عجزوا عن مقاومة الفاطميين والوقوف في وجههم اثناء حكمهم بلاد المغرب ومصر والشام، وديار بكر والحرمين واليمن وبغداد [2]، عمدوا الى الطعن في نسب الائمة الفاطميين ليسودوا صحائفهم وليجروا الناس الى كراهيتهم ، وان القضاة الذين سجلوا شهادة الطعن على السماع في بغداد كانوا من الد اعداء الفاطميين ومن اخلص شيعة بني العباس و لم يعرف عنهم التجرد والنزاهة والصدق بل اشتهروا بكراهيتهم وبغضهم ونقمتهم على آل علي بن ابي طالب (عليهم السلام) منذ ابتداء الدولة العباسية فتآمروا عليهم وطاردوهم وبطشوا بهم اينما وجدوا .

ثالثاً : اما المستشرق الروسي ، البروفسور فلاديمير ايڤانوف فيستنتج من بحوثه حول الاسماعيلية :

١ / ان ميمون القداح وولده عبد الله لم يكونا من الفاطميين اصلاً ، ولم

(١) خطط المقريزي ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٢) " اخذ البساسيري لهم (أي للفاطميين) بغداد سنة ٤٥٠ هـ واقام فيها الخطبة للمستنصر الفاطمي ، وفر الخليفة القائم بأمر الله العباسي ، وسيّرت ثيابه وعمامته وغير ذلك الى مصر . وفي سنة ٤٥١ هـ اقيمت دعوة المستنصر بالبصرة وواسط وجميع تلك الاعمال ، فقدم طغريل الى بغداد واعاد الخليفة العباسي وقتل البساسيري الذي خطب اربعين خطبة في بغداد للمستنصر الفاطمي " (خطط المقريزي ، ج٢، ص١٧٠) .

يجمعهما بهم أية صلة رحم .

٢ / انهما لم يكونا ديصانيين او زنديقين ، بل كانا فقيهين ورعين ، وان الدعوة السرية الالحادية التي تنسب اليهما لم تكن الا من نسج الخيال .

ويرى ايفانوف ان الخلفاء الفاطميين اخفوا انسابهم وفروع ذوي قرباهم ، خوفا من اعدائهم في البلاد الخارجة عن سلطانهم على اولئك الاقربين ، وان قصة ميمون القداح وولده هذه ، ما هي الا اسطورة وخرافة .

ويورد الاستاذ ايفانوف الاحاديث التي وردت في كتاب الكافي في علم الدين برواية عبد الله بن ميمون ، ووالده ميمون القداح ، والاحاديث التي رواها عبد الله ، ونسبها الى والده ميمون ، وعددها مائة وخمسون حديثاً ، منها مائة وثلاثون نقلت من كتاب الكافي والبقية نقلت من كتاب تهذيب الاحكام .

ويخلص ايفانوف الى ان الاحاديث المذكورة توضح ان ميمون القداح كان على صلة بالامام محمد الباقر (عليه السلام) ، وهناك ما يدل على انه كان ضمن خدم اسرة الامام ، وكان الامام الباقر (عليه السلام) يصحبه في جولاته وكان اذا سار استند الى ابن القداح ، ويستدل ايفانوف على ذلك بما ورد في الحديث الرابع ، حيث يوصف ميمون القداح صراحة بأنه مولى الامام محمد الباقر (عليه السلام) وغلام الامام جعفر الصادق (عليه السلام) .

ويستدل ايفانوف ايضا ببعض الروايات السنية التي تصف عبد الله بن ميمون بانه " مولى الامام جعفر الصادق (عليه السلام) " هذا من ناحية ومن ناحية ثانية ينفي ايفانوف تهمة الالحاد عن عبد الله بن ميمون ويستدل على ذلك بان اسمه ورد في كتب الحديث السنية ، مثل ابن النجار المتوفي سنة ٦٤٣ ، والذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ وابن حجر المتوفي ٨٥٢ هـ ، وعبد الله الخزرجي الانصاري المتوفي ٩٢٢ هـ .

ولم تنسب اليه في كتب السنة ، اية دعوة بالإلحاد او الزندقة ، ويصفه اكابر رواة الحديث السنة بصفات مختلفة من ضعيف ، وسقيم ولكن لم يرمه احد منهم

بشبهة الالحاد .

ومن ثم يستنتج ان ميمون القداح كان من الموالي وكان مقيما بمكة وله أهمية محلية ، وكان خادماً مخلصاً للامام محمد الباقر (عليه السلام) ثم ولده جعفر الصادق (عليه السلام) ، ومن الممكن انه كان تاجرا ، وربما كان ايضاً مشرفاً على املاك الائمة في مكة ، وقد كان فيها يعد رجلا ذا شخصية ، وكان له عدة اولاد منهم عبد الله وأبان ، وربما ابراهيم ، وكان ولده ابان عالما يحفظ القرآن ، وليس من المستحيل ان يكون اخوه عبد الله معلما للكتابة وانه دوّن خلال خدمته للامام ما سمعه منه ، وان مجهوده فيها يبدو كان مقتصرا في تدوين الاحاديث التي سمعها من الامام جعفر الصادق (عليه السلام) وليس هناك ما يدل على انه كان مشتركاً في أية حركة الحادية .

ونحن لا نشك في أن الحركة الاسماعيلية على ما هي عليه في الوقت الحاضر قد انحرفت تاريخيا عن خطها الصحيح ، بعد ان وقعت في تناقض موت اسماعيل قبل أبيه الامام الصداق (عليه السلام) وبين امامته في ظل امامة الصادق (عليه السلام) .

كما لا نشك بان الزيدية قد انحرفت هي الأخرى عن خطها الصحيح ، ولا نشك ايضا بأن كثيرا من فئات الموالين قد انحرفوا عن الخط الرسالي الصحيح الذي رسمه لهم الائمة المعصومون (عليهم الصلاة والسلام) .

بيد ان انحراف أي حركة عن خطها الصحيح ، لا يدل على ان هذه الحركة كانت منحرفة من أساسها ، كما لا نستطيع ان نتخذ من انحراف بعض المسلمين اليوم عن خطهم الصحيح ، دلالة على كونهم منحرفين منذ البداية .. او ان الرسالة منحرفة من اساسها .

كما لا نستطيع ان نستدل من انحراف النصارى واليهود عن الحنفية الاولى دليلاً على انحراف الرسالة .

اذن .. ان تكليف ميمون القداح من قبل الامام الصادق (عليه السلام) بالاشراف

على ابن اسماعيل يدلّ على ان الحركة الاسماعيلية كانت حركة ذات اهداف سياسية سليمة منذ البدء .

الحركة الاسماعيلية واشراف الائمة

وقد يقال : لماذا لم يقم الأئمة المعصومون (عليهم السلام) وفي طليعتهم آنئذ الامام الكاظم بتوجيه الحركة السياسية وادارة الاجنحة المختلفة فيها بشكل مباشـر ؟

اجبنا على هذا السؤال فيما سبق بأن الأئمة (عليهم السلام) كانوا يقودون مجموعة شعب مختلفة من الحركة (ثقافية ، واقتصادية ، واجتماعية خلقية ، وعلمية فقهية ، بالاضافة الى الحركات السياسية) وليس من الصحيح ادارياً ان يلتزم امام من ائمة المسلمين بحجم ائمتنا الذين يريدون تغيير وضع فاسد باكمله، ان يلتزم بخيوط الاعمال كلها بشكل مباشر . ان الائمة الهداة كانوا مصدر توجيه الامة الاسلامية ومصدر نورها ومعارفها ، فهم الذين بقوا على طول التاريخ منائر للعلم والزهد والتقوى والجهاد ، ففي الوقت الذي انحسر العلم والفقه عن كثير من ابنـاء الصحابة ، بقي الائمة (عليهم السلام) معروفين لدى النـاس ، بعبارة " ذرية بعضها من بعض " أي انهم لايزالون على ذات الخط الرسالي المستقيم كما كان جدهم الرسول (صلى الله عليه وآله) .

ومن هنا حافظوا على تعدد الحركات المنتشرة في عدة امصار حتى اذا اخفقت حركة ، حملت الحركات الاخرى اللواء الواحدة بعد الاخرى . ولولا هذا العمل من الائمة (عليهم افضل الصلاة والسلام) لما بقي للدين ذكر .

فلم يكن بمقدور الخلفاء ان يحققوا نواياهم الخبيثة مادامت الامة توجه من قبل هذه الحركات الرسالية .

ثم ان عصر الائمة كان يفرض عليهم منطقا معينا ، واساليب خاصة ، قد لاتعجبنا نحن لاننا بعيدون عن ذلك العصر ، ولم نقم حتى الآن بفهم استيعابي شامل لعصر الائمة حتى نعرف بان هذه الاساليب هي التي كانت تقتضيها الظروف .

فمثلاً يطرح سؤال : لماذا طلب المأمون العباسي الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) الى مركز خلافته في خراسان وجعله ولي عهده ، وقال يجب ان تكون الخلافة مستقبلا في البيت العلوي ؟

يقول المؤرخون في الاجابة عن هذا السؤال : ان السبب هو خشية المأمون العباسي من انتشار الحركة الاسماعيلية ، وهذا يثبت الفكرة التي سبق وان نوهنا اليها والتي تقول :

بأن الاسماعيلية كانت مظلة حماية للحركة الرسالية بمعنى ان سيوف الاسماعيلية وحركتهم السرية وتنظيماتهم الداخلية كانت تفسح المجال للإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ثم للإمام علي بن موسى (عليه السلام) ومن جاء بعدهم ، لكي ينشروا معالم الرسالة ويربوا الامة عليها .

فخوفاً من الاسماعيلية كان العباسيون يخففون ضغوطهم على الائمة (عليهم السلام) فينشر الائمة الافكار الرسالية ويوجهون الامة . ويبقى سؤال آخر هو : لماذا تسمى هذه الحركة بالباطنية ؟

الباطنية ماذا تعني ؟

ان كلمة باطن تفسر بتفسيرين :

التفسير الاول : يلتزم به المؤرخون الذين كانوا يؤيدون النظام الطاغوتي اذ كانوا يفسرون الباطنية بانها حركة تؤمن بالتأويل ، ويعنون بذلك ان هذه الحركة كانت لا تلتزم بالقرآن حرفيا ، بل تستوحي من الافكار الوثنية وتدخلها في القرآن الكريم عن طريق التأويل ، أي تركيب هذه الافكار على معاني القرآن ، وتفسير الآيات القرآنية بشكل مغاير لمعانيها الاصلية ، واخفاء ذلك عن الاخرين بحجة انهم دون مستوى ادراكها وفهمها .

اذن كلمة باطن تعني اصحاب العقائد والعادات الباطنية .

التفسير الثاني : تعني السرية ، كما ان الظاهرية تعني العلنية ، هكذا يقول بعض المؤرخين ، ونحـــــن من الذين يؤمنون بان هذه الكلمة (الباطنية) تحمل المعنيين

في نفس الوقت : ولكن ما معنى التأويل ؟

فكرة التاويل ماذا تعني ؟

هل كل تأويل هو تركيب الافكار الباطلة على القرآن ؟ كلا .

ان التأويل هو تطبيق القرآن على احداث العصر وفهمه فهماً عقلانياً ، وهذا مجمع على صحته بين فقهاء المسلمين .

في القرآن الكريم ، آيات يجب ان نفهمها فهما عقلانيا كالآية التي تقول : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء،٧٢)

فهل ان اعمى العين في الدنيا يكون اعمى في الاخرة ؟ كلا . بل ، كل من كان قلبه اعمى ، فانه يحشر اعمى في الآخرة ، وهكذا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة،٢٢-٢٣)

فهل يمكن رؤية الله ، كلا .. بل انها ناظرة الى رحمة ربها ، من هنا نعرف ان كل المسلمين يؤمنون بالتأويل بمعنى تفسيرالقرآن تفسيرا موافقا مع العقل ، ولكن لماذا اتهمت الحركة الاسماعيلية بالذات بالتأويل؟ لانهم كانوا مثلا يقولون بأن الاية الكريمة ﴿ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾ لها ظاهر هي الصلاة والزكاة ولها باطن حيث ان المراد من الصلاة التقرب الى امام المسلمين والمراد من الزكاة تزكية النفس باطاعة امام المسلمين ، كما ان المراد من الحج ان يهاجر الانسان في سبيل الله بأمر امام المسلمين .

فكل الشرائع كانوا يفسرونها هكذا .. وكان ذلك ثغرة نفذ من خلالها المعارضون لهم واخذوا ينتقدون الاسماعيلية بالتأويل ، ويزعمون انهم لا يؤمنون بالصلاة والصيام والحج ، ولكن الواقع ان الاسماعيلية كانت تقول ان الرجل لا يكفي ان يصلي اذا لم تكن له موالاة ، بمعنى انه لا يكفي بأن يكون الرجل ملتزما بجانب من الدين ويترك الجانب الآخر ، يلتزم بالشعائر ويترك اللباب فيعتقد بوجـوب الصلاة ولكن في الوقت نفسـه لا مانع لديه ان يتبـع هـارون الرشيد او المتوكل العباسي او افراد من هذا القبيل ، ويقتل الناس وينهب اموالهم .

فالاسماعيلية كانوا يختلفون في هذا الرأي مع باقي المسلمين، لأن الاسلام لم يأت كقشور فالصلاة ليست مجرد ركعات تركع ، وانما الصلاة الحقيقية هي التي تؤدي بك لأن تتبع الاسلام كله ، وكذلك بالنسبة الى الزكاة والحج .

فالرجل قد يذهب الى الحج خمسين مرة ولكن في ذات الوقت اذا أُمر بأن يذهب في مهمة دينية يرفض ذلك ، فمثل هذا الحج قد لا ينفعه .

انما الحج الصحيح هو الذي يهيئه لأن يعمل ويسعى في سبيل الله لإقامة شرائعه ، وليس الحج مجرد الطواف حول الكعبة، فالانسان انما كلف ان يذهب ويطوف حول الكعبة حتى يستوحي من الكعبة الطاعة لله ، بمعنى انه يؤكد آنئذ انه قربان لله وليس للأحجار .

وتقرب الفرد الى الله انما هو عن طريق العمل بواجباته التي منها التبليغ والجهاد ، لماذا نسعى بين الصفا والمروة ؟ ان مفهوم السعي هو الحركة والعمل والنشاط ، وكما انّ هاجر سعت في سبيل الله . فنحن نسعى ايضاً في سبيل الله . اننا لا نسعى بين الصفا والمروة فقط ، كلا ، بل انه اعداد نفسي لكي نسعى بعدئذ في واجباتنا ووظائفنا الرسالية .

وهذا هو التفسير الصحيح للدين ، والاسماعيلية لم تخطىء عندما فسرت الدين هكذا ، ونحن نعترف للاسماعيلية بهذا الامر ونقول انهم فعلا حركة باطنية ، ولكن اذا قالوا ان الاسماعيلية، في بداية نشأتها، كانت تنفي الواجبات الشرعية والحدود الالهية ، بمعنى انها لم تكن تعتقد بوجوب الصلاة والزكاة والحج وغيرها من الشعائر وتكتفي باطاعة الامام ، فاننا نرفض ذلك اذ الاسماعيلية لم تكن هكذا .

وكدليل على ذلك ان القاضي ، النعمان بن ابي عبد الله محمد بن منصور بن حيون التميمي ، صاحب كتاب " دعائم الاسلام " والذي كانت وما زالت الاسماعيلية تعتبر كتابه مصدراً اساسياً في الفقه، حتى ان بعضهم سمّى القاضي بالمشرع الاسماعيلي ، وتقول الاسماعيلية انه كان احد فقهائهم ، ولكن يبدو لي انه كان اثنا عشريا حيث انه ينقل الاحاديث الفقهية لحد الامام جعفر الصادق (عليه

السلام) ، ولا ينزل عنه الى باقي ائمة الاسماعيلية بالرغم من انه كان في مصر امام الاسماعيلية الثالث عشر وهو المعز لدين الله ابن المنصور ابن القائم بامر الله ابن عبيد الله المهدي ابن الحسين ابن احمد ابن عبد الله (احمد الوفي) ابن محمد بن اسماعيل بن الامام جعفر الصادق (عليه السلام) ولكنه لا ينقل في كتابه عن هؤلاء السبعة من أئمة الإسماعيلية بعد الامام الصادق (عليه السلام) شيئا كما اننا نجد فقهه كالفقه الرسالي الاثنى عشري الا ان مسلك الرسالية الامامية ، في الدولة الفاطمية آنذاك كان اظهار انفسهم كإسماعيليين .

وفي كتاب مستدرك وسائل الشيعة ينقل العلامة النوري بكثرة من كتاب " دعائم الاسلام " وهذا دليل على ان الاسماعيلية لم تكن تعتقد بالباطنية كما يفسرها المؤرخون ذوي العلاقات السلطانية ، اذ انهم كانوا يلتزمون بكل الطقوس الدينية تماما كسائر المذاهب الاسلامية ، وانما كانوا يقولون بأن الحدود الشرعية لا تكفي بل يجب ان تقترن بمضامينها الخلقية والاجتماعية .

فاذا استهدفت شعيرة معينة كالصلاة والصوم والحج والزكاة الى حقيقة ، فالواجب ان لا تترك تلك الحقيقة التي هي الهدف ويؤخذ بوسيلتها فقط وهذا لا يعني عدم الاحتفاظ بقدسية العبادة ، بل يعني تطبيق الاحكام كلها الظاهر منها والباطن ، ويبقى السؤال :

ماذا حققت الاسماعيلية في التاريخ؟

الذي حققته الاسماعيلية في التاريخ هو : انها ومنذ نشأتها في عهد الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) وخلافة محمد بن اسماعيل من ائمتهم ، كونت اقوى حركة في التاريخ الاسلامي، فلم تكن الحركات الاسلامية كالزيدية والرسالية الاثنى عشرية وغيرها ، من ناحية التنظيم الداخلي ووجود الدعاة الاقوياء المرتبطين ببعضهم تشبه الحركة الاسماعيلية .

فالمرجئة والمعتزلة والخوارج وغيرها من الحركات التي كانت موجودة في

البلاد الاسلامية ، وكانت كل حركة تعمل من اجل اسقاط الانظمة الفاسدة والوصول الى السلطة ، وكانت هذه الحركات تتنافى فيما بينها في الاخذ بأسباب القوة ،ولكن الحركة الاسماعيلية كانت اقواها تنظيما داخليا ، كما سبق الحديث حول ذلك .

واستفادت الحركة الاسماعيلية بشكل غريب من الخوارج والمعتزلة وكل الحركات ، وذلك عن طريق التسلل إليها حيث كان الداعية الاسماعيلي يصبح خارجياً ، وبعد فترة يتحول الى احد رؤوساء الخوارج ، بسبب جهوده وعمله الدؤوب ومن ثم يوجه الحركة الخارجية نحو الاسماعيلية . وآخرون يدخلون في حركة المعتزلة والمرجئة ، وهكذا ولكن لانهم من الناحية التنظيمية كانوا اقوياء ، ولانهم توسّعوا من هنا وهناك فكبروا واصبحت حركتهم من كبريات الحركات التاريخية .

ومن هنا كان اثر الحركة الاسماعيلية في الامة كبيراً على صعيدين :

الاول : انها افادت الامة الاسلامية في ابقاء الجذوة التي اشعلها الائمة المعصومون (عليهم السلام) في الامة ، متقدة متوهجة ، وذلك بسبب الحماس الذي بثه نشاط الحركة في الامة .

الثاني : ان الطغاة العباسيين كانوا يخشون جانب الحركة الاسماعيلية بسبب قوتها وانتشارها .

ان الحكام الطواغيت لا يعرفون قيمة للضمير او الوجدان ، حيث انهم يتعاملون مع الناس معاملتهم مع قطيع من الاغنام ، واذا لم يجدوا من يضرب على رؤوسهم بين فترة واخرى لينبههم ، فانهم لا يقفون عند حد في اتباع الشهوات ، وهذا يحدث على طول التاريخ وحدث فعلا في العالم الاسلامي .

ومن هنا كانت الحركة الاسماعيلية والحركات المشابهة رادعة للحكام من التمادي في غيهم والاسترسال في ظلمهم للناس ، وهكذا كان هذا أول وأهم عمل قام به الاسماعيليون (وربما انشأ الائمة عليهم السلام الحركة الاسماعيلية لهذه

الغاية) اذ لم يكونوا يأملون السيطرة على الحكم ، وانما ليصبحوا جبهة عسكرية تعينهم على الاستمرار في التوجيه والقيام برسالتهم الاجتماعية .

وربما نستطيع ان نقول : بأن الفائدة الثانية لهذه الحركة انها عملت حتى حكمت بلاداً كثيرة ، فبالرغم من ان الحركة الاسماعيلية كانت تكتفي بالإعتقاد بستة من الائمة المعصومين، أي الى الامام جعفر الصادق (عليه السلام) ولكن او ليس ذلك افضل من دولة لا تؤمن ابدا بالائمة المعصومين (عليهم السلام) ؟ والدليل على ذلك ان الدولة الفاطمية التي قامت في مصر وبلاد المغرب العربي كانت افضل من سائر الدول .

فمثلاً لقد انشأت الحكومة الفاطمية التي كانت تحكم البلاد جيداً ، وكانت احسن حكومات العهد الاسلامي ، لانها كانت فيها نفحة من الروح الرسالية ، انشأت دار الحكمة ، وكذلك الازهر الشريف ، اول جامعة اسلامية تسودها الحرية الكاملة من الناحية الدينية والمذهبية .

وكان جوهر الصقلي ، قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي الاسماعيلي هو الذي امر ببناء الازهر وجعله يستوعب كل المذاهب من الشيعة والسنة ، وكان الناس يأتون الازهر ليتناقشوا المذاهب الفقهية فيعتقدوا بالطريقة الصحيحة ، وهذا من مفاخر الامة الاسلامية [١].

وكانت الحكومة الفاطمية تؤيد الحركات الرسالية في العالم الاسلامي على طول الخط، واشعار الشريف الرضي دليل على ذلك حيث يقول :

ما مقامي على الهوان وعندي	مقول صارم وانف حمي
احمل الضيم في بلاد الاعادي	و بمصر الخليفة العلوي

(١) في صفر سنة ٣٦٢ هـ في اواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي ، جلس قاضي القضاة ابو الحسن علي بن النعمان القيرواني بالجامع الازهر وقرأ مختصر ابيه في فقه آل البيت (عليهم السلام) وهو المسمى بكتاب الاختصار في جمع حافل من العلماء والكبراء ، فكانت هذه اولى حلقة دراسية بالجامع الازهر ، ثم توالت حلقات بني النعمان بالازهر بعد ذلك ، (خطط المقريزي ج ٤ ، ص ١٢٦) للمزيد انظر دائرة المعارف الشيعية باب الازهر ، ج ٤ ، ص ٦٠ - ٩٧ .

من ابوه ابـــي ومـــولاه مـــولا ي إذا ضـــامني البعيـــد القصـــي
لـفّ عرقـي بعرقـه سيـدا النـا س جميعـــا محمـد وعلـــي

ان الشريف الرضي يفتخر بأبياته هذه بأن هناك حكما علوياً في مصر ، فكيف يحمل الضيم في بلاد الخليفة القادر العباسي (بلاد الاعادي) .

ولما سمع الخليفة العباسي هذه الابيات طلب من الشريف المرتضى وهو الاخ الاكبر للشريف الرضي ان يتراجع اخوه عن هذه الابيات ، التي فضح فيها خطط العباسيين في تشويه نسب الخلفاء الفاطميين[1] واطمعه في تنفيذ جميع مطالب ورغبات الشريف الرضي .

اننا نجد الخليفة العباسي يتعامل مع رموز الرساليين بهذه الصورة بينما نجد العباسيين من قبل في ايام هارون الرشيد يقتلون في ليلة واحدة ستين طالبيا ، ويلقون بالإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) في السجن لسنوات عديدة ، فهل اصبح القادر العباسي متدينا زاهدا ومؤمنا وورعا، بينما هارون لم يكن كذلك ؟ كلا .

فالقضية ان هؤلاء كانوا يخافون من ذلك الحكم القائم بمصر ، الذي كان يبث دعاته في كافة البلاد الاسلامية فخوفا من ذلك الحكم ومن ميل الناس إليه ، كانوا يعطون الحرية للشريف الرضي ولخطه الفكري المتحرر ، ومن هنا نجد انه يحضر درس الشريف المرتضى عدد هائل من الناس ، وعندما توفي حضر جنازته آلاف المشيعين .

ان قادة الحركة الرسالية وصلوا الى هذا المستوى من الحرية في عاصمة الخلافة العباسية ، لأن الحكم الفاطمي كان يراقب العباسيين عن كثب ، فنتيجة للحكم الفاطمي والحركة الاسماعيلية في التاريخ ، اعطى العباسيون الحرية للحركة الرسالية ونحن مدينون لهذه الحركة .

---

(١) كتب العباسيون سنة ٤٠٢ هـ محضراً بامر القادر العباسي يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر " تاريخ ابي الفداء ج ٢ ص ١٤٢ " .

ويقول المقريزي في خططه (ج ٢ ص ١٧٠) : " وكتب (ايضا) محاضر في بغداد سنة ٤٤٤ هـ بالقدح في نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الانتساب لعلي بن ابي طالب وسيّرت في الافاق ".

الحركة الرسالية في عهد الامام الرضا عليه السلام

تنامي الحركة الرسالية

حينما قتل الامام الحسين (عليه السلام) تحولت الحركة الرسالية الى حركة جماهيرية تلتزم بها اوسع الجماهير ، وبعدئذ والى آخر حياة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) كان الخط الرسالي ينمو ويترعرع ، يغذيه ويوجهه جهاد الائمة المعصومين والصفوة من الرساليين في الامة ، الامام علي بن الحسين ، والامام محمد بن علي ، الامام جعفر بن محمد ، ومن ثم الامام موسى بن جعفر (عليهم السلام). وفي عهد الامام الرضا ، كانت الحركة الرسالية في عنفوان شبابها .

وهذا يعني ان الحركة الرسالية مرّت بمراحل ثلاث :

المرحلة الاولى : ما قبل استشهاد الامام الحسين (عليه السلام) .

المرحلة الثانية : تنتهي بوفاة الامام موسى بن جعفر مسجوناً في بغداد .

المرحلة الثالثة : تبدأ بعهد الامام الرضا (عليه السلام) .

الحركة الرسالية حركة متنامية

وبعد غيبة الامام الثاني عشر (عجل الله فرجه) تواصل نمو الحركة وانتشارها حتى اكتملت واصبحت ناضجة . وهذا التفسير قد لا يعجب الكثير من المؤرخين

وخصوصاً المؤرخين الذين تعوّدوا ان ينظروا الى التاريخ بمنظار اسود ويفسروه تفسيراً منكوساً ، يبدأ من الاخير وينتهي بالأول .

ويعتقدون ان الامة الاسلامية بعد ان كانت امة حميدة رشيدة في ايام الرسول ، انتكست في ايام الامام علي (عليه السلام) ثم ازدادت انتكاسا ايام الامام الحسين (عليه السلام) وفي ايام الامام الرضا (عليه السلام) كانت الامة قد وصلت الى الدرك الاسفل .

كلا .. ان الفكرة غير سليمة ، بل ان كل رسالات السماء كانت في حالة تصاعد ونمو ، رسالة نبينا نوح ، ثم ابراهيم ، وموسى وعيسى. وهكذا رسالة نبينا الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله) حيث ولدت وتصاعدت بعد الرسول بأيدي الائمة المعصومين (عليهم السلام) ولا تزال تتصاعد وتتصاعد الى ان يأتي الامام الحجة (عليه الصلاة والسلام) فيملاء الارض قسطاً وعدلاً ، بعد ان ملئت ظلماً وجوراً .

حياة الامام الرضا (عليه السلام) فاتحة عهد جديد

والآن لنحاول التعرف على حياة الامام الرضا (عليه السلام) وسماتها وابرز مميزاتها . تلك الحياة التي لاتشبه حياة والده التي قضاها من سجن الى سجن .. بل كانت حياة مختلفة جديدة تتمتع بنوع من الانفراج والحرية ، وكذلك كانت حياة ابنائه الامام الجواد والامام علي بن محمد الهادي ، والامام الحسن العسكري (عليهم افضل الصلاة والسلام) وقد روي عنه (عليه السلام) انه كان يقول : " والحمد لله الذي حفظ منّا ما ضيّع الناس ، ورفع منّا ما وضعوه ، حتى قد لُعنّا على منابر الكفر ثمانين عاما ، وكتمت فضائلنا وبذلت الاموال في الكذب علينا والله عز وجل يأبى لنا الا ان يعلي ذكرنا ويبين فضلنا ، والله ما هذا بنا وانما هو برسول الله (صلى الله عليه وآله) وقرابتنا منه ، حتى صار امرنا وما نروي عنه (صلى الله عليه وآله) انه سيكون بعدنا من اعظم آياته ودلالات نبوته[1].

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٩ ، ص ١٤٢ .

ان التمعن جيدا في هذه الرواية يوضح لنا حالة التصاعد التي كانت تمر بها الحركة .. ولكن كيف اصبحت كذلك ؟

من الناحية السياسية ، تميز عهد الامام موسى بن جعفر بعهد بناء اسس الثورة الرسالية ، وقد سبق وان تحدثنا عن طريقة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) التي كانت متمثلة في رفع مستوى الامة والنهوض بوعيها ودفعها الى التضحية والجهاد لتصل الى مستوى يمكّنها من استلام الحكم .

وكان الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) يستطيع اذا ضحى ببعض مبادئه وقيمه ووسائله ان يكون هو الحاكم ، ولكن حاشاه ذلك وإنما أراد هدفا وأراد ان تكون الوسيلة لذلك الهدف ، من نوع واحد ، فيكون هدفه ووسيلته كلاهما من نوع رسالي ، مشبع بالقيم والطرق الصحيحة .

لذلك ضحى بنفسه ، ولذلك بقي في السجن ولذلك استشهد (عليه السلام) .

وانا شخصياً لا اتّفق مع الذين يتخذون من مأساة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) مادة للحزن والبكاء فقط ، ولا يذهبون ابعد من ذلك ليروا الحقيقة وهي: ان الامام موسى بن جعفر كان كالامام الحسين (عليه السلام) فكلاهما قتلا ، وكلاهما استشهد . احدهما اغتيل بالسم وهو في غياهب السجون ، والآخر قتل بالسيف .

ولم يكن الامام الحسين (عليه السلام) مجرد مظلوم يستشهد ، وانما استطاع بقتله ان يسقط الحكم الاموي . وكذلك الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) استشهد مسموماً في سجن بغداد ، ولكن باستشهاده استطاع فرض نفسه والائمة من بعده (السلطة الشرعية) على السلطات الحاكمة .

فتجد ان المأمون العباسي مثلا وهو اذكى الخلفاء العباسيين ، يصف الامام علي (عليه السلام) في روايته الملحمية فيقول :

" يؤمر على الجميع ولا يؤمر عليه احد ، اشد الناس وطأة على المشركين ، واعظمهم جهادا في الله ، وافقههم في دين الله ، واقرأهم لكتاب الله ، واعرفهم

بالحلال والحرام ، وهو صاحب الولاية في غدير خم ، وصاحب قوله : أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي ، وصاحب يوم الطائف ، وكان احب الخلق الى الله تعالى والى رسول الله (صلى الله عليه وآله) [1].

المأمون رجل السلطة والحكم ، الذي لا يهمه دين ولا قيم ولكنه يبعث رسالة الى الامام علي بن موسى الرضا ، وهو في المدينة ويأتي به الى حاضرة ملكه (خراسان) ويطلب منه بعد ذلك ان يتولى الحكم بدلا منه ؟.

وفي رواية ان اول عمل قام به المامون العباسي انه قال للامام (عليه السلام) :

" يا ابن رسول الله قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك وورعك وعبادتك ، وأراك أحقُّ بالخلافة منّي " ، فقال الامام الرضا (عليه السلام) : " بالعبودية لله عز وجل افتخر ، وبالزهد في الدنيا ارجو النجاة من شر الدنيا ، وبالورع عن المحارم ارجو الفوز بالمغانم ، وبالتواضع في الدنيا ارجو الرفعة عند الله عز وجل " .

فقال له المامون :" فانّي قد رأيت ان اعزل نفسي عن الخلافة واجعلها لك وأبايعك " فقال الامام الرضا (عليه السلام) :

" ان كانت هذه الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز ان تخلع لباساً البسكه الله وتجعله لغيرك ، وان كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك ان تجعل لي ما ليس لك " [2].

ومعنى ذلك ان الخلافة مسؤولية واجبة وليست حقاً يتنازل عنه الفرد . فمن حق الانسان ان يتنازل عن ماله ومغنمه ، بينما الخلافة ليست مكسبا ولا مغنما .

ولكن يبقى سؤال : كيف اصبح الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) بهذه القوة السياسية حتى يتنازل المأمون العباسي عن الخلافة له ؟

لقد اضحى الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) القائد الفعلي للامة ، فالامة الاسلامية الممتدة من المغرب العربي غرباً والى حدود الصين شرقاً ، كانت

---

(١) المصدر ، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر ، ص ١٢٨ .

تخضع للامام (عليه السلام) وتعتقد بانه الامام الحقيقي .

ولم يصل الامام الى هذا المستوى بين عشية وضحاها ، انما كان ذلك بجهاد الائمة المعصومين (عليهم السلام) وحركتهم ومنهجهم الذي نشروه في الافاق والذي ربّى الاجيال ورفع مستوى الوعي عند الناس لتحمل مسؤوليتهم وللدفاع عن القيم الرسالية والتضحية بكل غالي ونفيس ، كل ذلك هو الذي جعل الامام بتلك الدرجة من القوة .

ولقد حاول المأمون العباسي ان يستغل قوة الامام الرضا لصالحه ، وذلك بالمساومة معه، وربما الدخول معه في ائتلاف . ويعتقد البعض بان المامون كان شيعي المذهب ، وانه تشيع بعد ان شاهد والده هارون الرشيد يقوم باحترام الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) في المدينة المنورة ، ويأمر بنيه بالوقوف لخدمة الامام : " يا عبد الله ويا محمد ويا ابراهيم ، كونوا بين يدي عمكم وسيدكم ، خذوا بركابه ، وسوّوا عليه ثيابه ، وشيعوه الى منزله .. "

وكذلك بسبب ان الامام الكاظم كان قد بشّره بالخلافة : " اذا ملكت هذا الأمر فأحسن الى ولدي " .

ثم ان المأمون يسأل اباه بعد ان خلا بهما ذلك المجلس ، يقول المأمون : قلت يا امير المؤمنين من هذا الرجل الذي عظمته واجللته ، وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته واقعدته في صدر المجلس وجلست دونه ، ثم امرتنا بأخذ الركاب له ؟ قال : هذا امام الناس وحجة الله على خلقه ، وخليفته على عباده ، فقلت : يا امير المؤمنين اوليست هذه الصفات كلها لك وفيك ؟

فقال : انا امام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر ، وموسى بن جعفر امام حق ، والله يا بني انه لأحق بمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) مني ، ومن الخلق جميعاً ، ووالله لو نازعتني هذا الامر لأخذت الذي فيه عيناك ، فإن الملك عقيم" [1].

---

(١) المصدر ، ج ٤٨ ، ص ١٣١ .

فالمأمون العباسي ومنذ ذلك اليوم - حسب ما يقوله هو - اصبح شيعياً، ولكني ارى ان السبب في محاولة المأمون تقليد الرضا الخلافة ليس هو تشيعه ، وانما بسبب فرض الحركة الرسالية نفسها على الواقع ، بشكل لا يمكن تجاوزها .

ان نظرة خاطفة الى عهد هارون العباسي لاستقراء بعض التفاصيل في عهد المأمون ، كفيلة باعطائنا صورة عن المرحلة الثالثة من حياة الائمة المعصومين (عليهم السلام) وعن الحركة الرسالية .

روي عن صفوان بن يحيى قال :" لما مضى ابو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) وتكلم الرضا (عليه السلام) خفنا عليه من ذلك ، فقلت له : انك قد اظهرت أمـراً عظيما وانما نخاف عليك من هذا الطاغي (يعني هارون) فقال : "ليجهد جهده فلا سبيل له عليّ " .

فقال صفوان : فاخبرنا الثقة ان يحيى بن خالد قال للطاغي :" هذا علي ابنه قد قعد داعي الأمر لنفسه ، فقال : ما يكفينا ما صنعنا بابيه تريد ان نقتلهم جميعاً ؟ [1].

وعن موسى بن مهران قال : " سمعت جعفر بن يحيى يقول : سمعت عيسى بن جعفر يقول لهارون : حين توجه من الرقة الى مكة : " اذكر يمينك التي حلفت بها في آل ابي طالب ، فانك حلفت إن إدّعى احد بعد موسى الامامة ضربت عنقه صبراً ، وهذا علي ابنه يدّعي هذا الامر ويقال فيه ما يقال في ابيه ، فنظر إليه مغضباً فقال : ما ترى ؟ تريد ان اقتلهم كلهم ! قال موسى : فلما سمعت ذلك صرت اليه فأخبرته فقال (عليه السلام) : مالي ولهم والله لا يقدرون اليّ على شيء [2].

وعن ابي الصلت الهروي قال : " كان الرضا (عليه السلام) ذات يوم جالسا في منزله اذ دخل عليه رسول هارون الرشيد فقال : " اجب امير المؤمنين ، فقال (عليه السلام) لي : يا ابا الصلت انه لا يدعوني في هذا الوقت إلاّ لداهية ، فوالله لا يمكنه

---

(١) المصدر / ج ٤٩ / ص ١١٣ .

(٢) المصدر / ص ١١٣ .

ان يعمل بي شيئاً اكرهه لكلمات وقعت اليّ من جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

قال : فخرجت معه حتى دخلنا على هارون ا لرشيد فلما نظر اليه الرضا (عليه السلام) قرأ هذا الحرز ، فلما وقف بين يديه نظر اليه هارون الرشيد وقال :" يا ابن الحسن قد امرنا لك بمائة الف درهم واكتب حوائج اهلك " فلما ولّى عنه علي بن موسى (عليه السلام) وهارون ينظر اليه في قفاه قال : " أردت وأراد الله وما اراد الله خير " [1].

هذه الروايات وغيرها تشكل صورة عن الوضع بين المعارضة والسلطة العباسية. وبربط الاحداث السابقة باللاحقة ، نرى ان الذي ذكرناه في حياة الامام الكاظم (عليه السلام) كان عملية مخاض ولّدت هذا الوضع الجديد والذي بدوره استمر في تطوره الى عهد المأمون . ويمكننا ان نجمع العوامل المساعدة بما يلي :

اولاً : قوة المعارضة

فالمعارضة بدأت تشتد وتأخذ مواقع القوة في مواجهتها مع السلطة ، فبمطالعتنا ملف الاحداث نقرأ عن ثورة ابي السرايا ، (السري بن منصور) والذي كان يقودها محمد بن ابراهيم بن اسماعيل ابن طباطبا بن ابراهيم بن الحسن بن الامام الحسن بن علي بن ابي طالب (عليه السلام) والتي كانت في سنة ١٩٦ هـ حيث امتد نفوذ سلطتها على الكوفة وواسط والبصرة والاهواز والحجاز واليمن، وسنفصل الحديث حولها فيما بعد .

وايضا نقرأ عن محمد بن الامام جعفر الصادق (عليه السلام) ونهوض عبد الرحمن بن عبد الله العلوي في سنة ٢٠٧ هـ ، وقيام علي بن عبد الله بن خالد المعروف بالسفياني في الشام .

ولقد كانت ثورة ابي السرايا هي الاشد وطأة على النظام العباسي حيث تداعت

---

(١) المصدر ، ص ١١٦ .

معظـم قوته للقضاء عليها ، وتجزأت بعد ذلك الى عدة جبهات في مواجهة السلطة، فصارت جبهة في اليمن يقودها ابراهيم بن موسى الكاظم (عليه السلام)، وزيد بن موسى الكاظم (عليه السلام) في جبهة الاهواز ، ومحمد بن جعفر الصادق (عليه السلام) في جبهة مكة وهكذا .. [١].

هـذا هو وضع المعارضة ذات الشكل العسكري العلني، اما عن اشكالها الاخر : ففي الجهاز الاداري ، كان الفضل بن سهل وزير المأمون الملقب بذي الرياستين[٢] والفضل بن الربيع الوزير الاخير لهارون ومن ثم لابنه محمد الامين ، وابو الصلت الهروي والذي كان بمثابة مستشار المامون ومثله الريان بن الصلت ايضا - كانوا يشكلون دعائم معارضة قوية .

اما في الجهاز العسكري : فالقائد المشهور هرثمة بن اعين وطاهر بن الحسين الخزاعي وغيرهما ، هذان كانا يعتقدان بالتشيع وربما كان طاهر بن الحسين اكثر ولاءاً لعقيدته الا انهما كانا يرتأيان اسلوب الضغط السياسي البطيء على السلطة لكي تتحول الى مسارها الشرعي بخلافة الائمة المعصومين (عليهم السلام) .

ومن جانب آخر ان السلطة كانت تطوعهما بالعطايا وتوليهما على الامصار فمثلا : هرثمة بن اعين كان رافضا محاربة ابي السرايا الا ان كتاب المنصور بن المهدي كان معسولاً لدرجة انه ابكى هرثمة هذا ، أضف الى ذلك كله دافع الشهوة والسلطة الذي كان في نفسه .

---

(١) في سنة تسع وتسعين ومائة ، خرج ابو السرايا السري بن منصور الشيباني بالعراق واشتد امره ، ومعه محمد بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، وهو ابن طباطبا ، ووثب بالمدينة محمد بن داود ابن الحسن بن الحسن بن علي ، ووثب بالبصرة علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن ، وزيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، فغلبوا على البصرة .

(٢) سمّي بذي الرياستين لانه كان صاحب الوزارة ووزارة الجند .

اما طاهر بن الحسين فانه بعد انتصاراته في حروبه ، ولّي هرات لكي يكون بعيداً عن الساحة ، وكان المأمون يخشاه ، وكانت سلالة طاهر بن الحسين الخزاعي كلها تتشيع حتى ان سليمان بن عبد الله الطاهري عندما حارب الحسن بن زيد الناهض بطبرستان : " تأثم سليمان من قتاله لشدته في التشيع " حسب ما يقول ابن الاثير ، وقد كان لطاهر حرم ببغداد يأمن من دخله ، وقد دعى طاهر بن الحسين لقتال ابي السرايا فكتب :

قناع الشك يكشف اليقين — وأفضل كيدك الرأي الرصين
تثبت قبل ان ينفذ فيك امر — يهيج لشره داء اليقين
اتندب طاهراً لقتال قوم — بنصرتهم وطاعتهم يدين[1] .

وان ما كان عليه طاهر من المكانة في السلطة العباسية يفسر كيف ان دعبل الخزاعي شاعر اهل البيت كان يقول الاشعار علانية يخاطب المأمون بقوله :

اني من القوم الذين سيوفهم — قتلت اخاك وشرّفتك بمقصد

وهذا يعبر عن مدى قوة تفوذ التشيع في الجهاز العباسي الحاكم .

ثانياً : شخصية الامام الرضا (عليه السلام)

والعامل الاخر والاهم هو : شخصية الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) والتي كانت الجماهير تندفع بقلوبها اليه حتى ان المأمون في حاضرة ملكه كان ولمرات عدة يستنقذ الموقف الذي كان يهدد باسقاطه ، فكان الناس يغشى عليهم من البكاء عندما يرون الامام ، حدث هذا كثيرا في طريق ذهاب الامام الرضا الى خراسان والذي استغرق مسيره عدة شهور ، عندما استدعاه المأمون . كل ذلك مع ما كان لشخصية الامام من المستوى العلمي والذي ظل منهلا دائما للامة ، وحجة في وجه التيارات الفكرية الناشئة انئذ ، فمن اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين والدهرية وغيرهم من انواع الزنادقة ، يشهد الحق

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٣٥٦ .

بما كان للامام الرضا (عليه السلام) من دور في رد اباطيل وخداع هذه الفلسفات والعقائد المزيفة ، ومن هنا نستطيع ان نفسر كيف ان اغلب الاحاديث والنصوص الواردة عن الامام الثامن الرضا (عليه السلام) كانت في التوحيد وبقية مباني العقائد ، حتى انه اشتهر ان من يحاجج تلامذة الامام ، فلابد ان ينخسئ راجعا عن قوله . ولم تكن البدع التي ظهرت في زمان الامام (عليه السلام) بالهينة فنرى ان رجلا يدعي النبوة وآخر يدعي انه ابراهيم الخليل وهكذا ...

وظاهرة اخرى : ان الامة كانت تعيش حالة الانحلال الخلقي ، وكان ذلك ناشئا من تيار النظام الفاسد ، حيث كان يشق في ارض الجماهير الواسعة روافده الملوثة ، وسوف نستعرض فيما بعد مظاهر هذا الانحلال ، بينما كان الامام الرضا في المقابل يغذي عطش الامة الروحي ، لانها تعرفه قطبا روحيا تنجذب اليه بسبب زهده وعبادته وتقواه وغيرها من الصفات الايمانية .

فلا زالت الامة ترتع الخصب من ربيع هذا البيت الذي طهر الله اهله من الرجس، وتنهل من مشرعته وتستقي من سائغ نميره .

ثالثاً: أما العامل الثالث لظهور المرحلة الثالثة هذه وتطورها وعلى الخصوص الجانب السياسي منها هو : استمرار تهالك السلطة امام المعارضة مع ضرب النظام نفسه من الداخل . فبعد هارون العباسي عرفنا ما وقع بين الامين والمامون من حروبهم ، ثم جاء عمهم ابراهيم (١٤ يوماً) ثم رجع الامين من بعد عمه فحكم (سنة و ٦ اشهر و٢٢ يوماً) ونصب ابراهيم ثانيا حتى جاء المامون الى بغداد فعادت اليه الخلافة ، هذا من حيث الصراع بين اقطاب النظام . اما بالنسبة للوزراء فان الخليفة العباسي عندما يظن ان وزيرا او قائدا عسكريا قد تشيع ، فان مسألة ضرب عنقه هي امر محتوم ، فما رأينا من تصفية الفضل بن سهل ذي الرياستين من قبل المامون وتصفية هرثمة بن اعين القائد الذي طالما جلب الانتصارات للسلطة العباسية والذي بقتله ثار غضب رجال الجيش .

رابعاً: المظالم الكثيرة ، فقد راينا ثورة اهل خراسان على والي الرشيد " ابن ماهان " فقد بات امراً طبيعياً ان تسمع بين حين واخر قيام مصر من الامصار على واليهم ، كما وشاعت حالات التكفف والاستجداء ، وعمليات الارهاب التي يفرضها العسكر .

خامساً: ضعف السلطة المركزية على الولايات جعل الحكم العباسي يولي جل اهتمامه للعسكر الذي له ضريبته المالية والنفسية ، ولم تكن كأي ضريبة ، ونستطيع وصف السلطة العباسية بأنها كانت في مقر الخلافة اما في الامصار فقد كان الولاة ، وكان الذي يحافظ على الاتصال بين عاصمة الحكم وبين الولاة هو الجيش لا غير ، وكان كل والٍ له مركز شرطة لا يقوى على الوقوف امام نهوض شعبي اذا ما قام . ولذلك نرى ان المأمون لما ولى محمد الزبادي سنة ٢٠٢ هـ بلاد تهامة ارسل معه جيشاً لكي يعيد سلطة العباسيين عليها، إلاّ ان محمداً سرعان ما كوّن بهذا الجيش الذي لديه ، دولة مستقلة ، وهي دولة الزبادية في اليمن .

لقد كان الترابط العضوي بين الرأس وباقي الاعضاء في الحكم العباسي على وشك الانحلال والتمزق ، والذي بقي كرابط وحيد هو الجيش فقط وذلك لضمان وصول الاموال الى مقر الخلافة ، حتى انه في حادثة خلع الامين اخاه المأمون من ولاية العهد ، قام بمشورة افراده وأركان النظام الذين لابد من موافقتهم ، فقال له هرثمة بن حازم : " يا امير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك، لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك " (١). وهذا يدل على ان قواد الجيش كانوا هم السلطة الحقيقية بعد الخليفة .

سادساً : تفشي الصفات السيئة والانحطاطية في النظام ، والذي بدوره يشيعها في الناس ، كالرشوة والغدر وبيع الضمائر والى آخر امثال هذه الصفات ، وعلى سبيل

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ .

المثال لا الحصر ان جعفر بن يحيى وهو احد الوزراء المعتمدين في الخلافة العباسية كان يجلس للشراب ويخلو بندمائه الذين يأنس اليهم ، ثم يهيء المجلس ويلبسون الثياب المصبوغة ويغرقون في الفواحش ، حتى انه مرة جاء عبد الملك بن صالح بن علي العباسي الى هذا المجلس ، وكان شديد الوقار والحشمة في البيت العباسي ، فلما رآه جعفر بن يحيى استحى ، إلاّ ان عبد الملك بادره قائلا : " لا بأس عليكم احضروا لنا من هذه الثياب المصبغة فاحضروا له قميصاً مصبوغاً فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه وقال : اسقونا من شرابكم ، فسقوه فقال : ارفقوا بنا فليس من عادتنا الاكثار من الشراب ثم أخذ يمازح ويعربد . هذه احدى القصص التي يوجد المئات من امثالها في كتب التاريخ .

سابعاً : وجود الدويلات المستقلة عن السلطة العباسية كالادارسة والاغالبة ووجود هذه الدول يجعل هنالك حدا للامتداد والافساد المستشري في الدولة العباسية .

لهذه الاسباب نعرف ان الضغط الجماهيري الذي كان يطالب بالخلاص من القيادة الفاسدة الحاكمة باسم الدين ، واعادة الخلافة الى مجراها الشرعي المتمثل في الامام الرضا (عليه السلام) كان قوياً . حتى ان المأمون بعد تقليده ولاية العهد للامام طلب منه ان يركب ويحضر العيد حيث قال المأمون : " لتخطب فتطمئن قلوب الناس وليعرفوا فضلك وتقر قلوبهم ".

وقد قلنا في السابق انه في ايام المأمون كانت هناك دولة تابعة للرساليين في المغرب وهي دولة الادارسة وكذلك كانت في الحجاز دولة بقيادة محمد بن جعفر الصادق، عم الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) .

وقد ثار محمد بن جعفر في المدينة المنورة التي ظلت تشكل القيادة الروحية والعلمية للامة الاسلامية ، حيث ان الشافعي ومالك بن انس وابو حنيفة (كان ابو حنيفة من الكوفة ولكنه كان يقيم في المدينة للدراسة) ، هؤلاء كانوا في المدينة المنورة وهي منطقة اساسية واستراتيجية بالنسبة للدولة الاسلامية آنئذ .

وقد بايع اهل المدينة محمد بن جعفر على انه احق بالخلافة من المأمون ومن البيت العباسي كله ، و لم يقر للمأمون قرار فبعث بجيش جرار لمحاربة محمد وانهزم محمد بن جعفر ، ولكن لم يستطع المامون العباسي قتله مع انه قبض عليه في النهاية .

ليس لان المأمون كان رجلا تقيا فلم يقتل محمداً الثائر عليه فالمأمون هو حفيد الهادي العباسي الذي قتل ونكل باسرى فخ من الاطفال والنساء والشيوخ بعد ان جيء بهم الى ذلك الطاغية ، فقام احد الشعراء المتزلفين والقى شعراً حاقداً فأمر الهادي بقتلهم عن بكرة ابيهم .

فالمأمون العباسي من نفس تلك الشجرة الخبيثة ، وهو الذي لم يتورع عن قتل ساعده الايمن الفضل بن سهل ، فكيف يحجم عن قتل عدوه محمد ، بل انه طلبه فجاؤوا به الى خراسان فأكرمه واعزه واعطاه من الاموال والضياع بالمقدار الكافي وتسامح معه برغم انه لم يبايعه بعد ذلك ، بل وبقي يشتمه ويتكلم ضده في مجلسه، فلم يسلم منه المأمون الى ان مات ، فلما مات شيعه المأمون وجاء شخصياً ونزل الى القبر واخذ جسده ودفنه ثم قال لابناء محمد : " كم كان ابوكم مديوناً ؟ " قالوا : ثلاثون ألف درهماً ، فقال : قضى الله دينه " فتكفل بدفع دين محمد .

ان المأمون لم يجرء على قتل محمد لان الحركة الرسالية آنئذ كانت قد وصلت الى مستوى عظيم من القوة ، والرسوخ ، والانتشار بين قطاعات الدولة الرسمية منها والشعبية .

ثورة ابي السرايا

خرج محمد بن ابراهيم بن اسماعيل وهو ابن طباطبا بن ابراهيم بن الامام الحسن بن علي بن ابي طالب (عليه السلام) الى الكوفة وكان على موعد مع السري بن منصور (احد بني ربيعة) بن ذهل بن شيبان (ابي السرايا) في يوم حددوه .

وكان ابو السرايا قد جاء الى قبر الامام الحسين (عليه السلام) ليجمع من يرى من الرساليين ، حيث ان قبر الامام الحسين (عليه السلام) ظل منطلقا للثورات ، ومركزا يلجأ اليه الثوار .

قال نصر بن مزاحم[1] : حدثني رجل من اهل المدائن قال : كنت عند قبر الامام الحسين (عليه السلام) في تلك الليلة وكانت ليلة ذات رعد ومطر ، وإذا بفرسان قد اقبلوا فترجلوا الى القبر فسلموا واطال رجل منهم الزيارة ، ثم جعل يتمثل ابيات منصور بن الزبرقان النمري :

نفسي فداء الحسين يوم غدا	الى المنايا غدواً ولا قافل
ذاك يوم أنحى بشفرته	على سنام الاسلام والكاهل
كأنما انت تعجبين ألا	ينزل بالقوم نقمة العاجل
لا يعجل الله إن عجلت وما	ربك عما ترين بالغافل
مظلومة والنبي والدها	يدير بالارجاء مقلة جافل
الا مساعير يغضبون لها	بسلة البيض والقنا الذابل

قال : ثم اقبل عليّ فقال : ممن الرجل ؟

فقلت : رجل من الدهاقين من اهل المدائن .

فقال : سبحان الله يحن الولي الى وليه كما تحن الناقة الى فصيلها ، يا شيخ : ان هذا موقف يكثر لك عند الله شكره ويعظم أجره ، قال : ثم وثب فقال : من كان ها هنا من الزيدية فليقمِ اليّ فوثبت إليه جماعات من الناس ، فدنوا منه فخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها اهل البيت وفضلهم وما خصوا به وذكر فعل الامة بهم وظلمهم لهم وذكر الامام الحسين بن علي (عليه السلام) فقال : ايها الناس هبكم لم تحضروا الحسين لتنصروه فما يقعدكم عمّن ادركتموه ولحقتموه؟ وهو غدا خارج طالباً بثأره وحقه وتراث آبائه واقامة دين الله ، وما يمنعكم من نصرته ومؤازرته ؟ انني خارج من وجهي هذا الى الكوفة للقيام بامر الله ، والذب عن دينه والنصر لاهل بيته ، فمن كان له نية في ذلك فليلحق بي ، ثم مضى من فوره عائدا الى الكوفة ومعه اصحابه .

---

(١) انظر ثورة ابي السرايا ، مقاتل الطالبيين ، ص ٣٤٤ - ٣٥٧ ومن ص ٣٦١ - ٣٦٦ . .

قال : واظهر محمد بن ابراهيم نفسه في الكوفه ومعه علي بن عبد الله بن الحسين ابن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) ، واهل الكوفة منبثون مثل الجراد ، إلا انهم على غير نظام وغير قوة ولا سلاح الا العصي والسكاكين والاجر ، فلم يزل محمد ينظر ابي السريا ، حتى طلع عليهم من نحو الجرف ، فتنادى الناس بالبشارة فكبروا .

فأقبل ابو السريا ومن معه ، فلما ابصر محمد بن ابراهيم ترجّل واقبل إليه فانكب عليه واعتنقه محمد ، ثم قال : يابن رسول الله ، ما يقيمك ها هنا ؟ ادخل البلد فما يمنعك منه احد ، فدخل هو وخطب الناس ، ودعاهم الى البيعة الى الرضا من آل محمد والدعاء الى كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسيرة بحكم الكتاب ، فبايعه جميع الناس حتى تكابسوا وازدحموا عليه .

العباسيون يواجهون الثورة

ولما علم والي المأمون العباسي على بغداد الحسن بن سهل بما حدث في الكوفة ، دعا زهير بن المسيب فضم إليه الرجال وامده بالأموال وندبه الى المسير نحو ابي السرايا ، وان يودعه من وقته ويمضي لوجهه فيه ولا ينزل إلاّ بالكوفة .

فسار زهير بن المسيب حتى ورد قصر ابن هبيرة فأقام به ، ووجّه ابنه ازهر ابن زهير على مقدمته ، فنزل سوق اسد ، وسار ابو السرايا من الكوفة وقت العصر فأغذ السير حتى اتى معسكر ازهر بن زهير بسوق اسد ، وهم غارون فيه وبيته ، فطحن العسكر واكثر القتل فيه ، وغنم دوابهم واسلحتهم ، وانقطع الباقون في الليل منهزمين حتى وافت زهيراً بالقصر فتغيظ من ذلك ، ورجع ابو السرايا الى الكوفة ، وزحف زهير حتى نزل . ووافت خريطة من الحسن بن سهل ، يأمره ألاّ ينزل إلاّ بالكوفة ، فمضى حتى نزل عند القنطرة .

ونادى ابو السرايا في الناس بالخروج ، فخرجوا حتى صادفوا زهيراً على قنطرة الكوفة في عشية صردة باردة ، فهم يوقدون النار يستدفئون بها ، ويذكرون الله ويقراون القرآن وابو السرايا يسكن منهم ويحثهم .

واقبل اهل بغداد يصيحون يا أهل الكوفة : زيّنوا نساءكم واخواتكم وبناتكم للفجور ، والله لنفعلن بهم كذا وكذا ، ولا يكنون ، وابو السرايا يقول لهم : اذكروا الله وتوبوا اليه ، واستغفروه واستعينوه ، فلم يزل الناس في تلك الليلة يتحارسون طول ليلتهم ، حتى اذا اصبح نهد اليهم فوقف في عسكره ، وقد عشيت ابصار الناس من الدروع والبيض والجواشن وهم على تعبئة حسنة ، واصوات الطبول والبوقات مثل الرعد العاصف وابو السرايا يقول :

يا اهل الكوفة صححوا نياتكم ، واخلصوا لله ضمائركم ، واستنصروه على عدوكم وابرأو إليه من حولكم وقوتكم ، واقرأوا القرآن ، ومن كان يروي الشعر فلينشد شعر عنترة العبسي ، ووقف الحسن بن هذيل وهو من اصحاب الحسين شهيد فخ يعبئ الناس للقتال قائلاً : هذا موقف تستزل فيه الاقدام ، وتزايل فيه الافعال ، والسعيد من حاط دينه ، والرشيد من وفى لله بعهده ، وحفظ محمداً في عترته ، ألا إنّ الاجال موقوتة ، والايام ممدودة ، من هرب بنفسه من الموت كان الموت محيطاً به ، ثم قال :

مــن لم يمت عبطــة يمت هرماً　　　الموت كأس والمــرء ذائقهــا

قال ابو الفرج الاصفهاني : فطلع رجل من اهل بغداد مستلئماً شاكي السلاح ، فجعل يشتم اهل الكوفة ويقول : لنفجرن بنسائكم ولنفعلن بكم ولنصنع ، وانتدب اليه رجل من اهل الوازار – قرية بباب الكوفة – عليه إزار احمر وفي يده سكين ، فألقى نفسه في الفرات وسبح ساعة حتى صار اليه ، فدنا منه فأدخل يده في جيب درعه وجذبه اليه فصرعه ، وضرب بالسكين حلقه فقتله ، وجر برجله يطفــو مرة ويغوص مرة اخرى حتى اخرجــه الى الكوفة ، فكبّر النــاس وارتفعت اصواتهم بحمد الله والثناء عليه والدعاء .

ثم دعا ابو السرايا غلاماً له فوجهه في نفر من اصحابه وامره ان يمضي حتى يصير من وراء العسكر ، ثم يحمل عليهم . فمضى الغلام لوجهه مع من معه ، قاصداً لما امره به ، ووقف ابو السرايا على القنطرة على فرس له ادهم محذوف ، وقد اتكأ على رمحه فنام على ظهر الفرس حتى غط ، واهل الكوفة ، جزعون لما يرونه من عسكر زهير ، ويسمعونه من تهديدهم ووعيدهم ، وهم يضجون ويصيحون بالتكبير والتهليل ، حتى يسمع ابو السرايا فينتبه من نومه ، فلم ينتبه حتى ظن ان الكمين الذي بعثه قد انتهى الى حيث امره فصاح بفرسه : فتال ، ثم قنعه حتى رضى بحفزه ثم اومأ بيده نحو الكمين الذي بعثه، وصاح بأهل الكوفة : احملوا ، وحمل وتبعوه فلم يبق من اصحاب زهير احد الا التفت نحو الاشارة .

وخالط ابو السرايا وغلامه سيار العسكر ، وتبعه اهل الكوفة وصاح بغلامه : ويلك يا سيار الا تراني ، فحمل سيار على صاحب العلم فقتله وسقط العلم ، وانهزمت المسودة ، وتبعهم ابو السرايا واصحابه ونادى : من نزل عن فرسه فهو آمن فجعلوا يترجلون ، واصحاب ابي السرايا يركبون ، وتبعوهم حتى جاوزوا شاهي ، ثم التفت زهير الى ابي السرايا فقال : ويحك ، اتريد هزيمة اكثر من هذه الى اين تتبعني ؟ فرجع وتركه .

هزيمة عبدوس :

واشتد غم الحسن بن سهل ومن بحضرته من العباسيين ، لما جرى على عسكر زهير ، وطال اهتمامهم به ، فدنا الحسن بن سهل بعبدوس بن عبد الصمد ، وضم اليه ألف فارس وثلاثة آلاف راجل وازاح علته في الاعطاء ، وقال : انما أريد ان انوه باسمك فانظر كيف تكون ، واوصاه بما احتاج اليه ، وامره ألاّ يلبث .

فخرج من بين يديه وهو يحلف ان يبيح الكوفة ، ويقتل مقاتلة اهلها ويسبي ذراريهم ، ثلاثاً . ومضى لوجهه لا يلوي على شيء حتى صار الى الجامع ، وقد كان الحسن بن سهل تقدم اليه بذلك وامره ألاّ يأخذ على الطريق الذي انهزم فيه

زهير ، لئلا يرى أصحابه بقايا قتلى عسكره ، فيجبنوا من ذلك . فأخذ على الطريق الجامع ، فلما وافاها وبلغ أبا السرايا خبره ، صلى الظهر بالكوفة ، ثم جرد فرسان اصحابه ومن يثق به منهم واغذ السير بهم ، حتى اذا قرب من الجامع فرّق اصحابه ثلاث فرق وقال : شعاركم : " يافاطمي يا منصور " . واخذ هو في جانب السوق واخذ سيار في سيره الجامع وقال لأبي الهرماس : خذ بأصحابك على القرية فلا يفتك احد منهم ، ثم احملوا دفعة واحدة من جوانب عسكر عبدوس ، ففعلوا ذلك فأوقعوا به وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، وجعل الجند يتهافتون في الفرات طلباً للنجاة ، حتى غرق منهم خلق كثير . ولقي أبو السرايا عبدوساً في رحبة الجامع فكشف خوذته عن رأسه وصاح : أنا أبو السرايا ، أنا اسد بني شيبان، ثم حمل عليه ، وولى عبدوس من بين يديه ، وتبعه أبو السرايا فضربه على رأسه ضربة فلقت هامته وخر صريعاً عن فرسه ، وانتهب الناس من اصحاب أبي السرايا واهل الجامع عسكر عبدوس ، وأصابوا منه غنيمة عظيمة ، وانصرفوا الى الكوفة بقوة واسلحة .

وفاة محمد بن ابراهيم

ودخل أبو السرايا الى محمد بن إبراهيم وهو عليل يجود بنفسه فلامه على تبييته العسكر ، وقال : أنا أبرأ الى الله مما فعلت ، فما كان لك أن تبيتهم ، ولا تقاتلهم حتى تدعوهم ، وما كان لك ان تأخذ من عسكرهم إلاّ ما اجلبوا به علينا من السلاح .

فقال ابو السرايا : " يابن رسول الله كان هذا تدبير الحرب ولست اعاود مثله ، ثم راى في وجه محمد الموت فقال له : يابن رسول الله كل حي ميت وكل جديد بال فاعهد اليّ عهدك .

فقال : اوصيك بتقوى الله والمقام على الذب عن دينك ونصرة اهل بيت نبيك صلى الله عليه وآله ، فان انفسهم موصولة بنفسك وول الناس الخيرة فيمن يقوم

مقامي من آل علي فان اختلفوا في الامر فالى علي بن عبيد الله فاني قد بلوت طريقته ورضيت دينه " (١).

وهذا اللوم من محمد بن ابراهيم للسري بن منصور ليس من قبيل المعاتبة بقدر ما هو توضيح وتأكيد من محمد بان هدفنا معروف وهو الحق ، فلا يمكن ان ترتكب اعمالاً مشوبة بالباطل . فالثائر الرسالي يجب ان يبقى حتى الاخير محافظاً على قيمه، فهو لم يحارب إلاّ لاجلها لا لغيرها . وهذا يمثل اروع آيات الاستقامة والاخلاص للمبدأ عند ثوار الحركة الرسالية ، وفي المقابل كان جيش العباسيين ينادي على الثوار : زينوا نساءكم واخواتكم وبناتكم للفجور والله لنفعلن بهم كذا وكذا ولا يكنون (٢).

انتخاب محمد بن زيد قائداً للثورة

بعد ذلك جمع ابو السرايا الناس فخطبهم ونعى محمدا اليهم وعزاهم فيه فارتفعت الاصوات بالبكاء اعظاما لوفاته ثم قال : " وقد اوصى ابو عبد الله رحمة الله عليه الى شبيهه ومن اختاره وهو ابو الحسن علي بن عبيد الله ، فان رضيتم به فهو الرضا، والا فاختاروا لانفسكم " فتواكلوا ونظر بعضهم الى بعض فلم ينطق منهم احد ، فتقدم محمد بن محمد بن زيد الثائر بن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) وهو غلام حدث السن فقال : " يا آل علي ان دين الله لا ينصر بالفشل وليست يد هذا الرجل عندنا بسيئة وقد شفى الغليل وادرك الثأر ، ثم التفت الى علي بن عبيد الله فقال : ما تقول يا ابا الحسن رضي الله عنك ؟ فقد وصانا بك ، امدد يدك نبايعك ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ان ابا عبيد الله رحمة الله عليه قد اختار فلم يعد الثقة في نفسه ، ولم يأل جهدا في حق الله الذي قلده وما ارد وصيته تهاوناً بأمره ، ولا ادع هذا نكولاً عنه ، ولكن اتخوف ان اشغل به عن غيره مما هو احمد وافضل عاقبة فامض رحمك الله لأمرك واجمع شمل ابن عمك ، فقد قلدناك

(١) المصدر ، ص ٣٥٢ .

(٢) المصدر ، ص ٣٥٤ .

الرياسة علينا وانت للرضا معدن الثقة في انفسنا ، ثم قال لابي السرايا : ما ترى ؟ ارضيت به ؟(أي بمحمد بن محمد بن زيد) قال : رضائي في رضاك ، وقولي مع قولك ، فجذبوا محمد بن محمد فبايعوه[1].

وهذا يدل على ان الثوار لم يكونوا ينادون بالاهداف والقيم كشعار فقط ، وانما كانوا يعيشونها عملياً .

ترى كيف يبايع علي بن عبيد الله غلاماً حدثاً وهو محمد بن محمد بن زيد وينكر نفسه وهذا شيء نادر لا تعثر عليه الان عند اصحاب الرايات الثورية ، وهم بهذا العمل قد اكدوا وطبقوا قيمة مهمة في القيادة وهي ان الاكفأ هو الذي يجب ان يقود وليس الاسن او غير ذلك من الاعتبارات .

محمد بن زيد يولي العمال

بعد ان تابع اهل الكوفة محمد بن زيد الشهيد بن زين العابدين (عليه السلام) ، قام محمد بارسال وكلائه على المناطق ، فعقد لابراهيم بن موسى بن جعفر على اليمن ، وولّى زيد بن موسى بن جعفر الاهواز ، وولّى العباس بن محمد بن عيسى البصرة ، وولّى الحسن بن الحسن الافطس مكة .

وعقد لجعفر بن محمد بن زيد ، والحسين بن ابراهيم بن الحسن ، واسطاً، فخرجوا الى اعمالهم ، واقام ابن الافطس الحج تلك السنة وهي سنة مئة وتسع وتسعون .

وكتب إليه اهل الشام والجزيرة انهم ينتظرون ان يوجه اليهم رسولا ليسمعوا له ويطيعوا .

وعظم امر الثورة على الحسن بن سهل وبلغ منه كل مبلغ حتى كتب الى هرثمة لكي يقود جيوش بني العباس للقضاء على الثورة ، وكان هرثمة على خلاف مع الحسن بن سهل ، ولكنه اضطر الى ذلك[2].

---

(١) المصدر ، ص ٣٥٠ .

(٢) جاء في الطبري ج ١٠ ص ٢٢٨ " فلما رأى الحسن بن سهل ان ابا السرايا ومن معه لا يلقون عسكرا الا هزموه ، ولا يتوجهون الى بلد الا دخلوها و لم يجد معه من القواد من يكفيه

هرثمة يقود جيوش العباسيين

اخذت السلطة العباسية تحوم حول نفسها خوفا من ازدياد خطر الثورة ، فقامت بحشد كل جيوشها ، وكتبت لطاهر بن الحسين الخزاعي فرفض بأبيات شعر محاربة هذه الثورة التي يتعاطف معها ويدين بها . وكتبت لهرثمة بن اعين تسيل له لعابه وتمنيه تارة ، وتدغدغ عواطفه تارة حتى وافق على قيادة الجيوش التي بلغت ثلاثين الف فارس وراجل ، في مقابل الثوار الذين كانوا اقل عدة وعددا ، فدار قتال كثيف وحمي الوطيس والثوار لازالوا عند ثباتهم لم يتقهقروا ، وما انفك جيش العباسيين يحبك الخدع فيحبطها جيش الثوار ، واستشهد اثناء ذلك الحسن ابن الحسين ذو الدمعة بن زيد بن الامام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) ، وهم في غليان الحرب يصيحون من حناجرهم بالتكبير والحماس يدبّ فيهم اكثر ، فالساعة لا يثبت الا من امتحن الله قلبه وصدق الايمان عمله ، فاشتدت الحرب وكشف ابو السرايا رأسه وجعل يقول : ايها الناس صبر ساعة وثبات قليل فقد - والله - فشل القوم ولم يبق الا هزيمتهم ، ثم حمل وخرج اليه قائد من قواد هرثمة وعليه الدرع والمغفر فتناوشا ثم ضربه ابو السرايا على مقبضه فقدّه حتى خالط سيفه قربوس سرجه ، فانهزمت المسوّدة هزيمة

حربه ، اضطر الى هرثمة ، وكان هرثمة حين قدم عليه الحسن بن سهل واليا عليها من قبل المامون ، سلّم له ما كان بيده بها من الاعمال ، وتوجه نحو خراسان مغاضبا للحسن ".

ويقول ابو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبيين ، ص ٣٥٧ : " امر الحسن بن سهل بدواوين الجيش فنقلت اليه (الهرثمة) ليختار الرجال منها وينتخبهم ، واطلق له بيوت الاموال، فانتخب من اراد ، وازاح العلة في العطيات والنفقات " .

كل ذلك يدل على عظم الخطر الذي شكلته ثورة أبي السرايا على الدولة العباسية ، وهذا ما دفع المأمون الى تقريب الامام علي بن موسى الرضا اليه وعهده بولاية الأمر اليه ، املاً منه في سحب البساط من تحت ارجل الحركة الرسالية التي انتشرت في عهده في كل مكان .

ويضيف الاصفهاني : " وقد نظر في الدواوين فوجد من قتل من اصحاب السلطان في وقائع ابي السرايا مائتا الف رجل " (مقاتل الطالبيين ، ص ٣٦٦) .

قبيحة ، ووقع هرثمة في الاسر بغير علم ابي السرايا . وكان هرثمة قد خلّف في عسكره زهاء خمسة الاف فارس يكونون احتياطا له اذا انهزم اصحابه ، فلما انهزم اصحابه واسر هو ، حملت هذه الفرقة الاحتياطية من جيش هرثمة والمكونة من خمسة آلاف على جيش الثوار فتكافئت الجهتان مرة اخرى وخُلّص هرثمة من الاسر . الا ان هرثمة لم يبق له طائل في المعركة فصاح :" يا اهل الكوفة علام تسفكون دماءنا ودماءكم ؟ ان كان قتالكم ايانا كراهية لامامنا فهذا المنصور بن المهدي رضى لنا ولكم نبايعه ، وان احببتم اخراج الأمر من ولد العباس فانصبوا امامكم ، واتفقوا معنا ليوم الاثنين نتناظر فيه ولا تقتلونا وانفسكم " .

فامسك اهل الكوفة عن الحملة وناداهم ابو السرايا : " ويحكم ان هذه حيلة من هؤلاء .. وانما ايقنوا بالهلاك فاحملوا عليهم " فامتنعوا وقالوا : لا يحل لنا قتالهم وقد اجابوا [1].

كان ابو السرايا ، ينظر الى ما وراء ذلك وان ذلك ليس الا خدعة من جيش العباسيين عندما احسوا بالهزيمة والانهاك ، وان الابقاء على هذا الوضع العسكري يعطي الامل للسلطات العباسية في القضاء على الثوار عن بكرة ابيهم ، والحسم في الساحة الان يضعف هذا الامل ، على اقل التقادير يضعفه ويمنع النظام العباسي معاودة الكرة سريعا، اللهم الا بعد فترة تطول ريثما يستعيد النظام تماسكه النفسي والعسكري .

فعملية وقف القتال في هذا الظرف تعني فشل الثورة . الا ان الجموع المقاتلة لم تكن تعي هذه الحقيقة ، او ربما لم توازن بين ما هو حق وبين ما هو باطل ، فالقتال الان ، ليس باطلا وجورا وابتعادا عن القيم والحق .

توقف القتال فأحس ابو السرايا ان مرام العباسيين قد تحقق وان جيشه لم يعد يملك ارادة القتال فقرر الخروج من الكوفة والتوجه الى موقع افضل يمكنه من هناك معاودة الكرة على جيوش بني العباس .

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٣٦٣ .

فتوجه ابو السرايا قاصداً البصرة فلقيه اعرابي من اهل البلد ، فسأله عن الخبر فأعلمه ان جيش العباسيين دخل الكوفة واحاط بمنافذها وان المنصور بن المهدي دخلها وان الامدادات قد توالت على جيش هرثمة بعدما احست السلطات العباسية بنبرة وقف القتال .

فعدل عن البصرة واراد المسير نحو واسط فأعلمه الرجال ان صورة امرها مثل البصرة قد غلب السلطان عليها واخرج الولاة .

فعمد الى الاهواز حتى صار الى السوس ، فاغلقوا الباب دونه فأمرهم بفتحه ففتحوه فدخل الاهواز الا انه ما شعر إلاّ وجيش العباسيين قد جاء قفاه بقيادة المأموني فقاتل قتالاً شديداً ، حتى اوشك ابو السرايا على الانتصار لولا خدعة انغرّ بها غلام له ، وبعدها القي القبض على السري بن المنصور ، حيث ارسل الى الحسن بن سهل في بغداد فامر بضرب عنقه ثم امر برأسه فصلب في الجانب الشرقي ، وصلب بدنه في الجانب الغربي ، وارسل محمد بن محمد بن زيد الى خراسان حيث تعجب المامون من حداثة سنه ولكن لم يجرؤ المامون على اعدامه علانية ، اذ ان المأمون لا يأمن ان تقوم موجة ثائرة اخرى ، تطيح بعرشه ، بعدما ثبت امام هذه الموجة الثائرة ، ولكنه اسكنه ووفر له وسائل الترفيه حتى اذا استقر دس له السم فقتل .

وخلاصة القول: إنّ الهزة التي احدثتها ثورة ابي السرايا ليست بالهينة كما ان الجبهات التي فتحتها في الامصار استمرت لمدة دفعت السلطات العباسية الى طلب الهدنة مع الحركات الرسالية ، وهذا يبين لنا السبب الذي جعل المامون العباسي يأتي بالامام الرضا من المدينة المنورة الى خراسان وما عرض عليه من امر الخلافة فلم يقبل الامام ففرض عليه ولاية العهد .

وقد يتسائل البعض : الم يكن من الافضل للامام الرضا ان يرفض ولاية العهد ؟ هناك بعض الروايات تقول بأن الامام الرضا كان مجبراً على قبول ولاية العهد ، وانــه حينما جيء به الى خراسان طلبه المأمون فقال له : فاني قد رأيت ان اعــزل

نفسي عن الخلافة واجعلها لك وابايعك ، فرفض الامام القبول .

فقال المأمون يا ابن رسول الله لابد لك من قبول الامر .

فقال : " لست افعل ذلك طائعاً ابداً " فما زال يجهد به اياما حتى يئس من قبوله .

فقال له : فان لم تقبل الخلافة و لم تحب مبايعتي لك فكن ولي عهدي لتكون لك الخلافة بعدي .

فقال الامام الرضا (عليه السلام) : " والله لقد حدثني ابي عن آبائه عن امير المؤمنين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) اني اخرج من الدنيا قبلك مقتولا بالسم مظلوما تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الارض وادفن في ارض غربة الى جنب هارون الرشيد " .

فبكى المأمون ، ثم قال له : " يا ابن رسول الله ، ومن الذي يقتلك او يقدر على الاساءة اليك وانا حي ؟

فقال الامام الرضا (عليه السلام) : " اما اني لو اشاء ان اقول من الذي يقتلني لقلت " .

فقال المأمون : يا ابن رسول الله انما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك ودفع هذا الامر عنك ليقول الناس انك زاهد في الدنيا ".

فقال الامام الرضا (عليه السلام) : " والله ما كذبت منذ خلقني ربي عزّ وجل، وما زهدت في الدنيا للدنيا واني لاعلم ما تريد ".

فقال المأمون : وما اريد ؟

قال الامام الامان على الصدق ، قال : لك الامان ، قال : " تريد بذلك ان يقول الناس ، ان علي بن موسى لم يزهد في الدنيا ، بل زهدت الدنيا فيه الا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة " .

فغضب المأمون ثم قال : " انك تتلقاني ابدا بما اكرهه وقد آمنت سطوتي فبالله اقسم لئن قبلت ولاية العهد والا اجبرتك الى ذلك فان فعلت والا ضربت عنقك .

فقال الامام (عليه السلام) مجيبا على تهديد المأمون : " قد نهاني الله عز وجل ان القي بيدي الى التهلكة ، فان كان الامر على هذا ، فافعل ما بدا لك ، وانا اقبل ذلك على اني لا اولّي احداً ، ولا اعزل احداً ، ولا انقض رسماً ولا سنة ، واكون في الامر من بعيد مشيراً " (١).

فالقضية التي كان يريد المأمون تنفيذها ، هي اظهار ان قضية الامام لم تكن قضية زهد وتقوى وعمل في سبيل الله ، انما كانت قضية تزهد للمصلحة السلطوية ، فينطبق المثل عليه :

صلى وصام لأمر كان يطلبه ... ولما انقضى الامر لا صلى ولا صاما

السحر ينقلب على الساحر

لقد كان ا لمامون العباسي يريد حسب هذه الرواية ان يشهر ويقول للناس ان قائد المعارضة وامام الحركة الرسالية يقبل بولاية العهد ومعنى ذلك انه يريد السلطة ولكن يده لا تساعده على ذلك ولكن الامام الرضا (عليه السلام) قلب المعادلة على المأمون ، حينما استفاد من تلك الفرصة في بث علومه وتبيين معالم فضله وفضل آبائه الطاهرين .

لقد استسقى اهل خراسان الامام الرضا (عليه السلام) لجفاف الماء عندهم وهلاك الزرع ، فصلى بهم الامام صلاة الاستسقاء ودعا لهم فنزل المطر بعد ذلك باذن الله عز وجل . فقال احد رجال المامون له وهو حميد بن مهران : " يا أمير المؤمنين اعيذك بالله عز وجل ، ان تكون تاريخ الخلفاء في اخراجك هذا الشرف العميم والفخر العظيم من بيت ولد العباس الى بيت ولد علي ، ولقد اعنت على نفسك واهلك ، جئت بهذا الساحر ولد السحرة ، وقد كان خاملاً فاظهرته ، ومتّضعا فرفعته ، ومنسياً فذكّرت به ، ومستخفاً فنوهت به ، قد ملأ الدنيا مخرقة وتشوقاً بهذا المطر الوارد عند دعائه ، ما اخوفني ان يخرج هذا الرجل الخلافة عن

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٩ ، ص ١٢٩ .

ولد العباس الى ولد علي ، بل ما اخوفني ان يتوصل بسحره الى ازالة نعمتك والتوثب على مملكتك ، هل جنى احد على نفسه وملكه مثل جنايتك ؟

فقال المأمون : " قد كان هذا الرجل مستتراً عنا يدعو الى نفسه فاردنا ان نجعله ولي عهدنا ليكون دعاؤه لنا وليعرف بالملك والخلافة لنا ، وليعتقد فيه المفتونون به انه ليس مما ادعى في قليل ولا كثير ، وان هذا الامر لنا من دونه وقد خشينا ان تركناه على تلك الحال ان ينفتق علينا منه مالا نسده ويأتي علينا منه مالا نطيقه ، والان فإذ قد فعلنا به ما فعلنا واخطأنا في امره بما اخطأنا ، واشرفنا من الهلاك بالتنويه به على ما اشرفنا ، فليس يجوز التهاون في امره ، ولكنّا نحتاج ان نضع منه قليلا قليلا حتى نصوره عند الرعية بصورة من لا يستحق لهذا الامر ثم ندبر فيه بما يحسم عنا مواد بلائه " (١).

المأمون هنا يصور دوافع تولية العهد للامام ، وعلّة جلب العلماء والمحدثين لنقاش الامام الذي سرعان ما قلب المعادلة ضد المأمون ، وخاف من النتائج العكسية التي نتجت من تولية الامام العهد .

اسباب قبول الامام الرضا ولاية العهد

ان منطق الاحداث كان يفرض على الامام علي بن موسى (عليه السلام) ان يقبل ولاية العهد لعدة اسباب :

السبب الاول : اذا لم يكن يقبل الامام ولاية العهد لكانت الامة الاسلامية تقول بان الائمة (عليهم الصلاة والسلام) ما كانوا يريدون الحكم لان امام المسلمين الشرعي الامام الرضا (عليه السلام) ، لم يقبل ولاية العهد ، ولكانت فكرة ان الدين شيء والدولة شيء آخر ، والاسلام لا يقبل بدمج الدين مع الدولة ، وانه يجب ان تكون في الامة الاسلامية إمامة روحية فقط ، وهذه من حق أولاد الامام علي وفاطمة ، من الائمة المعصومين (عليهم السلام) وهي منفصلة تماماً عن

---

(١) المصدر ، ص ١٨٢ .

السلطة السياسية التي هي من حق الذي يكون مسيطراً على الناس سياسياً ، لكانت هذه الفكرة قد ترسخت وبالتالي كانت الامة تحيى فكرة (ما لله لله وما لقيصر لقيصر) .

فالامام (عليه السلام) انما اراد نسف هذه الفكرة عمليا ، وسد الطريق امام من يريدون نشر هذه الفكرة واشاعتها ، وذلك بقبوله ولاية العهد .

السبب الثاني : ان طريقة الائمـة (عليهم السلام) في التعامل مع الناس هي أنهم لم يكونوا يريدون ان يجبروهـم على رأي معين .

وقد قلنا بان الائمة (عليهم الصلاة والسلام) كانوا يريدون رفع مستوى وعي الامة حتى تستطيع بنفسها ان تستلم الاوضاع .

فلذلك كان الائمة (عليهم السلام) يستفيدون من كافة الاوضاع حتى من الحكم ، لاجل هذه الغاية . فحينما عُرِضَ عليهم ان يكونوا داخل الحكم ، ويستفيدوا من الحرية ونوع من الرخاء ، وينشروا مذهبهم وافكارهم الرسالية في الامة دون ان يعطوا امتيازات للحكم ، ودون ان يؤيدوه (وسوف نشرح هذه النقطة لاحقاً) وهذا الشيء هو الذي نوّه إليه المأمون عندما انقلبت الآية عليه : "والان قد فعلنا به ما فعلنا واخطأنا في أمره بما اخطأنا واشرفنا من الهلاك بالتنويه به على ما اشرفنا ، فليس يجوز التهاون في امره ، ولكنا نحتاج ان نضع منه قليلا قليلا حتى نصوره عند الرعية بصورة من لا يستحق لهذا الامر ثم ندبّر فيه بما يحسم عنا مواد بلائه " . فالنتائج أتت معكوسة على المأمون .

السبب الثالث : وهو ان الامام الرضا (عليه السلام) كان يريد اسقاط ادلة المأمون العباسي الذي كان يريد ان يسقط الائمة (عليهم السلام) وبالتالي يمتص الحركة الرسالية ، وكان يستخدم طريقة معينة وهي المجيء بالامام الرضا، فاذا نفع فقد حقق اهدافه ، واذا لم ينفع فانه ياتي بواحد من اولاد الائمة كمحمد بن جعفر او اسحاق بن موسى ، او أي واحد من اولاد الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) ويضعه في منصب ولي العهد ، ويقول للمسلمين : يا مسلمين ان كنتم تريدون حاكما من البيت

العلوي فهذا هو دونكم . ومن المعروف ان عامة الناس باستثناء القليل منهم لا يمتلكون الوعي الكافي حتى يميزوا بين الامام الحقيقي الشرعي وبين الامام المزيف . فاكثر الناس ينظرون الى الاسماء دون ان يفكروا في نوعية الانسان أي في الامام المنصوص عليه ، فهناك علوي وهو : الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) وعلوي آخر وهو : علي بن اسماعيل والذي حسب بعض الاقوال كان هو الواشي بالامام موسى بن جعفر ، والمشارك في قتله .

الامام الحسين (عليه السلام) واخوه عمر كانا طالبيان فالاثنان هما ابناء علي ولكن اين عمر من الحسين ؟

ان عمر بن الامام علي (عليه السلام) حسب ما يذكر المؤرخون كان سلوكه الشخصي ليس جيداً ، فقد كان شاباً يحب اللهو ، وكان يفكر عندما اصبح والده خليفة انه يستطيع ان يعمل ما يشاء . ومع انه في اواخر ايام حياته تاب وصلح ، ولكنه وفي اول حياته لم يكن سلوكه جيداً ، هذا ابن الامام وذاك الحسين بن علي (عليه السلام) الذي لم يذق طعم الراحة طوال حياته ، وقضى لياليه كلها خلال خمسين سنة في العبادة والطاعة والجهاد .

المأمون العباسي كان بامكانه ان يأتي بواحد من هؤلاء الطالبيين المتزلفين وينصبه ولياً للعهد ، ويمتص قوى الحركة الرسالية .

ولكي لا يقوم المأمون العباسي بمثل هذه العملية ، قبل الامام (عليه السلام) بولاية العهد.

هذه بعض التفسيرات والاسباب التي نرى انها كانت وراء قبول الامام ولاية العهد . ومع ان البعض ونتيجة لعدم الادراك الكامل لموقف الامام (عليه السلام) يتحير في فهم هذا الموقف ، والبعض هذا كان موجوداً قديما كما هو موجود حالياً ايضاً ، وقد اجاب الامام على ذلك بكل تفاصيل سيرته وبطيات مواقفه .

فقد روي عن الريان أنه قال : " دخلت على علي بن موسى (عليه السلام) فقلت له: يا ابن رسول الله ان الناس يقولون انك قبلت ولاية العهد مع اظهارك الزهد في الدنيـا " ؟

فقال الامام (عليه السلام) : " قد علم الله كراهتي لذلك ، فلما خيّرت بين قبول ذلك وبين القتل ، اخترت القبول على القتل ، ويحهم اما علموا ان يوسف (عليه السلام) كان نبيا ورسولا فلما دفعته الضرورة الى تولي خزائن العزيز ، قال له : " اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم " ودفعتني الضرورة الى قبول ذلك على اكراه واجبار بعد الاشراف على الهلاك على اني ما دخلت في هذا الامر الا دخول الخارج منه فالى الله المشتكى وهو المستعان " (1).

وهنا دلالة جلية تبرهن على ان الائمة المعصومين (عليهم السلام) ظلوا ابداً قادة الحركة الرسالية في التاريخ ، بل وللامة الاسلامية قاطبة حيث ان السلطات ارادت الائتلاف مع من تركن اليه وتطمئن اليه جميع الامة الاسلامية .

كان موسى حفيد الامام الرضا (عليه السلام) وابن الامام الجواد (عليه السلام) على درجة هابطة من الالتزام الديني ، ومن المعروف ان المفاسد والمفاتن آنذاك كانت كثيرة في البلاد الاسلامية ، من الشراب والغواني والجواري . وكان بعض ابناء الامة منشغلون بهذه الاعمال الشيطانية . فقد جاء في رواية ما يبين لنا كيف ان الخلفاء العباسيين كانوا يستغلون عملية الخلط بين الشخصيات لضرب اعدائهم .

فقد روى يعقوب بن ياسر قال : " كان المتوكل يقول : ويحكم قد اعياني امر ابن الرضا (ويقصد الامام الجواد (عليه السلام) وجهدت ان يشرب معي وينادمني فامتنع وجهدت ان اجد فرصة في هذا المعنى فلم اجدها . فقال له بعض من حضر : ان لم تجد من ابن الرضا ما تريده من هذا الحال ، فهذا اخوه موسى قصاف عزاف ، يأكل ويشرب ، ويعشق ويتجالع ، فاحضره واشهره ، فان الخبر يشيع عن (ابن الرضا) بذلك، ولا يفرق الناس بينه وبين اخيه ، ومن فرقه اتهم اخاه بمثل فعاله " .

ولكن المتوكل لم ينجح في خطته هذه التي كانت تبتني على اساس ان ابناء الامام الرضا (عليه السلام) واحفاده الى الامام العسكري كان كل واحد منهم يُسمى

---

(1) المصدر ، ص ١٣٠ .

بابن الرضا والناس لا يدعونهم الا بهذا الاسم ، ففكر المتوكل مع حاشيته ان يشرب ويجبر موسى ابن الامام محمد الجواد (عليه السلام) واخ الامام علي الهادي (عليه السلام) ان يشرب الخمر معه ، واثناء ذلك يأتي بالخمارين والمنحرفين خلقياً ليشهروا بابن الرضا انه يشرب ويلهو مع المتوكل وبالتالي تنجح خطتهم في ضرب صورة الامام عند الجماهير .

فطلبه المتوكل من المدينة فلما وافا موسى ، تلقّاه الامام الهادي (عليه السلام) في قنطرة وصيف وهو موضع يتلقى فيه القادمون قبل ان يذهب الى المتوكل فسلّم عليه ووفاه حقه، ثم قال له : " ان هذا الرجل قد احضرك ليهتكك ويضع منك ، فلا تقر له انك شربت نبيذا واتق الله يا اخي ان ترتكب محظورا " . فقال له موسى : انما دعاني لهذا فما حيلتي ؟ قال : " ولا تضع من قدرك ولا تعص ربك ولا تفعل ما يشينك فما غرضه الا هتكك " فابى عليه موسى وكرر عليه ابو الحسن (عليه السلام) القول والوعظ وهو مقيم على خلافه، فلما رأى انه لا يجيب قال (عليه السلام) له : " أما المجلس الذي تريد الاجتماع معه عليه ، لا تجتمع عليه انت وهو ابدا ".

يقول الراوي فأقام موسى ثلاث سنين يبكّر كل يوم الى باب المتوكل فيقال : قد تشاغل اليوم ، فيروح فيبكّر ، فيقال له : قد سكر ، فيبكر فيقال له : قد شرب دواء فما زال على هذا ، ثلاث سنين حتى قتل المتوكل ولم يجتمع معه على شراب "[1].

وهذه القصة دليل على انه كان في البيت العلوي بعض الشاذين ، والنظام كان يستفيد في القاء الشبهات على سمعة الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) فيتم له افضل استغلال لهؤلاء الشواذ في سبيل مصلحته .

هذه هي الاسباب الثلاثة ويبقى ان نعرف ان الامام علي بن موسى حينما دخل في الحكم فانه لم يعترف به ، والدلالة على ذلك قوله (عليه السلام) : " لا اولي احداً ، ولا اعزل احداً ، ولا انقض رسماً ولا سنة .

(١) بحار الأنوار ، ج ٥٠ ، ص ٤ .

وقد روي عنه قوله (عليه السلام) للمأمون بعد ان قرأ المأمون عليه كتاباً فيه فتح لبعض قرى كابل ، انا فتحنا قرية كذا وكذا ، فلما فرغ قال له الرضا (عليه السلام) ، وسرك فتح قرية من قرى الشرك ؟ فقال له المأمون : اوليس في ذلك سرور ، فقال : " اتق الله في امة محمد (صلى الله عليه وآله) وما ولاك الله من هذا الامر وخصك به ، فانك قد ضيعت امور المسلمين وفوضت ذلك الى غيرك، يحكم فيهم بغير حكم الله عز وجل ، وقعدت في هذه البلاد ، وتركت بيت الهجرة، ومهبط الوحي ، وان المهاجرين والانصار يُظلمون دونك ، ولا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة ويأتي على المظلوم دهر يتعب فيه نفسه ويعجز عنه نفقته ، فلا يجد من يشكو اليه حاله ولا يصل اليك ، فاتق الله في امور المؤمنين وارجع الى بيت النبوة ومعدن المهاجرين والانصار " ..

فقال المأمون : يا سيدي فما ترى ؟

قال الامام : " ارى ان تخرج من هذه البلاد وتتحول الى موضع آبائك واجدادك وتنظر في امور المسلمين " (١).

وروى معمر بن خلان قال : قال لي ابو الحسن الرضا (عليه السلام) قال لي المأمون : " يا ابا الحسن انظر بعض من تثق به توليه هذه البلدان التي فسدت علينا، فقلت له : تفي لي وافي لك ، فانّي انما دخلت فيما دخلت على ان لا آمر فيه ولا انهى ولا اعزل ولا اولي ولا أسير حتى يقدمني الله قبلك ، ولقد كنت بالمدينة اتردد في طرقها على دابتي وان اهلها يسألوني الحوائج فأقضيها لهم ، فيصيرون كالاعمام لي ، وان كتبي لنافذة في الامصار ، وما زدتني في نعمة هي عليّ من ربي، فقال : افي لك " (٢).

وفي مناسبة نصب ولاية العهد وتقليدها الامام كان مما جاء في خطبته التي اشار في مبدئها للمأمون قائلا له : " عرف من حقنا ما جهله غيره .." (٣).

---

(١) المصدر ، ج ٤٩ ، ص ١٦٥ .

(٢) المصدر ، ص ١٤٤ .

(٣) المصدر ، ص ١٤١ .

وقال ايضاً : " لنا عليكم حق برسول الله (صلى الله عليه وآله) ولكم علينا حق به فاذا انتم اديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم " [١].

نستخلص من هذه الروايات ما يلي :

اولاً : عدم اعتراف الامام الرضا بالنظام العباسي وتأكيده غير مرة على عدم شرعيته .

ثانياً : علانية المعارضة ، فالامام يصرح للمأمون مشافهة بان الامام هو نفسه كان يطاع في الامصار ، فلا حاجة له في ملك المامون الذي لا يستند للشرعية : "وما زادني هذا الامر الذي دخلت فيه في النعمة شيئاً ، ولقد كنت في المدينة وكتابي ينفذ في الشرق والغرب .." ثم كسب الامام العملية هذه ضمن الاهداف الثابتة لحركته .

وقبل ان نسدل الستار على احداث هذه التولية ، نحاول ان نأتي ببعض الوقائع الهامة التي هي بمثابة حلقة الوصل في جمع اطراف الرؤية حول ولاية العهد .

كما قلنا لقد وضع المامون نفسه بين فكي كماشة ، عندما ولّى الامام الرضا (عليه السلام) العهد ، حيث ان قصده الذي امله من وراء هذه العملية ، كان امتصاص السخط الجماهيري ، ولكن الامام وعندما اصبح يشغل هذا المنصب ، اثبت ان الخلافة الشرعية هي له، لا للمأمون الذي لا يعد حتى تلميذاً من تلاميذته. فكان على المأمون نقض هذه الحقيقة الموضوعية وذلك عن طريق جلب العلماء والفقهاء والمتكلمين حتى من غير المسلمين ، لكي ينكفئ الامام عن اجابتهم ولو لمرة واحدة ، فيشاع عن الامام ذلك . ولكن الامام زاد من نقاط نجاح اهدافه .

ونورد رواية تاريخية من مئات اشباهها تبيّن صدق ما نقول : عن البرقي عن ابيه قال :" اخبرني الريان بن شبيب خال المعتصم اخو ماردة ان المأمون لما اراد ان يأخذ البيعة لنفسه بإمرة المؤمنين وللرضا (عليه السلام) بولاية العهد وللفضل ابن

---

(١) المصدر ، ص ١٤٦ .

سهل بالوزارة ، امر بثلاثة كراسي فنصبت لهم ، فلما قعدوا عليها أذن للناس فدخلوا يبايعون فكانوا يصفقون بأيمانهم على أيمان الثلاثة من اعلى الابهام الى الخنصر ، ويخرجون حتى بايع في آخر الناس فتى من الانصار فصفق بيمينه من الخنصر الى اعلى الابهام ، فتبسم ابو الحسن الرضا (عليه السلام) ثم قال : " كل من بايعنا بايع بفسخ البيعة غير هذا الفتى فانه بايعنا بعقدها " .

فقال المأمون : " وما فسخ البيعة من عقدها ؟

قال ابو الحسن (عليه السلام) : عقد البيعة هو من اعلى الخنصر الى الابهام وفسخها من اعلى الابهام الى اعلى الخنصر " .

قال : فماج الناس في ذلك وامر المأمون باعادة الناس الى البيعة على ما وصفه ابو الحسن (عليه السلام) ، وقال الناس : " كيف يستحق الامامة من لا يعرف عقد البيعة ، ان من يعلم لأولى بها ممن لا يعلم ".

قال : " فحمله ذلك على ما فعله من سمه "[1].

وكان المأمون يطلب من الامام الذهاب الى المسجد وائتمام الناس ، لكي يكون محسوبا على الدولة العباسية ، ولكن الامام الرضا ما كان ليخرج من بيته حتى يعطف الناس لمشاهدته وهم يضجون بالبكاء شعورا بالتقصير والذنب تجاهه ، فتذهب عيون المأمون لتخبره فيطلب على الفور من الامام الرجوع الى بيته ، والا فان الامر سينقلب رأسا على عقب لشدة لهفة القلوب المحبة للامام وقد حدث هذا مرات .

لقد رأى المأمون نفسه انه في مأزق كبير ، وانه كلما تأخر في القضاء على علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ، كلما خرج الامر من يده اكثر فأكثر ، فهو من جهة لم يتحقق له الهدف من جلب الرضا وتوليته العهد بل ان الانظار أخذت تتجه نحو الرضا (عليه السلام) لما بان من منزلته ودرجته العلمية الكبيرة وان المأمون

---

(١) المصدر ، ص ١٤٤ .

امامه لا يعد سوى تلميذا له ، وانه كلما اراد ان يكسب بالرضا شرعية لسلطانه كان الامر يأتي عكس ما يريد .

ومن جهة ثانية زادت نقمة بني العباس عليه لما رأوا ان في ذلك خروج الأمر منهم، حيث اجتمع من ببغداد من ولد العباس ومواليهم وشيعتهم على خلع المأمون ، ومبايعة ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة .

لذا عمد وبعد سنة واحدة على تولية الامام الرضا (عليه السلام) [1] على سمّه وتعجيل ايصال خبر وفاته الى بني العباس في بغداد مطمئناً اياهم ان الامر لازال في ايديهم .

اذن فان النظرة التي طالما يناقشها الباحثون عند الحديث عن ولاية العهد ، من ان المأمون كان ينطلق من دوافع دينية ورسالية ، ثم بعد ذلك غلب عليه الهوى والمصلحة لقاعدة ان الملك عقيم ، هذه النظرة لا تصمد امام الواقع التاريخي الذي سبق تولية الامام الرضا العهد ..

ففي تلك الظروف الضاغطة على السلطة العباسية ، من نتائج الخلافات الداخلية التي جرت بين المامون واتباعه وبين اخيه الامين ومناصريه ، والتي خمدت على جثث عشرات الالوف من القتلى ، ودمار بغداد [2]. ثم الضغط الكبير الذي شكلته الثورة الرسالية في الكوفة (ثورة ابي السرايا) التي كانت تدعو الى الرضا

---

(١) بويع الامام الرضا يوم الخميس لخمس ليال خلون من محرم سنة اثنين ومائتين وقبض سنة ثلاث ومئتين (مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٤٤١) .

(٢) حوصر اهل بغداد وغادى القتال وراوحه ، حتى تواكل الفريقان ، وخربت الديار ، وعفت الاثار ، وغلت الاسعار ، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة ، وقاتل الاخ اخاه والابن اباه ، هؤلاء محمدية (نسبة الى محمد الامين) وهؤلاء مأمونية وهدمت المنازل ، واحرقت الديار ، وانتهت الاموال . (مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٤٠٢) . ويقول في صفحة ٤٠٤ من تاريخه :

" ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين اربعة عشر شهراً ، وضاقت بغداد بأهلها وتعطلت المساجد ، وتركت الصلاة ، ونزل بها بما لم ينـزل بها قط مثلـه ، منذ بناها ابـو جعفر المنصور ". الى ان يقول : " وحوصر محمد في قصره من الجانب الغربي ، فكان بينهم في بعض الايام وقعة تفانى فيها خلق كثير من الفريقين ".

من آل محمد [1] وامتدادات تلك الثورة في اليمن ، والحجاز ، ومكة والمدينة والبصرة وواسط والاهواز وبلاد الجزيرة . كل تلك الظروف هي التي اراد المأمون ان يتجاوزها بأن يضفي الشرعية على حكمه ، فعمد الى تولية الامام الرضا العهد وحينما رأى ان الامر سار على غير ما خطط له عجل بالقضاء على الامام سلام الله عليه ، هذا أولاً .

ثانياً : ان كل ما يستدل به المؤرخون على نظرتهم تلك يبتني على اقوال

ويقول ايضا في وصفه لوقعة دار الرقيق :" وكانت وقعة اخرى عظيمة بشارع دار الرقيق ، هلك فيها خلق كثير ، وكثر القتل في الطرق والشوارع ، ينادي هذا بالمامون ، والاخر بالمخلوع ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وانتهبت الدور ، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة ".

وفي ذلك يقول الشاعر :

بكت عيني على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الانيق
تبدلنا هموماً من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتنا من الحساد عين ... فأفنت اهلها بالمنجنيق
فقوم احرقوا بالنار قصرا ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي يا صحابي ... وقائلة تنادي يا شقيقي
وحوراء المدامع ذات دلّ ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تنادي بالشفيق ؛ فلا شفيق ... وقد فقد الشفيق مع الرفيق
وقوم اخرجوا من ظل دنيا ... متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب بعيد الدار مُلقىً ... بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ... فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على ابيه ... وقد هرب الصديق عن الصديق
ومهما أنس من شيء تولى ... فإنّي ذاكر دار الرفيق

(١) دخل ابو السرايا (الكوفة) وخطب الناس ودعاهم الى البيعة الى الرضا من آل محمد ، والدعاء الى كتاب الله وسنة نبيه (ص) والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسيرة بحكم الكتاب ، فبايعه جميع الناس حتى تكابسوا عليه " (مقاتل الطالبيين ، ص ٣٤٨) .

المأمون التي يدعّي فيها تشيعه ونيته الخالصة لله ، في الوقت الذي تجد فيه اقوالاً مستفيضة بلسان المأمون نفسه وبلسان حاشيته ، ان توليته الامام العهد لم تكن إلاّ لحفظ النظام العباسي .

ولو سلّمنا جدلاً بما يذهب إليه المؤرخون ، فان في اعترافهم ان المأمون استخدم فيما بعد كل وسيلة لضرب الامام وقتله ، دليل على وجود المصلحة في الدوافع .

خلاصة القول : ان الامام الرضا (عليه السلام) استفاد من فرصة توليه العهد في نشر المذهب الرسالي وتوعية الناس وتعريفه بالامام الحق بين الناس ، من دون ان يعترف بالنظام او يخضع له[1] .

هذا جانب من حياة الامام الرضا (عليه السلام) ولحياة الامام الرضا (عليه السلام) جانب آخر ذلك هو جانب الجهاد الفكري الذي قام به في حياته وسوف نتحدث حوله فيما بعد ان شاء الله .

---

(١) بعد ان تولى الامام الرضا (عليه السلام) ولاية العهد ، نشط الشعراء الرساليون في تبيين معالم مدرسة اهل البيت (عليهم السلام) وجهادهم ضد الظلم والانحراف ، سواءً في عهد الامويين او في عهد العباسيين .

ومن هؤلاء الشعراء ، دعبل الخزاعي الذي انشد الامام الرضا (عليه السلام) قصيدته التائية المعروفة التي يقول فيها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
منازل قوم يُهتدى بهداهم ... فيؤمن منهم زلة العثرات
منازل كانت للصلاة وللتقى ... وللصوم والتطهير والحسنات
هم اهل ميراث النبي إذا اعتزوا ... وهم خير سادات وخير حماة

والقصيدة تجدها كاملة في كتاب بحار الانوار ، ج ٤٩ ، ص ٢٤٧ .

دور الامام الرضا عليه السلام في الحركة الرسالية

تنعكس الحياة السياسية بشكل او بآخر على الحياة الفكرية في الامة ، فاذا كانت الحياة السياسية تتميز بالاضطراب والتوتر ، فان الجانب الفكري منها لابد ان يتميز بالاضطراب والتوتر . واذا كانت الامة تفتقد الرؤية الواضحة تجاه مواقفها السياسية ، فانها تعيش في الضباب في اكثر المواقف الفكرية والثقافية .

كذلك تنعكس الحياة الفكرية والثقافية على الحياة السياسية أي انه اذا كانت الامة مضطربة التفكير من الناحية الثقافية فإن مواقفها ورؤيتها في القضايا السياسية ايضا ستكون مضطربة .

وهذا يفسر لنا سبب الاضطراب الذي عاشته الامة الاسلامية في عهد الامام علي بن موسى (عليه السلام) على الصعيد السياسي . ونعود ونفصل ما اجملناه سابقاً عن الظروف التي عاشتها الامة الاسلامية .

فمن الناحية السياسية كانت هناك ثورات متلاحقة ، فثورة في مصر واخرى في السودان وثالثة ورابعة في الحجاز والعراق ، وهكذا تلاحقت الثورات في الامة الاسلامية ، وفي تلك الفترة (من سنة ١٩٨ الى ٢٠٤ للهجرة) كان الخليفة العباسي المأمون قد اتخــذ من خراسان عاصمة له ، وقبل هذه الفترة كان مشغولا بمحاربة اخيه الامين، الذي كان الخليفة المعين حسب المراسيم والمفاهيم العباسية في بغداد ،

ولكن المأمون خلع الامين ونسب الخلافة الى نفسه ، واخذ يحاربه الى ان انتصر عليه ودخل جيش المأمون بغداد عاصمة الامين بعد قتل وهدم واسعين، وبعدئذ هدأت الاوضاع في بغداد ، ورجع الجيش الى خراسان ، ومرة اخرى عاد الاضطراب والسخط في بغداد ، ونصب اهل بغداد على انفسهم ابراهيم بن المهدي خليفة ، وخلعوا بيعتهم للمأمون .

كانت تلك ثورة ، وفي هذه الفترة بالذات كانت منطقة مصر تشهد تحولا خطيرا حيث ان المسيحيين المصريين ثاروا على الوالي العباسي وطردوه .

وفي تلك الفترة حدث ان الهنود الذي استرقوا من السند والبنجاب وباكستان الشرقية وجيء بهم الى البصرة ، سيطروا على البصرة والبحرين ، بعد ما رأوا ان هناك حربا طاحنة تجري في الساحة الاسلامية ، وأخذوا يفرضون الضرائب الضخمة على ميناء البصرة ، والذي كان من اهم الموانيء الاسلامية في ذلك اليوم، وقد عرفوا بالزط نسبة الى لغتهم التي لم يكن الناس يعرفونها ، فإذا رأوا احدهم يتكلم ، يقولون هذا يزطّ بمعنى انه يتكلم بكلام غير مفهوم ، وكان تعداد الزط يربو على العشرين الفا كما نقلته كتب التاريخ .

وفي تلك الفترة تشكلت في اليمن حكومة قامت بالانفصال عن الجسم العباسي، وذلك بعد ما ولّي محمد الزبادي على اليمن والذي انفصل وكوّن الدولة الزبادية. وفي نفس الوقت بالذات كانت هناك اضطرابات في آذربايجان وارمينيا وما حولهما .

وهكذا اصبحت الدولة الاسلامية غارقة الى رأسها في الاضطرابات وهذا الوضع المضطرب انعكس على الجانب الفكري ، فاخذ المسلم لا يعرف ما هو دوره في الحياة ، وهل ان الدين الذي يؤمن به صحيح ام لا .

انتشار الترجمة في زمن المامون

وقد استغل المأمون العباسي ذلك الوضع فابتدع في الاسلام بدعة ، وهي انه امر بترجمة الكتب الاجنبية القديمة ، وبذلك اصبحت سياسة سن القوانين ، وطريقة

ادارة الدولة ، تعتمد اساسا على القواعد غير الاسلامية ، فأنشأ في خراسان ونيسابور وغيرهما من المناطق دورا للترجمة ، واخذ يصرف عليها الاموال الطائلة ولقد قام بهذا العمل لاحد سببين :

السبب الاول : ان المأمون العباسي حينما وجد ان الافكار الثورية قد انتشرت في الامة الاسلامية من اقصاها الى اقصاها ، لم يجد بدا من الاعتماد على خلفية فكرية معينة يحارب بها تلك الافكار الثورية . هذه الخلفية شكلتها الافكار التي تحملها الكتب المترجمة خصوصا من اللغة الفارسية .

ونتسائل ما هي تلك الكتب التي ترجمت ؟

لو رجعنا الى فارس لرأينا ان هناك مجموعة من الملوك كانوا يسيطرون على رقاب الناس بينما الناس كانوا مستعبدين محرومين . لكن هؤلاء المستعبدين المحرومين ، لم تكن عندهم افكار ثورية انما كانوا مشبعين بافكار استسلامية ، كان ينتجها ويضعها مجموعة من الكتّاب الذين يصرف عليهم الامبراطور الاموال الضخمة ليكتبوا كتبا يدعمون بها سلطانه .

فكانت هذه الكتب تدعو الى الاستسلام وتقول (الله في السماء والامبراطور في الارض) وكذلك تقول: ان الحكم ، لا يعرف اصوله وطرقه إلاّ الكبار ولذلك ينبغي عدم التدخل في شؤون الحكم والحكام، وكذلك تقول هذه الكتب ان وجود الاسرة الملكية في البلاد أمر ضروري لاستقرار البلد .

هذه الافكار هي التي استطاعت التغلب على ارادة الجماهير وتخديرها والسيطرة عليها سيطرة كاملة . وقد اطّلع المأمون على تلك الافكار في خراسان التي عاش فيها واتصل ببقايا ممالك فارس ، ووجد في تلك الافكار خير عامل على تثبيت سلطانه .

السبب الثاني : بسبب ما ظهر في البلاد الاسلامية من حركات علمانية ، نتيجة الخيبة التي مُني بها من دخل الاسلام من اتباع الديانات الاخرى ، وهم ينشدون العدالة الاجتماعية والحرية السياسية والرحمة .

فإذا بهم رأوا ان الاسلام من حيث الواقع هو مجموعة من الافكار يسيطر بها بنو امية وبنو العباس على رقاب الناس ، فاندفعوا راجعين الى دياناتهم السابقة ، او الى معتقدات جديدة نسبوها الى الاسلام .

ومع ان العباسيين إتبعوا بحق اصحاب تلك الافكار سياسة التقتيل ، الا انهم في نفس الوقت كانوا يحتاجون الى ما يجابهون به تلك افكار التي وجدت لها آذاناً صاغية في اوساط المجتمع الاسلامي ، الذي حُرم من الفكر الاسلامي الاصيل المتمثل بمدرسة ائمة اهل البيت (عليهم السلام) ، لذلك عمدوا الى تشجيع حركة الترجمة .

ان السلطات العباسية والنظام العباسي هي التي دفعت بالناس الى التمرد ضد الاسلام وذلك لانها جيّرت الفكر الاسلامي لصالحها ، فالمأمون العباسي كالخلفاء الذين من قبله ، حينما راى تلك الحركات ، اراد الاستعانة بالفكر الغربي او الشرقي في سبيل اعادة التوازن داخل الفكر الاسلامي عن طريق تطعيم الافكار والعقائد الاسلامية وعلم الكلام الاسلامي بافكار ارسطو وافلاطون وغيرهم ، فهو اشبه بالانظمة التي ترتدي لباس الاسلام والتي تأتي بسائر انواع النبيذ ثم تعاقب من يشربه ، او تقطع يد السارق مع انها هي التي تدفعه الى السرقة بسبب سياستها الاقتصادية السيئة .

فحينما ننقل افكار الغربيين والشرقيين الى الفكر الاسلامي وهو يعيش حالة اضطراب ، فان ذلك يعني اننا ساعدنا الامة الاسلامية على الانحراف .

دور الامام الرضا (عليه السلام)

في هذا الجو المضطرب جاء الامام الرضا (عليه السلام) منقذاً للامة من جو الاضطراب السياسي الذي ينعكس بدوره على الاضطراب الفكري وانتشار الافكار اللادينية في الامة الاسلامية ، التي غذتها ترجمة النظام للكتب الغربية والشرقية المشحونة بالشرك والكفر والافكار الاستسلامية .

وحينما ننظر الى رحلة الامام الرضا (عليه السلام) في طريقه من المدينة الى

خراسان بناء على طلب المامون اياه ، هذه الرحلة التي استغرقت عدة شهور، حيث مر بالبصرة ، والاهواز ، وفارس ، و طوس ، وحتى مرو . كان الامام اينما يحط برحله فانه يبث من علومه ويحاجج الملحدين والمشككين .

فقد روي ان الامام الرضا (عليه السلام) حين رحل الى نيسابور وهو راكب بغلة شهباء ، فإذا محمد بن رافع واحمد بن الحارث ويحيى بن يحيى وإسحاق بن راهويه، وعدّة من أهل العلم قد تعلّقوا بلجام بغلته بالمربعة فقالوا: " بحق ابائك الطاهرين حدثنا بحديث سمعته من ابيك " فقال (عليه السلام) : " حدثني ابي العبد الصالح موسى بن جعفر قال : حدثني ابي الصادق جعفر بن محمد قال : حدثني ابي ابو جعفر بن علي باقر علم الانبياء ، قال : حدثني ابي علي بن الحسين سيد العابدين ، قال : حدثني ابي سيد شباب اهل الجنة الحسين ، قال : حدثني علي بن ابي طالب قال : سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول : سمعت جبرائيل (عليه السلام) يقول : قال الله جل جلاله : " انّي انا الله لا إله الاّ انا فاعبدوني . من جاء منكم بشهادة ان لا إله الا الله بالاخلاص دخل في حصني ومن دخل حصني أمِنَ من عذابي " [1] .

وما هذه الاواحدة من عشرات المرات التي قال فيها الامام هذا الحديث الشريف وهو في طريقه الى خراسان ، وهو يركز في الامة ذلك الفكر الايماني التوحيدي .

الامام يناظر اصحاب المقالات

وروي ايضا عن النوفلي قال : " لما قدم علي بن موسى الرضا (عليه السلام) على المأمون ، امر الفضل بن سهل ان يجمع له اصحاب المقالات مثل : الجاثليق ، ورأس الجالوت، ورؤساء الصابئين، والهربذ الاكبر ، واصحاب زردهشت ، ونسطاس الرومي ، والمتكلمين ليسمع كلامه وكلامهم ، فجمعهم الفضل بن سهل، ثم اعلم المأمون باجتماعهم فقال : ادخلهم عليّ ففعل ، فرحّب بهم

(١) بحار الانوار ، ج ٤٩ ، ص ١٢٢ .

المأمون ثم قال لهم : انّي انما جمعتكم لخير ، واحببت ان تناظـروا ابن عمي هذا المدني القادم عليّ ، فاذا كان بكرة فاغدوا عليّ ولا يتخلف منكم احد ، فقالوا: السمع والطاعة يا امير المؤمنين نحن مبكرون ان شاء الله تعالــى .

وقال : فبينما نحن في حديث لنا عند ابي الحسن الرضا (عليه السلام) اذ دخل علينا ياسر ، وكان يتولى امر ابي الحسن (عليه السلام) فقال : يا سيدي ان امير المؤمنين يقرئك السلام ويقول : فداك اخوك انه اجتمع اليّ اصحاب المقالات ، واهل الاديان والمتكلمون من جميع الملل ، فرأيك في البكور علينا ان احببت كلامهم ، وان كرهت ذلك فـلا تتجشم ، وإن أحببت أن نصير اليك خفّ ذلك علينا . فقال ابو الحسن (عليه السلام) :" بلغه السلام وقل له : قد علمت ما اردت ، وانا صائر اليك بكرة إن شاء الله تعالى " .

قـــال الحسن بن محمد النوفلي: فلما مضى ياسر ، التفت الينا ثم قال لي : "يا نوفلي انت عراقي ورقّة العراقي غير غليظة ، فما عندك في جمع ابن عمك علينا اهل الشرك واصحاب المقالات ؟

فقلت : جعلت فداك يريد الامتحان ويحب ان يعرف ما عندك ولقد بنى على أساس غير وثيق البيان وبئس والله ما بنى .

فقال لي : " وما بناؤه في هذا الباب " .

قلت : ان اصحاب الكلام والبدع خلاف العلماء ، وذلك ان العالم لا ينكر غير المنكر ، واصحاب المقالات والمتكلمون واهل الشرك ، اصحاب انكار ومباهتة، ان احتججت عليهم بان الله تعالى واحد ، قالوا : صحّح وحدانيته ، وان قلت ان محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) قالوا : ثبّت رسالته ، ثم يباهتون الرجل فيبطلون عليه حجته ، ويغالطونه حتى يترك قوله ، فاحذرهم جعلت فداك .

قـال : فتبسم (عليه السلام) ثم قال : " يا نوفلي أفتخاف ان يقطعوني عليّ حجتي ؟ " .

فقلت : لا والله ما خفت عليك قط ، واني لارجو ان يظفرك الله عليهم ان شاء الله تعالى .

فقال لي :" يا نوفلي اتحب ان تعلم متى يندم المأمون ؟"

قلت : نعم .

قال : " اذا سمع احتجاجي على اهل التوراة بتوراتهم ، وعلى اهل الانجيل بانجيلهم ، وعلى اهل الزبور بزبورهم ، وعلى الصابئين بعبرانيتهم ، وعلى اهل الهرابذة بفارسيتهم ، وعلى اهل الروم بروميتهم ، وعلى اصحاب المقالات بمقالتهم، فإذا قطعت كل صنف ودفعت حجته وترك مقالته ورجع الى قولي ، علم المأمون ان الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحق له ، فعند ذلك تكون الندامة منه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ".

فلما اصبحنا اتانا الفضل بن سهل ، فقال له : جعلت فداك ان عمك ينتظرك ، وقد اجتمع القوم فما رأيك في اتيانه ؟ فقال له الرضا (عليه السلام) : " تقدمني وإنّي صائر الى ناحيتكم ان شاء الله " . ثم توضأ (عليه السلام) وضوءه للصلاة وشرب شربة سويق وسقانا منه ، ثم خرج وخرجنا معه حتى دخلنا على المأمون، فاذا المجلس غاص باهله ومحمد بن جعفر في جماعة الطالبيين والهاشميين والقوّاد حضور .

فلما دخل الامام الرضا (عليه السلام) قام المأمون وقام محمد بن جعفر وجميع بني هاشم فما زالوا وقوفاً والامام الرضا (عليه السلام) جالس مع المأمون حتى امرهم بالجلوس فجلسوا فلم يزل المأمون مقبلا عليه يحدثه ، ثم التفت الى الجاثليق فقال : يا جاثليق هذا ابن عم لي هو علي بن موسى بن جعفر، وهو من ولد فاطمة بنت نبينا وابن علي ابن ابي طالب (عليه السلام) فأحب ان تكلمه وتحاججه وتنصفه . فقال الجاثليق : يا امير المؤمنين كيف احاج رجلا يحتج عليّ بكتاب انا منكره ونبي لا أومن به .

فقال الرضا (عليه السلام) :

" يا نصراني فان احتججت عليك بانجيلك اتقرّ به ؟ " .

قال الجاثليق : هل اقدر على دفع ما نطق به الانجيل ، نعم والله اقر به على رغم انفي .

ثم قرأ الامام الرضا (عليه السلام) عليه الانجيل واثبت عليه ان نبينا (صلى الله عليه وآله) مذكور فيه ثم اخبره بعدد حواريّ عيسى (عليه السلام) واحوالهم ، واحتجّ بحجج كثيرة اقرّ بها ، ثم قرا عليه كتاب شعيا وغيره . الى ان قال الجاثليق: ليسألك غيري فلا وحق المسيح ما ظننت ان في علماء المسلمين مثلك .

فالتفت الرضا (عليه السلام) الى رأس جالوت واحتج عليه بالتوراة والزبور وكتاب شعيا وحيقوق ، حتى افحم ولم يحر جواباً .

ثم دعا (عليه السلام) بالهربذ الاكبر واحتج عليه حتى انقطع هربذ مكانه ، فقال الرضا (عليه السلام) : يا قوم ان كان فيكم احد يخالف الاسلام واراد ان يسأل فليسأل غير محتشم ، فقام اليه عمران الصابيّ ، وكان واحدا في المتكلمين ، فقال: يا عالم الناس لولا انك دعوت الى مسألتك لم اقدم عليك بالمسائل ، فلقد دخلت الكوفة والبصرة والشام والجزيرة ولقيت المتكلمين فلم اقع على احد يثبت لي واحدا ليس غيره قائما بوحدانيته افتأذن ان اسألك ؟

قال الامام الرضا (عليه السلام) : " ان كان في الجماعة عمران الصابيّ فانت هو " قال : انا هو .

قال : " سل يا عمران وعليك بالنصفة ، واياك والخطل والجور " فقال : والله يا سيدي ما اريد الا ان تثبت لي شيئا اتعلق به فلا اجوزه ، قال : سل عما بدا لك ، فازدحم الناس وانظمّ بعضهم الى بعض ، فاحتج الرضا (عليه السلام) عليه وطال الكلام بينهما الى الزوال ، فالتفت الرضا (عليه السلام) الى المأمون فقال : الصلاة قد حضرت ، فقال عمران : يا سيدي لا تقطع عليّ مسألتي فقد رقّ قلبي .

فقال الامام الرضا (عليه السلام) : نصلي ونعود ، فنهض ونهض المأمون فصلى الرضا (عليه السلام) داخلا وصلى الناس خارجا خلف محمد بن جعفر ، ثم خرجا فعاد الرضا (عليه السلام) الى مجلسه ودعا بعمران ، فقال : سل يا عمران، فسأله عن الصانع تعالى وصفاته واجيب الى ان قال : افهمت يا عمران ؟ قال : نعم يا سيدي قد فهمت واشهد ان الله على ما وصفت ووحدت ، وان محمدا عبده المبعوث بالهدى ودين الحق ، ثم خر ساجدا نحو القبلة واسلم .

قال الحسن بن محمد النوفلي : فلما نظر المتكلمون الى كلام عمران الصابي وكان جدلا لم يقطعه من حجته احد قط ، فلم يدن من الامام الرضا (عليه السلام) احد منهم ولم يسألوه عن شيء وأمسينا فنهض المأمون والرضا عليه السلام فدخلا، وانصرف الناس ، فكان عمران بعد ذلك يجتمع اليه المتكلمون من اصحاب المقالات فيبطل امرهم حتى اجتنبوه [1].

وكان (عليه السلام) قد حاجج اصحاب المقالات في البصرة وهو في طريقه الى خراسان . فقد روي عن محمد بن الفضل الهاشمي قال : فلما كان اليوم الثالث من دخولي البصرة ، إذا بالرضا (عليه السلام) قد اتى فقصد منزل الحسن بن محمد فأخلى له داره ، وقام بين يديه يتصرف بين امره ونهيه فقال : يا حسن بن محمد احضر جميع القوم الذين حضروا عند محمد بن الفضل وغيرهم من موالينا ، واحضر جاثليق النصارى ورأس الجالوت ومر القوم يسألون عما بدا لهم، فجمعهم كلهم والزيدية والمعتزلة وهم لا يعلمون لماذا يدعوهم الحسن بن محمد ، فلما تكاملوا ثُنّي للرضا (عليه السلام) وسادة فجلس عليها ثم قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، هل تدرون لِمَ بدأتكم بالسلام ، قالوا : لا .

قال : لتطمئن انفسكم !

قالوا : من انت يرحمك الله ؟

---

(١) المصدر ، ص ١٧٣ - ١٧٧ .

قال : انا علـــي بن موسى بن جعفر بن علي بن الحسين ابن علي بن ابـــي طالب (عليهم السلام) وابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم قال لهم : لا تتفرقوا فاني انما جمعتكم لتسألوا عما شئتم من آثار النبوة وعلامات الامامة ، التي لا تجدونها الا عندنا اهل البيت فهلّموا مسائلكم .

فابتدأ عمر بن هدّاب وكان ينحو نحو التزيد فقال : ان محمد بن الفضل الهاشمي ذكر عنك اشياء لا تقبلها القلوب ، فقال الامام الرضا (عليه السلام) وما تلك ؟

قال : اخبرنا عنك انك تعرف كل ما انزل الله وانك تعرف كل لسان ولغة ، فقال الرضا (عليه السلام) : صدق محمد بن الفضل فانا اخبرته بذلك فهلموا فاسألوا .

قال : فإنّا نختبرك قبل كل شيء بالالسن واللغات وهذا رومي وهذا هندي وفارسي وتركي ، فاحضرناهم ، فقال (عليه السلام) : " فليتكلموا بما احبوا اجيب كل واحد منهم بلسانه ان شاء الله " فسأل كل واحد منهم بلسانه ولغته فأجابهم عما سألوا بالسنتهم ولغاتهم فتحير الناس وتعجبوا واقروا جميعا بانه افصح منهم بلغاتهم ، ثم نظر الرضا (عليه السلام) الى ابن هداب فقال : إن انا اخبرتك انك ستبتلى في هذه الايام بدم ذي رحم لك كنت مصدقاً لي ؟

قال : لا .. فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى .

قال (عليه السلام) : اوليس الله يقول :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن،٢٦-٢٧)

فرسول الله عند الله مرتضى ونحن ورثة ذلك الذي اطلعه الله على ما شاء من غيبه، فعلمنا ما كان وما يكون الى يوم القيامة وان الذي اخبرتك به يا ابن هداب لكائن الى خمسة ايام فان لم يصح ما قلت في هذه المدة فاني كذاب مفتر ، وان صحّ فتعلم انك الراد على الله ورسوله ، ولك دلالة اخرى ، اما انك ستصاب ببصـــرك وتصير مكفوفاً فلا تبصر سهلاً ولا جبلاً ، وهـــذا كائن بعد ايـــام ، ولك

عندي دلالة اخرى انك ستحلف يميناً كاذباً فتصاب بالبرص .

قال محمد بن الفضل : تالله لقد نزل ذلك كله بابن هداب ، فقيل له : صدق الرضا ام كذب ؟ قال : والله لقد علمت في الوقت الذي اخبرني به انه كائن ، ولكني كنت اتجلد .

ثم ان الرضا التفت الى الجاثليق فقال : هل دلّ الانجيل على نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) ؟

قال : لو دل الانجيل على ذلك ما جحدناه ، فقال (عليه السلام) :

اخبرني عن السكتة التي لكم في السفر الثالث .

فقال الجاثليق : اسم من اسماء الله تعالى لا يجوز لنا ان نظهره .

قال الرضا (عليه السلام) : فان اقررتُك انه اسم محمد ، وذكره وأقرّ عيسى به وانه بشّر بني اسرائيل بمحمد لَتُقرّ به ولا تنكره ؟

قال الجاثليق : ان فعلتَ اقررتُ فاني لا اردّ الانجيل ولا أجحد .

قال الرضا (عليه السلام) : فخذ عليّ السفر الثالث الذي فيه ذكر محمد وبشارة عيسى بمحمد .

قال الجاثليق : هات !

فاقبل الرضا (عليه السلام) يتلو ذلك السفر من الانجيل حتى بلغ ذكر محمد فقال : يا جاثليق من هذا الموصوف ؟

قال جاثليق : صفه .

قال : لا اصفه الا بما وصفه الله وهو صاحب الناقة والعصا والكساء النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، يدعو الى الطريق الاقصد ، والمنهاج الاعدل ، والصراط الاقوم ، سألتك يا جاثليق بحق عيسى روح الله وكلمته ، هل تجدون هذه الصفة في الانجيل لهذا النبي ؟

فاطرق الجاثليق مليًا وعلم إنه إن جحد الانجيل كفر .

فقال : نعم هذه الصفة من الانجيل وقد ذكر عيسى في الانجيل هذا النبي و لم يصح عند النصارى ، انه صاحبكم .

فقال الرضا (عليه السلام) : امّا اذا لم تكفر بنصوص الانجيل واقررتَ بما فيه من صفة محمد فخذ عليّ في السفر الثاني فاني اُوجِدُك ذكره وذكر وصيّه وذكر ابنته فاطمة وذكر الحسن والحسين .

فلما سمع الجاثليق ورأس جالوت ذلك علما ان الرضا (عليه السلام) عالم بالتوراة والانجيل فقالا : والله قد اتى بما لا يمكننا ردّه ولا دفعه الا بجحود التوراة والانجيل والزبور ، ولقد بشّر به موسى وعيسى جميعا ، ولكن لم يتقرر عندنا بالصحة انه محمد هذا فاما اسمه فمحمد ، فلا يجوز لنا ان نقر لكم بنبوته، ونحن شاكون انه محمدكم او غيره .

فقال الرضا (عليه السلام) : احتججتم بالشك فهل بعث الله قبل عيسى او بعده من وُلدَ الى يومنا هذا نبيا اسمه محمد ؟ او تجدونه في شيء من الكتب التي انزلها الله على جميع الانبياء ؟

فاحجموا عن جوابه ، وقالوا : لا يجوز لنا ان نقر لك بان محمدا هو محمدكم لاننا ان اقررنا لك بمحمد ووصيه وابنته وابنيهما على ما ذكرتم ادخلتمونا في الاسلام كرها .

فقال الرضا (عليه السلام) : انت يا جاثليق آمن في ذمة الله وذمة رسوله انه لا يبدؤك منا شيء تكره مما تخافه وتحذره .

قال : أمّا اذ قد آمنتني فان هذا النبي الذي اسمه محمد وهذا الوصي الذي اسمه علي وهذه البنت التي اسمها فاطمة ، وهذان السبطان اللذان اسمهما الحسن والحسين ، في التوراة والانجيل والزبور .

قال الرضا (عليه السلام) : فهذا الذي ذكرته في التوراة والانجيل والزبور ، من اسم هذا النبي وهذا الوصي وهذه البنت وهذين السبطين صدق وعدل ام

كذب وزور ؟

قال : بل صدق وعدل ، ما قال الا الحق .

فلما اخذ الرضا (عليه السلام) اقرار الجاثليق بذلك قال لرأس الجالوت : فاسمع الآن يا رأس الجالوت السفر الفلاني من زبور داود .

قال : هات بارك الله عليك وعلى من ولدك فتلا الرضا (عليه السلام) السفر الاول من الزبور حتى انتهى الى ذكر محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال: سألتك يا رأس الجالوت بحق الله ، هذا في زبور داود ولك من الامان والذمة والعهد ما قد اعطيته الجاثليق ؟

فقال رأس الجالوت : نعم هذا بعينه في الزبور باسمائهم .

قال الرضا (عليه السلام) : وبحق العشر الآيات التي انزلها الله على موسى بن عمران في التوراة هل تجد صفة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين في التوراة منسوبين الى العدل والفضل ؟

قال : نعم ، ومن جحدهم كافر بربه وبأنبيائه .

قال له الرضا (عليه السلام) : فخذ الآن في سفر كذا من التوراة ، فاقبل الرضا (عليه السلام) يتلو التوراة ورأس الجالوت يتعجب من تلاوته وبيانه ، وفصاحته ولسانه ، حتى اذا بلغ ذكر محمد قال رأس الجالوت : نعم ، هذا احماد وإليا وبنت احماد وشبر وشبير وتفسيره بالعربية محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، فتلى الرضا (عليه السلام) الى تمامه .

فقال رأس الجالوت لما فرغ من تلاوته : والله يا ابن محمد لولا الرئاسة التي حصلت لي على جميع اليهود لآمنت بأحمد واتبعت امرك ، فوالله الذي انزل التوراة على موسى ، والزبور على داود ما رأيت اقرأ للتوراة والانجيل والزبور منك ، ولا رأيت احسن تفسيرا وفصاحة لهذه الكتب منك . !

ثم أتوه بجارية رومية فكلمها بالرومية ، والجاثليق يسمع ، وكان فهما بالرومية، فقال الرضا (عليه السلام) بالرومية : أيما أحب اليك محمد ام عيسى ؟ فقالت :

كان فيما مضى عيسى احب اليّ حين لم أكن عرفت محمدا فاما بعد ان عرفت محمـداً فمحمـد الآن احب اليّ من عيسى ، ومن كل نبي ، فقال لها الجاثليق : "فاذا كنت دخلت في دين محمد فتبغضين عيسى " ؟

قالت : معاذ الله بل احب عيسى واؤمن به ولكن محمداً أحب اليّ .

فقال الرضا (عليه السلام) للجاثليق : فسّر للجماعة ما تكلمت به الجارية وما قلت انت لها وما اجابتك به ، ففسر لهم الجاثليق ذلك كله . فلما فرغ من مخاطبة القوم ، قال : قد صح عندكم صدق ما كان محمد بن الفضل يلقي عليكم عني ؟

قالوا : نعم والله لقد بان لنا منك فوق ذلك اضعافا مضاعفة وقد ذكر لنا محمد بن الفضل انك تحمل الى خراسان .

فقال : صدق محمد الا اني احمل مكرماً معظماً مبجلاً .

قال محمد بن الفضل : فشهد له الجماعة بالامامة ، وبات عندنا تلك الليلة ولما اصبح ودع الجماعة واوصاني بما اراد ومضى [1].

هذه محاججة من عشرات المحاجحات التي واجه بها الامام اصحاب التيارات المنحرفة والمعادية . وان التاريخ حينما يذكر عن الامام الرضا (عليه السلام) ذلك انما ينقل عن المواجهات والمناقشات الفكرية التي كان يقيمها الامام مع مختلف التيارات .

اننا عبر هذه المواجهات نستطيع اكتشاف دور الامام الفكري داخل الامة الاسلامية ، ومحاولته اعادة التوازن الفكري اليها ، ونحن نعتقد ان في ائمتنا المعصومين جميعاً ، هناك امامان لهما دور الريادة في بيان الفكر الاسلامي وهما الامام الباقر والامام الرضا (عليهما السلام) .

---

(١) المصدر ، ص ٧٣ - ٧٨ ، وقبل انصرافه (عليه السلام) من البصرة ، اوصى محمد بن الفضل بأن يصير الى الكوفة ويجمع الشيعة في دار حفص بن عمير اليشكري ، ثم انها جرت في الكوفة محاججة كتلك التي جرت في البصرة .

اما الائمة الاخرون فكانت عندهم مناقشات ومواجهات وغيرها ، لكن لا بحجم المناقشات والافكار الفلسفية والعقائدية والثقافية المأثورة عن الامام الباقر والامام الرضا (عليهما السلام) . وهذه مهمة حساسة وهي ان ندرس التاريخ من خلال هذه الوقائع ، أي بمعنى ارتباط العلوم التي نشرها أي امام بالظرف التاريخي الذي هو فيه .

وبمعنى آخر : ان الائمة (عليهم السلام) كانوا يغذون كل جيل بمتطلباته ضمن مسيرة التكامل التي كانوا جميعاً يقطعونها في خط تبليغ الرسالة الالهية .

فالائمة يشكلون مسيرة واحدة كل يؤدي الدور الذي عليه فيها ، لكن هذا لا يمنعنا من القول ان عطاء كل امام كان مرتبطا بحاجة الظرف التاريخي الذي عاصره .

وها نجد هذه الظاهرة التي واجهها الائمة المعصومون (عليهم السلام) الا وهي: ان الحركات الرسالية اضافة لما فصلنا فيه القول من نتائجها وآثارها ، لاتستقيم عقائدياً وفكرياً على التشيع طوال مسيرتها مع انها انبثقت من نبع التشيع ، وهذه الصفة (اللااستقامة) كانت تدعو الائمة (عليهم السلام) لتوضيح معتقدات واصول الرسالة اكثر فاكثر .

ومن جانب ثان فإن الانحراف الذي كان يصيب الحركات فيما بعد، كان يوضح رسالة أهل البيت عليهم السلام ويبرزها اكثر سواء كانت هذه الظاهرة ناجمة عن تدبير او عفوية.

ان الأئمة مع انهم كانوا يؤدون وظيفة تتكامل بدور كل امام بعد الآخر ، الا ان عطاء كل امام كان مرتبطاً بمتطلبات وحاجات عصره ، وبطبيعة الظرف الذي كان يعاصره ، فهو محصلة التفاعل الحاصل بين ظروف الأئمة ونوعية عطاءهم ، أي علينا ان لا نكتفي بالقول ان الأئمة ادّوا الوظيفة المتكاملة بتجمع عطاءاتهم ، بل الربط الحيوي بين العطاء وبين الواقع هو الذي يجب ان نفصح عنه .

ايضاً : نلاحظ ظاهرة في انماط تحاليل المؤرخين وهي التركيز على جعل الجانب الغيبي او المعاجز ، مسببة للاحداث ، أي عدم اعطاء اهمية للعمل المرتبط بقوانين

الحياة والذي كان الائمة (عليهم السلام) يعملونه كبشر . ولا نعني بذلك انكار المعاجز والفضل الالهي في رفع راية الاسلام ، وانما توجّهنا يجب ان يكون الى جهاد وكفاح الائمة كبشر ، وللعلوم المأثورة عنهم التي بفضلها تنعم الامة الاسلامية بفهم متكامل للاسلام .

الامام الجواد عليه السلام ومسألة الغيب

بين حصر الغيب واطلاقه

من المسلمين من يرفض الافكار الغيبية تماما الا في حدود الضرورة ، ومنهم من يفسر كل شيء تفسيراً غيبياً سواء بالضرورة ام بدون ضرورة .

الاتجاه الاول يقول : نحن نعلم ان الرسول الاكرم محمدا (صلى الله عليه وآله) كان مؤيداً من قبل الله سبحانه وتعالى بروح القدس ، ولكن في هذه الحدود فقط نحن نقبل الغيب اما خارج هذه الحدود فننكر سائر الغيبيات انكارا مطلقاً .

ويذهبون الى ان معجزات الرسول المروية في الاحاديث ، والتي منها ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يستطيع ان يتكلم بلغات غير اللغة العربية وانه (صلى الله عليه وآله) تكلم مع حصى وان الحصى شهدت له بالنبوة وانه امر نخلة بالمجيء اليه فجاءت اليه .

كل تلك المعاجز وغيرها يقولون عنها: أنها غير صحيحة فهي بنظر هذا الفريق محض اختلاق سطّره الجهلة من الناس ! وقد يحتاجون الى تأويلات بعيدة للاحاديث الصحيحة في هذا الجانب . كما ان هذا الاتجاه ينكر العصمة ، لان عصمة الرسول هي بدورها اثبات لغيبيته .

اما الاتجاه الثاني فبالعكس تماماً، فكل شيء في التاريخ عندهم هو من الغيب .

فالرسول انتصر في غزوة بدر بالغيب، واستطاع فتح الجزيرة العربية بالغيب ، والمسلمون استطاعوا فتح العالم بالغيب ، وهكذا يفسرون كل شيء تفسيراً غيبياً.

وحينما نسأل اصحاب هذا الاتجاه : لماذا انهزم المسلمون بقيادة الرسول (صلى الله عليه وآله) في بعض الحروب ؟ ولماذا قتل الامام الحسين (عليه السلام) ؟ ولماذا اغتيل الامام الحسن (عليه السلام) بالسم ؟ رغم انهم جميعا كانوا ينصرون الله ويبلغون رسالته ؟ فان جوابهم هو ان الله اراد ذلك ، هكذا يفسرون التاريخ تفسيراً غيبياً ، وبصورة كلية .

اما الاتجاه الذي نعتقد انه هو الصحيح فهو الاتجاه الوسط الذي يقول : ان التاريخ نتاج عمل الانسان ، ولكن في الوقت نفسه للغيب تأثيره في الانسان. فالرسول (صلى الله عليه وآله) كان متصلاً بالغيب ، والائمة المعصومون بدورهم كانت علومهم وافكارهم موروثة من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لفضلهم ولاحسانهم ، ولعلمهم ، ولأنهم تفوقوا على غيرهم في الورع والتقوى .

الانبياء انفسهم لا يختارهم الله الا بحكمة ... وقد قال ربنا عن ابراهيم (عليه السلام) : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ (البقرة،١٢٤)

وقال عن موسى (عليه السلام) : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف،٢٢)

فالإبتلاء سبق الاختيار كما ان الاحسان سبق الحكم والعلم ، واما سائر الامور فيما ثبت من التاريخ ان عاملها المؤثر هو الغيب نفسرها بالغيب ، وفيما ثبت انها من عالم الشهود نفسرها بالتأثيرات الخارجية ، فلا ننكر هذا ولا ننكر ذلك ، ولا يكون منا افراط في اتجاه الغيبيات ولا تفريط في اتجاه الشهوديات ، وانما نسير على الطريق الوسط .

فمثلا : ان الامام الصادق (عليه السلام) حين دعي الى الاجتماع الذي ضم كبار القادة العلويين والعباسيين لانتخاب قائد للحركة ، وكان الاجتماع قد عقد

في منطقة الابواء بين مكة والمدينة ، وتم فيه اختيار محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، كقائد للحركة والمرشح لاستلام الحكم بعد الاطاحة بالامويين .

في ذلك الاجتماع ، لم ينتخب الامام الصادق محمداً ، واشار الى ان الامر لن يتم له ، وقال : " كبيرة لا ينالها الا صاحب القباء الاصفر " مشيراً الى ابي جعفر المنصور .

ويومها انفضّ الاجتماع وقد انكر بعض المجتمعين على الصادق رأيه ، الا ان الايام مرّت ، وتحقق ما قاله الامام الصادق (عليه السلام) ، حيث تحولت القيادة الحركية من العلويين الى العباسيين لاسباب عدة ، واذا بالمنصور الدوانيقي يتسلم مقاليد الحكم ، وان محمداً ذا النفس الزكية واخاه ابراهيم ثارا على المنصور بعد ان قتل المنصور اباهما وخمسة من ابناء الحسن (عليهم السلام) ، وان المنصور جيش الجيوش لقتلهم ، فاستشهد محمد في المدينة ، واستشهد اخوه ابراهيم في البصرة .

ومع ان هذه الرواية قد اوردها اغلب المؤرخين ، الا اننا نجد ان البعض يزعم انها من وضع الغلاة الذين ارادوا اثبات المعجزة لائمتهم ، وذلك انطلاقا من انهم ينكرون كل رواية تثبت الاعجاز .

بالطبع لا يمكننا ان نماشي هذه الطريقة في التفكير ، لانه مادام الامر قد ثبت تاريخياً ، وليس هناك من الناحية العقلية ما يخالفه ، حيث ان الامام الصادق كان يعرف ظروف الثورة ضد الامويين ، وان العباسيين قد قطعوا في سبيل بناء دولتهم شوطاً كبيراً متجاوزين في سبيل ذلك الكثير من المعايير الدينية التي يتوقف عندها الرساليون ، وان ذا النفس الزكية كان اسمى من ان يتوسل بقتل عشرات الالوف في سبيل الوصول الى الحكم ، لذلك حكم الامام الصادق (عليه السلام) بأن من سيستلم الامور هو المنصور الدوانيقي الذي كان القائد الفعلي للدولة العباسية حتى في خلافة اخيه ابي العباس السفاح ، التي دامت اربع سنين،

والذي توفي عن عمر لا يتجاوز حسب اكثر الروايات الثالثة والثلاثين من العمر وقيل تسع وعشرون [1] .

الامام الصادق ملهم الكيمياء

كذلك حينما كتب احد الغربيين كتابا سماه (الامام الصادق ملهم الكيمياء) واثبت في كتابه ان الامام الصادق (عليه السلام) هو الذي وضع اساس علم الكيمياء في العالم وليس في العالم الاسلامي فقط ، وان علم الكيمياء الموجود هو نتاج جابر بن حيان الكوفي الذي اقتبس هذا العلم من الامام الصادق (عليه السلام) لانه في كل رسائله يكتب : قال مولاي وسيدي جعفر بن محمد الصادق ، ويروي كل علومه عن الامام الصادق ، ولكن يأتي احد المؤلفين ويقول بكل بساطة ان هذه الرواية كاذبة ، لماذا ؟

لانه حسب قوله انه لم يكن في المدينة المنورة اساتذة في علم الكيمياء ، فمن اين اقتبس الامام الصادق هذا العلم ؟

هنا لا يمكن الا ان يكون الله سبحانه هو الذي ألهم الامام الصادق (عليه السلام) علم الكيمياء ، ولكن هذا الكاتب كيف يقبل ذلك وهو يسير على قاعدة انه من المستحيل ان ربنا يلهم عباده العلوم بصورة غيبية ، علما بان المفكرين والمخترعين وحتى الشعراء يؤكدون جميعا على دور الالهام في العلم والفن .

الامام الجواد والالهام الالهي

لقد اصبح الامام الجواد (عليه السلام) اماماً وهو في عمر لا يتجاوز التاسعة ، وكان ذلك امتحانا عسيرا وفتنة لكل الموالين . فكبار العلماء والفقهاء ، والقادة العسكريين ، كان من الواجب عليهم الانقياد لفتى عمره ٩سنوات ، شديد السمرة و لم يكن ضخم الجثة لكي يتراءى اكبر من سنه .

قال قاسم بن عبد الرحمن (وكان زيدياً): خرجت الى بغداد فبينا أنا بها اذ رأيت

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

الناس يتعادون ويتشرّفون ويقفون ، فقلت : ما هذا ؟

فقالوا : ابن الرضا ، ابن الرضا ، فقلت : والله لأنظرنّ اليه، فطلع على بغلة ، فقلت : لعن الله الامامية حيث يقولون ان الله افترض طاعة هذا ، فعدل اليّ وقال: يا قاسم ابن عبد الرحمن ﴿ أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ .

فقلت في نفسي : ساحر والله، فعدل اليّ فقال : ﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ .

قال : فانصرفت وقلت بالامامة وشهدت انه حجة الله على خلقه واعتقدت به[1].

وعن عبد الله بن جعفر قال: دخلت على الرضا (عليه السلام) انا ورضوان بن يحيى وابو جعفر (عليه السلام) - أي الإمام الجواد - قائم قد اتى له ثلاث سنين ، فقلنا له : جعلنـــا الله فداك إن - واعوذ بالله - حَدَثَ حَدَثٌ فمـن يكون بعدك ؟ قال : "ابني هذا واومأ اليه " . قال فقلنا له : هو في هذا السن ؟ قال : نعم وهو في هذا السن . ان الله تبارك وتعالى احتج بعيسى (عليه السلام) وهو ابن سنتين[2].

نرى أي فتنة كبيرة ، واي امتحان عظيم ، ان يأتي رجل مثل علي بن الامام جعفر الصادق .. ابوه امام واخوه امام ، وابن اخيه امام ، وهو كان من فقهاء المذهـب ، وأسن رجل في بني هاشم ، ياتي الى الامام الجواد (عليه السلام) ابن الامام الرضا ، ابن الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق (والد علي) ويدين له بالطاعة والولاء امتثالاً لأمر الله ورسوله .

نعم القضية ليست قضية عمر ، وانما قضية التسليم لامر الله ، والرضا بأمره ، فهذا الريان وأبو الصلت وغيرهم وهم من كبار الفقهاء والمحدثين ومن كبار القادة الحركيين ، يأتون كلهم ويجلسون عند الامام الجواد (عليه السلام) ويسمعون كلامه .

---

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر ، ص ٣٥ .

روى محمد بن الحسن بن عمار قال : كنت عند علي بن جعفر الصادق (عليه السلام) بن محمد الباقر (عليه السلام) جالساً بالمدينة وكنت اقمت عنده سنتين اكتب ما سمع من اخيه يعني ابا الحسن ، اذ دخل عليه ابو جعفر محمد بن علي الرضا المسجد (مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله) فوثب علي ابن جعفر الصادق بلا حذاء ولا رداء فقبل يده وعظمه فقال له ابو جعفر (عليه السلام) يا عم اجلس رحمك الله .

فقــال : يا سيدي كيف اجلس وانت قائم، فلما رجع علي بن جعفر الى مجلسه، جعل اصحابه يوبخونه، ويقولون : انت عم ابيه وانت تفعل به هذا الفعل ؟

فقال : اسكتوا ! اذا كان الله عزّ وجل - وقبض على لحيته - لم يؤهل هذه الشيبة وأهّل هذا الفتى ووضعه حيث وضعه افأنكر فضله ؟ . نعوذ بالله مما تقولون بل انا له عبد [1].

وروى الحسين بن موسى بن جعفر الصادق (عليه السلام) قال : كنت عند ابي جعفر (عليه السلام) بالمدينـة وعنده علي بن جعفر الصادق فدنا الطبيب ليقطع له العرق ، فقام علي بن جعفرفقال : يا سيدي يبدأ بي لتكون حدة الحديد فيّ قبلك قال : يهنئك هذا عم ابيه ، فقطع له العـرق ثـم اراد ابو جعفـر (عليه السلام) النهـوض فقام علي بن جعفر فسوى له نعليه ، حتى يلبسها [2].

وروي انه لما قبض الرضا (عليه السلام) كان سن ابي جعفر نحو سبع سنين ، فاختلفت كلمة الناس في بغداد وفي الامصار ، واجتمع الريان بن الصلت ، وصفوان بن يحيى ، ومحمد بن حكيم ، وعبد الرحمن بن الحجاج ، ويونس ابن عبد الرحمن ، وجماعة من وجوه الموالين وثقاتهم في دار عبد الرحمن بن الحجاج في بركة زلول يبكون ويتوجعون من المصيبة لانهم من قادة الحركة آنذاك . فقال لهم

---

(١) المصدر ، ص ٣٦ .

(٢) المصدر ، ص ١٠٤ .

يونس بن عبد الرحمن : دعوا البكاء ! مَن لهذا الامر؟ والى مَن نعقد الى ان يكبر هذا؟ يعني أبا جعفر (عليه السلام) .

فقام اليه الريان بن الصلت ووضع يده في حلقه و لم يزل يلطمه ويقول له : انت تظهر الايمان لنا وتبطن الشك والشرك ، ان كان امره من الله جل وعلا فلو انه كان ابن يوم واحد لكان بمنزلة الشيخ العالم وفوقه ، وان لم يكن من عند الله فلو عمر الف سنة فهو واحد من الناس . فأقبلت الجموعة عليه تعذله وتوبخه .

وكان وقت الموسم فاجتمع من فقهاء بغداد والامصار وعلمائهم ثمانون رجلا فخرجوا الى الحج وقصدوا المدينة ليشاهدوا ابا جعفر (عليه السلام) فلما وافوا، اتوا دار جعفر الصادق (عليه السلام) لانها كانت فارغة ، ودخلوها وجلسوا على بساط كبير ، وخرج اليهم عبد الله بن موسى ، فجلس في صدر المجلس وقام مناد وقال : هذا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فمن اراد السؤال فليسأله ، فسئل عن اشياء ، فأجاب عنها بغير الواجب فورد على الشيعة ما حيرهم وغمهم، واضطرب الفقهاء ، وقاموا وهموا بالانصراف ، وقالوا في انفسهم : لو كان ابو جعفر (عليه السلام) يكمل لجواب المسائل لما كان من عبد الله ما كان ، ومن الجواب بغير الواجب .

ففتح عليهم باب من صدر المجلس ودخل موفق وقال : هذا ابو جعفر ! فقاموا اليه بأجمعهم ليستقبلوه وسلموا عليه فدخل صلوات الله عليه وعليه قميصان وعمامة بذؤابتين وفي رجله نعلان وجلس وامسك الناس كلهم ، فقام صاحب المسألة ، وسأله عن مسائله فأجاب عنها بالحق ففرحوا ودعوا له واثنوا عليه وقالوا له : " ان عمك عبد الله افتى بكيت وكيت ، فقال : لا اله الا الله ، يا عم انه عظيم عند الله ان تقف غدا بين يديه فيقول لك : لم تفتي عبادي بما لم تعلم ، وفي الامة من هو اعلم منك [1].

---

(١) المصدر ، ص ٩٩ .

روى زرقان صاحب ابن ابي دواد القاضي وصديقه الحميم قال : رجع ابن ابي دواد ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتم فقلت له في ذلك فقال : وددت اليوم اني قد متُّ منذ عشرين سنة ، قال قلت له : و لم ذاك ؟

قال : لما كان من هذا الاسود ابي جعفر محمد بن علي بن موسى اليوم بين يدي امير المؤمنين ، قال : قلت له : وكيف كان ذلك ؟

قال : ان سارقاً أقر على نفسه بالسرقة ، وسأل الخليفة تطهيره باقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد احضر محمد بن علي فسألنا عن القطع في أي موضع يجب ان يقطع ؟

فقلت : من الكرسوع (طرف الزند الذي يلي الخنصر الناتئ عند الرسغ) قال : وما الحجة في ذلك؟ قلت : لان اليد هي الاصابع والكف الى الكرسوع ، لقول الله في التيمم : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وايديكم ﴾ واتفق معي على ذلك قوم .

وقال آخرون : بل يجب القطع من المرفق ، قال : وما الدليل على ذلك ؟

قالوا : لان الله لما قال : ﴿ وايديكم الى المرافق ﴾ في الغسل (أي الوضوء) دل على ان حد اليد هو المرفق . قال فالتفت الى محمد بن علي (عليه السلام) فقال : ما تقول في هذا يا ابا جعفر :

فقال : قد تكلم القوم فيه يا امير المؤمنين .

قال : دعني مما تكلموا به ! أي شيء عندك ؟

قال : اعفني من هذا يا امير المؤمنين .

قال : اقسمت عليك بالله لما اخبرت بما عندك فيه .

فقال : اما اذا اقسمت عليَّ بالله فاني اقول انهم اخطأوا في السنة فان القطع يجب ان يكون من مفصل اصول الاصابع ، فيترك الكف .

قال : وما الحجة في ذلك .

قال : قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) السجود على سبعة اعضاء : الوجه

واليدين والركبتين والرجلين ، فاذا قطعت يده من الكرسوع او المرفق لم يبق له يد يسجد عليها ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وان المساجد لله ﴾ يعني به هذه الاعضاء السبعة التي يسجد عليها، وما كان لله لا يقطع .

قال : فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الاصابع دون الكف .

قال ابن ابي دواد : قامت قيامتي ، وتمنيت اني لم أك حياً، فصرت الى المعتصم بعد ثلاثة ايام فقلت : ان نصيحة امير المؤمنين عليّ واجبة ، وانا أكلمه بما اعلم اني ادخل به النار ، قال : وما هو ؟

قلت : اذا جمع امير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيته وعلماءهم لأمر واقع من امور الدين ، فسألهم عن الحكم فيه فأخبروه بما عندهم من الحكم في ذلك ، وقد حضر مجلسه اهل بيته وقواده ووزراؤه وكتابه ، وقد تسامع الناس بذلك من وراء بابه ، ثم يترك اقاويلهم كلهم لقول رجل يقول شطر هذه الامة بامامته ، ويدعون انه اولى منه بمقامه ثم يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء !

قال : فتغيّر لونه وانتبه لما نبهته له ، وقال : جزاك الله عن نصيحتك خيراً ، قال فأمر اليوم الرابع فلانا من كتّاب وزرائه ان يدعوه الى منزله فدعاه فأبى ان يجيبه وقال : قد علمت اني لا احضر مجالسكم ، فقال اني انما ادعوك الى الطعام واحب ان تطأ ثيابي ، وتدخل منزلي فاتبرك بذلك ، فقد احب فلان بن فلان من وزراء الخليفة لقاءك، فصار اليه فدسّ اليه السم ، فلما طعم منها احس السم فدعا بدابته فسأله رب المنزل ان يقيم قال : خروجي من دارك خير لك ، فلم يزل يومه ذلك وليله في خِلفة حتى قبض عليه السلام [1].

يتبين لنا من هذه الرواية عدة امور :

اولاً : منزلة الامام الجواد العلمية .

---

(١) المصدر ، ص ٥ .

ثانياً : حالة الحركة الرسالية حيث قال : رجل يقول شطر هذه الامة بامامته ، ويدعون انه اولى منه (أي من المعتصم) بمقامه .

ثالثاً : حدد اسلوب السلطة في مواجهة الحركة وذلك بدس السم الى قائدها .

لقد اصبحت دلالات الامامة واضحة للعيان جلية كالشمس المشرقة ، وهكذا فقد بلغ التشيع في عهد الامام الجواد (عليه السلام) كل مبلغ ، واستطاعت ايديولوجيته الفكرية ان ترسخ في قلوب الناس ، الامر الذي جعل التسليم بإمامته امراً مسلّماً به مع صغر سنه .

فالقضية ليست قضية عمر او طول او جثة او لحية بيضاء ، او حتى مجرد لحية، فالامام لم يكن ذا لحية آنذاك فعمره لم يزد على الحادية عشر .

وهكذا الامام الحجة المنتظر (عجل الله فرجه) وهو اصغر الائمة سنا حينما قام بالامامة ، كان عمره خمس سنين ، وربما اربع سنين ، وكان عنده علم ما كان وما يكون وبعدئذ انتقل الى حالة الغيبة ، وقد مد الله سبحانه وتعالى في عمره الى يومنا هذا ، وكل هذه امور غيبية نحن نعتقد بها ونستدل عليها من الكتاب والسنة، والعقل لا يستطيع انكار هذه الحقائق .

وإذا دققنا النظر في حياة الامام الجواد والسر في انه اصبح اماماً وهو لا يزال صغيراً ، نجد ان سر هذه المرحلة هو جعلها امتحان للبشر من حيث ولايتهم لقيادة الائمة المعصومين (عليهم السلام) ومدى اخلاصهم لعقيدتهم ، اذ كانت هذه المرحلة تمهد بصورة تدريجية لمرحلة الغيبة التي سيقوم فيها الامام الحجة (عجل الله فرجه) وهي أمر لا يحتمله إلاّ من امتحن الله قلبه واخلص في الذب عن المبدأ. فكان من الواجب العمل على تقبل الرساليين النفسي للغيبة .

صحيح ان هناك الكثير من الاحاديث المتواترة عن الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله) في أمر المنتظر ، الا ان سماع الاحاديث شيء والايمان بها شيء آخر .

اننا ومن خلال حياة الامام الجواد (عليه السلام) ، وما فيها من حكم وأحداث ، فان ذلك يدفعنا لكي نؤمن بالغيب ومعجزاته ولكن ذلك الايمان الذي لا ينكر دور المسببات الماديــة .

عهد الامام الجواد عليه السلام وانتشار الحركة الرسالية

عاصر الامام محمد بن علي الجواد (عليه السلام) ، خليفتين عباسيين حيث كان مقتله في ذي القعدة او ذي الحجة سنة عشرين ومائتين وله يومئذ خمس وعشرون سنة .

الخليفة الذي عاش الامام في عهده ظروفا هادئه ، هو المأمون العباسي ، الذي قام بالتقرب الى العلويين والى سيدهم الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ، بسبب الضغط الجماهيري آنذاك حيث قامت في عهد المأمون سلسلة من الثورات والانتفاضات في كافة ارجاء الدولة الاسلامية ، لذلك تقرّب هذا الرجل الى العلويين وعرف ان التقرب يجب ان يكون الى شخص الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ، علّه يجد في ذلك ما يضفي صفة الشرعية على حكمه .

ومع ان بعض المؤرخين يذهبون الى ان المأمون العباسي كان شيعيا ، وكان يذهب الى احقية اولاد الامام علي (عليه السلام) بالخلافة ، الا انني لا ارى ذلك في المامون العباسي لان ذلك شرف لا يستحقه خليفة غاصب .

وبعد استشهاد الامام الرضا (عليه السلام) على يد المأمون الذي فشل في جعل الامام الرضا (عليه السلام) اداة لاخماد الثورات ضد السلطة العباسية ، اصبح محمد الجواد (عليه السلام) اماماً شرعياً للرساليين ، وقد بقي في المدينة المنورة

بعيداً عن بغداد عاصمة الخلافة آنئذ .

قصة زواج الامام الجواد (عليه السلام)

عن الريان بن شبيب قال : لما اراد المأمون ان يزوج ابنته ام الفضل ابا جعفر محمد بن علي ، بلغ ذلك العباسيين ، فغلظ عليهم واستنكروه منه ، وخافوا ان ينتهي الامر معه الى ما انتهى مع الرضا (عليه السلام) فخاضوا في ذلك واجتمع منهم اهل بيته الادنون منه ، فقالوا : ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي عزمت عليه من تزويج ابن الرضا ، فانا نخاف ان يخرج به عنا امر قد ملكناه الله عز وجل ، وينزع منا عزا قد البسناه الله ، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك ، من تبعيدهم والتصغير بهم ، وقد كنا في وهلة من عملك مع الرضا (عليه السلام) ما عملت فكفانا الله المهم من ذلك ، فالله الله ان تردنا الى غم قد انحسر عنا ، واصرف رأيك عن ابن الرضا واعدل الى من تراه من اهل بيتك يصلح لذلك دون غيره .

فقال لهم المأمون : اما ما بينكم وبين آل ابي طالب فانتم السبب فيه ، ولو انصفتم القوم لكانوا اولى بكم ، واما ما كان يفعله من قبلي بهم فقد كان قطعا للرحم ، واعوذ بالله من ذلك ، والله ما ندمت على ما كان مني من استخلاف الرضا (عليه السلام) ولقد سألته ان يقوم بالامر وانزعه من نفسي فأبى ، وكان امر الله قدرا مقدورا ، واما ابو جعفر محمد بن علي فقد اخترته لبروزه على كافة اهل الفضل في العلم والفضل ، ومع صغر سنه ، والاعجوبة فيه بذلك ، وانا ارجو ان يظهر للناس ما قد عرفته منه ، فيعلمون ان الرأي ما رأيت فيه .

فقالوا له : ان هذا الفتى وان راقك منه هديه فانه صبيٌ لا معرفة له ولا فقه فامهله ليتأدب ثم اصنع ما تراه بعد ذلك .

فقال لهم : ويحكم اني اعرف بهذا الفتى منكم وان اهل هذا البيت علمهم من الله تعالى وموادّه والهامه ، لم يزل آباؤه اغنياء في علم الدين والادب عن الرعايا

الناقصة عن حد الكمال ، فان شئتم فامتحنوا ابا جعفر بما يتبين لكم به ما وصفت لكم من حاله .

قالوا : قد رضينا لك يا امير المؤمنين ، ولانفسنا بامتحانه فخل بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة ، فان اصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في امره وظهر للخاصة والعامة سديد رأي امير المؤمنين فيه ، وان عجز عن ذلك فقد كفينا الخطب في معناه ، فقال لهم المأمون : شأنكم وذلك متى أردتم.

فخرجوا من عنده واجتمع رأيهم على مسألة يحيى بن اكثم ، وهو يومئذ قاضي الزمان على ان يسأله مسألة لا يعرف الجواب فيها ، ووعدوه باموال نفيسة على ذلك ، وعادوا الى المأمون وسألوا ان يختار لهم يوما للاجتماع فأجابهم الى ذلك .

فاجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه وحضر معهم يحيى بن اكثم ، وامر المأمون ان يفرش لأبي جعفر دست ، ويجعل له فيه مسورتان ، ففعل ذلك وخرج ابو جعفر وهو يومئذ ابن تسع سنين واشهر ، فجلس بين المسورتين وجلس يحيى بن اكثم ، بين يديه وقام الناس في مراتبهم والمأمون جالس في دست بجانب دست ابي جعفر (عليه السلام) .

فقال يحيى بن اكثم للمأمون : يأذن لي امير المؤمنين ان اسأل ابا جعفر عن مسألة؟

فقال له المأمون : استأذنه في ذلك فأقبل عليه يحيى بن اكثم ، فقال : اتأذن لي جعلت فداك في مسألة ؟

فقال ابو جعفر (عليه السلام) : سل ان شئت .

قال يحيى : ما تقول جعلت فداك في محرم قتل صيدا ؟

فقال ابو جعفر (عليه السلام) : قتله في حل ام حرم ، عالما كان او جاهلا ، قتله عمدا او خطأ ، حرا كان المحرم او عبدا ، صغيراً كان او كبيراً ، مبتدئاً بالقتل او معيداً ، من ذوات الطير كان الصيد ام من غيرها ، من صغار الصيد ام من كبارها ، مصراً على ما فعل او نادماً ، في الليل كان قتله للصيد ام في النهار ، محرماً كان بالعمرة اذ قتله او بالحج كان محرماً ؟

فتحير يحيى بن اكثم وبان في وجهه الانقطاع والجلج حتى عرف جماعة اهل المجلس امره .

فقال المأمون : الحمد الله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي . ثم نظر الى اهل بيته فقال لهم : اعرفتم الان ما كنتم تنكرونه ؟

ثم اقبل على ابن جعفر (عليه السلام) فقال له : اتخطب يا ابا جعفر ؟

فقال : نعم ، يا امير المؤمنين .

فقال له المأمون : اخطب لنفسك جعلت فداك ، قد رضيتك لنفسي وانا مزوجك ام الفضل ابنتي وان رغم قوم لذلك .

فقال ابو جعفر (عليه السلام) : الحمد لله اقرارا بنعمته ، ولا اله الا الله اخلاصاً لوحدانيته وصلى الله على محمد سيد بريته ، والاصفياء من عترته ..

اما بعد فقد كان من فضل الله على الانام ، ان اغناهم بالحلال عن الحرام ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور/٣٢)

ثم ان محمد بن علي بن موسى خطب ام الفضل بنت عبد الله المأمون ، وقد بذل لها من الصداق مهر جدته فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وآله) وهو خمس مائة درهم جيادا، فهل زوجته يا امير المؤمنين بها على هذا الصداق المذكور ؟

فقال المأمون : نعم ، قد زوجتك يا ابا جعفر ام الفضل ابنتي على الصداق المذكور ، فهل قبلت النكاح ؟

قال ابو جعفر (عليه السلام) : قد قبلت ذلك ورضيت به .

فأمر المأمون ان يقعد الناس على مراتبهم في الخاصة والعامة .

قال الريان : و لم نلبث ان سمعنا اصواتا تشبه اصوات الملاحين في محاوراتهم، فإذا الخدم يجرون سفينة مصنوعة من فضة منضودة بالحبال من الابريسم ، على عجلة مملوءة من الغالية ثم امر المأمون ان تخضب لحاء الخاصة من تلك الغالية ، ثم

مدّت الى دار العامة فتطيبوا منها ووضعت الموائد فأكل الناس وجرت الجوائز الى كل قوم على قدرهم [١].

وقد قيل ان الامام سئل ثلاثين ألف مسئلة ، وبالطبع ان هذه الثلاثين ألف ليست في يوم واحد ، اذ يعتقد (كما يقول بعض المؤرخين) ان السؤال كان عبارة عن مجموعة من المسائل الكلية أي ان الامام (عليه السلام) كان يطلق بعض القواعد الفقهية ، وتلك القواعد الفقهية كانت تتشعب منها الاحكام ، وقد احصى العلماء تلك الاحكام ، فكانت ثلاثين ألف مسئلة ، وكما قال الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) : " علمني رسول الله الف باب من العلم يفتح لي من كل باب الف باب " .

يعني الباب الواحد يتحول الى الف باب ، لان القاعدة كلية والحكم عام ، والحكم العام فيه ابواب متعددة ، وكما قال الامام الصادق (عليه السلام) حينما بيّن قاعدة فقهية وهي قاعدة الحرج ، قال ان تلك مما يفتح منها الف باب ، يعني هذه القاعدة هي قاعدة عامة تستطيع ان تطبقها على قضايا ومواضيع كثيرة .

لماذا صاهر الامام الخليفة ؟

ويأتي سؤال : كيف اقدم الامام الجواد (عليه السلام) على الزواج من بنت المأمون العباسي ؟

الجواب على هذا السؤال بسيط جدا ، بعد ان عرفنا الجواب على سؤال سابق حول قبول الامام الرضا (عليه السلام) ولاية العهد من قبل المأمون العباسي ، فنفس الجواب ينطبق هنا .

هنـاك قلنا انه في عهد المأمون تحولت الحركة الرسالية الى حركـة تستطيع ان تكون شيئاً اشبه ما يسمى اليوم بحكومة ائتلافية مع أي دولة من الدول من دون ان

---

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ٧٤ .

تفقد الحركة رسالتها وقضيتها . فالأئمة المعصومون (عليهم السلام) لم يقبلوا بالخلافة و لم يشتركوا فيها ، والدليل على ذلك موقف الامام الرضا .

وهكذا الامام الجواد (عليه السلام) حينما خطب ابنة المأمون وتزوجها واصبح صهر الخليفة ، وكان يمكن ان يصير واليا على منطقة ، او حاكما على بلد ، او قاضي القضاة لا اقل ، ولكن الامام الجواد لم يفعل شيئا من ذلك ، بل اخذ بيد زوجته وذهب ال المدينة وبقي هناك حتى مات المأمون العباسي عندما كان في الرقة .

وكسب الامام الجواد بهذا العمل امرين :

اولاً : قيّدَ المأمون من ان يقوم بعملية اغتياله ، وذلك بقبوله الزواج من بنت المأمون .

ثانياً : جعل مخالب السلطة وانيابها في قفص الحركة الرسالية وذلك ان المأمون ما كان ليجرؤ بعد ذلك على ان يقوم بالفتك برجالات الحركة ومجموعاتها .

ولقد كان هذا الاسلوب متبعا في كثير من عصور الائمة (عليهم السلام) وخير شاهد على ذلك قصة علي بن يقطين بن موسى البغدادي الذي كان بمثابة مستشار للخليفة المهدي العباسي ، ثم صار شبه الوزير لهارون الرشيد ، عندما حصل على هذا المنصب وكان اتجاهه رسالياً ، جاء الى الامام الصادق (عليه السلام) وقال : يا ابن رسول الله انا صرت عونا لهذا الطاغية .

والذي يحصل على هذا المركز ذلك اليوم يصبح كل شيء بيده ، ويسيطر على مرافق اكبر دولة في العالم .

فأجابه الامام ان يظل في عمله ، ويستمر في اداء مهامه الرسالية ويبقى في سلطة هارون ، وعاود الطلب من الامام بان يأذن له بترك العمل عند السلطة ، الا ان الامام لم يأذن له ، ولقد كانت اعماله كبيرة بالنسبة للحركة ، حتى ان الامام أبا الحسن (عليه السلام) قال فيه عندما دخل عليه داود الرقي ، في يوم النحر :

ماعرض في قلبي احد وانا على الموقف الا علي بن يقطين فانه مازال معي وما فارقني حتى افضت [1].

والامام الجواد (عليه السلام) عاصر خليفة من الخلفاء الذين اثروا تأثيرا مباشرا على زوال الدولة العباسية ، وهو المعتصم العباسي .

المعتصم العباسي كان ابن امة تركية ، فمال الى اخواله فكان يحب جمع الاتراك وشراءهم من ايدي مواليهم ، فاجتمع له منهم اربعة آلاف ، والبسهم انواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وابانهم عن سائر الجنود [2].

ثم وسمهم رتبا قيادية في الجيش حتى ان نعرة العنصرية ثارت عند العسكريين العرب في الجيش ودبت فيهم روح العصبية العمياء ، فلقد حاول عجيف ان يقلب الحكم على المعتصم ليولي العباس بن المأمون ، ولكن هذه المحاولة اخفقت وقتله المعتصم .

والاتراك حينما جاءوا الى البلاد الاسلامية .. اخذوا الحكم شيئا فشيئا من المعتصم ، وبعدئذ من ابنه واخذوا يحدثون الانقلابات العسكرية (كما نسميها الان) حتى انه وصل بهم الامر ان لا يوقفهم شيء واذا ما مال عنهم أي خليفة عباسي ، فانهم يقتلونه غيلة ، ثم ينصبون رجلا اخر من البيت العباسي . فابتداء من المتوكل الى المستعين الى المهتدي وانتهاء بالمقتدر ، كل هؤلاء قتلوا بواسطة القادة العسكريين الاتراك ، وابتداء من المعتز الى القاهر والمتقي وانتهاء بالمستكفي كلهم ايضا خُلِعوا ، حتى ان المقتدر غُلِب على امره وخُلِع مرتين وذُبِح في النهاية ، الى ان انتهى الامر الى المطيع العباسي آخر خليفة عباسي والذي لم يكن له ان يأمر او ينهى ثم قتل شر قتلة .

---

(١) جامع الرواة للعلامة الارديبلي ، ج ١ ، ص ٦٠٩ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ٤٦٥ .

وهكذا كانوا يقومون بالخلع والقتل لأي خليفة لم يكن تتجاوب اهواؤه مع اهوائهم ، وليس ذلك لشيء في تركيبة العنصر التركي ، وانما نتيجة للحالة المتردية التي وصل اليها المجتمع الاسلامي من الانحلال والفساد الخلقي الشامل .

فالمعتصم العباسي كانت هذه سياسته في الحكم ، والامام الجواد استفاد من الوضع افضل استفادة ، لبث الوعي وتغذية الحركة الرسالية التي كانت تضع جنينها للمستقبل .

ثورة محمد بن القاسم

ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الامام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) ، كانت ابرز ثورة في عهد الامام الجواد (عليه السلام) .

كانت شخصية محمد بن القاسم جليلة القدر اذا ما قرأنا يوميات جهاده، وهنا نستطرد قليلا حول هذه اليوميات .

كانت العامة تلقبه بالصوفي ، لانه كان يدمن لبس الثياب من الصوف الابيض الخشن ، وكان من اهل العلم والفقه والدين والزهد .

كان قد ذهب الى مرو في مقاطعة خراسان ، وكان معه من الكوفيين بضعة رجال ، وذلك بعد ان رحل من الكوفة ، وكان قبل ذلك قد خرج الى ناحية الرقة ، ومعه جماعة من وجوه الزيدية ، منهم يحيى بن الحسن بن الفرات القراز ، وعباد بن يعقوب الرواجني ، والزيدية كما قلنا كانوا يشكلون القاعدة لكثير من الثورات .

روى ابراهيم بن عبدالعطار قال : كنا معه ، فتفرقنا في الناس ندعوهم اليه ، فلم نلبث الا يسيرا حتى استجاب له اربعون الفا ، واخذنا عليهم البيعة ، وكنا انزلناه في رستاق من رساتيق مرو ، واهله شيعة كلهم ، فاحلوه في قلعة لا يبلغها الطير في جبل حريز .

فبينا نحن عنده إذ سمع بكاء رجل واستغاثته ، فقال لي : يا ابراهيم قم فانظر ما هذا البكاء ، فأتيت الموضع فوقفت فيه فاستقربت البكاء حتى انتهيت الى رجل حائك ، قد اخذ منه رجل من اصحابنا ممن بايعنا لبدا وهو متعلق به ، فقلت : ما هذا وما شأنك ؟

فقال : اخذ صاحبكم هذا لبدي ، فقلت : اردد عليه لبده ، فقال لي الرجل : إنما خرجنا معكم لنكتسب وننتفع ونأخذ ما نحتاج اليه ، فلم ازل ارفق به حتى اخذت منه اللبد ورددته الى صاحبه ، ورجعت الى محمد بن القاسم ، فأخبرته بخبره واني قد انتزعت منه اللبد ورددته على صاحبه ، فقال يا ابراهيم امثل هذا (الذي بايعه) ينصر دين الله ؟ ثم قال لنا : فرّقوا الناس عنّي حتى أرى رأيي[1].

فانتخب الجيدين من الذي بايعوه ثم سار بهم ، وهذا انموذج من طبيعة الثورات الرسالية ، اذ انها لم تكن تبيح اية وسيلة في سبيل الوصول الى الهدف ، بل مثلما يكون الهدف هو اقامة حكم الله عز وجل ، يجب ان تكون الوسيلة ايضا مرضية من قبل الله تعالى . وهذا كان يربي المجتمع على عشق المثل العليا ، والمبادئ السامية. وبعدما انتقى اصحابه ساروا الى الطالقان .

ويروي ابراهيم صاحبه : ورحل محمد بن القاسم من وقته الى الطالقان ، وبينها وبين مرو اربعون فرسخا ، فنزلها وتفرقنا ندعو الناس فاجتمع عليه عالم ، وجئنا اليه ، فقلنا له : ان اتممت على امرك ، وخرجت فنابذت القوم ، رجونا ان ينصرك الله ، فاذا ظفرت اخترت حينئذ من ترضاه من جندك ، وان فعلت كما فعلت بمرو (يقصد اختيار الجيدين فقط) ، اخذ عبد الله بن طاهر بعقبك ، فأصلح من اسلامك ايانا ونفسك اليه ، ان تجلس في بيتك ، ويسعك ما يسع سائر اهل بيتك، فأتم عزمه وخرج في الناس . ودخل محمد بن القاسم مع عبد الله بن طاهر في حروب كثيرة وكان يلحق بابن الطاهر شر الهزائم .

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٣٨٥ .

ومرة هدأت صولات الحرب بينهما فسارع عبد الله بن طاهر بإرسال كل جيوشه مقسمة في فرق ضمن خطة ماكرة جدا ، وقال ابن طاهر لاحد قواد جيشه: قد جردت لك الف فارس من نخبة عسكري ، وامرت ان يحمل معك مائة الف درهم تصرفها فيما تحتاج الى صرفها من امورك ، وخذ من خيلي ثلاثة افراس نجيبة معك تنتقل عليها ، وخذ بين يديك دليلا قد رسمته لصحبتك فادفع اليه من المال الف درهم ، واحمله على فرس من الثلاثة فليركض بين يديك ، فاذا صرت على فرسخ واحد من " نسا " (وهي المدينة التي يتواجد فيها محمد بن القاسم) فافضض الكتاب واقرأه واعمل بما فيه ولا تغادر منه حرفا ، ولا تخالف مما رسمته شيئا ، واعلم ان لي عينا في جملة من صحبك ، يخبرني بانفاسك ، فاحذر ثم احذر ثم احذر وانت اعلم .

وهذا يبين مدى خوف ابن طاهر من ان يكون قائده يميل الى صف محمد بن القاسم ، فلقد كان ذلك شيئاً طبيعياً ، لأن نفوس الناس كانت مع الحركة الثورية، ولكن السلطات مرة بالتهديد ومرة بالاغراء ، ومرة بالافساد ومرات باساليبها المختلفة كانت تجلب وتسخر الناس في ضرب الحركة الرسالية ، حتى ان ابن طاهر يقول : جعلت عيونا عليك يرقبون انفاسك .

فسار قائده الى " نسا " وقبل ان يصل بفرسخ فتح كتاب ابن طاهر واذا فيه الخطة كاملة ، والبيت الذي ينزل فيه محمد بن القاسم ، وصاحبه ابو تراب ، ويأمره فيه ان يستوثقهما بالحديد ، استيثاقا شديدا ، وان ينفذ خاتمه مع خاتم محمد بن القاسم ، اول ما يظفر به ، وقبل ان يعود خطوة واحدة لكي يطمئن ، وعلى الذي يرسلهما معه ان يركض بهما ركضا ، ثم يكتب اليه شرح ما حدث .

قال ابن طاهر في آخر الرسالة وكن على غاية التحرز والتحفظ والتيقظ من امره حتى تصير به وصاحبه الى حضرتي .

نجحت الخطة وحمل محمد بن القاسم مع صاحبه ابي تراب الى ابن طاهر في نيسابور ، فجاء ابن طاهر ليراهما فقال لقائده :

ويلك يا ابراهيم (ابن غسان بن الفرج العودي) اما خفت الله في فعلك (يقصد القيود الثقيلة جدا التي وضعها على محمد وصاحبه) اتقيد هذا الرجل الصالح بمثل هذا القيد الثقيل ؟

فقال ابراهيم العودي قائله : ايها الامير خوفك انساني خوف الله ووعدك الذي قدمته اليّ اذهل عقلي عما سواه .

وكانا يتكلمان من فوق سطح يطل على الغرفة المسجون بها محمد بن القاسم، في نيسابور .

فقال ابن طاهر : خفف هذا الحديد كله عنه ، وقيده بقيد خفيف في حلقته رطل وليكن عموده طويلا ، وحلقتاه واسعتين ليخطو فيه . وفي فترة سجن محمد بن القاسم طلب قرآنا يتدارس فيه .

فاقام بنيسابور ثلاثة اشهر يريد بذلك ان يعمي خبره على الناس كيلا يغلب عليه لكثرة من بايعه بكور خراسان .

وكان عبد الله بن طاهر يخرج من اصطبله بغالا عليها القباب ليوهم الناس انه قد اخرجه ، ثم يردها حتى استتر بنيسابور فسلّه في جوف الليل ، وخرج به مع ابراهيم العودي ووافى به الري وقد امره عبد الله بن طاهر ان يفعل به كما فعل هو ، يخرج في كل ثلاث ليال ومعه بغل عليه قبة ، ومعه جيش حتى يجوز الري بفرسخ ، ثم يعود الى ان يمكنه سله في ليلة مظلمة ففعل ذلك خوفا من ان يغلب عليه لكثرة من اجاب محمد بن القاسم بالبيعة له ، حتى اخرجه من الري و لم يعلم به احد ، ثم اتبعه حتى اورده بغداد على المعتصم .

وقد سمع المعتصم بمسير محمد الى بغداد ، فارسل الى طاهر العودي ان انزع العمامة من عليه واجعله حاسرا وانزع رداء قبة البغل ليكون على البغل حاسرا ، ثم ادخله بغداد .

وكان يريد بذلك تعذيب محمد نفسيا والحط من كرامته ، وقد ازدحم الناس على الطرقات حين ادخل محمد بن القاسم الى سر من رأى ازدحاماً شديداً ، فادخل

على المعتصم وكان في مجلس اللهو والشراب وبين يديه الفراغنة يلعبون فلم يزل واقفا والناس ينظرون إليه حتى فرغ الفراغنة من لعبهم .

وقيل : وجعلت الفراغنة يحملون على العامة ويرمونهم بالقذر والميتة والمعتصم يضحك ، ومحمد بن القاسم يسبح ويستغفر الله ويحرك شفتيه يدعو عليهم ، والمعتصم جالس يشرب ، ومحمد واقف الى ان انتهى المعتصم من لعبه فأمر بسجن محمد .

وسرعان ما دبّر محمد بن القاسم حيلة ذكية للهروب ، ثم توارى عن الانظار في بغداد ثم الى واسط ، وقد شد وسطه للوهن الذي اصاب فقار ظهره عند عملية هروبه ، وظل محمد مختفيا بعد ذلك الى نهاية عهد المعتصم ، ثم محمد الواثق ، ثم قسم من ايام المتوكل ، وقيل انه اخذ اليه فحمل الى السجن حتى مات في محبسه .

ولكن ماذا فعل خلال فترة تواريه عن الانظار وهي ليست بالفترة القليلة ؟ هذا ما اجابت عليه الثورات العديدة التي قامت بعد ذلك في عهد المتوكل ، والمستعين وما بعده من الخلفاء التي لم تدع الخليفة يلعب ويلهو براحة .

وفي واسط سكن محمد بيتا يعود الى أم ابن عمه ، علي ابن الحسن بن علي بن عمر بن الامام زين العابدين (عليه السلام) وكانت عجوزا مقعدة ، فلما نظرت اليه وثبت فرحا وقالت : محمد والله ، فدتك نفسي واهلي ، الحمد لله على سلامتك ، فقامت على رجلها وما قامت قبل ذلك بسنين .

وقال ابراهيم العودي ، قائد جيوش ابن طاهر يصف محمد :

ما رأيت قط اشد اجتهادا منه ولا اعف ولا اكثر ذكرا لله عز وجل مع شدة نفس ، واجتماع قلب، ما ظهر منه جزع ولا انكسار ولا خضوع في الشدائد التي مرت به ، وانهم ما رأوه قط مازحا ولا هازلا ولا ضاحكا الا مرة واحدة ، فانهم لما انحدروا من عقبة حلوان اراد الركوب ، فجاء بعض اصحاب ابراهيم ابن غسان العودي ، فطأطأ له ظهره ، حتى ركب في المحمل على البغل ، فلما استوى على

المحمل قال للذي على ظهره مازحاً : أتأخذ ارزاق بني العباس وتخدم بني علي بن ابي طالب ؟ وتبسم .

وقال : عرضوا على محمد بن القاسم كل شيء نفيس من مال وجوهر وغير ذلك ، فلم يقبل الا مصحفا جامعا كان لابن طاهر ، فلما قبله سر عبد الله بن طاهر بذلك ، وانما قبله لانه كان يدرس فيه .

ووجود شخصية ثورية مثل محمد وثورة مثل ثورته تدل ان الحركة الرسالية لم تتوقف يوما ما عن مسيرتها ، وانها لا يمكن ان تميل عن استقامتها التي كانت معهودة بها ، وهاتان ميزتان موجودتان في طول الثورات التي قامت بها الحركة الرسالية .

روى ابن اسباط وعبّاد بن اسماعيل : انا لعند الرضا (عليه السلام) بمنى اذ جيئ بابن جعفر (عليه السلام) قلنا : هذا المولود المبارك ؟ قال : نعم هذا المولود الذي لم يولد في الاسلام اعظم بركة منه [1].

وروى ابو يحيى الصنعاني قال : كنت عند ابي الحسن (عليه السلام) فجيئ بابنه ابي جعفر (عليه السلام) وهو صغير فقال : " هذا المولود الذي لم يولد مولود اعظم على شيعتنا بركة منه " .

والبركة التي حصلت للحركة الرسالية بولادة الامام الجواد (عليه السلام) ليست في ارتفاع الارهاب والاختناق السياسي عنهم ، بل هو في تجذّر خط الرسالة عقيدة وفكراً وسياسة وفقها ، والى كل مميزات القوة والانتشار الدائم .

---

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ٢٢ .

العسكر يسيطرون على السلطة

شهد عصر الامام الجواد تحولاً خطيراً تمثّل في تحول الخلافة الى سلطة اسمية على الامة ، وتحول السلطة الحقيقية الى ايدي العسكر ، وبذلك نستطيع ان نسمي المرحلة بمرحلة التحول العسكري للدولة الاسلامية .

ترى لماذا حصل هذا التحول ؟ وما هي آثاره ؟ ومن الذي جاء بالعسكر ؟

ان القيمة الوحيدة التي كانت الامة الاسلامية تعتمد عليها ، وتتمحور حولها وتتوحد بها ، كانت قيمة الايمان بالله ، والاعتقاد بالدولة باعتبارها ضرورة حضارية . فالبرغم من كل ما حدث في الامة من انشقاقات داخلية ، وظلم ودكتاتورية ، فإن بقية من الايمان بأن هذه الدولة يجب ان تبقى ظلت موجودة ، وهذه القناعة كانت سائدة لدى كافة الاطراف . صحيح ان ارادة الامة كانت ضد السلطة الفاسدة ، ولكن الحاجة الى نظام يحكم بالاسلام ، والرغبة في الدفاع عن بيضة الاسلام ، وعن عزة المسلمين ، كانتا متداخلتين وكان الآلاف من الناس يذهبون للدفاع عن الثغور وفتح البلدان انطلاقاً من عقيدة الجهاد المقدسة بغض النظر عن السلطة الفاسدة .

بيد ان تلك القضية اخذت بالزوال بسبب العلاقة الديكتاتورية بين النظام وبين الجماهير ، حيث شعر الناس بان لا شأن لهم بهذه الدولة ، وهـذا الشعور دفعهم

الى الابتعاد عنها .

وحينئذ اصبحت الدولة بحاجة الى قوة تفرض سيادتها وهيبتها على الناس وتحافظ على كيانها امام الدول المعادية كالروم ، فاعتمدت على القوة العسكرية وبالذات على الاتراك.

والسؤال : لماذا فقد الجيش العربي قدرته وثقة النظام به ؟.

الجواب : الذين كانوا يشكلون القوة الرادعة للدولة ، دبت في انفسهم افكار سلبية تجاه الدولة ، وذلك للاسباب التالية :

اولاً : حالة المجون التي تردى اليها الخلفاء والمقربون اليهم حيث لا تجد خليفة عباسياً لا يدمن على الشرب واللهو واللعب ، فالمجون افقد السلطة هيبتها.

بالاضافة الى الاسراف والترف ، مثلا زواج المأمون ببنت الحسن بن سهل كلف (٥٠٠ مليون درهما) كما اعطى ابن سهل عند انصرافه من " فم الصلح " عشرة آلاف درهم ، ومنحه مقاطعة فم الصلح واطلق له خراج فارس وكور الاهوار مدة سنة .

واما قبيحة زوجة المعتصم ، وام المعتز لما قتل ابنها كان عندها (٠٠٠/ ٨٠٠/ ١) عدا الجواهر والحلي والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذي لا تعرف له قيمة .

السلطة كانت تربي المجتمع على مقاييس جاهلية ، فالذي كان يلهو ويلعب اكثر مع الخليفة هو الذي يكون الاقرب اليه ، والذي كان ينسلخ عن دينه ويبيع كرامته وشرفه في سبيل الخليفة كانت ورقته اغلى عند الخليفة .

السلطة كانت تدور حول المقاييس الجاهلية في المجتمع ، وكما قلنا سابقاً كان من المسؤوليات العامة التي اضطلع بها الائمة الاطهار (عليهم السلام) محافظتهم على الروح الاسلامية في ضمير الامة ، وذلك عبر تربية عناصر رسالية سامية .

ثانياً : تفشي الشعور باللامبالاة عند القادة العسكريين العرب في مواجهة الاخطار التي كانت تحدق بالسلطة العباسية سواءً الداخلية منها او الخارجية مما دفع الخليفة الى المرتزقة ، وذلك عن طريق شراء الموالي وتدريبهم على الخدمة المطلقة للسلطة .

وهذه الطريقة مكنت الدولة العباسية من الاعتماد على مجموعة ضخمة من العسكريين الاشداء من الاتراك الذين كان يؤتى بهم اسرى ، والتركي كان ضخم الجسم قوي البنية ، قاسي الطباع ، لا يهمه ان يضرب ويحارب ويقتل ، ذلك لان الفتح الاسلامي كان قريب العهد بالنسبة اليه ، حيث كانوا من قبل يعيشون تحت سلطة الرومان المظلمة ، ثم هو رجل اسير ، ليست لديه علاقات اجتماعية وليست لديه عائلة يخاف عليها ومادام هكذا فهو يدفع بنفسه الى المعركة ويقتل، والأهم انه ليست لديه مبادئ سياسية يدافع عنها ، والعقيدة الاسلامية جديدة عليه لم تضرب جذورها في اعماق نفسه لتظهر على عمله ، فكان يعيش بلا مبادئ ، سوى مبدأ التقرب الى السلطة وكسب رضاها .

وهكذا كان الاتراك في بداية امرهم في عهد المعتصم العباسي الذي احضرهم ودربهم واعطاهم السلاح ، كانوا مجموعة صغيرة قدرها اربعة الآف رجل ، وشيئاً فشيئاً تحولوا الى جيش ضخم له لغته التي لم يكن يعرفها غيرهم ، وجعل منهم قواداً على الجيش مثل الافشين ، وبغا واسناس ، وايتاج . الا ان اهل بغداد ثاروا على الجيش وازداد يوما بعد آخر عدد الاغتيالات في صفوف الجيش التركي مما دفع بالمعتصم الى بناء سامراء والانتقال اليها ، لتلافي وقوع الخطر الذي كان يهدد بانفجار ثورة شعبية . " وكانت الاتراك تؤذي العوام بدينة السلام بجريها الخيول في الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة او شيخ كبير او صبي او ضرير ، فعزم المعتصم على النقلة منهم " (١) .

ومع ان المؤرخين لا يذكرون هذه الحكايات بشكل مفصل وانما يذكرون انه بين الفينة والاخرى كانت الحكومة تعثر على مجموعة من الجنود مقتولين وهكذا

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ .

اضطر الخليفة الى بناء مدينة سامراء للجيش خشية غضب الجماهير ، بعدها اصبحت مدينة معروفة في التاريخ .

هذا هو السبب في اعتماد الخليفة على المرتزقة ، ولكن ماذا كانت آثار ذلك ؟

لما جاء المعتصم بالاتراك وجنّدهم في جيشه ، كانت كل ثورة او انتفاضة تعلن ضد النظام العباسي تقابل بفرقة من ذ لك الجيش ، حتى اصبح يعتمد عليهم اعتماداً كاملاً ، وحينما عرفوا ان الخليفة لا يستطيع ان يصنع شيئاً من دونهم ، أخذوا يملون ارادتهم على الدولة العباسية وبدأوا يفرضون شروطهم على الحكومة، وشيئاً فشيئاً اخذوا الحكم بيدهم .

وابتداءً من حكم المعتصم العباسي ، وحتى حكم المتوكل ، كانت سيطرة الاتراك تزداد شيئاً فشيئاً ، فبعد ان مات المعتصم ، وجاء ابنه الواثق ، ومن بعد الواثق المتوكل ، كانت قوة السلطة تضعف امام نفوذ الاتراك ، وسيطرتهم على مقاليد الحكم الى درجة انهم جاؤوا بالمنتصر بالله ، ثم خلعوه ونصبوا المستعين.

وهكذا صاروا يلعبون بالدولة تحت اسم خلفاء البيت العباسي ، وتحت سيادة وسلطة اسمية ، الى ان وصل الامر الى درجة ان احد الخلفاء العباسيين طلب من صاحب ديوانه مبلغ ٢٠٠ درهم لشؤونه الخاصة ، فلم يعطه وقال حتى يأذن القائد، وبهذا تحول الخلفاء الى مجرد ادوات بالرغم من ان الدولة الاسلامية كانت تحكم باسم الخليفة ، واصبحت ادارة شؤون البلاد وزمام الحكم بيد قادة الجيش وجنوده وبذلك بدأ عهد السلاطين الى جانب الخليفة مثل سلطة البويهيين .

فالمعتصم العباسي حين جاء بالاتراك كان آخذاً زمام الأمور بيده ، ولكن الواثق العباسي لم يكن بيده أي شيء ، لذلك سأل الواثق احد ندماءه ان يقضي عليه .

ولعل ما حدث في عهد هارون الرشيد من توسع سلطة البرامكة وتدخلهم في شؤون الحكم الصغيرة منها والكبيرة ، كان يشبه هذا الشيء ، ولكن الرشيد فطن للأمر قبل استفحاله ، فقضى على البرامكة بشكل قاسٍ وهو ما يسمى بنكبة البرامكة .

لقد كان البرامكة وزراء هارون الرشيد وهم الذين تعبوا في سبيل حكمه ، ولكن شيئاً فشيئاً شعر هارون الرشيد بأنه لا يملك شيئاً ، فالبرامكة هم الذين كانوا يوجهون الحكم وعندها حاك مؤامرة ضدهم واطاح بهم فقتل جعفراً وسجن يحيى البرمكي الذي كان يناديه الرشيد يا ابتاه ، لان هارون الرشيد تربى على يد يحيى ، وكان جعفر اخا لهارون الرشيد من الرضاعة ، فأمر هارون الرشيد ياسر خادمه وجلاده، وقال له : اذهب وابحث عن جعفر البرمكي واقتله واحضر رأسه ، فذهب ياسر وطلب جعفرا وقال له : اجب امير المؤمنين يريدك واخذه الى مكان منعزل واراد ان يقتله ، فقال : لماذا ؟

قال : امير المؤمنين امرني بذلك ، قال اذهب بي الى امير المؤمنين ، قال لا ، قال: دعني انظر اليه من بعيد ، قال : لا ، ترى لماذا هذا الاصرار ؟

ذلك لان جعفراً كان يعلم ان هارون الرشيد لو رآه ولو من بعيد فانه لا يقتله لانه كان يحبه كثيراً ، فاتى ياسر بجعفر الى حيث اعدمه ، فلما احضر رأسه الى هارون ، قال لخدمه : اضربوا عنق ياسر فاني لا اقدر ان انظر الى قاتل جعفر [1].

ووصل الامر من السوء بالبرامكة ان ام جعفر البرمكي كانت تتمنى لو عندها جلد شاتين تفترش احداهما وتتلحف بالاخرى .

قال المسعودي ان محمد بن عبد الرحمن الهاشمي قال : دخلت على والدتي يوم نحر، فوجدتها وعندها امرأة برزة متكلمة في اثواب رثة فقالت لي : اتعرف هذه ؟ قلت : لا ، قالت : هذه عبادة ام جعفر بن يحيى (البرمكي) فأقبلت عليها بوجهي احدثها واعظمها ثم قلت لها : يا اماه ما أعجب ما رأيت ؟ قالت : يابني لقد اتى عليّ عيد مثل هذا وانا على رأسي اربعمائة وصيفة ، واني لاعد ابني عاقاً لي ولقد اتى علي هذا العيد وما اتمنى سوى جلد شاتين افترش احدهما وألتحف الآخر [2] .

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٨٠ .

(٢) المصدر ، ص ٣٨٣ .

الحركة الرسالية في عهد الامام علي الهادي عليه السلام

ثلاثٌ وثلاثون عاماً وعدة شهور كان الامام علي بن محمد الهادي (عليه السلام) خليفة شرعياً للمسلمين ، واماماً وقائداً للأمه وهي من الاعمار الطويلة التي يعيشها امام في امامته وخلال تلك الفترة فرضت الحركة الرسالية نفسها على الاحداث بشكل مباشر .

وكان الامام علي الهادي (عليه السلام) يتنقل بشكل مستمر بين المدينة المنورة وسامراء ، وعندما يكون في المدينة فانه يعيش وكأنه دولة داخل دولة ، فوالي المدينة لم يكن له من القدرة والقوة ليفرض أي امر على الامام ، وكان الامام يدير شؤون الرساليين ، ويعيّن الوكلاء في كافة المناطق .

روى محمد بن عيسى قال : كتب ابو الحسن العسكري الى الموالي ببغداد والمدائن والسواد وما يليها : " قد اقمت ابا علي بن راشد مقام علي بن الحسن بن عبد ربه ، ومن قبله من وكلائي ، وقد اوجبت في طاعته طاعتي ، وفي عصيانه الخروج الى عصياني " [1].

وروى محمد بن عيسى ايضا قال : بعث نسخة الكتاب مع ابن راشد الى جماعة

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ٢٢٠ .

الموالي الذين هم ببغداد المقيمين بها ، والمدائن والسواد وما يليها :" احمد الله اليكم ما انا عليه من عافيته وحسن عائدته ، وأصلي على نبيه وآله افضل صلواته واكمل رحمته ورأفته ، واني اقمت ابا علي بن راشد مقام الحسين بن عبد ربه ، ومن كان من وكلائي وصار في منزلته عندي ، ووليته ما كان يتولاه غيره من وكلائي قبلكم، ليقبض حقي وارتضيته لكم وقدّمته في ذلك، وهو اهله وموضعه فصيروا رحمكم الله الى الدفع اليه ذلك وإلي وان لا تجعلوا له على انفسكم علة ، ، فعليكم بالخروج عن ذلك والتسرع الى طاعة الله وتحليل اموالكم ، والحقن لدمائكم ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (المائدة/٢) ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ﴾ (آل عمران/١٠٣) ﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة/١٣٢)

فقد اوجبت في طاعته طاعتي وفي الخروج الى عصيانه الخروج الى عصياني ، فالزموا الطريق يأجركم الله ويزيدكم من فضله ، فان الله بما عنده واسع كريم متطول على عباده رحيم ، نحن وانتم في وديعة الله وحفظه ، وكتبته بخطي والحمد لله كثيراً " [١].

ويجتمع كبار الرساليين في المدينة المنورة مع الامام حيث يعطيهم الاوامر وتحمل اليه الاموال التي كان يبعثها الى مستحقيها .

اما عندما يكون الامام في سامراء ، حيث عاصمة الخلافة العباسية فإنه كان يقوم بنفس الدور ، حتى في عهد المتوكل اشد خلفاء العباسيين بطشاً وتنكيلاً بالرساليين، فهو الذي امر سنة ٢٢٦ هـ بهدم قبر الامام الحسين (عليه السلام) وما حوله من الدور . وامر بان تحرث الارض التي فيها القبر وان تبذر وتسقى ليعفي اثره ، وامر باقامة مراكز على الطرق المؤدية للقبر واوكل اليها قتل كل من يرى انه آت لزيارة الامام الحسين (عليه السلام) ذلك لان القبر كما قلنا كان بمثابة البركان الذي يحافظ على روح الثورة ورفض الظلم عند الناس .

(١) المصدر ، ص ٢٢٣ .

وكان تأثير الامام الهادي (عليه السلام) يمتد الى كبار رجال البلاط العباسي ، الامر الذي مكّن الامام من الاطلاع على الكثير من خطط العباسيين ضد الحركة الرسالية .

فعندما كان الجواسيس والعيون يأتون المتوكل بالاخبار عن تحركات الامام وعن الذين يتصلون به ، وكان المتوكل يصدر اوامره بتفتيش منزل الامام وتشديد الرقابة عليه ، كانت تلك الاوامر سرعان ما تتميّع، وذلك للسلطة الروحية التي كان الامام يتمتع بها ، حتى على بيت الخلافة نفسه .

روى ابن قولويه عن الكليني ، عن علي بن محمد ، عن ابراهيم ابن محمد الطاهري قال :" مرض المتوكل من خراج (القروح والدماميل الكبيرة) خرج به، فاشرف منه على التلف ، فلم يجسر احد ان يمسه بحديدة ، فنذرت أمه ان عوفي ان يحمل الى ابي الحسن علي بن محمد (عليه السلام) مالاً جليلا من مالها

وقال له فتح بن خاقان : لو بعثت الى الرجل (يعني ابا الحسن) فسألته فانه ربما كان عنده صفة شيء يفرّج الله به عنك .

قال : ابعثوا اليه ، فمضى الرسول ورجع فقال : خذوا كُسب الغنم (ثفل الدهن) فديّفوه بماء ورد وضعوه على الخراج فانه نافع باذن الله .

فجعل من بحضرة المتوكل يهزأ من قوله ، فقال لهم الفتح : وما يضر من تجربة ما قال ، فوالله اني لارجو الصلاح به ، فاحضر الكسب وديف بماء الورد ووضع على الخراج ، فانفتح وخرج ما كان فيه ، وبشّرت أم المتوكل بعافيته فحملت الى ابي الحسن (عليه السلام) عشرة آلاف دينار تحت ختمها فشفي المتوكل من علتـه .

فلما كان بعد ايام سعى البطحائي بأبي الحسن (عليه السلام) الى المتوكل فقال: عنده سلاح واموال ، فتقدم المتوكل الى سعيد الحاجب وأمره ان يهجم ليلا عليه، ويأخذ ما يجد عنده من الاموال والسلاح ويحمل إليه .

فقال ابراهيم بن محمد : قال سعيد الحاجب : صرت الى دار ابي الحسن (عليه السلام) بالليل ، ومعي سُلّم فصعدت منه الى السطح ، ونزلت من الدرجة الى بعضها في الظلمة ، فلم ادر كيف اصل الى الدار ، فناداني ابو الحسن (عليه السلام) من الدار : " يا سعيد مكانك حتى ياتوك بشمعة " فلم البث ان اتوني بشمعة فنزلت فوجدت عليه جبة من صوف وقلنسوة منها وسجادته على حصير بين يديه وهو مقبل على القبلة فقال لي : " دونك البيوت " فدخلتها وفتشتها ، فلـم اجد فيها شيئاً ووجدت البدرة مختومة بخاتم ام المتوكل وكيساً مختوماً معها ، فقال ابو الحسن (عليه السلام) : " دونك المصلى فرفعت فوجدت سيفا في جفن غير ملبوس ، فأخذت ذلك وصرت إليه .

فلما نظر الى خاتم امه على البدرة بعث اليها ، فخرجت اليه فسألها عن البدرة ، فأخبرني بعض خدم الخاصة انها قالت له : كنت نذرت في علتك ان عوفيت ان احمل إليه من مالي عشرة آلاف دينار فحملتها إليه وهذا خاتمي على الكيس ما حركها .

وفتح الكيس الآخر وكان فيه اربع مائة دينار ، فأمر ان يضم الى البدرة بدرة اخرى وقال لـي : احمل ذلك الى ابي الحسن واردد عليه السيف والكيس بما فيه ، فحملت ذلك اليه واستحييت منه وقلت يا سيدي عزّ عليّ دخول دارك بغير اذنك، ولكني مأمور به ، فقال لي : سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون [١] .

ومرة جاء الى المتوكل احد اعوانه وقال : انت جالس في قصرك والاموال تحمل الى علي بن محمد ستأتي قافلة من قم ومعها اموال اليه فطلب المتوكل فتح بن خاقان اكبر وزرائه وهو ايضاً قائد الجيش وكلفه بأمر القافلة ، فخرج فتح بن خاقان الى المهمة .

لكن مكر المتوكل لم ينجز بسبب ان خبر علم السلطات بأمر القافلـة قد عرفـه

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ١٩٨ .

الامام فأمر بتأخير مسيرها .

فعن محمد بن داود القمي ومحمد الطلحي قالا : حملنا مالا من خمس ونذر وهدايا وجواهر اجتمعت في قم وبلادها ، وخرجنا نريد بها سيدنا ابا الحسن الهادي (عليه السلام) فجاءنا رسوله في الطريق ان ارجعوا فليس هذا وقت الوصول فرجعنا الى قم واحرزنا ما كان عندنا ، فجاءنا امره بعد ايام ان قد انفذنا اليكم ابلا عيرا فاحملوا عليها ما عندكم ، وخلوا سبيلها قال : فحملناها واودعناها الله فلما كان من قابل قدمنا عليه فقال : انظروا الى ما حملتم الينا فنظرنا فاذا المنايح كما هي "(١) .

فهل ان الخليفة كان عاجزاً وكانت مخابراته ضعيفة الى درجة بحيث لم تكن توصل اليه الاخبار ؟ بالعكس فقد كان اقرب الناس إليه مكاناً هو الامام الهادي (عليه السلام) ، حيث كان منزل الامام (عليه السلام) قريبا من قصر الخليفة في سامراء ، ولذلك كان الامام يلقب بالعسكري نسبة الى منطقة سامراء العسكرية .

ان هذه القصة ان دلت على شيء فانما تدل على طبيعة الوضع الذي كان في ذلك الزمان ، فقد كانت جماعات الرساليين ترد على سامراء من كل حدب وصوب ، فمثلا يزوره في سامراء من قم رئيس القميين وهو محمد القمي الراوي الشهير الذي روى عن مجموعة من الائمة وهو من الرجال الاصحاء ، وكان له الامر والنهي في قم كلها . وكما تعرفون فإن قم كانت مركزاً علمياً وروحياً فيه الكثير من الرواة الثقاة والفقهاء العلماء الذين يتمتعون بقدر كبير من القوة والنفوذ بحيث ان السلطات الدنيوية تخشاهم باستمرار .

ومن المناطق الاخرى كان يأتيه ابو هاشم الجعفري جعفر بن سهيل ، وابن الحكيم الكوفي من الكوفة ، ومن المدينة ، ومن مصر ، وكلهم من وجهاء الرساليين .

---

(١) المصدر ، ص ١٨٥ .

ومع ان الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم الامام الهادي (عليه السلام) كانوا يبذلون كل جهدهم للحيلولة دون اتصال الامام بالرساليين حيث فرضوا على الامام الاقامة الجبرية في سامراء ، الا ان الامر كان يجري على غير مرام السلطات ، نظرا لوجود الموالين للامام داخل الجهاز الحاكم حيث كانوا يؤدون دوراً كبيراً في ذلك .

روى صقر بن ابي دلف الكرخي قال :

لما حمل المتوكل سيدنا ابا الحسن العسكري (عليه السلام) - أي استدعاه الى سامراء - جئت أسأل عن خبره قال : فنظر اليّ الزرافي وكان حاجباً للمتوكل فأمر ان ادخل اليه فأدخلت اليه ، فقال : يا صقر ما شأنك ؟

فقلت : خيراً أيهـا الاستاذ ، فقال : اقعد ، فأخذني ما تقدم وما تأخر ، وقلت - في نفسي - اخطأت في المجيء ، قال : فوحى الناس عنه (أي ابعدهم) ثم قال لي : ما شانك وفيم جئت ؟

قلت : لخير ما ، فقال : لعلك تسأل عن خبر مولاك ؟

فقلت له : ومن مولاي ؟ مولاي امير المؤمنين .

فقال : اسكت مولاك هو الحق فلا تحتشمني فاني على مذهبك .

فقلت : الحمد لله ، قال : اتحب ان تراه ؟

فقلت : نعم ، قال اجلس حتى يخرج صاحب البريد من عنده ، قال : فقلت فلما خرج قال لغلام له : خذ بيد صقر وادخله الى الحجرة التي فيها العلوي المحبوس وخل بينه وبينه [1].

اورجلا مثل فتح بن خاقان الذي كان اكبر وزير في العصر العباسي الثاني ، هذا الرجل كان معروفا انه يظهر التشيع للامام الهادي (عليه السلام) .

روى الفحام عن المنصور ، عن عم ابيه قال : قصدت الامام (عليه السلام) يوماً

(١) المصدر ، ص ١٩٤ .

فقلت : يا سيدي ان هذا الرجل قد اطرحني وقطع رزقي وملني وما اتهم في ذلك إلاّ علمه بملازمتي لك ، واذا سألته شيئاً منه يلزمه القبول منك فينبغي ان تتفضل عليّ بمسألته .

فقال : تكفى ان شاء الله .

فلما كان من الليل طرقني رسل المتوكل رسول يتلو رسولا، فجئت والفتح على الباب قائم ، فقال : يا رجل ما تأوي في منزلك بالليل، كدّني هذا الرجل مما يطلبك ، فدخلت واذا المتوكل جالس على فراشه فقال : يا موسى نشغل عنك وتنسينا نفسك أي شيء لك عندي ؟

فقلت : الصلة الفلانية والرزق الفلاني وذكرت اشياء فأمر لي بها وبضعفها .

فقلت للفتح : وافى علي بن محمد الى ههنا فقال : لا . فقلت : اكتب رقعة ؟ فقال : لا .

فوليت منصرفاً فتبعني، فقال لي: لست اشك انك سألته دعاء لك فالتمس لي منه دعاء.

فلما دخلت اليه (عليه السلام) قال : " يا موسى هذا وجه الرضا ، فقلت : ببركتك يا سيدي ، ولكن قالوا لي : انك ما مضيت اليه ولا سألته ، فقال : ان الله تعالى علم منا انا لا نلجأ في المهمات الا اليه ولا نتوكل في الملمات الا عليه وعودنا اذا سألناه الاجابة ، ونخاف ان نعدل فيعدل بنا ، قلت : ان الفتح قال لي كيت وكيت (أي الطلب الذي يطلبه وهو الدعاء له) قال :

يوالينا بظاهره ، ويجانبنا بباطنه ، الدعاء لمن يدعو به : اذا اخلصت في طاعة الله ، واعترفت برسول الله (صلى الله عليه وآله) وبحقنا اهل البيت وسألته الله تبارك وتعالى شيئاً لم يحرمك [1].

وفـي رواية عن ابي سعيـد سهل بن زياد قال: حدثنـا ابو العباس فضل بن احمد بن

---

(١) المصدر ، ص ١٢٧ .

إسرائيل الكاتب ونحن في داره بسامرّه فجرى ذكر أبي الحسن فقال : يا أبا سعيد إني احدثك بشيء حدثني به ابي قال : كنا مع المعتز وكان ابي كاتبه فدخلنا الدار، وإذا المتوكل على سريره قاعد فسلم المعتز ووقف ووقفت خلفه ، وكان عهدي به إذا دخل رحب به ويأمر بالقعود فأطال القيام ، وجعل يرفع رجلا ويضع اخرى وهو لا يأذن له بالقعود .

ونظرت الى وجهه يتغير ساعة بعد ساعة ويقبل على الفتح بن خاقان ويقول : هذا الذي تقول فيه ما تقول، ويردد القول ، والفتح مقبل عليه يسكّنه ، ويقول : مكذوب عليه يا أمير المؤمنين ، وهو يتلظى ويقول : والله لأقتلن هذا المرائي الزنديق وهو يدعي الكذب ، ويطعن في دولتي ثم قال : جئني بأربعة من الخزر فجيء بهم ودفع اليهم اربعة اسياف ، وأمرهم ان يرطنوا بألسنتهم إذا دخل ابو الحسن ، ويقبلوا عليه بأسيافهم فيخبطوه وهو يقول : والله لأحرقنه بعد القتل ، وانا منتصب قائم خلف المعتز من وراء الستر .

فما علمت إلاّ بأبي الحسن قد دخل ، وقد بادر الناس قدّامه ، وقالوا : قد جاء، والتفتُ فإذا انا به وشفتاه يتحركان ، وهو غير مكروب ولا جازع ، فلما بصر به المتوكل رمى بنفسه عن السرير اليه ، وهو سبقه ، وانكب عليه فقبل بين عينيه ويده ، وسيفه بيده ، وهو يقول : يا سيدي يا ابن رسول الله يا خير الله يا ابن عمي يا مولاي يا ابا الحسن ، وأبو الحسن (عليه السلام) يقول : اعيذك يا أمير المؤمنين من هذا ، فقال ما جاء بك يا سيدي في هذا الوقت قال : جاءني رسولك فقال المتوكل يدعوك ؟ فقال : كذب ابن الفاعلة ارجع يا سيدي من حيث شئت، يا فتح يا عبد الله يا معتز شيعوا سيدكم وسيدي [1] .

او رجلا مثل اسحاق بن ابراهيم الطاهري والي المتوكل على بغداد او وصيف التركي احد اعمدة جيش المتوكل او غيرهم ممن كان يوالي الامام في باطنه .

---

(١) المصدر ، ص ١٩٦ .

روى المسعودي في تاريخه مروج الذهب عن ابن أبي الازهر ، عن القاسم بن ابي عباد ، عن يحيى بن هرثمة قال : وجهني المتوكل الى المدينة لإشخاص علي بن محمد بن علي بن موسى (عليه السلام) لشيء بلغه عنه ، فلما صرت إليها ضج أهلها وعجوا ضجيجا وعجيجا ما سمعت مثله، فجعلت اسكنهم واحلف اني لم اؤمر فيه بمكروه ، وفتشت منزله ، فلم أصب فيه الا مصاحف ودعاء وما أشبه ذلك فأشخصته وتوليت خدمته ، واحسنت عشرته .

فبينما انا في يوم من الايام والسماء صاحية والشمس طالعة ، إذا ركب وعليه ممطر قد عقد ذنب دابته فتعجبت من فعله ، فلم يكن من ذلك الا هنيئة حتى جاءت سحابة فأرخت عزاليها ، ونالنا من المطر امر عظيم جداً فالتفت إلي فقال: أنا أعلم أنك أنكرت ما رأيت ، وتوهمت أني أعلم من الامر ما لم تعلم ، وليس ذلك كما ظننت ولكني نشأت بالبادية ، فأنا اعرف الرياح التي تكون في عقبها المطر فتأهبت لذلك .

فلما قدمت الى مدينة السلام بدأت باسحاق بن ابراهيم الطاهري وكان على بغداد ، فقال : يا يحيى ان هذا الرجل قد ولده رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمتوكل من تعلم ، وان حرضته عليه قتله ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) خصمك ، فقلت : والله ما وقفت منه الا على امر جميل .

فصرت إلى سامراء فبدأت بوصيف التركي وكنت من أصحابه ، فقال لي : والله لئن سقط من رأس هذا الرجل شعرة لا يكون الطالب بها غيري ، فتعجبت من قولهما وعرفت المتوكل ما وقفت عليه من أمره (١).

وهنا يطرح السؤال التالي : ماذا قدم الامام للامة الاسلامية وللحركة الرسالية خلال مدة امامته التي دامت ثلاثاً وعشرين سنة ؟

هناك عدة اعمال قام بها الامام الهادي (عليه السلام) منها :

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ .

اولاً : قيادة الحركة الرسالية

فالرساليون كانوا منتشرين في كافة البلاد الاسلامية ، وكانوا يحملون مشعل الحرية في الامة الاسلامية ، التي كانت تضم ما تضمه اليوم ، من الدول التسع والسبعين ، أي نصف المعموره آنئذ .

وكان الامام (عليه السلام) يقود هذه الحركة المنتشرة في هذه الرقعة والتي تعمل ليل نهار في سبيل رفع مستوى الامة وايصالها الى مستوى ممارسة الحركة الحقيقية المرتكزة على هدى القرآن الكريم .

هناك حقيقة اساسية سبق وان ذكرناها وهي : ان احداث التاريخ ، وتطوراته ، دلت على ان حركة الرساليين كانت تنمو نموا متصاعدا منذ عهد الامام علي (عليه السلام) وستظل هكذا الى ظهور الامام الحجة (عجل الله فرجه) وقيامه ، والذي كان يقود هذا النمو والتصاعد المطرد هم الائمة المعصومون (عليهم السلام) ، أي انهم قادوا الحركة الرسالية ، ونموّها وربوها ووسعوها ، وهذه هي المسؤولية الاولى التي قام بها الامام الهادي (عليه السلام) وقد تسأل : كيف كان الامام (عليه السلام) يقود هذه الحركة ؟

اننا اذا نظرنا الى التاريخ ، نجد ان تعيين الوكلاء من قبل الامام لم يكن يعرف عند الائمة قبل الامام الهادي ، الذي كان يوكل نواباً له في كل المناطق الاسلامية. فقد كان في عهد الائمة الاوائل ، ان الامام يوثق رجلا فيأخذ الرساليون منه التعاليم الرسالية ويستلم منهم الحقوق الشرعية ليوصلها بدوره الى الامام . أما في عهد الامام الهادي (عليه السلام) فإن هذا الامر أصبح اكثر دقة وتنظيماً .

بالطبع ان ممارسة الادارة والقيادة لا تسجل يومياتها تفصيليا في كتب التواريخ. فالقيادة ليست من الاشياء التي تكتب ، او تبقى آثارها بشكل عيني امامنا . انها ليست كبناء بناية او كتابة كتاب ، او انشاد شعر . القيادة هي عبارة عن مجموعة اعمال ومهمات يجب ان نقيسها ونحكم عليها من خلال نتائجها ، التي تمثلت في

نمو وانتشار الحركة الرسالية في عهده بفضل العمل الدؤوب الذي اضطلع الامام الهادي بالقيام به .

وحتى في وجه المتوكل العباسي نفسه ، فإن الامام كان يحمل لواء الرسالة . فحينما سعي الى المتوكل بعلي بن محمد الجواد (عليه السلام) ان في منزله كتباً وسلاحا من شيعته من اهل قم ، وانه عازم على الوثوب بالدولة ، فبعث إليه جماعة من الاتراك فهجموا داره ليلا فلم يجدوا فيها شيئاً ، ووجدوه في بيت مغلق عليه ، وعليه مدرعة من صوف ، وهو جالس على الرمل والحصى وهو متوجه الى الله تعالى يتلو آيات من القرآن .

فحمل على حاله تلك الى المتوكل وقالوا له : لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرء القرآن مستقبل القبلة ، وكان المتوكل جالسا في مجلس الشرب فدخل عليه والكاس في يد المتوكل .

فلما رآه هابه وعظمه واجلسه الى جانبه وناوله الكأس التي كانت في يده فقال: والله ما يخامر لحمي ودمي قط ، فاعفني فأعفاه ، فقال : انشدني شعراً فقال (عليه السلام) : اني قليل الرواية للشعر فقال : لابد ، فأنشده (عليه السلام) وهو جالس عنده :

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم واسكنوا حفراً يا بئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد دفنهم أين الاساور والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الاستار و الكلل
فافصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود تقتتل
قد طال ما اكلوا دهرا وقد شربوا واصبحوا اليوم بعد الاكل قد اكلوا

قال : فبكى المتوكل حتى بلت لحيته دموع عينيه ، وبكى الحاضرون ، ودفع الى علي (عليه السلام) اربعة آلاف دينار ثم رده الى منزله مكرماً [1].

---

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ٢١١ ونرى كيف يجابه الامام (عليه السلام) المتوكل ، بينما نرى غيره كيف يؤله هذا الطاغية فقد روى المسعودي عن المبرد قال : وردت سر من رأى فأدخلت على المتوكل وقد عمل فيه الشراب ، وبين يدي المتوكل البحتري الشاعر فأبتدأ ينشده قصيدة يمدح بها المتوكل أولها :

ان أهم شيء في حياة الامام الهادي (عليه السلام) انه قاد الامة ونّمى حركتها الرسالية ودفعها خطوات واسعة نحو الامام ، نحو شواطىء الهداية والصلاح .. وهناك روايات كثيرة نلتمس من خلالها ما كان يقدمه الامام للحركة الرسالية .. في كل الجوانب التي يجب على قيادة حيوية ان تقدمه .

ثانياً : التصدي للتيارات الفكرية المنحرفة

في ايام الامام الهادي (عليه السلام) كانت هناك نزاعات فكرية حادة ، منها النزاع المشهور حول خلق القرآن . وقد تصاعد هذا النزاع بين مختلف التيارات الفكرية حتى هيمن في فترة معينة على كل المجادلات والنقاشات والاوساط العلمية.

وكما توجد الآن في العالم الاسلامي تيارات شرقية وغربية ، واسلامية مختلفة ، كذلك في العهد الاسلامي السابق، كانت تتقاسم الامة الاسلامية حركتان فكريتان هما حركة الاعتزال وحركة الاشاعرة .

وهاتان الحركتان لم تكونا فقط مجرد حركتين فكريتين في المدارس ، بل كان لكل واحد منهما اتباعها بين جماهير المسلمين ، وكانت كثيرا ما تقع بين اتباع الحركتين اختلافات دموية وكانت السلطات تغذيها وتزيد من حدتها من اجل تحقيق مصالحها اللامشروعة .

كانت السلطة العباسية تدعو الى حركة الاشعرية والى الاشاعرة ، وكان جلاوزتها يأخذون كل معتزلي ويتهمونه بالزندقة ويقتلونه . ولما جاء المأمون

عن أي ثغر تبتسم ... وبأي طرف تحتكم

حسن يضيء بحسنه ... والحسن اشبه بالكرم

قل للخليفة جعفر ... المتوكل بن المعتصم

المرتضى ابن المجتبى ... والمعتصم بن المنتقم

الى ان قال :

نلنا الهدى بعد العمى ... بك والغنى بعد العدم

العباسي الى الحكم فانه اتجه الى الاعتزال ، وكان الاعتزال حركة الطبقة الواعية في ذلك اليوم وقد ظلت السلطة في عهد المأمون العباسي ، والمعتصم العباسي والواثق العباسي تؤيد الاعتزال ، ولما جاء المتوكل صار مع الاشاعرة فاحضر رجلا فسأله : ما قولك في خلق القرآن .

فأجاب : يا امير المؤمنين ، اني ارى ان الله سبحانه وتعالى كان ولم يكن معه شيء ، ثم بعد ذلك اوحى بالقرآن .

فقال المتوكل : أأنت تقول بخلق القرآن ؟

فقال الرجل : هكذا اعتقد فأمر المتوكل بضرب عنقه .

اننا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى اوحى بالقرآن فإذاً القرآن مخلوق، أي ان القرآن لم يكن مع الله منذ الازل ، وانّما خلق فيما بعد. كان الله أولاً ولم يكن معه شيء، ثم اوحى بالقرآن ، وهذا شيء واضح ، إلاّ ان الاشاعرة قالوا ان القرآن قديم مثل الله .

ومرة كان رجل يدعى احمد بن نصر قد دبّر عملية ما ضد الواثق ، إلاّ انها لم يكتب لها النجاح ، فاستدعاه الواثق العباسي ، وقال له : " يا احمد ما تقول في القرآن .

قال : كلام الله ، قال : امخلوق هو ؟

قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول في ربك اتراه يوم القيامة ؟

قال : يا امير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فنحن على الخبر.

فقال الواثق لمن حوله : ما تقولون فيه ؟

فقال القاضي عبد الرحمن بن اسعاف (الموظف في البلاط) هو حلال الدم، وقال غيره : اسقني دمه يا امير المؤمنين ووافقه الحاضرون في البلاط الا ابن داود قاضي القضاة قال : يا امير المؤمنين كافر يستتاب لعل به عاهة او تغير عقل.

فقال الواثق : اذا رأيتموني قد قمت اليه ، فلا يقومن احد معي فاني أحتسب خطاي إليه ، ودعا بالصمصامة وهو سيف عمر بن معد يكرب الزبيدي ، ذلك الفارس الذي ذاع صيت سيفه، وكان قد اهدي الى احد الخلفاء العباسيين وورثه من بعده ، فضربه على عنقه وحمل الى بغداد وصلب في الجانب الغربي اياماً وفي الشرقي اخرى ، ووضع في اذنه رقعة كتب فيها : " هذا رأس الكافر المشرك الضال احمد بن نصر بن مالك ، ممن قتله الله تعالى على يد عبد الله بن مروان الامام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد ان اقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع الى الحق فأبى الا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذي عجل به الى ناره واليم عقابه " [١] .

لطالما طارت رؤوس علماء كانوا من ذوي المكانة الحسنة في المجتمع بسبب امثال هذه الآراء ، بينما كانت الاخطار تتهدد الامة الاسلامية من كل جانب .

وهذه الحادثة تشبه حادثة المسلمين عندما وصلوا الى القسطنطينية وحاصروها وهددوا المدينة ، كان المسيحيون وقتها داخل السور مشغولين في التفكير والاختلاف حول ناسوتا ولاهوتا (جنس الملائكة) ، هذه الخلافات التي تدخل الامة في متاهات فكرية لا طائل من ورائها سوى تضييع جهود الامة ، وقد كان الخلاف حول خلق القرآن او عدم خلق القرآن ، هو من أمثال تلك الخلافات التي تمنع الامة من التوجه نحو انجاز المشاريع .. وقد قيل قديماً : اذا كثر الجواب ضاع الصواب .

هنا يأتي الائمة المعصومون (عليهم السلام) كما جاء الانبياء من قبلهم لفض خلافات الناس وتوجيههم الى الطريق القويم ، الذي يتمثل باتباع القرآن الكريم الذي انزله الله سبحانه دستوراً للحياة .

ان المجتمع كثيرا ما يفقد المقاييس الثقافية الصحيحة ، ويستبدلها بمقاييس خاطئة ، وابرز مكان لحدوث ذلك هو عادات وسلوك المجتمع ، فإذا رأيت الرذيلة والفساد

---

(١) الطبري ، ج ١٢ ، ص ١٧ .

قد بدءا بالانتشار في المجتمع ، فاعرف بان قيماً ومقاييسَ فاسدة ومعايير خاطئة هي التي تعلق بها المجتمع ، اما اذا رأيت ان حالة التوجه الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاقبال على الالتزام بالتعاليم الدينية ، قد انتشرت بين الناس ، فذلك دليل على اتباع المجتمع للقيم والمعايير الصحيحة .

ان العادات الاجتماعية حبل تشده تارة القيم الصالحة ، واخرى القيم الفاسدة ، وهنا نرى ان الائمة الاطهار (عليهم السلام) يحافظون على قوة شد القيم الصالحة لهذا الحبل الاجتماعي الهام اذ ان سلوك الامة هو وقود تقدمها .

الثورات الرسالية في عهد الامام الهادي (عليه السلام)

ولكي تتوضح الصورة اكثر فاكثر حول ما قدمه الامام الهادي (عليه السلام) للامة الاسلامية ، نطلع على وضع الثورة والتحركات التي صاحبت عهده . حيث ان فترة امامته (عليه السلام) كانت من الفترات الطويلة ، ومن ثم كانت هنالك ثورات عديدة فجرتها الحركة الرسالية ، وقد بدأت بمحمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب .

وكان محمد بن صالح من شجعان آل ابي طالب ، كما كان من ظرفائهم وشعرائهم ، وكان قد ثار في (سوبقة) وخرجت معه جموع الناس ، وفي تلك السنة التي ثار فيها كان امير الحاج من قبل السلطات العباسية ، ابو الساج ، فسعي عنده بمحمد بن صالح ، وكان الذي سعى به ، عمه موسى بن عبد الله ، الذي أفضى بخبر الحركة، الامر الذي مكن ابا الساج من قائدها الذي اقتيد خدعة ومن ثم حمل الى المتوكل العباسي الذي سجنه ، ثم اطلق سراحه بعد عدة سنوات وبقي في سامراء الى ان توفي .

وممن ثار في تلك السنين الحسن بن زيد ومعه محمد بن اسماعيل بن زيد ، حيث ثارا في طبرستان ونواحي الديلم ، فغلبوا السلطات العباسية هناك ولعل هذه الثورة هي الثورة الوحيدة التي انتصرت في تلك الفترة . كما ثار محمد بن محمد بن جعفر بالري الا انه لم يحقق انتصارا فحبسه عبد الله بن طاهر بنيشابور حتى مات .

وكان احمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) قد توارى عن الانظار بعد هروبه من سجن هارون العباسي ، فأمر هارون بتفتيش كل دار يتهم صاحبها بالرسالية بحثا عنه ، ولكنه كان قد توارى في بغداد مدة ثم انتقل منها الى اماكن عديدة .

وقد كان لهارون الرشيد محاولات عديدة للقبض عليه ، منها انه دعا برجل من اصحابه يقال له : ابن الكردية واسمه يحيى بن خالد فقال له : قد وليتك الضياع بالكوفة ، فامض اليها وتولّ العمل بها واظهر انك تتشيع ، وفرق الاموال في الشيعة حتى تقف على خبر احمد بن عيسى . فمضى بن الكردية هذا ففعل ما امر به وجعل يفيض الاموال في الشيعة ويفرقها عليهم ولا يسألهم عن شيء حتى ذكروا له رجلاً منهم يقال له : ابو غسان الخزاعي فاطنبوا في وصفه ، واعرض عنهم ولم يكشفهم عنه الى ان ذكروه مرة اخرى فقال وما فعل هذا الرجل ؟ انا اليه لمشتاقون ، قالوا : هو مع احمد بن عيسى بالبصرة فكتب بذلك الى الرشيد فأمره بالرجوع الى بغداد ، ثم ولاّه البصرة مثل ما كان ولاه بالكوفة ، فمضى إليها ، وكان مع احمد بن عيسى بن زيد رجل من اصحاب يحيى بن عبد الله يقال له : حاضر ، وكان ينقله من موضع الى موضع .

وجاء ابن الكردية هذا الى البصرة ففعل ما فعله بالكوفة ، وجعل يفرق الاموال في الشيعة حتى ذكروا له حاضرا واحمد بن عيسى ، فتغافل عنهم ، ثم اعادوا ذكره بعد ذلك فتعرض لهم بذكره ولم يستقصه ، ثم عاودوه فقال لهم : اني احب ان القى هذا الرجل ، فقالوا له : لا سبيل الى ذلك ، قال : فاحملوا اليه مالا يستعين به واعلموه ان لو قدرت على ان اعطيه جميع مال السلطان لفعلت ، فأخذوا المال وحملوه الى حاضر فقبله ، وجعل ابن الكردية يتابع الاموال الى حاضر بعضها ببعض حتى انسوا به واطمأنوا اليه ، فقال لهم يوماً : الا يجيئنا هذا الشيخ ؟ فقالوا له : لا يمكن ذلك ، قال : فليأذن لنا نأته نحن ، قالوا : نسأله ذلك ، فأتوه وسألوه

إياه فقال : لا والله لا آذن له ابداً ، ويحكم الا تنتهون ؟ هذا والله محتال : فقالوا له: لا والله ما هو بمحتال ، فلم يزالوا به حتى اجابهم الى ان يلقاه . فلما كان الليل قال لأحمد ابن عيسى : قم فاخرج الى موضع آخر ، فإن ابتليت سلمت انت ، فخرج احمد وبعث ابن الكردية الى احمد بن حرث الهلالي ، وكان امير البصرة يأمره ان يبعث بالرجال إليه ليهجموا عليه حيث يدخل ، ومضى هو حتى اتى الدار ، وبعث بغلامه حتى جاء معه بالرجال فهجموا على حاضر فأخذه .

فأتي به هارون الرشيد فقال له : هيه صاحب يحيى بن عبد الله بالحيل ، عفوت عنك وامننتك ثم صرت تسعى عليّ مع احمد بن عيسى تنقله من مصر الى مصر ، ومن دار الى دار كما تنقل السنور اولادها ، والله لتجيئني به او لأقتلك .

قال يا امير المؤمنين : بلغك عني غير الحق .

قال : والله لتأتيني به او لأضربن عنقك .

قال : إذا اخاصمك بين يدي الله .

قال : والله لتجيئني به او لأقتلنك.

قال : والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها لك عنه ، انا اجيئك بابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى تقتله ؟ إفعل ما بدا لك .

فأمر هرثمة فضربت عنقه [1] فاستشهد ، فكان هذا نموذجاً من الافراد الذين بات احمد بن عيسى يربيهم حتى مات .

وما اكتفت السلطات بذلك بل اقدمت على محاولة اخرى للقبض على احمد ، عندما علمت انه في الاهواز فدبرت رجلاً يذهب ليقنعه - بعد ان يظهر له انه من مواليه - بالذهاب الى مصر وافريقيا وذلك لان العمل الرسالي مطلوب هناك اضافة الى ان العمل في مصر بعيد عن عيون السلطات العباسية . وكان النظام العباسي قد أرسل إليه رجلاً واحداً فقط ، لانه يعرف لو انه ارسل الى احمد جيشاً ، فان خبر

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٤١٠ .

ذلك يصل الى احمد قبل ان يتحرك الجيش خطوة تجاه الاهواز ، فرأى النظام العباسي ان افضل طريقة هي طريقة الرجل الذي يظهر رساليته لاحمد بن عيسى .

جاء في مقاتل الطالبيين ان رجلا رفع الى صاحب البريد بأصبهان ، ان احمد بن عيسى وحاضرا بالبصرة وكور الاهواز يترددان فكتب الرشيد في حملهما والقدوم بهما عليه ، وكتب الى ابي الساج وهو على البحرين والى خالد بن الازهر ، وهو على الاهواز ، والى خالد طرشت وكان على بريد طريق السند ، بالسمع والطاعة لصاحب بريد اصبهان ، وامر له بثلاثين الف ، وامره بالمصير الى هذه النواحي ، وطلب احمد بن عيسى . فورد الاهواز ، واظهر انه يطلب الزنادقة ، وكان الذي اتاه بالخبر رجل بربري كان احمد بن عيسى يأنس به ، فلما قدم هذا الرجل وكان يعرف بعيسى الرواوزدي ، اتى ذلك البربري احمد بن عيسى ، كما كان يأتيه . فوصف له عيسى هذا وقال له انه من شيعتك ومن حاله ومن قصته ، فأذن فدخل اليه وهو جالس ، ومعه ابن ادريس بن عبد الله ، وكاتب كان لابراهيم بن عبد الله، فبدأ بأحمد بن عيسى وابن ادريس فقبل ايديهما ، وجلس معهما وآنسهما ، وجعل يرسل اليهما بالهدايا والكسوة ، واشترى لهما وصيفتين ، فاطمأنا إليه وأكلا من طعامه وشربا من شرابه ، فلما وقعت الثقة قال لهما : هذا بلد ضيّق ولا خير فيه ، فهلما معي حتى اوافي بكما مصر وافريقية ، فان اهلهما يخفون معي ويطيعونني ، قالوا : وكيف تأخذنا ؟ قال : اجلسكم الماء الى واسط ، ثم آخذ بكم على طريق الكوفة ، ثم على الفرات الى الشام ، فأجابوه فأجلسهم في السفينة، وصير معهم اعوان ابي الساج امناء عليهم ومضوا ، ولما كان في بعض الطريق قال لهم : اتقدمكم الى واسط لاصلاح بعض ما نحتاج إليه في سفرنا من كراء او غيره ومضى هو والبربري فركبا دواب البريد واوصى الموكلين بهما الا يعلمونهم بشيء ولا يوهمونهم انهم من اصحاب السلطان ، وان يحتاطوا عليهم ما قدروا ، ففعلوا ذلك ومضوا ، ولما كانوا ببعض الطريق حبسهم اصحاب الصدقة وقالوا : لا تجوزوا فصاح بهم الموكلون : نحن من اصحاب ابي الساج واعوانه جئنا في أمر مهم ، فخلوا عنهم ، وانتبه احمد بن عيسى واصحابه لذلك ، فلما

جاوزوا قليلا قال لهم احمد ابن عيسى اقدموا الى الشط لنصلي ، فقدم الملاحون ، وخرجوا ، فتفرقوا بين النخل وتستروا بها وابتعدوا عن اعين الموكلين ، والموكلون في الزورق لا يوهمونهم انهم معهم ، فلما بعدوا عن اعينهم جعلوا يحضرون على اقدامهم حتى فاتوهم هربا وابتعدوا عنهم ، وطال انتظار الموكلين بهم ، فلم يعرفوا خبرهم وما الذي أبطأ بهم ، فخرجوا يطلبونهم ، فلم يجدوهم ، وتتبعوا آثارهم وجَدّوا في أمرهم ، فلم يقدروا عليهم ، فرجعوا الى الزورق خائبين حتى اتوا واسط ، وقد قدمها عيسى صاحب بريد اصبهان الذي دبر على القوم ما دبر ، وقد وجه معه الرشيد ثلاثين رجلا ليتسلـم احمد ، فاخبروه ما كان ، فقال : لا والله ولكن ارتشيتم وصانعتم وداهنتم ، وقدم بهم على الرشيد فضربهم بالسياط ضرباً مبرحاً، وحبسهم جميعاً في المطبق ، وغضب على ابي الساج دهراً حتى سأله فيه اخوه الرشيد فرضي عنه بعد ان كان قد همَّ به ومضى احمد بن عيسى واصحابه فرجعوا الى البصرة ، فلـم يزالوا مقيمين حتى مات احمد بن عيسى، وذلك في سنة سبع واربعين ومائتين[1].

حياة عبد الله بن موسى

وكان ممن تواروا ايضا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن ابي طالب (عليه السلام) منذ خلافة المأمون . يقول صاحب المقـاتـل : فكتب إليه بعد وفاة الرضا يدعوه الى الظهور ليجعله ولياً مكانه ويبايع له ، واعتد عليه بعفوه عمن عفا من اهله وما اشبه هذا من القول . فاجابه عبد الله بن موسى فيها : فبأي شيء تغرني ؟ ما فعلته بأبي الحسن (صلوات الله عليه) بالعنب الذي اطعمته اياه فقتلته .

والله ما يقعدني عن ذلك خوف من الموت ولا كراهة له ، ولكن لا اجد لي فسحة في تسليطك على نفسي ، ولولا ذلك لاتيتك حتى تريحني من هذه الدنيا الكدرة ويقول فيها :

---

(١) المصدر ، ص ٤١٢ .

هبني لا ثأر لي عندك وعند ابائك المستحلين لدمائنا الاخذين حقنا ، الذين جاهروا في امرنا فحذرناهم ، وكنت ألطف حيلة منهم بما استعملته من الرضى بنا والتستر لمحننا ، يختل واحدا فواحدا منا ، ولكني كنت امرأ حبب الي الجهاد ، كما حبب الى كل امرء بغيته ، فشحذت سيفي ، وركبت سناني على رمحي ، واستفرهت فرسي . لم ادر أي العدو اشد ضررا على الاسلام ، فعلمت ان كتاب الله يجمع كل شيء ، فقرأته فاذا فيه ﴿ يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ (التوبة/١٢٣) فلم ادر من يلينا منهم فاعدت النظر ، فوجدته يقول ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة/٢٢) فعلمت ان عليّ ان ابدأ بما قرب مني ، وتدبرت فإذا انت اضر على الاسلام والمسلمين من كل عدو لهم ، لان الكفار خرجوا منه وخالفوه فحذرهم الناس وقاتلوهم ، وانت دخلت فيه ظاهرا فأمسك الناس وطفقت تنقض عراه عروة عروة ، فأنت أشد اعداء الاسلام ضرراً عليه[1].

وروى جعفر بن محمد الوراق الكوفي ، قال : حدثني عبد الله بن علي بن عبيد الله العلوي عن ابيه ، قال : كتب المأمون الى عبد الله بن موسى وهو متوار يعطيه الامان ويضمن له ان يوليه العهد بعده ، كما فعل بعلي بن موسى (عليه السلام) يقول : ما ظننت ان احداً من آل أبي طالب يخافني بعد ما عملته بالرضا ، وبعث الكتاب إليه .

فكتب اليه عبد الله بن موسى : وصل كتابك وفهمته ، تختلني فيه من نفسي ختل القانص ، وتحتال علي حيلة المغتال القاصد لسفك دمي ، وعجبت من بذلك العهد ولايته لي بعدك ، كأنك تظن انه لم يبلغني ما فعلته بالرضا ففي أي شيء ظننت اني ارغب من ذلك ؟ افي الملك الذي قد غرتك نظرته وحلاوته ؟ فوالله لأن اقذف وانا حي في نار تتأجج احب اليّ منْ ان آلي امرا من المسلمين او اشرب شربة من

---

(١) المصدر ، ص ٤١٥ .

غير حلها مع عطش شديد قاتل ، ام في العنب المسموم الذي قتلت به الرضا ؟ ام ضننت ان الاستتار قد أملّني وضاق به صدري ، فوالله اني كذلك ولقد مللت الحياة وابغضت الدنيا ، ولو وسعني في ديني ان اضع يدي في يديك حتى تبلغ من قلبي مرادك لفعلت ذلك ، ولكن الله قد حَظَر عليَّ المخاطرة بدمي ، وليتك قدرت عليَّ من غير ان ابذل نفسي لك فقتلتني ، ولقيتَ الله (عز وجل) بدمي ولقيتُه قتيلاً مظلوماً ، فاسترحت من هذه الدنيا .

واعلم اني رجل طالب النجاة لنفسي ، واجتهدت فيما يرضي الله عز وجل عني، وفي عمل اتقرب به اليه ، فلم اجد رأيا يهدي الى شيء من ذلك ، فرجعت الى القرآن الذي فيه الهدى والشفاء ، فتصفحته سورة سورة وآية آية ، فلم اجد شيئا ازلف للمرء عند ربه جل وعز من الشهادة في طلب مرضاته .

ثم تتبعته ثانية أتامل الجهاد أيه افضل ولاي صنف فوجدته جل وعلا يقول : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ (التوبة،١٢٣)
فطلبت أي الكفار اضر على الاسلام ، واقرب من موضعي ، فلم اجد اضر على الاسلام منك ، لان الكفار اظهروا كفرهم ، فاستبصر الناس في أمرهم ، وعرفوهم فخافوهم .

وانت ختلت المسلمين بالاسلام ، واسررت الكفر ، فقتلت بالظنة وعاقبت بالتهمة ، واخذت مال الله من غير حلة فأنفقته في غير محله ، وشربت الخمر المحرمة صراحا ، وانفقت مال الله على الملهين واعطيته المغنين ، ومنعته من حقوق المسلمين فخششت بالاسلام ، واحطت بأقطاره احاطة اهله ، وحكمت فيه للمشرك ، وخالفت الله ورسوله في ذلك خلافة المضاد المعاند ، فان يسعدني الدهر ويعينني الله عليك بانصار الحق ، أبذل نفسي في جهادك بذلا يرضيه مني ، وان يمهلك

ويؤخرك ليخزيك بما تستحقه في منقلبك ، او تخترمني الايام قبل ذلك فحسبي من سعيي ما يعلمه الله عز وجل من نيتي [1].

ولم يزل عبد الله متواريا الى ان مات في ايام المتوكل ، فقد روي عن محمد بن سليمان الزينبي انه قال : نعي عبد الله بن موسى الى المتوكل صبح اربع عشرة ليلة من يوم مات ، ونعي له احمد بن عيسى فاغتبط بوفاتهما وسر ، وكان يخافهما خوفا شديداً ويحذر حركتهما ، لما يعلمه من فضلهما ، واستنصار الشيعة الزيدية بهما وطاعتهما لهما لو ارادوا الخروج عليه ، فلما ماتا أمن وأطمأن ، فما لبث بعدهما الا اسبوعا حتى قتل [2].

كما تقدم سابقاً عن زيد بن زين العابدين (عليه السلام) وانه كان من اولاده الحسين ذو الدمعة والذي تربى وتفقه على يد الامام جعفر الصادق (عليه السلام)، وان الحسين ذا الدمعة كان له حفيد يدعى يحيى بن عمر بن الحسين ذي الدمعة وان الاخير حكم الكوفة والمراد هنا ان احداث ثورة يحيى بن عمر بن الحسين ذي الدمعة كانت في خلافة المتوكل الى خلافة المستعين العباسي حيث كان يحيى قد قام بانتفاضة في ايام المتوكل في خراسان فهزم من قبل عبد الله بن طاهر ، فأمر المتوكل بتسليمه الى عمر بن الفرج الرخجي فسلم اليه ، فكلمه بكلام فيه بعض الغلظة فرد عليه يحيى وشتمه ، فشكى ذلك الى المتوكل فامر به فضرب درراً وضرب ثمانية عشر مقرعة ، ثم حبسه ببغداد في المطبق ، فمكث على ذلك مدة ، ثم اطلق فمضى الى بغداد فلم يزل بها حينا حتى قام بالثورة في الكوفة ، فدعا الى الرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله) ، واظهر العدل وحسن السيرة الى ان قتل رضوان الله عليه ، وكان رضي الله عنه رجلاً فارساً شجاعاً ، شديد البدن مجتمع القلب ، بعيداً من رهق الشباب وما يعاب به مثله .

---

(١) المصدر ، ص ٤١٦ .

(٢) المصدر ، ص ٤١٧ .

واستمر الوضع الى استشهاد الامام الهادي (عليه السلام) حيث حدث ما يزيد على عشرين تحركا وانتفاضة في المناطق المختلفة ، الا ان من المهم ايضا ان نعرف الآتي :

كانت هذه الثورات والانتفاضات وليدة خلافة المتوكل العباسي الذي كان مشهورا بسفك دماء المجاهدين والثوار . ذلك لأن وضع الحركة الرسالية كان قد أصبح اكثر انفتاحاً ، أي ان القضايا السرية كانت قد خفت حدتها ، فأصبح كثير من رؤوس الحركة على السطح البارز العلني ، فلما تولى المتوكل الخلافة شرع منذ اللحظة الاولى في سياسة الارهاب والعنف ، وجاء ليقلب المعادلة رأسا على عقب ، ويضرب الحركة بقوة ، فتفرقت اجنحة الحركة الرسالية، بالخصوص الاجنحة المختصة بالعمل السياسي العسكري، وهذا ما يؤكده المؤرخون حيث يقول صاحب المقاتل : " وكان المتوكل شديد الوطأة على آل ابي طالب ، غليظاً على جماعتهم مهتما بامرهم ، شديد الغيظ والحقد عليهم ، وسوء الظن والتهمة لهم ، واتفق له ان عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزيره يسيء الرأي فيهم ، فحسن له القبيح في معاملتهم ، فبلغ فيهم ما لم يبلغه احد من خلفاء بني العباس قبله ، وكان من ذلك ان هدم قبر الحسين (عليه السلام) وعفى آثاره ، ووضع على سائر الطريق مسالح له لا يجدون احدا زاره الا اتوه به فقتله او انهكه عقوبة [(١)].

ويضيف ابو الفرج الاصفهاني : " بعث المتوكل برجل من اصحابه يقال له الديزج وكان يهوديا فأسلم ، الى قبر الحسين ، وامره بكرب قبره ومحوه واخراب كل ما حوله ، فمضى لذلك وخرب ما حوله وهدم البناء وكرب ما حوله نحو مائتي جريب ، فلما بلغ الى قبره (عليه السلام) لم يتقدم اليه احد ، فاحضر قوماً من اليهود فكربوه ، واجرى الماء حوله ووكل به مسالح بين كل مسلحتين ميل ، لا يزوره زائر الا اخذوه ووجهوا به إليه ".

---

(١) المصدر / ص ٣٩٥ .

ويقول وهو يصف حالة العلويين في زمن المتوكل : " واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخجي وكان لا يبلغه ان احداً ابرّ منهم (من العلويين) وان قل الا انهكه عقوبة ، واثقله غرماً ، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلين فيه واحدة بعد واحدة ثم يرقعنه .." [٢].

ان الثورات والانتفاضات الكبيرة التي كانت الحركة الرسالية تقوم بها ، هي بجانب ردع السلطة ، كانت تعطى الامة روح الصمود والثبات والاستقامة واذا ما لاحظنا اصحاب هؤلاء الثورات من هم ، نجد ان اكثرهم من صنع الامام الهادي (عليه السلام) وتربيته . كان هذا وجه آخر لا اخير ، من وجه قيادة الامام للامة وللحركة ، وتبقى وجوه ندعها للزمن لعله يكشفها .

(٢) المصدر والى ذلك تشير كتب التاريخ الفخري ، ص ٢١٣ وابن الاثير ، ج ٧ ، ص ١٩ وتاريخ ابي الفداء ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

كيف نقرأ تاريخ الحركة الرسالية ؟

عند الحديث عن حياة بعض الائمة ، نرى ان الحديث يطول الى درجة لا يستطيع الانسان ان يجمعه في بحث واحد ، او حتى في كتاب واحد ، وقد يتحول الحديث عن الامام علي (عليه السلام) فقط الى كتاب في عشرة مجلدات ، وكذلك الحديث عن الامام الصادق (عليه السلام) .

لكننا حين نراجع حياة امام آخر كالامام الجواد (عليه السلام) او الامام الهادي (عليه السلام) فاننا نجد ان مادة الحديث قليلة الى درجة نعجز معها عن التوسع في حياة هذا الامام فهل يدل ذلك على ان بعض الائمة كانوا اثرى من غيرهم علمياً ، وفقهياً ، وحركياً ؟

وقبل ان نخوض في الجواب على هذا السؤال نذكر بان السياسة وتحكمها بعملية تدوين التاريخ قد طبعت اصابعها بصورة واضحة على تاريخ الحركة الرسالية . فسياسة القتل والارهاب والملاحقة التي اتبعتها السلطات بحق كل من كان يحدث او يكتب عن الحركة الرسالية ، سواء عن فكرها ، وشخصية رجالها ، او عن تحركاتها وجهادها ، هذه السياسة حالت دون وصول الكثير من الحقائق عن الحركة الرسالية إلينا .

ولكن بالرغم من كل المحاولات التي بذلتها السلطات الارهابية في طمس

الحقائق وتشويهها والصاق التهم الرخيصة بابطالها ، وبالرغم من كل ما قامت به تلك السلطـات من اتلاف وحرق الكثير من الكتب التي تبين معالم مدرسة الرسالـة ، الا ان ما وصلنا يرسم لنا صورة جلية عن مجمل مسيرة الحركة الرساليـة.

الظاهرة السابقة التي يطرحها التساؤل ، انما تدل على ان هناك تقصير فادح من العلماء والباحثين في استقصاء حياة الائمة المعصومين (عليهم السلام) او انهم ركزوا على جوانب من شخصيتهم واهملوا جوانب اخرى لعدم استيعابهم لتلك الجوانب .

ان اعمال الائمة المعصومين (عليهم السلام) كانت على نوعين :

الاول : بمثابة رسم معالم الحركة الرسالية وتوضيحها .

الثاني : بمثابة مواصلة للمسيرة السابقة ، لكي تنمو وتتوسع ، فمثلا نجد الامام علي (عليه السلام) هو الذي اسس الحركة الرسالية بتفاصيلها التنظيمية والقيادية ، بينما الامام الحسن تابع نفس المسيرة التي بدأها الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) ، كذلك نجد ان الامام الصادق (عليه السلام) اسس الكيان الفقهي للحركة ، اما الامام الكاظم فانه نمى البناء السابق .

من هنا نجد حياة احد الائمة (عليهم السلام) مليئة بالاحداث والاحاديث لانه هو الذي بدأ عملا ما ، بينما الامام التالي لا نجد في حياته ما يثيرك من ذلك الجانب الذي سبق تأسيسه ، لانه انما قام بدعم العمل السابق وهذا لا يدل على ان الامام الاول كان افضل من الثاني ، انما موسع البناء ومنميه يشترك مع مؤسسه في الاهمية والعظمة ، فالرجل الذي اخترع الكهرباء عظيم ، وكذلك الذي نشر الكهرباء في الآفاق وحولها الى مادة رفاهية في كل ناحية من نواحي حياتنا ، فهو عظيم ايضاً .

ثم اننا نجد ان المؤرخين قد كتبوا عن الائمة الذين احتكوا بالحركات الاسلامية والتيارات الفكرية والسياسية الاخرى اكثر من باقي الائمة ، والسبب في ذلك ، لان سجل التاريخ حفظ تلك الاحاديث ، لان فيها لون من الصراع والخلاف

الفكري او السياسي . وطبيعي ان الخلاف يحفظ لأن فيه اثارة فتتوجه له انظار رجال التاريخ اكثر ، بينما نجد ان حياة الامام الذي لم يحتك احتكاكاً مباشراً مع سائر المذاهب ، غير مدونة وغير محفوظة في كتب التاريخ ، لا لعدم وجود اشياء عظيمة في حياته وانما لعدم كتابة تلك الاشياء .

فلماذا لم نؤرخ كل الوقائع ؟ ولماذا لا نستنبط من التاريخ افكارا جيدة مع اننا نأخذ في الاعتبار الظروف التي كان يعيشها كل امام من الائمة ؟ ولكن يبقى التساؤل: لم لا نسلط الضوء على المناطق المظلمة من التاريخ ؟

لاننا نحن الذين ندع التاريخ جانباً ، وطرح هذا التساؤل لا يعني اننا لا نضع ذلك الاعتبار ضمن التعليلات ، وهو انشغال الحركة الرسالية بالجانب العلمي ، والجانب السياسي الذين كانا يتطلبان طاقات وجهود كبيرة .

واننا نرى ان اتباع اهل البيت نمى عندهم الفقه بما لم ينم عند أي جماعة اسلامية اخرى ، كما كانوا حريصين في إسناد الاحاديث والروايات على ان تكون موثقة صحيحة حتى لا يقع التحريف والتزييف فيها ، بينما لا نرى هذه الدقة في الاسناد عند غيرهم . وكذلك نمت عندهم بقية العلوم الاساسية في الشريعة ، لكن لان التاريخ تأتي اهميته بعد تلك العلوم الاساسية في الشريعة ، فقد أُعطيَ اهتماما اقل نظرا لصرف الجهود بكثافة على العلوم الاساسية السابقة ولكثرة الطاقات التي كانت تصرف في المجال السياسي ، ومع اخذ هذا الاعتبار ضمن التعليلات ، الا ان التساؤل يبقى قائما ، وهناك السؤال الآخر : هل عدم وجود مادة كافية في حياة أي امام دليل على اننا لا نستطيع ان نكشف كامل خبايا حياة ذلك الامام ؟

بالطبع كلا . فنحن نستطيع الاستنتاج من بين السطور، وأن نقرأ عبر ربط السابق باللاحق من الاحداث ، نقرأ حياة الائمة المعصومين (عليهم السلام) ، مثل الامام الهادي (عليه السلام) الذي لم يدّون التاريخ عن حياته شيئاً كثيراً .

اننا حينما ندرس حياة الامام الهادي ضمن حياة الائمة جميعا فإنه ستكون عندنا صورة كاملة عن حياته فحين دراستنا لرواية او حديث او قضية تاريخية ، فلا يجب

ان نقتصر عليها هي بالذات وننقلها ونسردها ، وانما ينبغي ان ندرسها مع ظروفها دراسة وافية بمراجعة التاريخ المعاصر للائمة المعصومين (عليهم السلام) .

ان كتاب بحار الانوار مثلاً ليس كتاباً تاريخياً يبين لنا مَن هم الاشخاص الذين كانوا يحضرون عند هذا الامام او ذاك . لذلك علينا ان نراجع كتب التاريخ الاخرى .

فمثلاً حينما نقرأ في كتب الاحاديث ان فتح بن خاقان كان يحضر عند الامام الهادي (عليه السلام) ، ولكن من هو فتح بن خاقان ؟ اننا لا نعرف عنه شيئاً إلاّ إذا قرأنا كتب التاريخ لنعرف انه كان من أكبر وزراء المتوكل العباسي الذي بدوره لا نعرف عن فترة حكمه المظلمة شيئاً إلاّ بمطالعة التاريخ . فبمطالعة التاريخ نعرف ان فتح بن خاقان كان يميل الى الامام الهادي (عليه السلام) وان الكثير من الخطط التي كانت السلطة العباسية تحيكها ضد الحركة الرسالية كان خبرها ربما يتسرب الى الامام عبره .

كل هذه الامور يجب ان ندرسها في كتب التاريخ ، وبعد ان ندرس التاريخ بشكل دقيق فاننا نعرف الروايات ايضا بشكل جيد [1].

ان بعض الخطباء يرتقون منبر الخطابة ويذكرون الرواية ويسندونها بدون ان يذكروا الخلفيات التاريخية والظروف الاجتماعية لها، وهذه طريقة غير صحيحة في المنهج الخطابي ، ان الطريقة الحديثة في كتابة التاريخ تركّز حتى على بيان طريقة العيش للفرد . مثلا كيف كان شكل البيوت التي كان يسكنها الناس قديماً ، وكم غرفة كانت في البيت ، وهل كانت البيوت من طابق واحد او طابقين ، ووسائل الترفيه كيف كانت ، اين كان البئر .. والسبب في ذلك، لان ذلك سيعطي للمؤرخين رؤية . فعندما يقرؤون في التاريخ ان رجلا وقع في البئر ، فهل كانت البئر في وسط البيت حتى وقع فيها ، ام خلف البيت ، ولماذا لم يحس به احد عندما وقع؟ وبذلك يستطيعون معرفة

(١) للمزيد من البحث حول الوثائق التاريخية راجع كتاب (المنطق الاسلامي) للمؤلف باب دراسة الوثائق التاريخية ، ص ٥٢١ - ٥٦٢ .

حقائق كثيرة من التاريخ من خلال معرفة الظروف التي كان يعيشها الفرد ، من كيفية وضعه المعيشي وحتى السكني .

كذلك ماذا كانت ملابسهم ، وماذا كانوا يأكلون ، كيف كانت اضاءتهم ، ان كتاب تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان يبحث عن التفاصيل الدقيقة ، مثلا يذكر في التاريخ انه في مدينة واسط كان يوجد حوالي كذا الف حمام ، بالطبع عندما نذكر هذا الاحصاء لشخص فرنسي او انجليزي فسيقول خمسة آلاف حمام يعني خمسة آلاف بيت باعتبار ان في كل بيت كان يوجد حمام واحد ، ولكن الذي يراجع التاريخ يعلم بأن الحمام كان لكل منطقة ، او لكل حي ، والحي الذي يوجد فيه حمام كم يسكن فيه من الناس ؟

وهذا كله يجب ان نعرفه من التاريخ حتى نستطيع اكتشاف عدد سكان مدينة معينة عن طريق عدد حماماتها ووسائل معيشتها ، ومن ثم نعرف مثلاً ارتباط عددها مع دورها التاريخي . كذلك معرفة عدد سكان مدينة معينة عن طريق الانهر التي فيها، وعن طريق عدد الجزارين ، وكم كانوا يذبحون من الغنم يومياً . هذه اذا ذكرها التاريخ فاننا نتمكن ان نعرف كم كان عدد السكان الموجودين في منطقة ما . لماذا ؟

لان هناك مقدمة اخرى او حلقة ثانية وهي ان نعرف كم كان يستهلك الافراد من اللحم يوميا ، فاذا كانوا مثلا كأهل مصر الذين لا يأكلون اللحم في الاسبوع الاّ يوماً واحداً او يومين ، فهذا يختلف عما اذا كانوا كأهل الحجاز او اهل البادية الذين ياكلون اللحم يومياً لان طريقة الأكل تختلف من مكان عن آخر .

اذن فدراستنا للروايات ودراستنا للمقاطع المختلفة من التاريخ والاخبار المقتضبة منه ، يجب ان تتم عبر رؤية متكاملة عن التاريخ ، فأولاً ندرس التاريخ كله وبعدئذ ندرس الرواية ، وبناء على ذلك فاننا نستطيع ان نستنبط حياة الائمة المعصومين (عليهم السلام) خصوصاً الائمة الذين لا نملك من حياتهم الشيء الكثير وهم الائمة المتأخرون ، من بعد الامام الرضا (عليه السلام) ، ندرس حياتهم

ونستوعبها عن طريق دراسة التاريخ ومعرفة الظروف المختلفة التي كانوا يعيشون فيها .

توجد هناك روايات يذكرونها في باب معجزات ومكارم الامام الهادي (عليه السلام) ، لكن ومن خلال الرواية نستطيع ان نستنبط حياة الامام الهادي (عليه السلام) ، وهذا يجعلنا نعرف حياة الامام بصورة احسن من مجرد القاء اضواء متفرقة عليها ، لانه لا توجد قضايا معينة ومحددة بوضوح شديد في تاريخ حياة الامام الهادي تجمع كل احداث حياته ، لذلك نضطر الى بحث الحياة بشكل مجزأ .

مثلاً حينما نقرأ الرواية التالية ، يقول الراوي :

كنت مع ابي بباب المتوكل وانا صبي في جمع من الناس ما بين طالبي الى عباسي الى جندي الى غير ذلك ، وكان اذا جاء ابو الحسن (عليه السلام) ترجل الناس كلهم حتى يدخل .

فقال بعضهم لبعض : لِمَ نترجل لهذا الغلام ؟ وما هو بأشرفنا ولا بأكبرنا ولا بأسننا ولا بأعلمنا ؟ فقالوا : والله لا ترجلنا له ، فقال لهم ابو هاشم : " والله لَتَرجّلنّ له صغارا وذلة اذا رأيتموه ، فما هو إلاّ أن اقبل وبصروا به فترجل له الناس كلهم ، فقال لهم ابو هاشم : " اليس زعمتم انكم لا تترجلون له ؟

فقالوا : والله ما ملكنا انفسنا حتى ترجلنا " (١).

بالطبع هذه رواية تذكر في كتب الحديث في باب معجزات ومكارم اخلاق الامام (عليه السلام) ولكنها تعني لنا شيئين :

الاول : في الواقع انا لا اعتقد ان هذه من معجزات الامام (عليه السلام) فقط ، الامام عنده معجزات ولا ننكرها ، لكن هذه من طبيعة وضع الامام في كل مكان.

ماذا يعني هذا ؟ لماذا الناس كما في التاريخ حينما جاء الامام السجاد (عليه السلام) يطوف حول الكعبة افسحوا له الطريق ليقبل الحجر ؟

---

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ١٣٧ .

ان الائمة (عليهم السلام) كانوا يمتلكون قلوب الناس بأخلاقهم العالية وشخصياتهم المحببة . ان طبيعة حياة الائمة (عليهم السلام) ، وعلمهم وشخصيتهم وقدرتهم لم تكن اموراً غيبية فقط، بل كانت بشكل نموذجي متكامل لذلك كانوا يفرضون هيبتهم على الناس بشكل طبيعي .

الثاني : ان الذي يظهر من هذه الرواية هو ان مجيء الامام عند المتوكل العباسي كان بصفة السيادة ، لان وجهاء الاسرة العباسية الحاكمة ، ومعهم وجهاء الطالبيين كانوا عندما يصل الامام يترجلون فورا ويفسحون له ليدخل .

وفي رواية عن محمد بن الفرج وهو احد اصحاب الامام الهادي (عليه السلام) انه قال : " ان ابا الحسن كتب اليّ : " إجمع أمرك وخذ حذرك " قال: فأنا في جمع أمري لست أدري ماذا أراد فيما كتب به اليّ حتى ورد عليّ رسول حملني من مصر مقيّدا مصفّدا بالحديد وضرب على كل ما أملك .

لاحظ ان الامام كتب له يحذره ويخبره بشكل رمزي بان رجال المباحث يفتشون عنه.

والرجل كان في مصر ، حينما كتب الإمام يقول له: اجمع امرك وخذ حذرك ، ولم يقل له شيئا آخر، ولكن محمد بن الفرج يقول: لست أدري ولم افهم ما القضية ، فأخذت اجمع امري واصفي ديوني وارتب اوضاعي ، فاذا بالقضية تطورت فجاؤوا وقيدوني وصادروا اموالي كلها وارسلوني الى بغداد ، فمكثت في السجن ثمانية سنين ، (لعل الرجل لم يعمل بكلام الامام عملا صحيحا ، ولعله لم يفهم ما كان يشير اليه الامام ، وربما تلكأ ولم يأخذ حذره بشكل كامل فوقع في المحذور) ثم ورد عليّ كتاب من ابي الحسن الهادي (عليه السلام) وانا في الحبس يقول فيه : " لا تنزل في ناحية الجانب الغربي " .

فقرأت الكتاب فقلت في نفسي يكتب اليّ ابو الحسن (عليه السلام) بهذا وانا في الحبس .. ان هذا لعجيب ! فما مكثت إلاّ أياماً يسيرة حتى افرج عني وحلت قيودي وخلي سبيلي .

ولما رجع الى العراق لم يقف ببغداد لما امره ابو الحسن (عليه السلام) وخرج الى سامراء، قال: فكتبت اليه بعد خروجي اسأله ان يسأل الله ليرد عليّ ضياعي فكتب اليَّ : "سوف يُرد عليك وما يضرك أن لا تُرد عليك " فلما شخص محمد بن الفرج الى العسكر كُتب لـه برد ضياعـه فلم يصل الكتاب إليـه حتى مـات " [١].

ونحن الان لا يهمنا نهاية الرواية ، وانما نعالج نقطتين : الاولى ان الامام ابو الحسن الهادي (عليه السلام) كان في سامراء ، وصاحبه كان في مصر ، فربما كان الامام عنده عين توصل الاخبار مع عدم استلزام ذلك لعنصر المعجزة ، كأن يكون رئيس الوزراء يتشيع للامام ويكون عينا له .

وقد سبق وان رأينا في حادثة ان رئيس الوزراء وهو الفتح ابن خاقان يقول له المتوكل : اذهب وخذ المال الذي يأتيك من الطريق الفلاني ، فيذهب هذا ويخبر الامام بالأمر .

النقطة الثانية : وهي الاهم ترى ان الرجل في السجن والامام يكتب له رسالة ، كيف يوصل له الرسالة ، وكيف يعطيه التعليمات ؟ ان هذا يدلنا بوضوح على طبيعة اعمال واساليب الائمة (عليهم السلام) في داخل الامة الاسلامية ، فلم يكونوا يجلسون في زوايا بيوتهم بعيدين عن الاحداث .

وللقضية نهاية وهي : ان الامام (عليه السلام) قال له : سيرد عليك اموالك وما يضرك الا ترد عليك، أي ما اهمية الاموال مادمت تقوم بمهمة دينية كبيرة وهو انك من موالينا وتعمل في سبيل الله فليأخذوا اموالك ، فالانسان مادام عنده هدف اسمى في حياته، فما يهمه من امر المال وسائر متاع الدنيا الزائل ، اليست هذه اشياء غير مهمة بالنسبة له.

وبكلمة اننا من الجوانب المختلفة للروايات ، نستطيع أن نرسم أغلب خطوط حياة الامام ، أي ان المسألة تحتاج الى القراءة الدقيقة لما بين السطور ، وبالنهج الذي فصلنا فيه الكلام قبل قليل .

وبهذا نتمكن ان نسد النقص التاريخي الحاصل من جراء عدم تسجيل المؤرخين لحياة الائمة الاربعة الاواخر (عليهم السلام) - خصوصا - وبشكل تفصيلي .

---

(١) المصدر ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

ونورد هنا رواية عن الامام الهادي (عليه السلام) يبين فيها جملة من علوم التوحيد والامامة .

روى العلامة المجلسي في موسوعة بحار الانوار، ج ٥٠ ، ص ١٧٧ عن كتاب الدلائل عن ايوب ، قال : قال فتح بن يزيد الجرجاني : ضمني وابا الحسن (عليه السلام) الطريق في منصرفي من مكة الى خراسان ، وهو صائر الى العراق فسمعته وهو يقول : من اتقى الله يُتقى ، ومن اطاع الله يُطاع .

قال : فتلطفت في الوصول اليه فسلمت عليه فرد علي السلام وامرني بالجلوس . واول ما ابتدأني به ان قال : يا فتح من اطاع الخالق لم يبال بسخط المخلوق ، ومن اسخط الخالق فأيقن ان يحل به الخالق سخط المخلوق ، وان الخالق لا يوصف الا بما وصف به نفسه ، وأنّى يوصف الخالق الذي يعجز الحواس ان تدركه ، والاوهام ان تناله ، والخطرات ان تحده ، والابصار عن الاحاطة به .

جَلَّ عما يصفه الواصفون ، وتعالى عما ينعته الناعتون ، نأى في قربه ، وقرب في نأيه فهو في نأيه قريب ، وفي قربه بعيد ، كيّف الكيف فلا يقال كيف، وأيّن الأين فلا يقال أين ، إذ هو منقطع الكيفية والاينية .

هو الواحد الصمد ، لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفوا احد ، فجل جلاله .

بل كيف يوصف بكنهه محمد (صلى الله عليه وآله) وقد قرنه الجليل باسمه ، وشركه في عطائه واوجب لمن اطاعه جزاء طاعته ، إذ يقول ، ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (التوبة،٧٤) ، وقال : يحكي قول من ترك طاعته، وهو يعذبه بين اطباق نيرانها وسرابيل قطرانها ﴿ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾ (الاحزاب،٦٦) ام كيف يوصف بكنهه من قرن الجليل طاعتهم بطاعة رسوله حيث قال :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء،٥٩)

وقال : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ (النساء،٨٣)

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (النساء،٥٨)

وقال : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الانبياء،٧)

يا فتح كما لايوصف الجليل جل جلاله ، والرسول ، والخليل وولد البتول ، فكذلك لايوصف المؤمن المسلّم لأمرنا ، فنبينا افضل الانبياء ، وخليلنا افضل الاخلاء ، ووصينا اكرم الاوصياء ، واسمهما افضل الاسماء ، وكنيتهما افضل الكنى واجلاها ، لو لم يجالسنا إلاّ كفو لم يجالسنا أحد ، ولو لم يزوجنا إلاّ كفو لم يزوجنا أحد .

اشد الناس تواضعاً ، اعظمهم حلماً وانداهم كفّاً وامنعهم كنفاً ، ورث عنهما اوصياؤهما علمهما ، فاردد اليهما الامر ، وسلم اليهم ، أماتك الله مماتهم ، واحياك حياتهم . إذا شئت رحمك الله .

قال فتح : فخرجت فلما كان الغد تلطفت في الوصول اليه فسلمت عليه فرد السلام فقلت : يا ابن رسول الله اتأذن في مسألة اختلج في صدري امرها ليلتي ؟ قال : سل، وان شرحتها فلي وان امسكتها فلي ، فصحح نظرك ، وتثبت في مسألتك واصغ الى جوابها سمعك ، ولا تسأل مسألة تعنيت، واعتن بما تعتني به ، فان العالم والمتعلم شريكان في الرشد ، مأموران بالنصيحة ، منهيان عن الغش .

واما الذي اختلج في صدرك ، فان شاء العالم انبأك ، ان الله لم يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول . فكل ما كان عند الرسول كان عند العالم وكل ما اطلع عليه الرسول فقد اطلع اوصياؤه عليه ، كيلا تخلو ارضه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته ، وجواز عدالته .

يا فتح عسى الشيطان اراد اللبس عليك ، فأوهمك في بعض ما اودعتك ، وشكك في بعض ما انبأتك ، حتى اراد ازالتك عن طريق الله ، وصراطه المستقيم، فقلت : " متى ايقنت انهم كذا فهم ارباب " ، معاذ الله انهم مخلوقون مربوبون، مطيعون لله داخرون راغبون ، فاذا جاءك الشيطان من قبل ما جاءك فاقمعه بما انبأتك به .

فقلت له : جعلت فداك : فرّجت عني ، وكشفت ما لَبّس الملعون عليّ بشرحك فقد كان اوقع في خلدي انكم ارباب، قال : فسجد ابو الحسن (عليه السلام)

وهو يقول في سجوده : راغماً لك يا خالقي داخراً خاضعاً ، قال : فلم يزل كذلك حتى ذهب ليلي .

ثم قال : يا فتح كدتَ ان تهلك وتهلِك، وما ضرّ عيسى (عليه السلام) إذا هلك من هلك ، انصرف اذا شئت رحمك الله قال : فخرجت وانا فرح بما كشف الله عني من اللبس بانهم هم ، وحمدت الله على ما قدرت عليه .

فلما كان في المنزل الآخر ، دخلت عليه وهو متكئ ، وبين يديه حنطة مقلوة يعبث بها ، وقد كان اوقع الشيطان في خلدي انه لا ينبغي ان يأكلوا ويشربوا اذ كان ذلك آفة ، والامام غير ذي آفة ، فقال : اجلس يا فتح فان لنا بالرسل اسوة كانوا يأكلون ويشربون ، ويمشون في الاسواق ، وكل جسم مغذو بهذا إلاّ الخالق الرازق لأنه جسّم الاجسام ، وهو لم يُجسّم ، ولم يُجزّء بتناه ، ولم يتزايد ولم يتناقص ، مبرّء من ذاته ما ركّب في ذات من جسّمه .

الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، منشئ الاشياء مجسّم الاجسام ، وهو السميع العليم ، اللطيف الخبير ، الرؤوف الرحيم تبارك وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

لو كان كما يوصف، لم يُعرف الرب من المربوب ولا الخالق من المخلوق ولا المنشيء من المنشأ ، لكنه فرّق بينه وبين من جسّمه ، وشيّأ الاشياء إذ كان لا يشبهه شيء يُرى ، ولا يشبه شيئاً .

استشهد الامام الهادي (عليه السلام) مسموما ، وقد سمه المعتمد العباسي او المعتز العباسي ، اذ ثبت ان استشهاده كان في ٢٥٤ هـ . وهو من الذين قيل فيهم:

كرام اذا ما انفقوا المال انفدوا ... وليس لعلم انفقوه من إنفاد
ينابيع علم الله اطواد[١] دينه ... فهل من نفاد ان علمت لأطواد
نجوم متى نجم خبا [٢] مثله بدا ... فصلى على الخابي المهيمن والبادي
عباد لمولاهم موالي عباده ... شهود عليهم يوم حشر وإشهاد
هم حجج الله اثنتى عشرة متى ... عددت فثاني عشرهم خلف الهادي
بميلاده الانباء جاءت شهيرة ... فأعظم بمولود واكرم بميلاد

وبعد استشهاد الامام الهادي (عليه السلام) اصبحت الامامة على عاتق الامام ابي محمد الحسن العسكري . ولد الامام العسكري في ربيع الآخر عام ٢٣١ او ٢٣٢ ، واستشهد في سامراء لثمان خلون من ربيع الاول على الاشهر عام ٢٦٠ هـ ، وكانت ايام امامته ست سنين .

---

(١) الاطواد : جمع طود وهو الجبل العظيم .

(٢) خبت النار : طفئت وهنا استعيرت للغروب .

لقد تميزت الاحاديث التي تدور حول القيادة ، ان اغلبها كان عن الامام ابي محمد العسكري (عليه السلام) فهل الصدفة هي منشأ الميزة ؟

بالطبع لا ، فكل شيء بميزان وبحكمة ، وقد سبق ان اشرنا الى ان الرسالة كانت لها ثلاث مراحل متميزة .

فهذه الميزة التي افرد بها الاسلام الامام الحسن العسكري (عليه السلام) كانت تعني ان الحركة الرسالية قد استعدت للوقوف على رجليها ، خاصة وان هذه الاحاديث هي حول القيادة فيما بعد الائمة ، أي في زمن الغيبة .

وهنا تبرز اهمية هذا العمل الذي قام به الامام العسكري (عليه السلام) ، حيث انه لم يكن مجرد القاء الحديث على مجموعة من ثقات الحركة الرسالية بل هو هداية هؤلاء القادة الى هذه التشريعات ، ومن ثم تأتي الوظائف التابعة لهذه العملية وهي وظيفة المحافظة على الاحاديث ، والتفريع من الاصول ، وتربية الفقهاء لهذا العصر وسائر الاعمال المتشابهة عند الائمة الأواخر (عليهم السلام) .

كما وان للامام دور نستطيع ان نلحظه من خلال هذه الروايات ، روى القاسم الهروي قال : (خرج توقيع من ابي محمد (عليه السلام) الى بعض بني اسباط قال : كتبت إليه اخبره عن اختلاف الموالي واسأله اظهار دليل ، فكتب لي : "وانما خاطب الله عز وجل العاقل، ليس أحد يأتي بآية ، او يظهر دليلا اكثر مما جاء به خاتم النبيين وسيد المرسلين ، فقالوا ساحر وكاهن وكذاب، وهدى الله من اهتدى ، غير ان الادلة يسكن اليها كثير من الناس وذلك ان الله عز وجل يأذن لنا فنتكلم ، ويمنع فنصمت .

ولو أحبّ أن لايُظهر حقاً ما بعث النبيين مبشّرين ومنذرين، فصدعوا بالحق في حال الضعف والقوة، وينطقون في أوقات ليقضي الله أمره، وينفذ حكمه.

الناس في طبقات شتى، والمستبصر على سبيل نجاة، متمسك بالحق، متعلق بفرع اصيل ، غير شاك ولا مرتاب لا يجد عنه ملجأ ، وطبقة لم تأخذ الحق من اهله فهم

كراكب البحر يموج عند موجه ، ويسكن عند سكونه، وطبقة استحوذ عليهم الشيطان ، شأنهم الرد على اهل الحق ، ودفع الحق بالباطل ، حسداً من عند انفسهم ، فدع من ذهب (يذهب) يميناً وشمالاً ، فالراعي اذا اراد ان يجمع غنمه جمعها في اهون السعي .

ذكرتَ ما اختلف فيه مواليٌ فاذا كانت الوصية والكبر فلا ريب، ومن جلس مجالس الحكم فهو اولى بالحكم ، أحسن رعاية من استرعيت، واياك والاذاعة ، وطلب الرئاسة ، فانهما يدعوان الى الهلكة ، ذكرت شخوصك الى فارس فاشخص خار الله لك ، وتدخل مصر ان شاء الله آمنا واقرأ من تثق به من موالي السلام ومرهم بتقوى الله العظيم ، وأداء الامانة واعلمهم ان المذيع علينا حرب لنـا " .

قال : فلما قرأت " وتدخل مصر ان شاء الله" فلم اعرف معنى ذلك فقدمت الى بغداد ، وعزيمتي الخروج الى فارس ، فلم يتهيأ ذلك فخرجت الى مصر) [1].

وروي عن محمد بن علي الصيمري أنه قال : كتب اليَّ ابو محمد (عليه السلام) : " فتنة تظلكم فكونوا على اهبة " ، فلما كان بعد ثلاثة ايام وقع بين بني هاشم وكانت لهم هنة لها شأن، فكتبت اليه اهي هذه ؟ قال : " لا ، ولكن غير هذه ، فاحترسوا، فلما كان بعد ايام كان من امر المعتز ما كان " [2].

وعن جعفر بن محمد القلانسي قال : " كتب اخي محمد الى ابي محمد (عليه السلام) وامرأته حامل مقرب ، ان يدعو الله ان يخلصها ويرزقه ذكرا ، ويسميه، فكتب يدعو الله بالصلاح ويقول : " رزقك الله ذكرا سويا ونعم الاسم محمد وعبد الرحمن " .

فولدت اثنين في بطن ، احدهما في رجله زوائد في اصابعه والاخر سوي فسمى واحداً محمد والاخر صاحب الزوايد ، عبد الرحمن .

---

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ٢٩٦ .

(٢) المصدر ، ص ٢٩٨ .

وعن جعفر بن محمد القلانسي : قال : كتبت الى ابي محمد مع محمد بن عبد الجبار وكان خادماً يسأله عن مسائل كثيرة ، وسأله الدعاء لأخ خرج الى ارمينية يجلب غنما فورد الجواب بما يسأل ، ولم يذكر اخاه فيه بشيء فورد الخبر بعد ذلك ان اخاه مات يوم كتب ابو محمد جواب المسائل ، فعلمنا انه لم يذكره لانه علم بموته "[1].

وعن ابي هاشم قال : كتب اليه بعض مواليه يسأله ان يعلمه دعاء فكتب اليه ان ادع بهذا الدعاء : " يا اسمع السامعين ، ويا ابصر المبصرين ، يا عزّ الناظرين ويا اسرع الحاسبين، ويا ارحم الراحمين، ويا أحكم الحاكمين ، صلّ على محمد وآل محمد واوسع لي في رزقي ، ومُدّ لي في عمري ، وامنن علي برحمتك واجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري " .

قال ابو هاشم : فقلت في نفسي اللهم اجعلني في حزبك وفي زمرتك ، فاقبل علي ابو محمد (عليه السلام) فقال : " أنت في حزبه وفي زمرته اذ كنت بالله مؤمنا ولرسوله مصدقاً ولاوليائه عارفاً ولهم تابعاً فأبشر ثم أبشر "[2].

وعن محمد بن الحسن بن ميمون قال : " كتبت اليه اشكو الفقر ثم قلت في نفسي : أليس قد قال ابو عبد الله ، الفقر معنا خير من الغنى مع غيرنا ، والقتل معنا خير من الحياة مع عدونا ، فرجع الجواب : ان الله عز وجل يخص اولياءنا اذا تكاثفت ذنوبهم بالفقر ، وقد يعفو عن كثير منهم ، كما حدثتك نفسك: الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا ، ونحن كهف لمن التجأ الينا ، نور لمن استبصر بنا وعصمة لمن اعتصم بنا ، من احبنا كان معنا في السنام الاعلى ، ومن انحرف عنّا فالى النار" .

هذه بعض يسير من الروايات التي تحكي عن سيرة الامام الحسن العسكري (عليه السلام) ، حيث نشاهد جليا انه كان يقوم بحث الامة والطليعة الرسالية على

(١) المصدر ، ص ٢٩٨ .

(٢) المصدر.

الاستقامة على خط الرسالة والتعمق في الامور التي بثها القادة الاوائل من الائمة للحركة الرسالية . وهذا شيء يعادل مرحلة بث وتشريع هذه المسائل ، حيث ان الاستقامة تعادل الانشاء . لقد بيّن (عليه السلام) في كثير من الاحاديث ان قليلا من العمل الصالح يداوم الانسان عليه ، خير وافضل من كثير لا يداوم عليه ، وهذه حقيقة علمية ثابتة ، فكيف اذا لم يكن الامر من ناحية الاستقامة فقط بل في تعميق العمل وتحسين كيفيته .

وكان الامام العسكري (عليه السلام) يقوم بأخطر مهمة لا تزال تؤثر في العالم الاسلامي ككل الا وهي تحديد ملامح القيادة ، وصلاحياتها ، ومواصفاتها ، ومسؤولياتها ، وكافة التفاصيل المتعلقة بها إنّ هذا الامر المحوري البالغ الاهمية لاي مجتمع ، ليس بالشيء البسيط تربية الناس عليه ومن ثم تدريبهم على تطبيقه ، فيجب ان تسبق كل خطوة في هذا الامر حالةمن الايمان والوعي .

ثم تأتي الخطوات التالية من تطبيق واستمرار وجودة . ولنأخذ جانباً من هذه المسؤولية التي كان يقوم بها الامام (عليه السلام) .

روي عن ابي هاشم انه سأله عن قوله تعالى :﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (فاطر،٣٢) قال : " كلهم من آل محمد ، الظالم لنفسه الذي لا يقر بالامام، والمقتصد العارف بالامام ، والسابق بالخيرات الامام " ، فجعلت افكر في نفسي ما اعظم ما اعطى الله آل محمد (صلى الله عليه وآله) وبكيت فنظر الي وقال: " الامر اعظم مما حدثت به نفسك من عظم شأن آل محمد (صلى الله عليه وآله) فاحمد الله ان جعلك متمسكا بحبلهم، تدعى يوم القيامة بهم اذا دعي كل اناس بامامهم ، انك على خير "[1].

كان هذا هو العمل الذي تفرد به الامام العسكري (عليه السلام) بالخصوص ، وهو رسم معالم القيادة الاسلامية وتربية الامة على الطاعة لها .

---

(١) المصدر ص ، ٢٥٨ .

ثورات في عهد الامام العسكري

في عهد الامام العسكري كانت هناك تموجات سياسية لم تكن بعيدة عن تيار الحركة الرسالية . والدليل على ذلك ان أي تحرك كان يطبع هويته ويعرض نفسه للجماهير على اساس انه وليد الحركة الرسالية ، حتى لا يكون ضد التيار العام ، وهذا ما نشاهده في صاحب ثورة الزنج التي استمرت اربعة عشر عاماً من سنة ٢٥٥ الى سنة ٢٧٠ هـ فقد كان يزعم صاحب الزنج انه علي بن محمد بن احمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (عليه السلام) ، وانه هو الذي يشار اليه في خطبة لامير المؤمنين علي (عليه السلام) في اخبار الملاحم بالبصرة حيث يقول (عليه السلام) : يا احنف كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا قعقعة لجم ولا حمحمة خيل يثيرون باقدامهم كأنها اقدام النعام .

قال ابن ابي الحديد في شرح النهج[1] " خرج في فرات البصرة سنة ٢٥٥ هـ ، فتبعه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ في البصرة ، ثم ذكر ان جمهور النسابين اتفقوا على انه من عبد قيس وانه علي بن عبد الرحيم ، وامه اسدية من اسد بن حزيمة ، جدها محمد بن حكيم الاسدي من اهل الكوفة احد الثائرين مع زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) في ثورته .

وايضاً نشاهد ان الجعفري وهو من اولاد جعفر المتوكل العباسي الذي اراد المستعين العباسي قتله ، ينسب نفسه الى الامام جعفر الصادق (عليه السلام) باعتبار المذهب ، فلما حوصر بنزول الجيش بساحته كتب الى ابي محمد العسكري (عليه السلام) وسأله الدعاء لدفع المكروه فأجاب (عليه السلام) ، بما روي عن علي بن الفضل قال : نزل بالجعفري من آل جعفر خلق كثير لا قِبَل له بهم ، فكتب الى ابي محمد (عليه السلام) يشكو ذلك فكتب اليه : تكفونهم ان شاء الله

---

(١) شرح النهج ، ج ٣ ، ص ٣١١ .

قال : فخرج اليه في نفر يسير ، والقوم يزيدون على عشرين الف نفس، وهو في اقل من الف فاستباحهم - أي استأصلهم -[1].

طبعاً كانت في امامة ابي محمد (عليه السلام) عدة تحركات قام بها العلويون ، الا ان كثيراً منها كان امرها يكتشف من قبل السلطة ، ومع ذلك كانت هذه التحركات تعتبر بمثابة استعداد للفترة القادمة . ولان الظروف الامنية التي عاصرها الامام كانت صعبة للغاية ، لذلك نقرأ فيما روي عنه الكثير من الاحاديث حول التقية ، حيث كان (عليه السلام) يأمر اصحابه بالالتزام بها ، واعتبارها كشرط من شروط الولاء للامام .

روي عن حلبي قال : اجتمعنا بالعسكر وترصدنا لابي محمد (عليه السلام) يوم ركوبه فخرج توقيعه : " ألا لا يُسلّمن عليّ أحد ، ولا يشير إليّ بيده ولا يومئ فانكم لا تؤمَنون على انفسكم " قال : والى جانبي شاب فقلت : من اين انت ؟ قال من المدينة ، قلت : ما تصنع ههنا ؟ قال : اختلفوا عندنا في ابي محمد (عليه السلام) فجئت لأراه واسمع منه أو أرى دلالة ليسكن قلبي واني لولد أبي ذر الغفاري .

فبينما نحن كذلك اذ خرج ابو محمد (عليه السلام) مع خادم له فلما حاذانا نظر الامام الى الشاب الذي بجنبي ، فقال : اغفاري انت ؟ قال نعم : قال ما فعلت امك حمدوية ؟ فقال : صالحة ، ومر ، فقلت للشاب : اكنت رأيته قط وعرفته بوجهه قبل اليوم ؟

قال : لا، قلت : فينفعك هذا ؟

قال : ودون هذا "[2].

كما حدثت ثورات في زمانه في مصر وهرات - افغانستان حالياً - والديلم

---

(١) بحار الانوار ، ج ٥٠ ، ص ٢٨٠ والحديث في الكافي (ج ١ ، ص ٥٠٨) طبعة طهران، نشر دار الكتب الاسلامية .

(٢) المصدر ، ص ٢٦٩ .

ونيسابور وخراسان وهمدان والسند والكوفة والجبل - جبل عامل في لبنان - واليمن ، والكثير من المناطق التي يطول ذكرها .

ولما كانت السلطات العباسية عاجزة عن كشف خيوط الحركة الرسالية ومن ثم تصفيتها ، عمدت الى فرض الاقامة الجبرية على الامام العسكري (عليه السلام) تحت حجة ان الخليفة العباسي يريد الامام المعاصر له ان يمكث معه في حاضرة الخلافة ، حيث كان يضعه في بيت يسهل مراقبته ليكون اشبه بالسجن غير المعلن . الا ان ذلك كان يجري تحت اسم ان الامام مستقر في حاضرة الخلافة وقد حصل ذلك بعد المامون ، أي ان الخلفاء العباسيين بعد المأمون رأوا في سياسة المأمون مع الامام الرضا (عليه السلام) ، اسلوباً يُقتدى به ، فكان الخلفاء العباسيون يعملون بذلك لعزل الامام عن الحركة الجماهيرية ، وهذا افضل ما يمكنهم عمله ، الا انه كان يفوتهم واقع العلاقة التنظيمية بين الامام والحركة الرساليـة .

روي عن احمد بن اسحاق بن مصقلة قال : دخلت على ابي محمد فقال لي : يا احمد ما كان حالكم فيما كان الناس فيه من الشك والارتياب ؟ قلت : لما ورد الكتاب بخبر مولد سيدنا (عليه السلام) لم يبق منا رجل ولا امرأة ولا غلام بلغ الفهم الا قال بالحق ، قال (عليه السلام) :" اما علمتم ان الارض لا تخلو من حجة لله تعالى " ؟

وبقيت السلطات العباسية في نكد من امرها حتى اقدمت على اغتيال الامام ابي محمد العسكري صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك في سنة ٢٦٠ هـ وكان الامام العسكري قد رُزِقَ بالامام المهدي (عجل الله فرجه) يوم الجمعة في شعبان عام ٢٥٥ هـ ، وكان يحتفظ بالامام المهدي (عليه السلام) بعيدا عن الانظار إلاّ للصفوة من الرساليين ، وكيف لا يحتفظ به ويخشى عليه، وبه يملأ الارض قسطاً وعدلاً ، فكانت غيبته الصغرى من يوم مولده .

فلما استشهد ابو محمد الحسن العسكري (عليه السلام) جـــد المعتمد العباسـي

كثيراً في العثور على الامام المهدي الى درجة انه حبس جواري الامام العسكري (عليه السلام) ، وجعل عليهن الرصد خشية ان يكون عند احداهن حمل من الامام فاخفاه الله عنه وعن اعدائه ليوم يريد به ان يطهر الارض من الجور والطغيان والشرك ، ويرسي فيها العدل والأمن والايمان .

فقد روي انه لما توفي الامام العسكري (عليه السلام) بعثت السلطات الى داره من يفتشها ويفتش جميع حجرها وختم على جميع ما فيها وطلبوا اثر ولده ، وجاؤوا بنساء يعرفن الحمل ، فدخلن على جواريه فنظرن اليهن فذكر بعضهن ان هناك جارية بها حمل ، فامر بها فجعلت في حجرة ووكل بها نعرير الخادم واصحابه ، ونسوة معهم ثم اخذوا بعد ذلك في تهيئة جثمان الامام العسكري (عليه السلام) ، وعطلت الاسواق وركب بنو هاشم ، والقواد والكتّاب وسائر الناس الى جنازته فكانت سر من رأى يومئذ شبيهة بالقيامة[١].

وهناك كثير من الكتب التي تتحدث عن حالة السلطات العباسية عند سماعها بوفاة الامام العسكري وطلبها الامام المهدي الذي جاء عن الرسول الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله) انه سيملأ الارض قسطاً وعدلاً بعدما تُملأ ظلماً وجوراً[٢].

فمثلاً ، يقول ابن الصباغ المالكي في كتابه (الفصول المهمة) : وخلف ابو محمد الحسن من الولد ابنه الحجة القائم المنتظر لدولة الحق ، وكان قد اخفى مولده وستر امره لصعوبة الوقت وخوف السلطات وملاحقتهم لاهل البيت ، وحبسهم والقبض عليهم[٣].

وكثير من الكتب التاريخية [٤] تتحدث حول هذا الامر بنفس المضمون، ان هذا التخوف من جانب السلطات وضخامة الاحتياطات المتخذة من قبلها لا يعني ان

---

(١) المصدر ، ص ٣٢٨ .

(٢) انظر كتاب (النبي واهل بيته قدوة واسوة) للمؤلف فصل الامام الحسن العسكري (عليه السلام) .

(٣) الفصول المهمة ، الفصل الحادي عشر في اخريات ترجمة الامام العسكري (عليه السلام).

(٤) منها ابن كثير ٧، ٩٠ وتاريخ الفداء ٢ ، ٥٢ وعمدة الطالب ص ١٨٦ ، وغيرها كثير ...

الحالة طبيعية ، فاذا رأينا رئيس دولة ما يجند الجيوش ، ويضع كل وزارات ومؤسسات الدولة في حالة استعداد وترقب ، فان هذه الحالة تعني ان أمراً كبيراً يترقب حدوثه قريبا ربما يؤثر على مسيرة الدولة العباسية آنذاك ، وهذا ما هو منقول في كتب التاريخ بشكل مستفيض ، وهذا له دلالة قوية على:

ان فكرة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) الشريف - كانت فكرة يعتقد بها كل مسلم آنذاك إلاّ ما ندر ، وان هذه العقيدة كانت عامة عند كل ابناء الامة الاسلامية .

والاهم ان اعتقاد كل المسلمين كان في ان هذا المصلح لامة محمد هو من آل محمد (صلى الله عليه وآله) ومن سلالته وذلك للنصوص المتواترة عن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) التي تصرح بهذه الحقيقة .

ولو لم يكن هذا الاعتقاد قائماً ، لم يكن كل المسلمين[1] آنذاك يعتقدون بأن الامام الثاني عشر ابن الامام ابي محمد الحسن العسكري (عليه السلام) هو المهدي المنتظر وهو المهدي الموعود .

وقد ورد ذكره في الاحاديث النبوية انه من آل محمد ، وانه هو الامام الثاني عشر محمد المهدي بن الحسن العسكري (عليه السلام) بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن ابي طالب صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

والسلطات العباسية كانت في تلك الدرجة من الخوف والاجراءات الامنية المشددة التي تعتبر عن حالة الهيجان التي يعيشها النظام بسبب هذا الاعتقاد المجمع عليه من المسلمين .

---

(١) راجع اضافة لما ذكر من الكتب التاريخية كلاً من: سبائك الذهب ص ٧٦ للسويدي والبغدادي واليواقيت لعبد الوهاب الشعراني في المبحث وكفاية الطالب لمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي مخطوط ، وابن خلكان في ترجمته ، والبيان في اخبار صاحب الزمان المحمدي

ويدل ذلك ايضاً على شيء مهم آخر ، هو ان تيار الحركة الرسالية التي كانت في البدء تتجسد في افراد يعدون على الاصابع اصبحت اليوم تعني مجاميع غفيرة من المسلمين .

وقد احدثت غيبة الامام المهدي (عجل الله فرجه) تموجا قويا في العالم الاسلامي ، حيث عين الامام المهدي له سفراء اربعة وهم (عثمان بن سعيد العمري وكان من وكلاء جده وابيه ، ومحمد بن عثمان العمري ابن السفير الاول وكان من وكلاء الامام الحسن العسكري (عليه السلام) ، والحسين بن روح وعلي بن محمد السمري ، وكانت السفارة تنتقل لاحدهم بعد الاخر ، وبعد موت السمري عام ٣٢٩ هـ انقطعت السفارة ، وكانوا جميعا يعيشون في بغداد ، فقد كانوا بمثابة وسطاء بين الحركة الرسالية والامام لحمل بحمل الاسئلة اليه واخذ الجواب منه بتوقيعه اليهم .

والسفير هو عالم كبير وفي الوقت ذاته يحمل علوم وتوجيهات الامام الحجة الغائب الى العلماء الباقين .

وبجانب ذلك كان للامام الحجة (عجل الله فرجه) وكلاء كثيرون في اثناء الغيبة الصغرى ، الا ان السفراء هم الاربعة فقط والذين يلقبون بالنواب ايضا .

بعد الغيبة الصغرى أي بعد موت هؤلاء السفراء الاربعة ، وقعت الغيبة الكبرى التي ينتظر فيها الامام الحجة (عجل الله فرجه) ليملأ الارض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً .

المضامين الاجتماعية للحركة الرسالية

الحياة على طول التاريخ مليئة بكثير من الانجازات العظيمة والهامة والتي من ابرزها منهج الحركة الرسالية . فماذا كان يعني هذا المنهج في الحياة؟ وما هي خطوطه العريضة؟ وبماذا خدم الانسانية ؟ وبماذا خدم الحضارة الاسلامية ؟

ان هذه التساؤلات ضرورية جداً ، لانه بدون معرفة هذه الحقيقة سوف لن نقدّر تضحيات اولئك الصالحين الذين ندين لهم فيما نملك من خير .

قبل كل شيء لابد من معرفة ان الحركة الرسالية كان لها مضامين كثيرة منها مضامين اجتماعية ، واخرى مضامين حضارية ، واخرى فكرية وثقافية .

في هذه الحقول الثلاثة ، وبهذه المبادئ خدمت الحركة الرسالية العالم كله ، وخدمت الانسانية جمعاء .

نظرة عامة في الدولة الاسلامية

لقد كانت الحركة الرسالية علما ينظوي تحته كل محروم ، والبلاد الاسلامية التي امتدت على قسم كبير من الرقعة المعمورة في الارض كانت توجد فيها طوائف محرومة كثيرة .

فطائفة محرومة بسبب لونها ، واخرى بسبب لغتها ، واخرى بسبب حرفتها ، واخرى بسبب مذهبها .

كانت هناك تفرقة عنصرية وكان هناك تفاوت طبقي ، وظلم اجتماعي وارهاب فكري ، والامثلة عديدة :

يرسل معاوية رسالة في آخر حياته الى واليه على البصرة يقول فيها : اني رأيت هؤلاء العلوج قد كثروا في بلادنا ، فخذ هذا المقياس - وارسل له خيطا من خمسة عقد - وانظر اذا كان احد من الموالي اطول منه فاضرب عنقه . وكلمة (العلوج) تعني الكفار عموما وبالخصوص القوي الضخم منهم ، وهذا يبين فكرة الامويين حول الجنسيات غير العربية ، واعتبارها غير مسلمة اذ ان الدين الاسلامي للعرب فقط .

فاذا كان هناك رجل طويل ، فماذا ذنبه؟ ان الله قد خلقه طويلا ، وهكذا لأول مرة في التاريخ نرى ان الرجل من الموالي الاطول من الاخرين يجب ان يعطي نفسه ضريبة طوله .

الخـراج

في الوقت الذي جعل الاسلام لجباية الخراج قوانين دقيقة تلحض شروطاً عدة فيمن يجب ان يعطي الخراج ، كما انه وضع شروطا قاسية فيمن يجب ان يجبي الخراج ، وحدد الموارد التي تصرف فيها الاموال التي تجبى ، ولكن كانت الدولة الاموية تأخذ الخراج اضعافا مضاعفة ، كما تقتضيه اهواء الامراء والولاة الأمويين.

اما الجزية التي امر الاسلام باسقاطها عن الانسان الذي يتحول من دينه الى الاسلام حيث يجب عليه اتئذ الزكاة والصدقات ، نجد ان الدولة الاموية كانت تستمر في اخذ الجزية من الكفار الذين آسلموا ولا تقبل اسلامهم ، وبذلك تفرض نوعاً من التفرقة بين المسلم قديما ، وبين المسلم حديثا .

فالذي اسلم قديما ، يكون باستطاعته ان يشترك في الحرب والغنائم ، وان يمتلك الارض ويعمل ما يشاء ، بينما الشخص الذي اسلم حديثا فإنه محروم من كل هذه الحقوق وكانت نتيجة ذلك الكثير من المآسي والويلات ، والارتداد عن الدين ،

وانكفاء الفتوحات الاسلامية بل وسقوط بعض المناطق التي اسلم اهلها طوعا وارتدادهم ، بعد ان رأوا في الدين الجديد اداة لتسلط من لا يتورع عن ركوب أي محرم من اجل جمع المال .

يقول الطبري في احداث سنة عشرة ومائة : " فيها كان والياً على خراسان الاشرس بن عبد الله المسلمي في عهد هشام بن عبد الملك فقال : ابغوني رجلا له ورع وفضل أوجهه الى من وراء النهر فيدعوهم الى الاسلام فأشاروا عليه بابي الصيداء صالح بن ظريف مولى بني ضبة ، فقال لست بالماهر بالفارسية فضموا معه الربيع بن عمران التميمي ، فقال ابو الصيداء : اخرج على شريطة أنّ من أسلم لم يأخذ منه الجزية ، قال الاشرس : نعم ، قال ابو الصيداء لاصحابه فاني اخرج فإن لم يف الولاة أعنتموني عليهم ، قالوا نعم. فشخص الى سمرقند وعليها ابن ابي العمرطه الكندي ، على حربها وخراجها، فدعا ابو الصيداء اهل سمر قند ومـن حولهـا الى الاسلام على ان توضـع عنهم الجزية فسـارع الناس، فكتب "غوزك" الى الأشرس ان الخراج قد انكسر ، فكتب الأشرس الى ابن ابي العمرطة كتابا جاء فيه : " فانظر من اختتن منهم واقام الفرائض وحسن اسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه". ثم عزل الأشرس ابن ابي العمرطه عن الخراج وصيره الى هاني بن هاني وضم اليه الاشحيذ فقال ابن ابي العمرطة لابي الصيداء لست من الخراج الان في شيء فدونك هانئا والاشحيذ. فقام ابو الصيداء يمنعهم من اخذ الجزية ممن اسلم ، فكتب هاني ان الناس قد اسلموا وبنوا المساجد ، فجاء دهاقين بخارى الى اشرس فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربـا ، فكتب اشرس الى هاني والى الولاة خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منهم ، فاعادوا الجزية على من اسلم ، فامتنعوا واعتزل من اهل الصغد سبعة الآف فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند وخرج اليهم ابو الصيداء وربيع بن عمران التميمي والقاسم الشيباني وابو فاطمة الازدي وبشر بن جرموز الضبي وخالد بن عبد الله النحوي وبشر بن زنبور الازدي وعابر بن بشير الخجندي وبيان العنبري واسماعيل ابن عقبة لينصروهم ،

قال فعزل اشرس ابن ابي العمرطة عن الحرب واستعمل مكانه المجشر بن مزاحم السلمي وضم اليه عميرة بن سعد الشيباني ، قال فلما قدم المجشر كتب الى ابي الصيداء يسأله ان يقدم عليه هو واصحابه ، فقدم ابو الصيداء وثابت قطنة فحبسهما ، فقال ابو الصيداء :" غدرتم ورجعتم عما قلتم " . ثم حمل ابا الصيداء الى الاشرس وحبس ثابت قطنة عنده ، فلما حمل ابو الصيداء اجتمع اصحابه وولوا امرهم ابا فاطمة ليقاتل هانئا فقال لهم كفوا حتى اكتب الى اشرس فيأتينا رأيه فنعمل بأمره فكتبوا الى اشرس ، فكتب اشرس : ضعوا عليهم الخراج ، فرجع اصحاب ابي الصيداء فضعف امرهم ، فتتبعوا الرؤساء منهم فاخذوا وحملوا الى (مرو) وبقي ثابت محبوساً واشرك اشرس مع هاني سليمان بن ابي السري مولى بني عوانة في الخراج فألح عاني والولاة في جباية الخراج ، واخذوا الجزية ممن اسلم من الضعفاء فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا الترك " .

ويعلق السيد حسن الامين في موسوعته (دائرة المعارف الاسلامية الشيعية) في الجزء الحادي عشر صفحة ٣٣ على هذه الحادثة فيقول :

لم يشأ هاني هذا ان يثقل ضميره فشهد باسلامهم واسراعهم الى بناء المساجد، ولكن الاسلام وبناء المساجد ليسا مما يرضيان والي الامويين ، وما المساجد وما العرب وما المسلمون والاسلام ، اذا كان ذلك يحول دون سلب الشعوب واستصفاء اموالها ، فاصر الاشرس على أخذ الجزية ممن كانوا يأخذونها ولو حال ذلك دون انتشار الاسلام واستعراب الناس .

ومما يلفت النظر هنا ان الدهاقين وهم مجوس كانوا مع رأي الاشرس ، وهذا يؤكد انه قد هالهم انتشار الاسلام وخافوا المستقبل وطغيان الدعوة الاسلامية هؤلاء الدهاقين المجوس الذين كان الامويون يولونهم جباية الخراج ويمنعون العرب والمسلمين من ذلك ، الدهاقين يتفق رأيهم كل الاتفاق مع الرأي الاموي في منع انتشار الاسلام ، فيحرضون الأمويين وعمالهم على هؤلاء الذين اسلموا ، فيقولون: ممن نأخذ الخراج وقد اصبح الناس كلهم عرباً مسلمين .

لقد احسوا بالخطر قبل غيرهم وخافوا على مجوسيتهم ان يجرفها الاسلام فتصايحوا مغضبين : لقد اصبح الناس كلهم عرباً ، وماذا يسوء الاشرس وسادته الامويين اذا صار الناس كلهم مسلمين ؟

انه عجيب على من لم يعلم احداث هذه الدولة وموقفها الصحيح من الاسلام ، ولكنه ليس بعجيب عند من يعلم ذلك ، ليس بعجيب ان يتفق رأي الدهاقين المجوس مع رأي الامويين من انتشار الاسلام .

ولا نستطيع الا ان نحيي (الورع الفاضل) ابا الصيداء وعصبته الخيرة الذين اخرجهم معه ليعينوه اذا لم يف الولاة، فانهم تضامنوا جميعا مع اهل الصغد وذهبوا الى السبعة الالاف الذين اعتزلوا لينصروهم ويتفقوا معهم ، ولكن الولاة استدرجوا هؤلاء الابرار فكان مصيرهم السجن والنفي والتشريد .

نعم ، السجن والنفي والتشريد للذين دعوا الى الاسلام ، للذين اسلمت على ايديهم الافواج ، واستعربت بدعوتهم الالوف .

ثم كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك ، النتيجة التي ارادها الامويون وولاتهم ، كانت النتيجة بنص الطبري : فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا الترك .

وقرت عيون الدولة (الاسلامية) فالدعاة الى الاسلام في سجونها ومنافيها ، والناس يخرجون من الاسلام ويعودون الى مجوسيتهم ووثنيتهم ، وهل تريد الدولة غير ذلك ؟

ويضيف السيد حسن الامين : ولكن الامر لم ينته عند هذا الحد ، والبلاء كان اقوى مما تتصور ، فان كفر الصغد وبخارى واستجاشتهم الترك لم تمض مضيا سهلا بل دفع المسلمون الثمن غاليا ، دفعوه اكثر من سبعين الف قتيل .

دفعوه هناك لسيوف الصغد وبخارى وخاقان الترك على السفوح والسهول الجرداء والمفاوز المهلكة .

فان الصغديين والبخاريين قرروا ان يردوا على الاشرس رداً جباراً وتتابعت

المعارك معركة بعد معركة ، وفي كل منها تتساقط الوف الابطال صرعى في سبيل لا شيء ، وحسبك ان معركة واحدة منها بقيادة سورة بن الحر التميمي كان فيها اثنا عشر الف شاب مسلم حين التقى سورة وجيشه بخاقان الترك ، لم ينج من الجيش الاسلامي سوى الف وذهب الباقون طعمة للسيوف وللنيران .

نعم للنيران ، فان نيراناً قد أشعلت أمامهم في الحشائش والغابات ، يقول الطبري: " وثار الغبار فلم يبصروا ومن وراء الترك اللهب فسقطوا فيه ".

وقتل فيمن قتل سورة قائد الجيش ، واستمرت المعارك وكان من اشدها هولاً معركة " الشعب " التي فني فيها الجيش الاسلامي وقتل منه خمسون الف قتيل .

وفي ذلك يقول الشاعر :

اذكر يتامى بأرض الترك ضائعـة هربى كأنهم في الحائط الحجل
وارحـم والا فهبهـا امة دمـرت لا انفـس بقيت فيها ولا ثقـل
لا قوا كتائب من خاقان معلمـة عنهم يضيق فضاء السهل والجبل

بهذه الابيات صور الشاعر ضياع الامة نفسها لا ضياع يتاماها فحسب .

ثم يقول السيد حسن الامين تحت عنوان (الحكم الذي عارضه الشيعة) :

هذه السياسية التي سار عليها الحكم الاموي ، وهذه الاحداث التي رأينا مثالا منها هي التي عارضها التشيع ودعا الى الرجوع الى الصواب في حكم الشعوب ومعاملتها بالعدل وتطبيق رسالة الاسلام عليها، التطبيق الذي اراده محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) .

وكانت نقمة الشعب نقمة عامة ولكنه كان محكوما بالقهر ، والسيف يسلط عليه ، وعندما كانت تحين له اول فرصة ، كان يعبر عن نقمته بشتى ألوان التعبير، وعندما كان يجد للثورة المسلحة مجالا كان لا يتأخر عنها .

وحول الكيفية التي كان الامويون يعاملون بها اهل البلاد المفتوحة فيقول نقلاً عن الطبري وهو يحدث عن احدى الحملات على بلاد الاتراك ، وكان يقودها احد اركان العهد الاموي يزيد بن المهلب :" دخل يزيد ابن المهلب دهستان فأخذ ما

كان فيها من الاموال والكنوز والسبي شيئا لا يحصى ، ثم قبض على اربعة عشر الف رجل تركي وقتلهم ، وكتب بذلك الى الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك".

وتحدث الطبري في موضع آخر عن هجوم يزيد هذا على جرجان فقال : "وقصد جرجان فاعطى الله عهدا لئن ظفر بأهلها ان لا يتركهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويخبز من ذلك الطحين ويأكل منه " .

ثم يضيف الطبري ما جرى بعد انتصار يزيد : " ونزل اهل جرجان على حكم يزيد بن المهلب فسبى نساءهم واولادهم وقتل رجالهم ، وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره ، وساق منهم اثني عشر الف رجل الى وادي جرجان وقتلهم هناك واجرى الماء في الوادي على الدم ، وكان فيه مطاحن ليطحن بدمائهم ، فطحن وخبز واكل " .

يقول الطبري : " قتل يزيد من اهل جرجان اربعين الفاً ".

هذا ما فعله حاكم اموي واحد في بلدتين اثنتين فقط ، واليك ما فعله حاكم خراسان ، قال الطبري : انه قتل نيزك بعدما آمنه وقتل معه اثني عشر الفاً . وقال الطبري ايضا : " ان قتيبة لما تغلب على ملك (خام جرد) جيء اليه بأربعة الاف اسير فقتلهم ، قتل امامه الف وعن يمينه الف وعن يســاره ألف وخلف ظهره ألف".

ويقول الطبري عن حاكم آخر من حكام الامويين هو قحطبة بن شبيب انه قتل من اهل جرجان زهاء ثلاثين ألفاً .

وقال الطبري ايضاً ان الجراح الحكمي غزا ارض الترك ففتح (بلنجر) وهزم الترك وغرقهم وعامة ذراريهم في الماء وسبوا ما شاؤوا .

وقال الطبري ايضاً وهو يروي عن الوالي الاموي ابن العمرطه في احدى غزواته لبلاد الترك :" لقد اتيناهم وغلبناهم على امرهم واستعبدناهم ، (لاحظ كلمة استعبدناهم) .

الحرب بين الشمال والجنوب

اضف الى ذلك ما ذكره المؤرخون كثيراً الى درجة ان بعضهم اعتبره احد الاسباب الرئيسية في انهيار الدولة الاموية .. الا وهي التفرقة العنصرية التي مارسوها بين اهل الشمال (المضريين) - نجد واطرافها - وبين اهل الجنوب (اليمنيين) - قبائل ربيعة واليمن .. ولقد ظلت الحروب والعداوة منتشرة بين الفريقين منذ زمان معاوية وحتى زمن المأمون العباسي ، واذا كانت تخف في بعض الفترات ، الا انها ظلت مستمرة على شكل مناوشات وثارات بين الطرفين .

فالقبيلة المضرية تقتل عشرين رجلا من اليمنيين ، وهؤلاء بدورهم اذا رأوا عشرين مضرياً فانهم يبادرون الى قتلهم حتى لو لم يكن لهم ناقة ولا جمل فيما يحدث .

كـل ذلك كان يجري على عين ومرأى السلطة ، وبتشجيع منها على استمـراره.. بدلالة انها - السلطة - عندما ارادت ان توقف هذه الحروب فانها استطاعت . وقد حدث هذا في عهد هارون الرشيد عندما بعث جعفر البرمكي ليقوم بهذه المهمة فتوقفت الحرب . والى ما يقارب من العشرين سنة لم يحدث ان قتل احد من قبل أحد الطرفين ، ولكن بعدها عاودت المعارك استمراريتها ، بسبب بعض الخلفاء الذين غذّوا الخلافات مرة اخرى .. وعادت بذلك المجازر التي كانت تأخذ في طريقها الأخضر واليابس ، ويذهب ضحيتها النساء والشيوخ والاطفال والمساكين .

الفساد الاداري والمحسوبيات

كما كانت هناك الكثير من العصبيات الاخرى منتشرة في الدولة الاسلامية وبالذات في الجهاز الحاكم المسيطر على مقاليد الأمور ، ومن ابرز امثلة ذلك واكثرها وضوحاً انه عندما كان احد الاشخاص يصبح وزيراً ، او والياً ، فان هذا الأمر يستتبعه ان تصبح كل المجموعة القريبة منه صاحبة اهمية ، وتتولى بذلك مناصب عاليـة ، لا لشيء يمتازون به او كفاءة يمتلكونهـا سوى قربهم من هـذه

الشخصية صاحبة الموقع والمنصب الحساس .

فهذا معاوية بن ابي سفيان يُؤمِّر ابنه يزيد بن معاوية ويجعله على رأس جيش من جيوش المسلمين الذاهبة للقتال ضد البيزنطيين ، وفعلاً سار بهم ولكنه في الطريق وصل الى منطقة ذات ماء عذب وهواء عليل ، وبعض الاديرة (وقديماً كان في الاديرة - جمع دير - انواع مختلفة من الخمور المعتقة) فوجد يزيد ذلك فرصة مناسبة ، حيث وجد له بالاضافة الى ذلك عشيقة تؤانسه وتلاطفه ، فاستقر هناك ، وطاب له العيش في ذلك الدير فتوقف الجيش فترة ، فانتشر فيه الوباء وتحطمت نفسيات الجند والمقاتلين ، وجاء البعض الى يزيد ليحثه على الخروج والمسير لقتال الروم ، ولكن يزيد رفض رفضا قاطعا ، وهنا يقول بعض المؤرخين : ان هذا الجيش في ضخامته لو اصطدم مع البيزنطيين لكان من الممكن ان يقضي عليهم ويسجل نهايتهم الى الابد ، ولكن مع الاسف ، ان القائد الذي كان يمسك بزمام الامور ، لم يكن يملك ذرة من كفاءة ومقدرة على انجاز ما وجّه إليه ، ولذلك فلا غرابة ان يعود هذا الجيش منكسرا ذليلا محطماً نفسياً .

ومظهر آخر من مظاهر المحسوبية ، وهو انه اذا عُزل خليفة ما او مات فان الذي يحل مكانه كان اول ما يفعله هو ان يأتي على الاخضر واليابس مما خلفه الذي سبقه في الحكم ، اذ يبادر في البدء الى تغيير جميع الولاة ويستبدلهم بأهل بيته وخاصته ، ليس لان من يأتي بهم اصحاب كفاءة وتجربة وانما لانهم من اهله فقط.

ويسبب بذلك الاضطراب والتوتر في البلاد الاسلامية كما يدمر اوضاع الكثير من الاهالي .

وعلى سبيل المثال : عندما جاء البرامكة الى الحكم ، أتوا حتى بأطفالهم ونصبوهم في مواقع حساسة في الدولة ، وعندما جاء جماعة الفضل ، نصبوا الشخصيات التي تواليهم في السلطة دون ادنى تقدير للكفاءة والقدرة .

وهذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي عندما كان واليا من قبل الامويين على الكوفة ، فانه يولّي ابن اخته محمد بن القاسم الثقفي على السند ، وابن عمه على

خراسان . ولكن عندما جاء والٍ غيره فانه سرح كل العمال الذين كان الحجاج قد عينهم ، وسجن قسما آخر منهم .

اذاً هكذا هي الصورة كانت على صعيد المحسوبيات التي كانت متفشية ومنتشرة في الجهاز الحاكم والمسيطر على مقاليد الامور في البلاد الاسلامية .

الارهاب الفكري

جزء آخر من الصورة التي كانت تعيشها البلاد الاسلامية ، هو الارهاب الفكري الذي سيطر وخيم على الوضع ، حيث مارسه الخلفاء في اجلى صورة ، وكتب التاريخ مليئة بالشواهد والامثلة التي تحكي واقع هذا الارهاب وانعكاساته السلبية على الحركة الثقافية وعلى المفكرين المسلمين ، وبالتالي على مصير الامة الاسلامية ككل .

فبالرغم من ان الاسلام جاء بشعار ﴿ لا اكراه في الدين ﴾ فإن الارهاب الفكري قد ساد لفترات طويلة ، ولو كانت الحرية هي السائدة في الدولة الاسلامية ، لطرح الجميع آراءه ونضجت الرؤى ، ولحصل تلاقح فكري ، يعود على المجتمع الاسلامي بالفوائد الجمة ، ولحلّت الكثير من الاختلافات الفكرية والفقهية التي نشات بين المسلمين ومن ثم لعادت على البشرية جمعاء بالفوائد الجمة الكثيرة .

ان التقدم العلمي الذي نشاهده في الدول الاوروبية اليوم ، انما تحقق الجزء الاكبر منه بسبب الحرية الفكرية التي سادت بعد العصور الوسطى . ففي عصر النهضة ، انتجت الرؤى وساعدت الحرية الفكرية على تنميتها ، بينما الذي حصل في الدول الاسلامية هو العكس حيث ساد الارهاب الفكري بسبب سيطرة الحكومات الظالمة المنحرفة ، مما عرقل نمو الفكر البشري ، واوقف عملية نمو المسيرة الاسلامية.

الحركات الرسالية تقاوم كل ذلك

ان الحركات الرسالية انما كانت تمثل محاولة جادة ، لازالة كل هذه السلبيات من المجتمع ، مستهدفة صهر كل ابنـاء البشر في بوتقة الاسلام على اساس قولـه تعالـى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات،١٣)

وليس غريباً ان نجد رجلاً يأتي من اقصى البلاد ، فيزوجه الامام زين العابدين من أمه ، التي بقيت بعد مقتل ابيه الامام الحسين (عليه السلام) لانه يراه متقياً وصالحاً واهلاً لذلك . وام زين العابدين ، هي ام لامام ، وزوجة لامام ، وبنت ملك من اكبر ملوك الفرس .. والرجل الذي خطبها وزوجها أيّاه الامام هو من الموالي .

كما ان الامام زين العابدين نفسه لا يضره ان يتزوج بواحدة من الاماء ، والتي عندما يسمع عبد الملك بن مروان بذلك يبعث برسالة اليه يقول فيها :

اما بعد بلغني تزويجك مولاتك ، وقد علمت انه كان في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر ، وتستنجبه في الولد ، فلا لنفسك نظرت ولا على ولدك ابقيت.

فيرد عليه الامام زين العابدين (عليه السلام) : " اما بعد فقد بلغني كتابك تعنفّني بتزويجي مولاتي وتزعم انه قد كان في نساء قريش من اتمجد به في الصهر واستنجبه في الولد ، وإنه ليس فوق رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرتقى في مجد ولا مستزاد في كرم " ثم يضيف الإمام: " من كان زكيًا في دين الله فليس يخل به شيء من امره ، وقد رفع الله بالاسلام الخسيسة ، وتمم به النقيصة ، واذهب اللؤم ، فلا لؤم على امرىء مسلم ، انما اللؤم لؤم الجاهلية والسلام [1].

أي ان عملي هذا هو تكريس للقيم الاسلامية ، وذلك بالاقتداء بالرسول (صلى الله عليه وآله) فالاسلام جاء ليرفع هذه الجاهليات .

إمام المسلمين هو الذي يجب ان يبدا لكي يكون القدوة ، فقيمة هذا العمل من الناحية الحضارية عظيمة ، كما انه يدفع الامة الى المعاني والقيم المثلى ، لان هذه التفرقة حينما تزول تبدا الكفاءات بالعمل . وحينما نقرأ التاريخ نجد امامنا قائمة

---

(١) بحار الانوار ، ج ٤٦ ، ص ١٦٤ .

طويلة باسماء العباقرة المسلمين الذين ذاع صيتهم في العالم الاسلامي وكانوا افضل الاطباء والفلاسفة ، والمحدثين ، والمخترعين ، وكان اكثرهم من اصول غير عربية وكانوا ممن يسمون بالموالي وهؤلاء انما برزوا بسبب بعض الفترات التي عاشت فيها الامة الاسلامية نوعاً من الحرية الفكرية ، حيث استطاع الامام الصادق مثلاً ، ان يبث من علومه ، وان يخرّج عشرات العلماء في مختلف حقول المعرفة .

ولو قدّر للامة ان تعيش جو الحرية على امتداد الفترة التي حكم فيها الامويون والعباسيون ، لوجدنا من العباقرة والعلماء اضعاف ما وجدناهم في تاريخنا .

اننا نرى ان فاتح الاندلس ، طارق بن زياد الذي قاد جيش المسلمين الى تلك الارض واصبح كالجسر في حمل الحضارة الاسلامية الى الغرب ، كان رجلاً من الموالي ، فالاسلام اطلق حرية هذا الرجل وهو بدوره فجّر طاقاته .

ان الفتوحات الاسلامية ، مما لا شك فيه تختلف اختلافا جذرياً عن الاستعمار، ان الاسلام في فتوحاته كان يستهدف رفعة تلك الشعوب . وفعلاً رأينا ذلك كثيراً ، فقد كان المسلمون عندما يفتحون منطقة كانوا يتقدمون صوب منطقة آخرى وهم مدعومين بأبناء المنطقة التي افتتحت حديثاً ، كما كانوا يشاركونهم السراء والضراء في حياتهم ، ولذلك فان تلك المناطق التي فتحها الاسلام خرج منها الفلاسفة ، والاطباء ، والعلماء ، والكثير من القيادات العسكرية التي لها آياد بيضاء على مسيرة الاسلام .

هذه بعض القيم التي اراد الاسلام ان تتكرس ، وهذه القيم هي التي حاربت من اجلها حركة الرسالة والتي سقت بدماء ابنائها شجرتها حتى تبقى وتنمو ، ويبقى سؤال :

اذا لم تكن الحركة الرسالية موجودة في التاريخ الاسلامي فماذا كانت ستكون عليه البلاد آنذاك ؟

والجواب ببساطة لو لم تكن الحركة الرسالية في التاريخ لكانت البلاد الاسلامية ومنذ ما يزيد عن ١٣٠٠ سنة في وضع يشبه وضعها اليوم ، حيث المسلمون مقهورون في كل مكان ، وهم يعانون من القهر والتخلف .

فلماذا تحطمت البلاد الاسلامية في القرن العشرين ؟

لان القبيلة الفلانية التي تحكم ذلك الجزء من البلاد الاسلامية تحارب على مصالحها ضد الحزب الفلاني ، الذي يحاول ايضاً ان يزيد من اعضاء حزبه ، ولأن الامة الواحدة تحولت الى ألف جزء كما قال الشاعر :

وتفـرقـوا شيعـا فكـل قبيلـــة   فيهـا اميـر المؤمنيـن ومنبـر

فبينما يجب ان تكون الروابط بين دول العالم الاسلامي هي روابط التعاون والتكاتف ، نجد ان علاقات بعضها ببعض هي علاقات تناحر وتطاحن وهذا اكبر اسباب تحطم البلاد الاسلامية في الوقت الحاضر .

ان العنصرية ، والتفرقة ، والارهاب الفكري ، كل ذلك مسببات ادت الى جلب الويلات على رؤوسنا ، ونزول الكوارث بنا في الوقت الحاضر .

ان الحركة الرسالية كانت تدافع عن القيم السامية التي كانت رابطة للامة ومحورا لوحدتها ومنطلقا لحضارتها ، وكانت تكرس هذه القيم في ضمير الامة ، وحينما خمدت هذه الحركة ، تفرقت البلاد الاسلامية شيئاً فشيئاً ، وبدأ يسودها الارهاب والعنصرية . وهذا شيء طبيعي وسنة كونية اوجدها الله ، ذلك لأن القيم الجاهلية تمزق الاسرة الواحدة فكيف لا تمزق البلدان المتحدة .

وبنظرة بسيطة الى خارطة العالم الاسلامي اليوم نجد كيف تحولت الامة الواحدة الى اوصال كل قطعة معزولة عن الاخرى .

لماذا حدث كل هذا ؟

لان الحركة التي كانت تجمعهم وتشد لحمتهم ذهبت ، وقضي عليها وهي تلك التي كانت تكرس القيم الاسلامية وبها تردع الدولة عن أي انحراف وخروج عن جادة الصواب .

ان جسم الانسان يتكون من لحم وعظام ، والعظام هي التي تجمع الاعضاء وتعطيها هذا الشكل المتناسق، والحركة الرسالية في التاريخ كانت بمثابة الهيكل

العظمى للاسلام ، حافظت على وجوده وحاولت ان تقوّم المسيرة أنّى اهتدت الى ذلك سبيلاً .

ولو لم تكن الحركة الرسالية قائمة في الامة الاسلامية لرأينا التخبط والانهيار منذ زمن بعيد . ولاصبحت الامة كومة من اللحم . وإذا ما اصبحت لحماً فلابد ان يستلمه القصاب ، وهذا هو عين ما حدث بعد مؤامرة تغييب الحركة الرسالية عن الساحة ، وحينما وئدت الحركة الرسالية تحول المسلمون الى جثث هامدة، بلا حركة وبلا روح وكان القصابون حاضرين .

وحينما يقع الجمل تكثر سكاكينه كما يقول المثل المعروف ونحن كنا ابلا سقطنا بعد ان نحرنا ، فتكاثرت علينا الجموع تتناهبنا ، وقد كانت بداية النحر هو ذلك اليوم الذي وئدت فيه الحركة الرسالية .

وهنا تبرز عدة اسئلة وهي

ماذا كانت آثار الحركة الرسالية على الحضارة الاسلامية ، وبالتالي على الحضارة الانسانية جمعاء ؟

ويتحدد السؤال اكثر عندما نقول : ماذا كانت آثار الحضارة الاسلامية على الحضارة الانسانية ؟

للتعرف على شيء بسيط من هذه الآثار ، فان كتاب (شمس العرب تشرق على الغرب) لاحدى المؤلفات الهولنديات ، يعطي صورة بسيطة من هذه الآثار، هذا الكتاب يحوي تتبعا قليلا لآثار الحضارة الاسلامية على كل علم متطور . ان التطور العلمي الذي هو ليس ملكا لاحد ، هذا التطور انما هو وليد الحضارة الاسلامية .

ولو لم تكن هناك حضارة اسلامية لما كانت الحضارة الانسانية لتصل الى كل هذا التطور ، وهذه الحقيقة ربما يتحسسها ويؤمن بها اكثر منا ، اولئك الباحثون في شؤون الحضارات والتاريخ كتوينبي الباحث الانجليزي الذي

يؤكد كثيراً على هذه الحقيقة ، لانه بحث تاريخ الحضارات لمدة خمسين سنة ، وتحسس بعمق وآمن بقوة بهذه الحقيقة .

ومما لا شك فيه ومن خلال دراستنا لتاريخ الحركة الرسالية نجد ان الحضارة الاسلامية بدورها كانت وليدة هذه الحركة وظلت رهينة لها .

من خلال تلك الدراسة نعرف ان الامام الحسين حينما قتل في كربلاء كان يسقي بدمه ملايين الملايين من البشر ليحييهم . لقد كانت شهادته من اجل القيم التي نكررها :

(١) قيمة الوحدة والعدالة والاخوة ، والتي تعارضها العنصرية .

(٢) قيمة الاهتمام بالكفاءات ، وتعارضها المحسوبية والقيادات غير الكفوءةالتي كانت تحكم الامة الاسلامية .

(٣) قيمة الحرية الفكرية ، والتي يعارضها الارهاب الفكري .

(٤) قيمة المساواة بين جميع الطبقات وجميع الالوان ، والتي دافعت عنها الحركة الرسالية وعمل الائمة الاطهار في سبيلها .

ولو قدر للحركة الرسالية ان تستلم الحكم في عهد ائمة اهل البيت (عليهم السلام) لكانت عملت من التغيير والعطاء اكثر مما يتصوره الانسان .

ويبقى سؤال هو :

ان الذين ورثوا الكتاب وورثوا تاريخ الرسالة ، وورثوا الحركة الرسالية والذين يعتقدون انهم في خطها ، هل استطاعوا ان يؤدوا ما عليهم من واجبات الوراثة ؟ وهل هم الآن رائدوا الحضارة الاسلامية والانسانية ؟

وهل هم الآن يدافعون عن الحرية والمساواة والعدالة ام لا ؟

نسأل الله العلي القدير ان يوفقني والقراء الكرام لهذا العمل العظيم ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ، وعلى من اتبعهم باحسان الى يوم الدين .

الفهـــرس

الباب الثالث : مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي